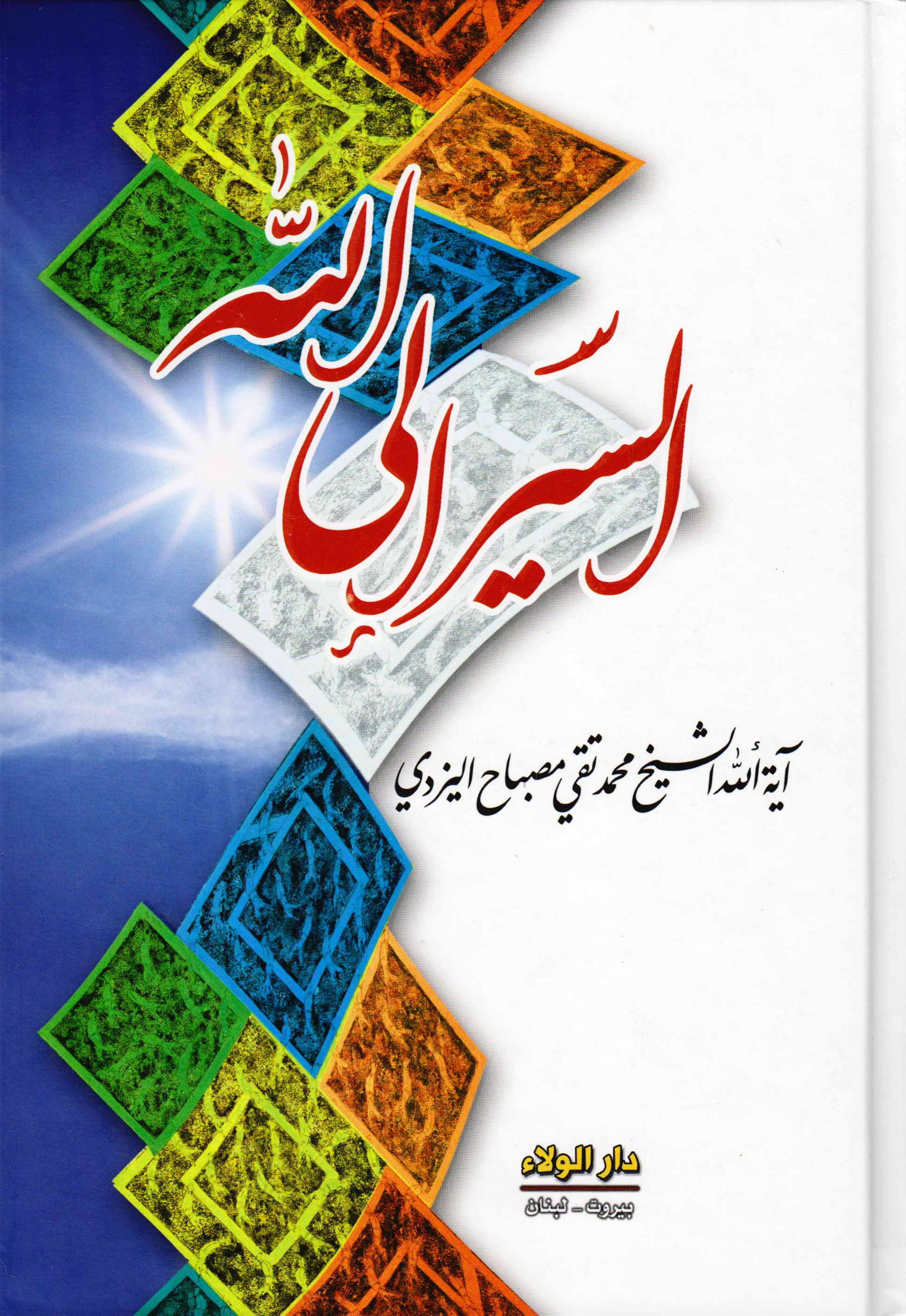


السير إلى الله

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

دار الولاء
بيروت - لبنان



السير إلى الله



لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 545133 1 00961 - 689496 3 00961 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

ISBN 978-9953-546-37-7

الكتاب:	السير إلى الله
المؤلف:	آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي
ترجمة:	ماجد الخاقاني
أشرف على الترجمة:	الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني
الناشر:	دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة:	الثانية - بيروت ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

السير إلى اللّه

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

ترجمة
ماجد الخاقاني

أشرف على الترجمة
الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني

دار الولاء

بيروت ـ لبنان

الفهرس

المقدمة ٥

الدرس الاول: مفهوم التزكية وموقعها / ١٧

التزكية والتعليم هدفان اساسيان للانبياء ١٧
العلماء هم الذين يتولون أمر التزكية والتعليم بعد الانبياء ١٨
ضرورة الاهتمام اكثر بالتزكية في الحوزة ٢٠
مفهوم التزكية ٢٣
خصائص التزكية فيما يخص الانسان ٢٤
١ـ الارادة والاختيار ٢٤
٢ـ تزكية الانسان نفسَه ٢٧

الدرس الثاني: النفس وتزكيتها / ٢٩

لمحة عن البحث السابق ٢٩
النفس وانواعها (الأمّارة، اللوّامة، المطمئنة) ٣٠
النفس الطبيعية (الحيوانية) والنفس القدسية (الالهية) ٣٣
بحث استطرادي ٣٥
المراد من تزكية النفس ٣٧
العامل والمانع في تكامل النفس ٣٨

الدرس الثالث: تكامل النفس وانحدارها / ٤١

تكامل النفس وانحرافها ٤١

حقيقة تكامل النفس ٤٢
النفس والقرب الىٰ الله ٤٤
القرآن وإثارة الحوافز لتزكية النفس ٤٦
فلسفة خلق جهنم ٤٧

الدرس الرابع: الكمال النهائي للانسان «القرب من الله» / ٥١

نزعة الكمال الفطرية لدى الانسان ٥١
«القرب الى الله» الكمال النهائي للانسان ٥٣
حقيقة القرب الى الله ٥٤
القرب أم آثار القرب؟! ٥٨

الدرس الخامس: «العبودية» السرُّ في كمال الانسان / ٦١

التعلق الكامل غاية التكامل ٦١
العبودية، طريق الوصول الى مقام التعلق ٦٢
ما هي حاجة الله لعبادة الانسان؟! ٦٣
سبيل الوصول الى مرتبة العبودية ٦٥
العبودية أمر ذو مراتب ٦٦
مراتب العبودية ٦٧

الدرس السادس: عبودية الذات، سبب السقوط / ٧١

لمحة عن الابحاث السابقة ٧١
نهاية انحدار الانسان ٧٢
مراتب رقي الانسان وسقوطه ٧٤
الشرك والكفر الخفي ٧٥
«عبادة الذات» مصدر سقوط الانسان ٧٨

علاقة الايمان باليقين ٧٩
كيفية الضلال الى جانب العلم ٨٠

الدرس السابع: بحث في هوية الانسان / ٨٣

الغفلة، السبب في سلب الهوية الانسانية ٨٣
الغفلة عن النفس ٨٥
تناسي الانسانية، عاقبة الغفلة عن الله ٨٦
دور التوجه للمبدأ والمعاد في صياغة هوية الانسان ٨٧

الدرس الثامن: اليقظة من الغفلة / ٩٣

لمحة عن الدرس السابق ٩٣
الخطوة الاولى للافاقة من الغفلة: معرفة صورة المسألة ٩٥
طرق تصور صورة المسألة ٩٦
الخطوات اللاحقة ٩٩
تحذير! ١٠١

الدرس التاسع: عوامل الغفلة / ١٠٥

تحليل عقلي حول الغفلة ١٠٥
اسباب الغفلة في نظر «النقل» ١٠٧
مظاهر الدنيا، اسباب غفلة أم وسيلة تكامل؟ ١٠٩
دور «اصل التداوم» في مسار التزكية ١١١

الدرس العاشر: ذكر الله يصوغ هوية الانسان / ١١٣

علاقة الآية ١٠٥ من سورة المائدة مع موضوع «الغفلة» و«التوجه» ١١٣
التلازم بين «معرفة الله» و«معرفة النفس» ١١٥

دور «ذكر الله» في تكامل النفس ١١٦
الذكر الكثير والذكر الشديد ١١٩
خاطرة عن الشهيد المطهري بشأن ذكر الله ١٢٢

الدرس الحادي عشر: الذكر اللفظي والذكر القلبي / ١٢٥

لمحة عن الدروس السابقة ١٢٥
الذكر القلبي أم الذكر اللساني؟ ١٢٦
بعض فوائد الذكر اللساني ١٢٩
ملاحظات حول الذكر القلبي ١٣٠
انواع ومراتب الذكر القلبي ١٣٢
نحو اللانهاية! ١٣٥

الدرس الثاني عشر: طريق الى ذكر الله / ١٣٧

كل شيء مدعاة لذكر الله ١٣٧
السرّ في تأكيد القرآن على التدبّر في آيات الله ١٣٩
الزمان والمكان يذكّران بالله ١٤١
امثلة من شعائر الله ١٤٢
الإعراض عن شعائر الله دليل على مسخ الهوية الانسانية ١٤٣
نماذج من «الاشمئزاز» في عصرنا ١٤٣

الدرس الثالث عشر: حائل مهمّ دون الذكر / ١٤٧

لمحة عن الابحاث السابقة ١٤٧
عباد منسيّون! ١٤٨
معرفة اسباب الغفلة، خطوة نحو الذكر ١٥٠
سببٌ للذكر وحائلٌ دونه ١٥١

استهزاء متحضر! ١٥٣
معنى الآية «فَبَشِّرْ عِبَادِ» ١٥٥
خدمة الشباب أم خيانتهم؟! ١٥٦

الدرس الرابع عشر: اهمية التفكّر في السلوك المعنوي / ١٥٩
العلم مقدمة التوجه ١٥٩
التفكر مقدمة المعرفة ١٦٠
التفكر في صفات الله وافعاله ١٦١
التفكر في نِعم الله ١٦٢
التفكر في النفس ١٦٤
التفكر في هدفية الخلق ١٦٥
التفكر وجه التمايز بين الانسان والحيوان ١٦٧

الدرس الخامس عشر: مقارنة بين الدنيا والآخرة / ١٦٩
المواظبة على التفكر ١٦٩
التفكر في المقارنة بين الدنيا والآخرة ١٧١
الدنيا نزهة الاطفال! ١٧٥
تأكيد القرآن على تفاهة الدنيا ١٧٧
فهمٌ خاطئ عن تفاهة الدنيا ١٧٧

الدرس السادس عشر: الدنيا في منظار الاسلام / ١٨١
لمحة عن المواضيع السابقة ١٨١
رفض الرهبانية في منظار الاسلام ١٨٣
ذم الدنيا الشديد في كلام امير المؤمنين عليه السلام ١٨٤
مفهوم الدنيا المذمومة في كلام امير المؤمنين عليه السلام ١٨٥

النظرة الآلية والنظرة الاستقلالية للدنيا ١٨٦
هل التعاليم الدينية تعرقل التنمية والتطور الاقتصادي؟ ١٨٨
ملاحظة اخرى حول شبهة تعارض الدين مع التطور ١٩٢

الدرس السابع عشر: دور الايمان والعمل الصالح في تكامل الانسان / ١٩٧

لمحة عن المواضيع السابقة ١٩٧
انواع سلوكيات الانسان وعلاقتها بالتزكية ٢٠٠
الايمان والعمل الصالح ركنان اساسيان في التقرب الى الله ٢٠١
علاقة الايمان بالعلم ٢٠٢
العنصر الاختياري في الايمان ٢٠٤

الدرس الثامن عشر: متعلّق الايمان ومراتبه / ٢٠٧

لمحة عن الدروس السابقة ٢٠٧
متعلّق الايمان في القراءة الماركسية والجديدة ٢٠٩
متعلّق الايمان في آيات القرآن ٢١١
الفرق بين الايمان والعلم ٢١٣
مراتب الايمان ٢١٥
المعيار في تقييم مرتبة الايمان ٢١٦
نماذج عينية من المراتب العليا للايمان ٢١٨

الدرس التاسع عشر: طرق تعزيز الايمان «١» / ٢٢١

الايمان الظاهري والكفر الباطني ٢٢١
مشكلة الاكتفاء بالمراتب الدنيا من الايمان ٢٢٣
تعزيز العلم طريق لتعزيز الايمان ٢٢٥
العنصر الارادي في الايمان والسبيل الى تعزيزه ٢٢٩

الدرس العشرون: طرق تعزيز الايمان «٢» / ٢٣٣

لمحة عن الدروس السابقة ٢٣٣
مثال من الكفر رغم اليقين بالحق ٢٣٤
القرآن ونماذج من عناصر تعزيز الايمان ٢٣٦
المورد الاول ٢٣٦
المورد الثاني ٢٣٩
المورد الثالث ٢٤١
وجه الاشتراك بين دواعي تعزيز الايمان ٢٤٣

الدرس الحادي والعشرون: تحليل العلاقة بين الايمان والعمل / ٢٤٧

لمحة عن المواضيع السابقة ٢٤٧
الايمان وتعزيزه رهنٌ بعاملين ٢٤٨
بيان العلاقة بين الايمان والعمل الصالح ٢٥١
الذنب عدوُّ الايمان ٢٥٦

الدرس الثاني والعشرون: الذنب سبب سقوط الانسان / ٢٥٩

عقم العمل مع الكفر ٢٥٩
أخسرُ الناس ٢٦١
لماذا هم الأخسرون؟ ٢٦٢
الكفر عاقبة الذنب ٢٦٤
السبل الكفيلة بعدم الوقوع في فخ المعصية ٢٦٧
١ـ الابتعاد عن الاجواء والظروف المثيرة نحو الذنب ٢٦٩
٢ـ تجنب التخمة ٢٧٠
٣ـ الابتعاد عن اصدقاء السوء ٢٧٠

الدرس الثالث والعشرون: الصلاة سرّ التكامل / ٢٧٣

السرّ المكتوم ٢٧٣
اهمية الصلاة في القرآن ٢٧٤
الصلاة في مرآة الروايات ٢٧٥
السرّ في كون الصلاة خير العمل ٢٧٧
صلاة بلا روح! ٢٨٠

الدرس الرابع والعشرون: دور النيّة في رقيّ الانسان وسقوطه / ٢٨٥

الصلاة في ثلاث رؤى ٢٨٥
اهمية النية في الصلاة وسائر العبادات ٢٨٦
الرياء يُفسد الصلاة ٢٨٨
النية سيف ذو حدَّين ٢٩٠

الدرس الخامس والعشرون: الرياء / ٢٩٣

النية شرطٌ في صحة العبادة ٢٩٣
الرياء وعلائمه ٢٩٤
الرياء الخفي ٢٩٧
الرياء في الهداية والتبليغ ٢٩٨
قصة عن الرياء والاخلاص ٣٠٠

الدرس السادس والعشرون: النية ومراتبها / ٣٠٣

معنى الاتيان بالعمل لوجه الله ٣٠٣
انواع النوايا ٣٠٤
النية الصحيحة والمقبولة ٣٠٧
المراتب العليا للنيّة ٣١٠

المسار التدريجي في تكامل النيّة وسموّها ٣١٢
امثلة عن المراتب العليا للنية والعبادة ٣١٣

الدرس السابع والعشرون: البحث عن روح الصلاة «١» / ٣١٧

الصلاة الحقيقية ٣١٧
الخطوة الاولى للتنعم بروح الصلاة وحقيقتها ٣١٩
الخطوة الثانية ٣٢٠
الخطوة الثالثة ٣٢١
قصة عن المرحوم آية الله الخوانساري ٣٢٢
صلاة القلب ٣٢٣
اسطورة أم حقيقة؟ ٣٢٤

الدرس الثامن والعشرون: البحث عن روح الصلاة «٢» / ٣٢٧

لمحة عن المواضيع السابقة ٣٢٧
الفارق بين صلاة التوجه وصلاة الغفلة ٣٢٨
آخر صلاة ٣٣٠
الصلاة لقاء مع اعظم العظماء ٣٣١
قصة «إنَّ» و«كأنَّ» ٣٣٣

الدرس التاسع والعشرون: صلاة الخاشعين / ٣٣٧

الخشوع طريق الى حقيقة الصلاة ٣٣٧
مفهوم الخشوع ٣٣٨
الخشوع رفضُ الانانية ٣٣٩
الخشوع الظاهري والخشوع الحقيقي ٣٤١
تأمل اكثر في مفهوم الخشوع ٣٤٣
الخشوع واسبابه ٣٤٧

الدرس الثلاثون: طريق لتحصيل الخشوع في الصلاة «١» / ٣٤٩

الخشوع، الخوف، الخشية ٣٤٩
التوجه الى عظمة الله سببٌ في الخشوع ٣٥٣
معنى العظمة الالهية ٣٥٤
وصف النبيﷺ عظمة الله لزينب العطّارة ٣٥٥
كبيرٌ بمستوى الصفر! ٣٥٩

الدرس الحادي والثلاثون: طريق لتحصيل الخشوع في الصلاة «٢» / ٣٦١

الخوف من الله سبب آخر للخشوع ٣٦١
لماذا الخوف من الله؟! ٣٦٢
الفارق بين خوفنا وبين خوف اولياء الله من الله........ ٣٦٣
خوف الحرمان من نظرة الله ٣٦٥
الخوف من عواقب الذنب ٣٦٨

الدرس الثاني والثلاثون: طريق لتحصيل الخشوع في الصلاة «٣» / ٣٧٣

لمحة عن الدرس السابق........ ٣٧٣
العامل الرابع في الخشوع ٣٧٤
علاقة الحب بالخشوع........ ٣٧٥
طريق لخلق محبة الله في القلب........ ٣٧٧
الغرق في النعمة وهذه الغفلة! ٣٧٧
عظمة النعم المعنوية قياساً للنعم المادية........ ٣٨٢

المقدمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبٰادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي.[١]

لعل قصة الانسان هي الاعجب والاغرب من بين ركام قصص المخلوقات. فالانسان من ناحيةٍ مخلوقٌ اودع الله سبحانه وتعالىٰ فيه القابلية بحيث يرتدي جلباب «الخلافة الالهية» ويغدو مسجوداً له ومخدوماً من قبل الملائكة،[٢] ويكفي الانسان شرفاً أن خالق الكون خلقه باجمل صورة و«احسن تقويم»،[٣] ولخلقه إياه امتدح نفسه في الآية الكريمة «فَتَبٰارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ»،[٤] ووضع علىٰ رأسه تاج الكرامة بقوله «وَلَقَدْ كَرَّمْنٰا بَنِي آدَمَ».[٥]

ان الانسان وعلىٰ امتداد قوس الرقيّ والتكامل، بامكانه الارتقاء الىٰ مرتبة «مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ»،[٦] الموقع الذي يُعد من اعلىٰ مراتب الكمال والقرب من مقام الواحد الأحد، فيخاطبه جل وعلا «يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» داعياً إياه الىٰ حيث ضيافته وموهبته الخاصة «فَادْخُلِي فِي عِبٰادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي».

ومن ناحية اخرىٰ، ان هذا الانسان المقلّد وسامَ «أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» من قبل بارئ

---

١. الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.
٢. البقرة: ٣٠ـ٣٤.
٣. التين: ٤.
٤. المؤمنون: ١٤.
٥. الاسراء: ٧٠.
٦. القمر: ٥٥.

الخلق، ربما ينحدر الىٰ ادنىٰ مراتب الوجود والىٰ الحضيض «أَسْفَلَ سَافِلِينَ»،[1] وهنا يهبط بمستواه ويغدو عديم الشأن الىٰ الحد الذي يصير علىٰ قدم المساواة مع الانعام بل ادنىٰ منها فيوصم علىٰ جبينه بوصمة «أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»،[2] ويشقىٰ بحيث لا يتسنىٰ تصور مرتبة له ترقىٰ علىٰ «شَرّ الدَّوَابِّ».[3]

فما هو السرّ في هذا الرقي وهذا الانحدار يا ترىٰ؟ وما الذي يحصل كي يرتقي الانسان ويرتفع الىٰ ذلك المستوى، وما الذي يتسبب في ان يسقط هكذا؟ وكيف يقتضي مخلوق واحد بان يكون له منحيان متضادان؟ وما الذي يدفع بغرس وجود الانسان الىٰ التفتح والنمو، وكيف يحترق هذا الغرس ويفنىٰ ويتحول الىٰ رماد؟

هذا الكتاب محاولة للاجابة علىٰ هذه الاسئلة وغيرها من الاسئلة التي تناظرها والتي شغلت الكثير من العقول. بين ايديكم دروس اخلاقية للاستاذ العالم الفقيه والفيلسوف الجليل سماحة آية الله الشيخ محمدتقي مصباح اليزدي، وقد أُلقيت هذه الدروس علىٰ الطلبة وسائر الراغبين في قم خلال العامين الدراسيين ٢٠٠٠ و٢٠٠١ م. ونحن نحمد الله الذي منَّ علينا بالتوفيق مرة اخرىٰ لأن نقدم لسالكي طريق الحقيقة والتواقين لزلال الهداية كتاباً من سلسلة مصنفات الاستاذ المصباح «دام ظله»، ونرىٰ لزاماً هنا ان نتقدم بالشكر والتقدير لسماحة حجة الاسلام محمدمهدي نادري الذي بجهوده وهمته أُعدَّ هذا الكتاب للطباعة، آملين ان نكون قد ساهمنا بنشرنا لهذا الكتاب ــ ولو بشكل بسيط ــ في نشر الثقافة الاسلامية لاسيما ثقافة اهل البيت عليهم السلام.

---

١. التين: ٥.
٢. الاعراف: ١٧٩.
٣. الانفال: ٢٢ و٥٥.

الدرس الاول

مفهوم التزكية وموقعها

التزكية والتعليم هدفان اساسيان للانبياء

ذُكر في القرآن الكريم ان الهدف من بعثة الانبياء لاسيما نبي الاسلامﷺ هو التعليم والتزكية، وقد وردت التزكية قبل التعليم في بعض آيات القرآن[1] فيما سبق التعليمُ التزكية في بعضها الآخر،[2] ولهذا التقديم والتأخير في مختلف الموارد بعدٌ تفسيري ينبغي ان يُبحث في محله.

وفيما يخص التعليم ينبغي الالتفات الىٰ ان هدف الانبياء واوصيائهم وواجبهم الاساس في هذا المجال هو تعليم الموضوعات ذات الدور الجوهري في سعادة الانسان والتي يعجز الانسان عن نوالها بمفرده أو إنه يتغافل عنها بالرغم من اهميتها الفائقة، وبتعبير آخر ان واجب الانبياء هو تعليم المعارف الدينية.

وبالرغم من ان سائر العلوم والفنون ربما تحظىٰ بكثير الاهمية في حياة البشر لكنها أولاً: من الامور التي يسهل بلوغها من خلال عقل الانسان وتجربته، وثانياً: ليس لها دور كبير في تحقيق السعادة الحقيقية للانسان وهو لا يتضرر كثيراً في حال عدم معرفتها، فالجهل بالعلوم ذات العلاقة المحضة بالحياة الدنيا لا يعرض السعادة الابدية للانسان الىٰ الخطر، لكن الجهل بالمعارف الدينية الاصيلة والجوهرية من شأنه حرمان الانسان من السعادة الابدية.

---

١. من قبيل الآية «وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» آل عمران: ١٦٤.
٢. من قبيل الآية «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ» البقرة: ١٢٩.

وكما تقدمت الاشارة واستناداً الىٰ آيات القرآن، يمكن ايجـاز الهـدف مـن بـعثة الانبياء في بعدين اساسيين هما:

١ـ تعليم معارف الدين.

٢ـ تربية الانسان وتزكيته.

و هذان الواجبان يقعان في المرتبة الاولىٰ علىٰ عاتق الانبياء ومن بـعدهم عـلىٰ عاتق اوصيائهم ومن بينهم الائمة الاطهار عليهم السلام الذين نهضوا بهذه المهمة بـاعتبارهم اوصياء النبي الاكرم صلى الله عليه وآله، ويتحمل هذه المسؤولية بعد الائمة عليهم السلام العلماء ومن تربوا في مدرسة اهل البيت عليهم السلام.

و هنا ينبغي الالتفات الىٰ ان التربية كالتعليم لها دائرة واسعة تشمل اموراً كثيرة من تربية الجسد وذاك ما يعبر عنه بالتربية البدنية، ورغم ان موارد التربية ربما تكون منشودة باجمعها ولكن من الواضح ان واجب الانبياء وغايتهم ليس العمل في كافة مجالات التربية، وكذا الحال في التعليم. فواجب الانبياء الجوهري تربية الانسان من اجل الارتقاء والتكامل المعنوي والروحي وبلوغ الهدف النهائي المـنشود من خـلق الانسان وهو القرب من الله سبحانه وتعالىٰ.

العلماء هم الذين يتولون أمر التزكية والتعليم بعد الانبياء

ان الحاجة للتعليم والتربية ـ هذين الهدفين الاساسيين من بعثة الانـبياء ـ ليست لم ترتفع اليوم فحسب، بل ازدادت بتطور الحياة والحضارة البشرية وتفاقم تعقيداتها، فمن كان يريد ـ فيما سبق ـ تعلُّم ما هو ضروري بالنسبة له في مجال العلوم الديـنية ويحصنه من الانحـراف الفكري والعقائدي، كان يكفيه التوجه عدة أيام الىٰ مكـتبٍ ليتعلم القرآن واصول الدين وفروعه بمستوىً بسيط، أما اليوم فقد اتسعت حاجتنا لتعلّم الامور الدينية الىٰ مدىً بحيث لو افنينا العمر باكمله لتعلّمها فلن نغدوَ قادرين علىٰ تعلّم جميع ما هو ضروري لتحقيق السعادة.

فاليوم وكما توسعت العلوم المادية وجرىٰ تصنيفها الىٰ فروع تخصصية متعددة، فان العلوم والمعارف الدينية قد تطورت وتوسعت بما يلفت النظر ايضاً وصُنّفت الىٰ فروع شتىٰ. فقبل قرون مضت كانت هنالك امكانية بان يحيط المرء بكافة العلوم البشرية من خلال دراسة لعدة سنوات، فبعض العظماء والفلاسفة من قبيل الفارابي وابن سينا الذين كان يطلق عليهما اسم «المعلّم» من بين هؤلاء تعلّموا جميع العلوم المهمة في عصرهم خلال فترة وجيزة، أما الآن فلابد من تجرع المشقة عشرات السنين لتعلّم فرع واحد من العلوم وفي خاتمة المطاف لا تتيسر الاحاطة بكافة جوانب ومشتقات ذلك الفرع، وهذا ما يصدق بشأن العلوم الدينية ايضاً، فلقد تنوعت فروع العلوم الاسلامية اليوم واتسعت بحيث يتعين بذل الجهود لسنوات متمادية من اجل التخصص في فرع من فروع العلوم الاسلامية والحوزوية، اذ تستلزم عشرات السنين كحد متعارف كي ينال المرء درجة الاجتهاد في الفقه والاصول بما يتيسر ابداء وجهة نظره في جميع ابواب الفقه.

ما قلناه يمكن فهمه وتصديقه في مجال التعليم، ولكن هل القضية هكذا في مجال التزكية والتربية ايضاً؟ من الممكن القول بعبارة واحدة وموجزة: من خلال الوضع الذي نشهده حالياً في المجتمع البشري فان الانحطاط الاخلاقي والمعنوي من البروز والظهور ما جعل الكثير من العلماء في شرق الارض وغربها يعتقدون بان الانسان يعاني اليوم ازمة في المعنويات، من هنا يمكن القول ان حاجة الانسان للتزكية والتربية في هذا العصر اكثر بكثير من حاجته للتعليم.

لقد بعث الله الانبياء لغرض تعليم الانسان وتزكيته «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»،[1] فأدىٰ الانبياء واوصياؤهم هذه الرسالة متجرعين الشدائد والمحن ثم مضوا، وكان آخرهم نبي الاسلام صلى الله عليه وآله والائمة الاطهار عليهم السلام.

---

١. الجمعة: ٢.

واليوم حيث يُحرم الناس من حضور الانبياء واوصيائهم، وكما تقدمت الاشارة من ان الحاجة الىٰ التعليم والتزكية لما تزل قائمة بل ازدادت كثيراً، من الذي ينهض بهذا العبء الثقيل؟ هل فكّر الله سبحانه وتعالىٰ والنبيﷺ بعلاج لهذه القضية؟ يتضح من خلال التمعن بالروايات ان هذا الواجب أُلقي علىٰ عاتق علماء الدين. فقد ورد في رواية ان النبيﷺ قال: رحمَ الله خلفائي، فقيل: يا رسول الله ومَنْ خلفاؤك؟ قال: الذين يحيون سنّتي ويعلّمونها عباد الله.(١)

و بالرغم من عدم الاشارة بصراحة الىٰ التزكية في هذه الرواية وذكرت فيها التعليم فقط، ولكن بما ان التزكية يجب ان تقوم علىٰ اساس تعاليم الدين والوحي، فمن الطبيعيّ ان يتولىٰ علماء الدين هذا الأمر، فضلاً عن ان «سنّة النبي» لم تقتصر علىٰ التعليم، وانما تلازم التعليم والتزكية ـ طبقاً لصريح الآية ـ معاً في سنة النبيﷺ، بناءً علىٰ هذا فان احياء سنّة النبيﷺ حيث قال: «يحيون سنتي» هو النهوض بأمر التعليم والتزكية معاً، اضف الىٰ ذلك ان مؤسسة أو فئة اخرىٰ غير العلماء والحوزات لم تتصدَ لمهمة التزكية بشكل عملي علىٰ امتداد التاريخ الاسلامي.

علىٰ أية حال؛ مثلما تنعدم الحدود بين التعليم والتزكية فيما يخص ذات النبيﷺ، فمن الطبيعي ان يكون الأمر كذلك فيما يخص خلفائه، وان الترابط وثيق فيما بينهما بحيث يتعذر التفكيك بينهما، وان التعليم انما يأتي من اجل نيل التزكية والكمالات الروحية والمعنوية.

ضرورة الاهتمام اكثر بالتزكية في الحوزة

بناءً علىٰ هذا، يجب ان يقترن التعليم بالتزكية علىٰ الدوام في عمل العلماء والحوزات العلمية وان يُعطىٰ الاثنان ما هو ضروري وبه الكفاية من الاهمية، لكننا نشاهد علىٰ

١. *بحار الأنوار*: ج ٢، الباب ٨، الرواية ٨٣.

الصعيد العملي احياناً بروز بعض فروع العلوم الاسلامية وايلاءها عناية خاصة بنحو تتهمش سائر الفروع ويُغفل عنها نوعاً ما، ومن الامور التي تدب اليها آفة الغفلة والنسيان هي الامور المتعلقة بالتزكية والمسائل الاخلاقية والمعنوية.

و بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران جرت تحركات بنّاءة والحمد لله داخل الحوزة اذ حظيت العديد من الفروع العلمية بالاهتمام وإن لم يحصل بعدُ ما فيه الكفاية وما هو مفترض ومؤمَّل من التطور والتوسع في الكثير من العلوم الاسلامية. وعلىٰ أية حال، فان ما يبعث علىٰ مزيد الأسف هو الافتقار للتزكية وبرامج التربية الاخلاقية والمعنوية في الحوزة، وان الغفلة عن هذا الأمر من التفاقم بحيث انها متواصلة ولم يُبذل الىٰ الآن ايُّ جهد مقنَّن ومنظم في هذا المجال داخل الحوزة.

لعل من العوامل التي تسببت في ذلك وأدت الىٰ هجران الاخلاق والدروس المتعلقة بالتزكية والتربية المعنوية في الحوزة هو إباء الاعلام والعلماء وفرط تواضعهم في هذا المجال، وتوجسهم لئلا يبتلون بالتفاخر وحب السمعة والشهرة، من هنا فانهم يحترزون عن اداء هذا الواجب المهم. وبتعبير آخر ثمة تصور بان الذي ينبري لتربية الآخرين اخلاقياً يرىٰ نفسه مزكّىً وغنياً عن التربية وعلىٰ هذا الاساس فهو يرىٰ في نفسه الاهلية لتعليم الآخرين الاخلاق وتربيتهم، والذين يسعون لتهذيب انفسهم يتهربون من هذه التفاخرات ويحاولون قدر الامكان النأي بانفسهم عن الشهرة ومديح الآخرين و ثنائهم، وكثيراً ما شوهد أو سُمع انهم اذا ما طُلب منهم درس في الاخلاق أو توجيه او نصيحة فانهم يقولون بكل تواضع: نحن ملوثون، ونحتاج اكثر منكم للنصيحة والتزكية والتربية.

و بطبيعة الحال ان مثل هذا السلوك دليل علىٰ نزاهة العلماء وليس قليلاً امثال هذه الشخصيات في الحوزة والحمد لله، و لكن يبدو ان هنالك قضية بعيدة عن الانظار هنا وهي: لو حاول الجميع القفز علىٰ مسؤوليتهم فيما يخص تزكية المجتمع ستبقىٰ هذه

المسؤولية الاجتماعية المـهمة معطلة. أوَليست مهمة مواصلة أحد الواجـبين المـهمين للانبياء المتمثل بتزكية الناس و المجتمع، ملقاة علىٰ كاهل العلماء؟ مَن الذي يتعين عليه النهوض بهذا الواجب؟ واذا ما امتنع مَنْ هم اكثر تهذيباً من غيرهم عن اداء هـذا الواجب، اذ ذاك سيلج هذا الميدان مَنْ لا اهلية لهم ممن اذا لم يتسببوا بضرر فلا يؤمَّل منهم حصيلة ايجابية.

علىٰ أية حال، التزكية كالتعليم أمرٌ واجب، فمثلما لا يمكن ـ في التعليم ـ تـعطيل التدريس والتحقيق تجنباً للمباهاة، فلا يجوز ايضاً ترك مسؤولية تزكية الآخرين تجنباً للآفات الاخلاقية.

لقد كان من العظماء من لا يظهرون علمهم في ظروف خاصة الىٰ الحد الذي لم يكن حتىٰ المعاشرين لهم علىٰ معرفة بفضلهم ومراتبهم العلمية بعد سنوات من معاشرتهم لهم، ولعل هذا التصرف منهم كان بسبب عدم وجود ضرورة في ذلك المجتمع وذلك العصر لإبراز الفضل والعلم، فقد روي ان المرحوم التنكابني سكن مدينة ساوة فترة من الزمن لسبب ما، وبالرغم من انه كان من اكابر المجتهدين لكنه لم يكن يُظهر علمه طوال هذه المدة. وبعد فترة قدم أحد اصدقائه الىٰ ساوة واخذ يبحث عن دار آية الله التنكابني متحدثاً عن فضله وكماله، واذا بالذين يسمعون بتلك المواصفات يندهشون كثيراً ويعبرون عن عدم معرفتهم بفضل وكمالات المرحوم التنكابني!

وعلىٰ أية حال، ربما يُعدّ تجنب الشهرة كمالاً في بعض الحالات، لكن مـثل هـذا الفعل ليس مقبولاً علىٰ الدوام البتة، فاذا ما امتنع العلماء جميعاً عن التدريس واظهار العلم تجنباً للشهرة والرياء و... الخ، فمن يتصدىٰ إذن لأمر التدريس والتعليم؟! و علىٰ هذا المنوال تأتي التزكية ايضاً، فاذا ما امتنع الورعون جـميعاً عـن ابـداء النـصيحة للآخرين وارشادهم وتدريس الاخلاق احترازاً عن البروز والمباهاة سيبقىٰ التكليف المهم معطلاً، ومما يؤسف له انه ما يزال معطلاً لحد الآن وان الخطوات التي اتخـذت

وتؤخذ الآن ليست كافية أبداً، ويجب ان ينبري أناسٌ لهذه المهمة من باب الواجب الكفائي الىٰ ان يتولد الشعور ببلوغ ما فيه الكفاية.

وانني لا ارىٰ في نفسي الاهلية للقيام بهذه المهمة وانا اكثر حاجة من الآخرين للتربية، لكنني اتساءل مع نفسي: اذا لم أبادر لاداء هذا التكليف أفلا اتعرض للحساب يوم القيامة؟ وهل بمقدوري التخلي كلياً عن هذا الواجب بذريعة انني لا أريد الابتلاء بآفة اخلاقية؟ وكما اسلفت فان القضية هي بلوغ مستوىٰ الاكتفاء، وبالرغم من دروس الاخلاق التي يلقيها الأعلام في الحوزة ولكن يبدو ان حاجة الحوزة بعظمتها لا تُسدّ بهذه الجلسات المعدودة، من هنا فانني وامثالي ندخل هذا الميدان مضطرين واداءً للتكليف بالرغم مما نعرفه في انفسنا من ضعف ونقص، ونبادر لاداء هذا الواجب بكل وسعنا وطاقتنا.

مفهوم التزكية

بما ان الغاية تزكية النفس فمن المناسب في البداية ان نعرف التزكية، فهي مفردة عربية، وقد استخدمها القرآن في مقابل «التدسية» حيث يقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهٰا * وَقَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا».[1]

الموضع الحقيقي لاستخدام هذه الكلمة هو في تربية الشجرة، فعندما يعتني البستاني بالشجرة فيقوم بتقليمها وتوفير الماء والتراب والضوء الملائم لها كي تنمو وتثمر، ثمة بُعد ايجابي وبُعد سلبي في عمل البستاني هذا، فمن اجل نمو الشجرة من الضروري سقيها وتسميدها وتوفير الضوء والحرارة لها بما فيه الكفاية من ناحية، ومن الضروري ايضاً قص الاغصان الزائدة وتقليمها من ناحية اخرىٰ، وبالاضافة الىٰ الاعمال الايجابية والسلبية فان لازالة الزوائد وتنظيف التلوثات تأثيراً في اطّراد طراوة الشجرة ونموها علىٰ احسن وجه.

---

١. الشمس: ٩ـ١٠.

وللتزكية فيما يخص الانسان يلاحظ هذان البعدان ايضاً، فمن الواجب احداث امور في النفس وكذلك يتعين ان نزيل عنها ونطهرها من اشياء اخرىٰ ايضاً، وهذا هو وجه التشابه بين تزكية الشجرة وتزكية الانسان، ولكن ثمة فوارقُ بينهما ايضاً.

خصائص التزكية فيما يخص الانسان

١ـ الارادة والاختيار: من الفوارق الجوهرية بين تزكية الشجرة وتزكية الانسان هي الارادة والاختيار، فالشجرة التي يشرف البستاني علىٰ تربيتها لا تمتلك ارادتها، فالبستاني هو الذي يحتضنها طبقاً لارادته ورغبته، فهو يسقيها ويمدها بالسماد ويقلّم اغصانها واوراقها الزائدة، وطوال هذه المراحل لا تبدي الشجرة نشاطاً ولا تمتلك خياراً في رفض أو تقبُّل حضانة البستاني وتربيته وهي مستسلمة تماماً للظروف والبيئة التي اعدَّها لها البستاني أو الآخرون.

غير ان تزكية الانسان ليست كذلك، بل هي تحصل بارادة واختيار منه، فليس هنالك من له القدرة علىٰ سوق الانسان بالقسر والاجبار نحو التكامل والمحاسن وادخاله الجنة دون ارادة منه، ففيما يخص الهداية يخاطب القرآن الكريم النبي الاكرمﷺ قائلاً: «إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ».[١]

نعم، فالنبيﷺ علىٰ عظمته وولايته المعنوية علىٰ الناس لا قدرة له علىٰ هداية من يريد، فالهداية فعلُ الله وهو الذي يهدي من يشاء، وكذلك يصرح القرآن الكريم بشأن التزكية حيث يقول: «بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ».[٢] فاستناداً الىٰ هذه الآية ان التزكية كالهداية من فعل الله ايضاً.

وهنا ربما تتبادر هذه الشبهة وهي: اذا كانت الهداية والتزكية بيد الله فعلينا الانتظار لنرَ متىٰ يشاء الله هدايتنا لأنه هو الذي يجب ان يقوم بهذا العمل!

١. القصص: ٥٦.
٢. النساء: ٤٩.

نقول في الاجابة: من المسائل المهمة التي عني القرآن الكريم بتعليمها هي «التوحيد الافعالي» وهو يعني ان نرىٰ ان الفاعل الاوحد والمؤثر الحقيقي هو الله لأن كل فاعل ومؤثر سوىٰ الله انما استمد فعله وتأثيره عنه سبحانه وتعالىٰ ولا يمتلك شيئاً بذاته. ففيما يتعلق بنمو البذرة والنباتات. يخاطب القرآن المشركين قائلاً: «أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ»،[١] وبهذا الاستفهام الإستنكاري يؤكد ان الزارع الحقيقي هو الله سبحانه وتعالىٰ.

انّ الله عز وجل يريد بذكره لموارد من هذا القبيل في القرآن إلفاتَ ذهن المؤمن الىٰ التوحيد الافعالي والىٰ ان زمام سلسلة الاسباب والعلل هو بيد الله، فهو الذي يحرك هذه السلسلة، والتعبير بـ«محرك السلسلة» هنا تعبير ناقص لان دور الله في افعال وحركات وظواهر هذا العالم يفوق تحريك السلسلة. علىٰ أية حال، يجب ان يعرف المؤمن ان زمام جميع الامور بيد الله ولا يحصل أي عمل أو فعل أو حركة أو سكون دون اذنه.

ورغم قولنا ان تزكية الانسان تأتي بارادة منه، ولكن ينبغي أن لا نتصور اننا قادرون علىٰ القيام بهذا الأمر مستقلّين عن تأثير وارادة الله سبحانه وتعالىٰ، فما يقوم به النبي الاكرمﷺ والائمة الطاهرون عليهم السلام وسائر مربي المجتمع انما هو امتداد لارادة الله: «وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».[٢] من هنا فان القرآن الكريم ينسب التزكية تارة الى الله واخرىٰ الىٰ النبي وثالثة الىٰ الانسان ذاته، ففي موضع يقول: «بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ».[٣] ففي هذه الآية نسبت التزكية الىٰ الله، وفي موضع آخر يقول: «يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ».[٤] فيعتبر التزكية في هذه الآية من عمل النبيﷺ، وفي موضع ثالث ينسب التزكية الىٰ الانسان نفسه فيقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا».[٥]

١. الواقعة: ٦٤.
٢. التكوير: ٢٩.
٣. النساء: ٤٩.
٤. آل عمران: ١٦٤.
٥. الشمس: ٩.

ان السر في نسبة فعل واحد «التزكية» الىٰ ثلاثة فاعلين (الله، النبي والانسان) هو الفاعلية الطولية، فالفاعل المستقل هو الله، اما فاعلية النبي ﷺ والانسان فهي باذن من الله وتتحقق في طول فاعلية الله جل وعلا، وهذا مايعنيه التوحيد الافعالي.

علىٰ أية حال من الفوارق الاساسية بين تزكية الانسان وتزكية الشجرة هو امتلاك وعدم امتلاك الارادة، فالشجرة لا تمتلك ارادتها ولا قدرة لها علىٰ ابداء مقاومة أو أن يكون لها خيار ازاء عمل البستاني الذي يعمل علىٰ تزكيتها، لكن تزكية الانسان أمر ارادي واختياري فليس لأحد تأثير قسري واجباري علىٰ الانسان حتّى يسوق الانسان بهذا الاتجاه أو ذاك شاء الانسان أم أبىٰ، وعلىٰ افتراض ان يكون لأحد تأثيرٌ قسري علىٰ غيره فهذا التأثير ليس ممايؤدي الىٰ رقيٍّ الانسان وتكامله، بل ان تكامل الانسان في انتخابه للطريق الصحيح بارادته واختياره ومن ثم سلوك طريق الخير والصلاح.

من هنا علىٰ الذي يتصدىٰ لتزكية الناس ان يمهد الارضية لان يعملوا بارادتهم واختيارهم باتجاه نيل الكمالات الانسانية، فالارادة فعل الانسان نفسه وليس من أحدٍ بقادر علىٰ ان يخلقها في الانسان، لكن المربي بمقدوره توفير المقدمات التي تلفت اهتمام المتربي نحو المحاسن والكمالات فيندفع لطلبها.

ان اصل الجنوح نحو الخير والنزعة نحو الكمال موجود في كيان جميع الناس، وان الانسان يميل فطرياً نحو الصلاح والكمال، وعمل المربي هو ان يوقظ هذه الفطرة وينميها ويعمل علىٰ رقيّها، ولو لم يكن هذا الجنوح والنزعة الفطرية كامنة في وجود الانسان لما تمكن أحدٌ من تزكيته لان التزكية امر ارادي وما لم يرغب الانسان في شيء فهو لن يريده أبداً.

بناءً علىٰ هذا ان معنىٰ تزكية الانسان هو ان ينبري أناسٌ ليمهدوا الارضية أمام الآخرين لان يسيروا بارادتهم نحو المحاسن والكمال، علىٰ العكس من تزكية الشجرة التي تعد أمراً قهرياً وتحصل دون تدخل من الشجرة نفسها.

٢ـ تزكية الانسان نفسَه: الفارق المهم الآخر بين تزكية الانسان وتزكية الشجرة هو ان الانسان وعلىٰ العكس من الشجرة بامكانه ان يزكي نفسه. فالشجرة عاجزة عن توفير مقومات رقيها ونموها وتكاملها، لكن مثل هذه الامكانية متوفرة بالنسبة للانسان؛ ولتزكية الشجرة لا سبيل سوىٰ ان تتوجّه الانظار نحو البستاني، أما الانسان فبامكانه ومن خلال الاستعانة بهمته طيّ مراتب يُعتد بها من التزكية بنفسه ودون معونة المربي، ومثلما بمقدور الانسان ان يكون معلم نفسه بامكانه ايضاً ان يربي نفسه ويزكيها، ومن الطبيعي ان تأثير وعون المعلم والمربي في أمر التعليم والتربية حقيقة مسلّم بها ولا يمكن انكارها، غير ان الحديث يدور حول ان الانسان لا ينبغي له ان ينتظر المعلم والمربي علىٰ الدوام في كل مرحلة وفي كل مجال، فامكانية تعليم النفس وتربية النفس ماثلة للانسان في الكثير من الموارد والمراحل. في نفس الوقت الذي يؤكّد على اتّباع المعلّم والمربّي:

لا تدخلن الماخور من غير مرشدٍ   وان كنت اسكندر زمانك[١]

ولكن من غير الممكن ان نلقي بتبعة عدم نوال الكثير من مراحل ومراتب التزكية والتكامل علىٰ عدم توفر الاستاذ والمربي، واذا ما سمعنا بالنهي عن سلوك الطريقة والسير والسلوك فلنعلم ان هذا يتعلق بالمراتب العليا من بناء النفس وتزكيتها، ومن المسلّم به ان الكثير من مراحل ومراتب السير والسلوك وتزكية النفس يسيرة المنال دون استاذ ومربي.

ولا ينبغي اعتبار النواقص ونقاط الضعف في هذه المراحل والمراتب ناجمة عن فقدان الاستاذ والمربي فهذا ضربٌ من الإسقاط[٢] وعذرٌ لا مبرر له، فاذا ما جاء الخطاب: «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ»[٣] تتعذر الاجابة بانني لم اتمكن من تزكية نفسي

١. اصل الشعر باللغة الفارسية كالآتي:

بی پیر مرو تو در خرابات   هرچند سکندر زمانی

2. Projection.

٣. الصافات: ٢٤.

لافتقاري للاستاذ والمربي، وهل يتسنىٰ التشبث بعدم وجود الاستاذ عذراً لعدم تزكية النفس في يوم يقول عنه القرآن الكريم: «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ»؟[١] أوَلا يجري السؤال عن الاعمال الممكن اداؤها دون استاذ في الكثير من الموارد؟

من المتيقن عدم امكانية انكار حاجة الانسان الماسة للاستاذ والمرشد في بعض المراحل العليا من السير والسلوك المعنوي، فالذي يضع خطاه في طريق السير والسلوك ربما يخدعه الشيطان إن لم يرتبط باستاذ واعي وبصير، بيد ان مستوىٰ هذه المراحل اعلىٰ بكثير من المراحل البدائية للتزكية. فعلىٰ سبيل المثال، ان مثل هذه الاخطار تتعلق بالمراحل التي تحصل فيها بعض حالات الكشف والشهود للانسان، فلربما يختلط علىٰ الانسان في هذه المراحل أمر تمييز المكاشفات الربانية والالهية عن المكاشفات النفسية والشيطانية نتيجة لتدخل الشيطان. هنا يُفترض ان يهبّ الاستاذ لاسعاف السالك وانتشاله، أما انا وامثالي فمازلنا نقف عند منعطف زقاق صغير وامامنا مراحل من الممكن قطعها دون استعانة باستاذ، واذا ما كان هنالك استاذ في هذه المراحل فهو الافضل البتة، ولكن علىٰ أية حال لن يكون عدم وجود الاستاذ عذراً مبرراً لعدم تسلق المراتب الاولىٰ من التزكية، اذ بامكان آيات القرآن واحاديث اهل البيت عليهم السلام وعلومهم وكتب العلماء وأعلام الاخلاق والسير والسلوك ان تسدّ فراغ الاستاذ وتكفي السالك في هذه المراحل.

---

١. التكاثر: ٨.

الدرس الثاني

النفس وتزكيتها

لمحة عن البحث السابق

يدور بحثنا حول «تزكية النفس»، وهذا المركب يتألف من مفردتين هما «التزكـية» و«النفس»، من هنا ولغرض اتضاح هذا المـفهوم، يـنبغي ان نـبحث في «التزكـية» و«النفس». وفي الدرس السابق جرىٰ الحديث حول التزكية واشرنا الىٰ انها مفردة عربية ولها بعدان ايجابي وسلبي، فالبعد الايجابي للتزكية يتمثل في توفير الاسـباب الضرورية لتكامل ونمو المخلوق الذي يتوفر علىٰ هذه القابلية، وفي البعد السلبي تتم ازالة العراقيل خارجيها وداخليها التي تحول دون هذا التكامل عن الطريق. فمثلاً، من اجل نمو افضل شجرة يقومون بتقليم بعض اغصانها.

ذكرنا ان التزكية من المواضيع التي حظيت بعناية القرآن واعتبرت من الاهداف والواجبات الاساسية للانبياء: **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**. كما جرت الاشارة الىٰ ان التزكية نسبت في القرآن تارة الىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، واخرىٰ الىٰ الانبياء، وثالثة الىٰ الانسان نفسه، وان نسبة فعل واحد (التزكية) الىٰ ثلاثة فاعلين (الله، النبي والانسان) مما يمكن تبيينها في ضوء «التوحيد الافعالي» والعلاقة الطولية بين الاسباب والعـلل وبـين ارادة الله، فـنسبة التزكية الىٰ الله تأتي من باب انه تعالىٰ محرّك سلسلة الاسباب والمسـببات والعـلل والمعلولات، وهو اصل الوجود ومصدره، وان أي انسان وكل شيء وما يملك ومـا يصل اليه انما هو بفضله ورحمته جل وعلا، كما ان نسبة التزكية للانبياء تأتي من باب

انهم يمهدون المقدمات لتزكية الناس والمجتمع، ونسبة التزكية الىٰ الانسان نفسه للتأكيد على أن الانسان فاعل مختار، ولابد ان تحصل التزكية بارادة الانسان واختياره.

بالاضافة الىٰ اننا اشرنا في البحث السابق الىٰ الفارقين الاساسيين بين تزكية الانسان وتزكية الشجرة وأن تزكية الانسان نحن اختياره و ارادته بخلاف تزكية الشجرة.

النفس وانواعها (الأمّارة، اللوّامة، المطمئنة)

بعد هذه الايضاحات الاجمالية حول التزكية، جاء الدور الآن لان نبحث حول مفهوم «النفس» ايضاً. ثمة سؤال فيما يخص النفس وهو: هل النفس تختلف عن العقل؟ وهل هنالك في بواطننا وجودان مستقلان احدهما يسمىٰ النفس والآخر يسمىٰ العقل؟ وما معنىٰ الحرب بين النفس والعقل؟

والسؤال الثاني حول النفس يعود الىٰ تعدد النفس ذاتها، فهل نحن نمتلك نفساً واحدة أم عدة انفس؟ ماذا تعني النفس الأمّارة بالسوء؟ وماذا تعني النفس اللوامة؟ وما هي النفس المطمئنة؟ هل انها ثلاثة وجودات مستقلة وكلٌ منها يختلف عن العقل؟ وهل هنالك في داخلنا اربعة وجودات ـ ثلاث انفس وعقل واحد ـ؟ ومع أيّ هذه الانفس الثلاث يتصارع العقل؟

والسؤال الآخر هو: ما هي هذه النفس؟ هل النفس تختلف عن الذات؟ هل لنا وجود اسمه «نحن» وان «نفسنا» وجود آخر؟ وهل لنا «نفس إلهية»، واخرىٰ «نفس شيطانية»؟ وما هو الفارق الطبيعي بين «النفس الالهية» و«النفس الشيطانية»؟

هذه الموضوعات وبعض الموضوعات الاخرىٰ في هذا المجال من الامور التي نزمع التطرق اليها في هذا الدرس.

ان كلمة «النفس» كالتزكية مفردة عربية، وقد استخدمت في القرآن بانحاء مختلفة، ولا شك في مايقال له «نفس» هو هوية الانسان وليس شيئاً معزولاً عنها، فليس لنا وجودات متعددة، بل لا نمتلك سوىٰ هوية واحدة، والأُمور الكثيرة التي تنسب للإنسان ابعادٌ مختلفة لهذه النفس الواحدة والهوية الواحدة. انها نفس واحدة ذات قوىٰ وميول ونزعات وحاجات متعددة ومختلفة. فنفس الانسان تمتلك قوة اسمها العقل تعود اليها مدركات الانسان وتمييز الصالح من الطالح، ولهذه النفس رغبات ونزعات ايضاً، وهذان بعدان للهوية والنفس الواحدة لكل انسان. فبُعد الرغبات والنزعات لدىٰ الانسان ـ كما هو واضح من اسمها ـ يمثل امتلاك الرغبات والاهواء وهو لا يعرف حداً، أما المعرفة والادراك فهو يرتبط بالبعد الآخر للانسان وهو العقل. بناءً علىٰ هذا ان التعارض بين العقل والنفس ليس سوىٰ مواجهة بين بعدين لهوية الانسان الواحدة.

و علىٰ هذه الشاكلة تأتي مسألة «النفس الأمارة بالسوء»، «النفس اللوامة» و«النفس المطمئنة»، فنحن لا نمتلك اكثر من نفس واحدة وما يتغير هي زاوية الرؤية وتصوراتنا عن النفس، والحالات المتعددة لهذه النفس الواحدة. وتوضيح ذلك: ان نفس الانسان مفطورة على طلب الكمال والنزعة نحو التكامل، وان الانسان يصبو منذ طفولته لان ينمّي قابلياته وقدراته ويوسعها ويعمل علىٰ تكاملها، فالانسان يسعىٰ ـ مثلاً ـ من خلال السؤال الىٰ ازالة جهله وتبديله الىٰ كمال علمي.

لكن تكامل الانسان لا يحصل عن أي طريق كان، بل له مسار محدد اذا ما تجاوزه الانسان واخطأه لن يبلغ الكمال، وهنا اذا ما اخطأ الانسان في قطعه لمسيرة التكامل وشعر بخطئه فانه يندم ويتحسر ويأخذ بلوم نفسه: لماذا فعل هكذا، وهذا اللوم صفة وحالة جديدة تحصل لنفس الانسان وليست نفساً اخرىٰ تتولد لديه عدىٰ تلك النفس التي كانت تنشد الكمال، والنفس اللوامة الواردة في القرآن الكريم[1] ليست

---

١. القيامة: ٢.

سوىٰ ذلك وهذه حالة تتولد تحت تأثير القوة المدركة للانسان وهي العقل، أي عندما يدرك الانسان بفضل عقله انه قد اخطأ وزلَّ في سلوكه لطريق الكمال تحصل لديـه حالة من الندم والحسرة علىٰ الفرصة التي فاتته.

فاذا لم يرتب المرء أثراً علىٰ تشخيص عقله وأصرَّ علىٰ خطأه رغـم تشـخيص العقل وتحذيره، هنا يقال ان النفس اصبحت أمارة بالسوء، فالنفس الامارة بالسوء لا تعني سوىٰ ان للانسان رغبات ان لم تكبح وتجرى السيطرة عليها فانها ستفضي الىٰ الطغيان والفساد، وربما لا يكون اصل تلك الرغبة أمراً سيئاً، ولكن اذا ما فُسح المجال امامها ولم تفرض علىٰ عملية ضبط فانها تؤدي الىٰ انحراف الانسان.

فعلىٰ سبيل المثال، ان الرغبة بالاكل ليست أمراً سيئاً بذاتها، لكنها ان لم تكبح اذ ذاك ستبرز حالة من الافراط والطغيان، فليس للانسان ان يتناول ما حلا له دون ان يفكر ممَّ مصدره والىٰ من يعود ومن اي طريق حصل؟ فاذا ما اصبح الامر كـذلك نقول ان النفس اصبحت أمّارة بالسوء، وهكذا الحال بالنسبة لجميع افعال الانسان من مأكل وجماع وكلام وتنزُّه و... الخ اذا ما تجاوزت حدودها المعقولة فانها تتناقض مع الارادة الالهية والمعنوية ومع الكمال النهائي للانسان.

بناءً علىٰ هذا فان مجرد دعوة النفس للاكل والتنزه واشباع الغريزة الجنسية ... الخ ليست دليلاً علىٰ كونها أمّارة بالسوء، فالنفس انما تصبح أمـارة بـالسوء عـندما لا ترعىٰ حداً، وان تعيين الحد يأتي بتشخيص وحكم من العقل والشرع.

إنّ تصرُّف الانسان احياناً خلافاً لحكم عقله وتشخيصه دليل علىٰ انه يمتلك ارادة واختياراً، فلقد أودعت يد الخالق في وجود الانسان العقل والارادة والاختيار معاً، أي انه وبعد ان يدرك ويفهم الصالح من الطالح فان اختيار ايٍّ منهما منوط بـارادتـه واختياره، وان مجرد تشخيص الصالح لا يرغم الانسان علىٰ المبادرة، مثلما ان مجـرد تشخيص الطالح لا يدفعه للاحتراز والامتناع.

وعليه فان كمال الانسان رهنٌ بان تخضع رغباته واهواؤه لقيادة وارشاد نور العقل، فاذا ما دأب الانسان علىٰ تجاهل تشخيص عقله ويسدر بانحرافه بالرغم من ارشاد عقله وتوجيهاته، فانه يوصف ـ كما قلنا ـ بـ«النفس الأمارة بالسوء». أما اذا استطاع ان يقوّي في نفسه حالة من الالتزام بما يشخصه العقل والتذلل أمامه وكبح رغبات النفس يصبح بمقدوره ان ينال الكمال المنشود وذاك هو القرب من الله سبحانه وتعالى.

واذا ما تحولت هذه الحالة الىٰ «ملكة» وثبتت في ذات الانسان نتيجة التكرار والمواصلة اذ ذاك تنال النفس حالة الاطمئنان والسكينة ويستعهد الانسان للرحيل الىٰ الآخرة بقلب مطمئن خالٍ من القلق، وتلك هي النفس المطمئنة التي يأتيها الخطاب: «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً».

بناءً علىٰ هذا، ان النفس المطمئنة ليست سوىٰ الـ«أنا» وروح الانسان، التي تخطت كل تلك المراتب واجتازت الاخطار، وترسخت فيها الملكات الفاضلة ونالت حالة الثبات والاطمئنان بعد بلوغها الدرجات العليا من التكامل.

ان صاحب النفس المطمئنة هو مَنْ يلازم عقله ويتبعه علىٰ الدوام، من هنا فلا صراع ولا تناقض بين عقله ونفسه، فالصراع بين النفس والعقل هو من نصيب النفوس التي مازالت في بداية طريق التكامل، والنفس المتكاملة هي التي يحكمها العقل وتلتزم بتعاليم الوحي وارشاداته في كافة افعالها واعمالها، فلا يحصل تناقض بين العقل والنفس فيها.

النفس الطبيعية (الحيوانية) والنفس القدسية (الالهية)

الأمر الآخر هو ما قد يقال بشأن النفس من ان هنالك نوعين من النفس هما: النفس الطبيعية والحيوانية، والنفس القدسية والالهية، أما النفس الطبيعية والحيوانية للانسان

فهي التي تنزع نحو الماديات والمعصية والامور الدنيئة والسلبية، ومن مواصفات هذه النفس الانانية وحب الذات والحسد ... الخ، وفي المقابل فان النفس القدسية والالهية هي التي تُنسب اليها النوازع السامية من قبيل التقرب الىٰ الله والشعور بحب بني الانسان، والايثار والتضحية، وهذه النفس هي تلك الروح الالهية الطاهرة التي نُفخت في كيان الانسان حيث يقول تعالىٰ: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي»،[1] وهاتان النفسان تعيشان صراعاً وتناقضاً داخل كيان الانسان علىٰ الدوام.

و في ضوء ما قدّمنا من بحث تتضح محصلة هذا الكلام ايضاً، فاستخدام لفظ «نفس» في النفس الحيوانية والنفس الالهية لا يعني بالضرورة اننا نمتلك نفسين داخلنا يعيشان صراعاً مستمراً تتغلب احداهما علىٰ الاخرىٰ بين الفينة والاخرىٰ، وكما قلنا فاننا لسنا سوىٰ موجود واحد وليس لنا سوىٰ روح واحدة ونفس واحدة و«أنا» واحدة، ولا وجود داخلنا لاثنين أو ثلاث أو عدة «أنا»، والموجود هو «أنا» الواحدة ذات الاهواء والنزعات والابعاد والحاجات المتعددة. وبما ان الانسان مركب من جسم وروح فان بعض هذه الرغبات والحاجات يختص بالجسم وبعضها الآخر يتعلق بالروح، وهذه الحاجات هي التي تتزاحم فيما بينها احياناً، فتارة تتعارض حاجتان جسميتان واخرىٰ حاجتان معنويتان وروحيتان، وثالثة تتعارض حاجة جسمية مع حاجة روحية.

افترضوا انساناً جائعاً ويطلب الطعام لا يمتلك مالاً لشراء طعام، وهو في نفس الوقت يريد الحفاظ علىٰ كرامته وان لا يمد يد الحاجة لأحد. فاذا ما اراد اشباع بطنه فهو مضطر للتعبير عن حاجته وهدم شخصيته لعدم امتلاكه للمال، واذا حاول الحفاظ علىٰ كرامته فعليه ان يتجرع الجوع وفقدان الطعام. هذا صراع بين حاجة جسمية واخرىٰ روحية، لكن هذا التعارض ليس دليلاً علىٰ وجود اثنين «أنا» وروحين

---

١. الحجر: ٢٩.

حيوانية والهية داخل الانسان، بل هي «أنا» و«روح» واحدة لها نوعان من النزعات والرغبات والحاجات، وهذه الرغبات والحاجات لا تعيش تلقائياً وفي كثيرٍ من الظروف تناقضاً وتزاحماً فيما بينها، وان تزاحمت علىٰ الصعيد العملي احياناً.

بحث استطرادي

بما ان الموضوع المثار هو موضوع «النفس» فلا يخلو من مناسبة ان نتناول بالبحث احدىٰ الآيات التي وردت فيها هذه المفردة وتدور حول بعض الجدالات، ففي آيات عديدة من القرآن الكريم جرت الاشارة الىٰ ان الانسان خُلق من نفس واحدة، وكمثال علىٰ ذلك يقول تعالىٰ: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ».[1] فما معنىٰ النفس في هذه الآية؟ ليس المراد من النفس في هذه الآية الكريمة النفس الأمّارة أو النفس اللوامة ... الخ، بل المراد هنا شخص الانسان، فمراد هذه الآية ان تفيد هذا الأمر وهو ان منشأ خلق البشر هو شخص واحد وانسان واحد وليس شخصين أو ثلاثة أو عدة اشخاص.

ان صفة «واحدة» الواردة في هذه الآية تمثل صيغة المؤنث في الادب العربي، من هنا فقد تصور البعض ان هذه الآية تدل علىٰ ان أول مخلوق انساني كانت انثىٰ وهي حواء أم البشر، ولغرض تأييد رأيهم هذا استشهدوا بتكملة الآية حيث تقول: وَجَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا، أو قوله تعالىٰ في موضع آخر: وَخَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا.[2] اذ يقولون ان «زوج» تطلق علىٰ الرجل، وعليه فان: وخلق منها زوجها تعني انه تعالىٰ خلق آدم من حواء، نعم فلو كان قال: وخلق منها زوجتها لاصبح المعنىٰ انه خلق حواء من آدم، لان الزوجة تطلق علىٰ المرأة.

نقول في تحليل ونقد هذا الكلام: ان هذا الأمر ناجم عن فقدان المعرفة الكافية

---

١. الاعراف: ١٨٩.

٢. النساء: ١.

باللغة العربية. فاولاً: ان «زوج» تُطلق في العربية علىٰ المذكر «الرجل» وعلىٰ المؤنث «المرأة» ايضاً، ولا اختصاص لها بالرجل. وثانياً: ان قوله «نـفس واحـدة» واتـيانه بلفظ «واحدة» بصيغة المؤنث، انما هو لأجل أن كلمة «نفس» مؤنث مجازي ولابد في الادب العربي من تطابق الوصف مع الموصوف من حيث التأنيث والتـذكير. اذن لا دلالة لصفة «واحدة» ولا للفظ «زوجها» في هذه الآيات علىٰ ان أول مخلوق بشري كانت انثىٰ.

من موارد استعمال كلمة «نفس» في القرآن، هذه الآية التي تقول: «كُلُّ نَفْسٍ بِـمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»،[1] فالنفس في هذه الآية تعني «الشخص» ايضاً فهي تقول: ان كـل شخص مرتهنٌ بعمله.

وقد استخدمت «نفس» في القرآن بمعنىٰ «الروح» كما في الآية التي تقول: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ»،[2] أو الآية التي تقول: «اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»،[3] فليس المراد من النفس في هذه الآيات مجموع الروح والجسد، بل المراد الروح وحدها.

علىٰ أية حال، للنفس استعمالات متعددة ولابد من التمعن في كل مورد لمعرفة أنها بأيّ معنىً استخدمت.

اصبحت خلاصة البحث حول النفس هي: ان هذه الكلمة من قبيل المشتركات اللفظية فرغم ان اصل معناها اللغوي واحد لا غير، لكنها ذات مـصاديق مـتعددة، فتارة يكون مصداقها البدن واخرىٰ الروح وثالثة مجموع الروح والبدن، كما ان احد مصاديقها النفس الامارة، والنفس اللوامة، ومصداقها الآخر النفس المطمئنة، والمراد من النفس الامارة حالة يطلِق الانسان فيها العنانَ لاهوائه دون ضبط ولا سيطرة، فيما تُطلق النفس اللوامة علىٰ حالة من النفس تندم فيها وتأخـذ بـتأنيب ذاتهـا جـرّاء

---

١. المدثر: ٣٨.
٢. الانعام: ٩٣.
٣. الزمر: ٤٢.

الالتفات الىٰ الزلل والمعصية التي ارتكبتها، واخيراً تسمىٰ النفس التي بلغت الكمال وترسخت فيها الملكات الفاضلة بـ«النفس المطمئنة».

ان المراد من تصارع النفس والعقل هو التناقض بين تشخيص العقل وبين نزعات الانسان المتهورة والمطلق عنانها تماماً، فاهواء الانسان لا تعرف حداً وهي تريد ان تُشبع باكثر واسرع ما يمكن، لكن ما يقتضيه تشخيص العقل وتوجيهه هو مراعاة بعض الحدود والمحافظة علىٰ جانب الحيطة وعدم التسرع، وهاهنا نقول ان العقل والنفس يتصارعان فيما بينهما، وهذا هو معنىٰ العداء بين العقل والنفس وليس اننا نمتلك في دواخلنا وجودين مستقلين يشهران السيف بوجه بعضهما ويطيح أحدهما بالآخر.

المراد من تزكية النفس

الآن وبعد بيان مفهوم التزكية ومفهوم النفس يتضح معنىٰ تزكية النفس، فهي تعني الحذر من آفات النفس، فالنفس كالغرس الذي عندما يغرسه البستاني يظل يحيطه بالرعاية ليلاً ونهاراً، محاذراً لئلا تفسد الديدان والحشرات وغيرها من الآفات هذا الغرس وتقضي عليه، وهكذا النفس ايضاً، فلابد للانسان ان يطهر نفسه من الآفات، وهذا ما يسميه علماء الاخلاق «التخلية»، أي ان يخلّي الانسان نفسه من الآفات ويلقيها خارجاً عن صفحة ضميره ونفسه. ومثلما ان الغرس يجب ان ينطلق من التراب ويرتفع نحو السماء من وسط التراب، فكذلك نفس الانسان اذ ان محل ولادتها الارض ولكن مستقرها ملكوت السماوات وعليها ان تعرج اليه وتفلح، ولكي تتوفر النفس علىٰ القدرة علىٰ مثل هذا العروج والفلاح فعليها الحذر لئلا تسوقها الآفات والسموم نحو الوهن والهلاك، فيتعين مقارعتها واستئصال جذورها داخل النفس. هذه مرحلة من عملية التزكية وهي المرحلة التي قلنا ان علماء الاخلاق يسمونها «التخلية».

و في المرحلة التالية لعملية التخلية يتعين علىٰ الانسان العمل لاستقطاب ما هو نافع لسلامة النفس وتكاملها، وفيها يجب استحصال القوة والطاقة الضرورية للعروج، وينبغي ان لا ننسىٰ ان شريك الروح هو الجسم ومادامت الروح في هذا العالم فانها يجب ان تسير نحو مرامها بمساعدة هذا الجسم، من هنا ـ ومن باب المقدمة ـ فان قضية التطهر من الآفات واجتذاب القوة والطاقة فيما يخص الجسم موضع اهتمام ايضاً، فلابد من العناية بالجسم ايضاً لئلا يصاب بمرض ولكي يبقىٰ سليماً، فالمركب المريض الواهن يعجز عن ايصال الراكب الىٰ مقصده، والروح هنا هي الراكب والجسم مركبها، فعلينا الاهتمام بصحة الجسم وتوفير السلامة والطعام والطاقة له لغرض بلوغ الراكب مرامه. وبالرغم من ان هذا الجسم يبلىٰ ويزول في خاتمة المطاف، ولكن ـ كما قلنا ـ مادمنا في هذا العالم فهو وسيلتنا لبلوغ المقصد. نعم بامكاننا سلخه والقاؤه جانباً متىٰ ما وصلنا الغاية، ولكن لا مناص لنا من مرافقته والاستعانة به قبل هذه المرحلة، اذ يتعين عليك الاهتمام بالمركبة ان اردت السفر بها والّا فانك لن تسافر، فعليك ان تبادر لتصليحها ان احتاجت للتصليح، وان تزودها بالوقود إن هي احتاجت له، وان تبدّل عجلتها ان كانت معطوبة، فانك لا تقدر علىٰ بلوغ مقصدك ان لم تقم بهذه الاعمال. ولكن ما هي آفة النفس وما هو الغذاء والطاقة الضرورية لسيرها؟

العامل والمانع في تكامل النفس

ينبغي القول وبكلام واحد: ان آفة النفس الذنب، ومصدر حياتها وتكاملها وتغذيتها ذكر الله والتوجه نحو المعنويات، فالقرآن الكريم يصرح بان الله والرسول يدعوانكم الىٰ ما فيه حياتكم: «اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ»[1] فانذار النبي صلى الله عليه وآله

---

١. الانفال: ٢٤.

انما هو نافع لمن كان قلبه حياً، لانه يقول: «لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيًّا»،[١] ويقول في آية اخرىٰ: «إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ»،[٢] وهذه الآية في الحقيقة تفسر «حياً» في الآية السابقة وفيها يقول: ان الانذار موجه لمن هو حيّ، وليس حياً بجسمه بل حيٌّ في روحه، أما في الآية المتأخرة فانه يقصر الانذار علىٰ من تعمر قلوبهم وارواحهم بخشية الله، أي ان ما يهب الحياة للروح والقلب هي خشية الله وذكره في السر والعلانية، فالقلب الخالي من الخشية قلب ميت ولا حياة فيه ولا يؤثر فيه علاج انذار النبي ﷺ.

ان تزكية النفس التي من شأنها بعث الحياة في النفس وصفائها، من الاهمية بحيث ان الله يُقسم بأحد عشر قسَماً قبل الحديث عنها، فلسنا نراه في اي موضع من القرآن قد أقسم بأحد عشر قسَماً للحديث عن أمر ما الّا في هذا المورد، وهذا دليل علىٰ الاهمية الفائقة لهذه القضية:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحٰاهٰا * وَالْقَمَرِ إِذٰا تَلاٰهٰا * وَالنَّهٰارِ إِذٰا جَلاّٰهٰا * وَاللَّيْلِ إِذٰا يَغْشٰاهٰا * وَالسَّمٰاءِ وَمٰا بَنٰاهٰا * وَالْأَرْضِ وَمٰا طَحٰاهٰا * وَنَفْسٍ وَمٰا سَوّٰاهٰا * فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَتَقْوٰاهٰا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا * وَقَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا.[٣]

ان القرآن يصرح: يا ايها الانسان! ان كنت طالب فلاح ونجاة فاعلم ان سبيل ذلك «تزكية النفس»، فبِمَ تحصل تزكية النفس يا ترىٰ؟ انها تحصل بان تزيح الآفات عنها، وتوفر لها مقومات تغذيتها، وتعمل علىٰ تقويتها وترصينها بالمران والمراس، فما هو تمرين النفس؟ انه ذكر الله حيث قال تعالىٰ: «اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً».[٤]

١. يس: ٧٠.
٢. يس: ١١.
٣. الشمس: ١ ـ ٩.
٤. الاحزاب: ٤١ ـ ٤٢.

لماذا لم يكتف [الباري سبحانه وتعالىٰ] بصلاة واحدة في الليل والنهار وأمر بخمس صلوات؟ لانه يريد ان يجري المراس والتكرار لذكر الله والصلاة ذكر فهو القائل: «أَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي».[١] وقد شرع صلاة يتكرر فيها ذكر «الله اكبر» عدة مرات، فمن أسرار هذه التعاليم هو المران والتكرار الذي يعدّ امراً ضرورياً لتزكية النفس.

ان هذه قاعدة كلية، فمن يصبو للارتقاء وكسب المهارة والمكانة في اي عمل ومجال عليه ان يتمرن ويتمرس. فالذي يريد ان يصبح بطلاً في لعبة رياضية عليه ان يمارس تمارين صعبة ومكثفة، وكلما تعالت أمانيّه بالفوز عليه ان يضاعف بنفس القدر من تمارينه وجهوده، وان تزكية النفس ونيل الكمالات الانسانية ليست مستثناة من هذه القاعدة الكلية، فمن اراد نفساً اكثر طهارة، وروحاً اكثر طراوة وقلباً اكثر صفاءً، عليه ان يحافظ علىٰ المزيد من ذكر الله في قلبه ويحني رأسه تسليماً وعبودية امام الذات الالهية المقدسة، ويجب ان يكون المران مراناً للقلب وليس عبادة سطحية جافّة خالية من الروح، فلا أثر يُذكر لـ«الله اكبر» التي تنطق بها الشفاه لقلقة فيما القلب يرتع في مكان آخر. ان الحديث حديث تزكية النفس وليست تزكية قطعة من لحم تسمىٰ «اللسان»! فما الاثر الذي يتركه في تزكية النفس والقلب انحناء واستواء لا أمارة فيه عن حضور القلب؟

بناءً علىٰ هذا، ان روح الانسان تحيا بالتزكية، والتزكية انما تتأتىٰ بذكر الله والنأي عن المعصية، وهذا ما يحتاج الىٰ التمرين والمراس. وقد وضع الله سبحانه وتعالىٰ بفضله وعن طريق انبيائه بين ايدينا السبيل الخاص لتزكية النفس وتكامل روح الانسان، ونرجو ان يمن علينا بالتوفيق لمعرفة هذا السبيل وسلوكه ان شاء الله.

---

١. طه: ١٤.

الدرس الثالث

تكامل النفس وانحدارها

تكامل النفس وانحرافها

كان بحثنا يدور حول «تزكية النفس»، وقد اشرنا الىٰ ان هذا الاصطلاح قد أُخذ في الحقيقة من القرآن حيث يقول تعالىٰ: «وَنَفْسٍ وَمٰا سَوّٰاهٰا * فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَتَقْوٰاهٰا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا * وَقَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا»، ففي هذه الآيات جرت الاشارة الىٰ ان للنفس منحنياً للصعود والهبوط، ولها قابلية علىٰ النمو والتكامل وكذلك قابلية الانحدار والانحراف.

ان كيفية تكامل النفس أو كيفية هبوطها وفسادها ـ علىٰ الطرف المقابل ـ ليس بالامر الحسي الذي نراه بالعين ـ مثلاً ـ فنموُّ الجسم وضعفه وصحته ومرضه محسوس بالنسبة لنا، لكن صحة النفس ومرضها وصلاحها وفسادها لا يمكن ادراكه بالحس الظاهري. والطريق الوحيد لادراك صلاح النفس وفسادها ونموها وضعفها هو العلم الحضوري، فالذين ارتقوا مراتب تكامل النفس هم الذين يدركون ماذا يعنيه رقيُّ النفس وتكاملها. علىٰ أية حال؛ من الممكن ان يكون إخبار القرآن واهل البيت عليهم السلام مبعث اطمئنان بالنسبة لأمثالي حيث نعجز عن ادراك تكامل النفس بالعلم الحضوري، فنحن نعتقد ان القرآن ليس شعراً أو اسطورة ـ والعياذ بالله ـ وهو يقول ان لانفسكم ـ كالجسم ـ طهارة وتلوُّثاً، فمن طهَّر نفسه فانها تنمو وتتكامل وتنال الفلاح، كالبذرة التي تتفتح في البداية عن برعم صغير، ومن ثم يصبح بالامكان ان تتحول من خلال الرعاية والاهتمام الىٰ شجرة عملاقة تثمر في كل عام مئات أو

آلاف الثمار، وكذا من لوّث نفسه وأفسدها واضاعها فانها كالغرس الذي يتعرض للآفات نتيجة الاهمال، فيذبل ويموت.

ليس من اللازم دائماً لإحراق شجرة ان تسري اليها النيران من الخارج، فقد تتوفر شروط بيئية من حيث الحرارة والرطوبة بحيث تحترق الشجرة تلقائياً، وان امثال هذه الحرائق تقع في كثير من الحالات في الغابات الكثيفة من قبيل غابات افريقيا وآسيا، ولعلكم شاهدتم اشجاراً لم تتحول الىٰ رمادٍ لكن اوراقها واغصانها قد اصبحت سوداء وكأنها محترقة كشجرة التهمتها النيران تماماً. وهذه قضية شائعة علىٰ صعيد البستنة والزراعة، ففي مثل هذه الحالات يبلغ جفاف الجو وانعدام الماء في التربة حداً يحيل الشجرة بهذه الصورة.

وهكذا الحال بالنسبة لنفس الانسان ايضاً، فقد تصل النفس مرحلة لا تفقد فيها الإثمار فقط بل تلتهمها النيران من الداخل. يقول القرآن الكريم: «**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ**».[1] فهذه نار ليس من الضروري ان يؤتىٰ بحطب أو نار من الخارج لإشعالها، فحطبها ووقودها الناس انفسهم! وفي موضع آخر يقول تعالىٰ: «**نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**»،[2] فما هذه النار التي تحرق حتىٰ القلوب؟ ان النار الخارجية بامكانها احراق البدن وظاهر الانسان، وهذه نار تصل الىٰ القلوب ايضاً، نار تندلع من داخل نفس الانسان، النفس التي ابتليت بحالة بحيث تتوقد منها النار التي في العالم العينيّ.

حقيقة تكامل النفس

علىٰ أية حال، ان الانسان يعجز عن ادراك حقيقة ومعنىٰ رقيّ النفس وتكاملها ما لم يطوِ مراحل من تكامل النفس، ونظير هذه القضية في الامور الحسية، الذين يفقدون

---

١. البقرة: ٢٤.　　٢. الهمزة: ٦ ـ ٧.

بعض الحواس منذ الولادة، فالذي يولد اعمىٰ لا يدرك مفهوم الالوان، ومهما حاولنا توضيح خُضرة الارض أو اللون الازرق للسماء فلا جدوىٰ من ذلك ولن يفهم شيئاً.

اذا ما اردنا توضيح شيءٍ معلومٍ لدينا لأحد من خلال الوصف، فلابد ان يكون قد ادرك فيما سبق نموذجاً منه أو شبيهاً له وان كان ضعيفاً علىٰ اقل تقدير، والّا فإن لم تكن لديه تجربة وان كانت قليلة في ذلك المجال فلن ينال شيئاً من وصفنا ولن يستطيع ادراك مرادنا. وهكذا مسألة تكامل النفس، فمَن لم يدرك أو يلمس مرتبة ومثالاً من كمال النفس لن يفهم شيئاً حتىٰ وإن حُدِّث الف مرة عن عروج الروح وسيرها في الملكوت والقرب الىٰ الله، ولربما تكون هذه الالفاظ جميلة بالنسبة اليه لكنه لن يفهم شيئاً عن حقيقتها البتة، فلابد من ان يكون المرء قد استمتع بلذة مسبقاً كي يتسنىٰ وصف لذةٍ اسمىٰ منها له، فيقال له: ان هذه اللذة ارقىٰ ـ مثلاً ـ الف مرة من تلك التي استمتعتَ بها، اما الذي لم يستمتع بلذة، فربما تعريفه بمثل هذه اللذة وحثّه للعمل علىٰ بلوغها من خلال التشبيه بما يشاركها في مفاهيم عامّة، وهذا ما قامت به الكثير من آيات القرآن.

نعم؛ فلربما لا معنىٰ بالمرّة لـ«لذة المناجاة» بالنسبة لأمثالي، لعدم وجود مثل هذه اللذة في منظومة مدركاتي، وربما لا وجود لمعنىٰ «لذة الانس بالله» بالنسبة للكثيرين، وربما هناك من استمتع بحلاوة هذه اللذة اذ يقول: **وأستغفرك من كل لذّة بغير ذكرك.**[1]

فاللذة مفهوم عام له مصاديق متعددة، ونحن ندرك مفهوم اللذة على العموم، لكن بعض مصاديقها مجهولة بالنسبة الينا تماماً، وكما تقدّم ذكره فربما لم يتذوق الكثير من الناس ولو لمرة واحدة لذة المناجاة والانس بالله مهما كانت ضعيفة. فليس ممكناً توضيح حقيقة هذه اللذة وكنهها لمثل هؤلاء ولكن من الممكن تعريفها لهم بوجه

١. *مفاتيح الجنان*: المناجاة الخمسة عشر، مناجاة الذاكرين، والمناجاة الخمسة عشر مروية عن الامام السجاد عليه السلام.

وحثّهم علىٰ السعي لبلوغها، وبالوسع القول لهم: مثلما تحصل اللذات التي نتمتع بها في الامور المادية فان بعض اللذات تتعلق بعالم المعنىٰ ايضاً.

ان القرآن الكريم يستخدم نفس هذا الاسلوب لتشجيع الناس لاكتساب نعم الجنّة، فالانسان ربما يكون تذوق شراب الدنيا وسمع بامور بشأنه، وربما يكون البعض قد تحسسوه بانفسهم لذلك يقول القرآن ان في الجنّة شراباً ايضاً: «وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ».[1] غير ان شراب الدنيا يتسبب بالسُّكْر والصداع، فيصرّح القرآن ان شراب الجنة والآخرة ليس كذلك: «لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ».[2]

اذا ما كان هنالك لبن وعسل في هذه الدنيا، فان القرآن يصرح بانهما موجودان في الآخرة وفي الجنة ايضاً ولكن مع فارق ان اللبن والعسل في الدنيا يتغير طعمهما جرّاء طول الفترة وتقادمهما، بيد ان لبن وعسل الآخرة ليس كذلك: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى».[3] فالقرآن ومن خلال طرحه لمجموعة من المفاهيم واللذائذ المتعارفة لدىٰ الناس، يعمل علىٰ هداية الناس نحو الجنّة وكسب السعادة الاخروية والقرب من الله.

النفس والقرب الىٰ الله

ان مفهوم «القرب الىٰ الله» الذي يستخدم كثيراً في مثل هذه الابحاث من هذا القبيل ايضاً، فهنا تستخدم مفاهيم والفاظاً تدل علىٰ امور مادية وحسية لبيان وتفهيم حقيقة معنوية، فثمة معنىً لـ«القرب» و«البُعد» في الامور الحسية والمادية، فمن الممكن القول ان هذا الشيء بعيد عن ذلك الشيء أو قريبٌ منه، ولكن هذا المفهوم يستخدم في

١. محمد: ١٥. ٢. الواقعة: ١٩.
٣. محمد: ١٥.

القرب والبعد المعنوي ايضاً توسيعاً للمعنىٰ، فاذا ما قلنا ـ مثلاً ـ ان فلاناً قريب من رئيس الجمهورية فليس مرادنا انه واقف أو جالس علىٰ مقربة من رئيس الجمهورية من حيث المكان، بل المراد هو انه صديق حميم له.

و فيما يخص هذا القرب الاعتباري والمعنوي، فان الانسان يشعر بالاعتزاز والتفاخر والسرور لقربه من العظماء والتقرب اليهم، وقد يكون هؤلاء عظماء من حيث المراتب المعنوية أو المناصب المادية والدنيوية، على أية حال لا شك في ان الانسان يعتبر القرب من العظماء مبعث افتخار، فالذي يسلّم ـ مثلاً ـ عن قرب علىٰ قائد الثورة الاسلامية ويصافحه ويعانقه يزهو بانه قد سلّم علىٰ قائد الثورة وانه ردَّ عليه السلام واعتنقه.

وهناك ايضاً مَنْ تحظىٰ العناية الالهية بالاهمية لديهم، فاذا ما نظر اليهم الباري تعالىٰ طاروا فرحاً من فرط بهجتهم. أَوَ ليس التقرب منه تعالىٰ مبعث فخر ومباهاة حقاً؟ فهو مَنْ بيده الكون كله وهو المالك له، مَنْ يفعل ما يشاء بكلمة «كُن»، من اذا تلطَّف قامت الامور بوجودها، مَنْ اجتمع فيه الكمال والخير كله، من هو الجمال المطلق ولا مجال لأدنىٰ شائبة أو نقص اليه، مَنْ هو خالق كل جميل وحَسن. وفي واقع الأمر، يمكن القول ان المفخرة الحقيقية هو القرب الىٰ مثل هذا الموجود، وان السعادة الحقيقية ان يمسح هكذا موجود بيد العناية علىٰ رأس الانسان، وينعّمه بلذة محادثته ووصاله.

من هنا فاننا نرىٰ ان «التقرب الىٰ الله» هو المفهوم المحوري للمعارف التوحيدية وجرىٰ التركيز عليه كثيراً في تعاليم كافة الانبياء، وقد ركّز الانبياء واوصياؤهم علىٰ مرّ التاريخ علىٰ هذا المفهوم بحيث انه ورد في ادبيات الكفار والمشركين ايضاً. يقول القرآن نقلاً عن مشركي مكة: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ».[1] نعم فحتىٰ

---

١. الزمر: ٣.

المشركين وعباد الاوثان كانوا يريدون التقرب الىٰ الله، لكنهم ضلّوا الطريق، فلقد ظنوا انهم وحيث لا يرون الله ولا مجال أمامهم للانحناء أمامه والتواصل معه، فلابد من الارتباط بالاصنام المحسوسة وأمام انظارهم! غافلين عن امكانية رؤية الله ايضاً حيث قال امير المؤمنين وحادي ركب الموحدين وعباد الله: **لم اكن أعبد رباً لم أَرَه.**[1] وبطبيعة ان الله لا يُرىٰ بعين البصر وانما بعين البصيرة: **لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان.**[2]

القرآن وإثارة الحوافز لتزكية النفس

كما تقدمت الاشارة منا ان القرآن يتخذ لغة التبشير احياناً لاثارة الحوافز لدىٰ البشر من اجل التحرك نحو القرب من الله، ومن هذا القبيل الآيات الكثيرة التي تتحدث عن الرياض والاشجار والحور العين ونهر من اللبن والعسل وما شابه ذلك، فالقرآن يصرّح بانّك لو راقبت نفسك وتبلغ بها الكمال سيكون بانتظارك هذه النعم والخاتمة السعيدة.

ولكن ليست لغة التبشير هي الوسيلة دائماً، بل يستخدم الانذار احياناً، فيوجه القرآن تحذيراته للانسان بانّك إن لم تراقب نفسك فانها ستبتلي بانواع من الآفات وسيعتريها الهزال ومن ثم الفناء، ويصرّح القرآن: إياك ان تبتلي بالحسرة والندامة عند بلوغ أجلك نتيجة ما اكتسبت.

أَوَلا نتحسر ونأسىٰ اذا ما غرسنا غرساً في حديقة دارنا ونبذل جهوداً لسنوات عديدة علىٰ أمل ان يعطي ثمراً، لكنه في النتيجة يذبل ويفنىٰ دون اي ثمرة؟ فوجودنا غرسٌ غرسه الله في ارض الدنيا ويُفترض ان يُثمر من خلال سقينا له واهتمامنا وعنايتنا به، أَوَلا يبعث علىٰ الاسىٰ والندم إن هو لم يثمر بعد خمسين عاماً؟

---

١. *بحار الانوار*: ج ٤، الباب ٥، الرواية: ٢.

٢. *نهج البلاغة*: ترجمة وشرح فيض الاسلام: الخطبة ١٧٨.

من هنا فان أحد وسائل القرآن لاثارة الحافز نحو «تزكية النفس» لدىٰ الانسان هذه التحذيرات والتخويفات، وقد وردت آيات كثيرة باساليب ومضامين متعددة في هذا المجال، والحديث عن عذاب جهنم أحد هذه التحذيرات: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ».[١] ويقول تعالىٰ في موضع آخر: «إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً».[٢]

نعم، سيحل يوم يرىٰ فيه اناسٌ ان شجرة وجودهم كانت عقيمة، ويومها يتمنون ـ لفرط حسرتهم وندامتهم ـ لو كانوا تراباً وليسوا بشراً. ان ابتلاء الانسان بمثل هذه المحنة أمرٌ قد اكتسبه هو بنفسه: «إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».[٣] وما كان يقتضيه لطف الله هو توعية الانسان وارشاده الىٰ الطريق، وقد فعل الله ذلك: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا».[٤]

فلسفة خلق جهنم

قد يسأل البعض: ما الذي كان يحصل لو لم يخلق الله جهنم؟ ألم يكن بمقدور الله ان لا يخلق جهنم؟

ان هذا التساؤل ناجمٌ عن الجهل وعدم معرفة مستلزمات «اختيار» الانسان، وهؤلاء يجهلون ان الجنة وجهنم يمثلان في الواقع وجهين لقضية واحدة، فلو لم تكن جهنم لن تكون الجنة، والجنة ثواب الانسان المختار الذي سخَّر اختياره في طريق الخير والصلاح، والاختيار انما يتحقق معناه عندما يكون أمام الانسان مفترقاً

١. النساء: ٥٦.
٢. النبأ: ٤٠.
٣. يونس: ٤٤.
٤. الانعام: ١٣٠.

طريقين علىٰ الأقل وتكون لدىٰ الانسان الرغبة والامكانيات لاختيار أيٍّ من هذين الطريقين، فلن يكون ثمة معنىً للاختيار والانتخاب اذا كان أمام الانسان طريق واحد فقط. وكذلك ليس هنالك أي اختيار إن واجه الانسان عدة طرق، لكنه يكون ميالاً بفطرته نحو واحد من هذه الطرق، أو لا يمتلك إمكانيات طي سائر الطرق، في كافة هذه الافتراضات يكون مضطرّاً إلى سلوك طريق واحد شاء أم ابىٰ.

لقد تعلقت مشيئة الله تعالىٰ بان يكون الانسان مختاراً، وان اختيارية الانسان تتمثل بالدرجة الاولىٰ بوجود نزعة الخير والصلاح ونزعة الشر والسوء في داخله، كما في قوله تعالىٰ: «فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَتَقْوٰاهٰا»، وفي المرحلة اللاحقة يُفترض ان ينال الذين وظفوا اختيارهم باتجاه الخير والصلاح، ثواب اعمالهم فيما ينال الذين كانوا يستخدمونه في مسار السوء والفساد جزاء اعمالهم، فاذا ما كانت نهاية الصالح والطالح واحدةً فما معنىٰ عدل الله اذن؟! من هنا وجود جهنم ضروري بالاضافة الىٰ وجود الجنة.

بناءً علىٰ هذا فان أمام الانسان طريقين: احدهما الطريق الذي يوصله الىٰ مرتبة «خليفة الله»، وطريق مآله الوصول بالانسان الىٰ «شر الدواب»، وبمقدورنا استهلاك اعمارنا في واحدٍ من هذين الطريقين، وهذا منوط بـ«اختيارنا». فطريق منهما هو طريق احياء الليل والتهجد وطريق عبودية الله وطاعة اوامره ونواهيه، ونهاية هذا الطريق الجنة والنعيم الالهي المقيم في اعلىٰ المراتب وهي «لقاء الله» والذي يسلك هذا الطريق ينال في النهاية النعم واللذائذ حيث يقول تعالىٰ: **اعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذنٌ سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.**[١] وفي هذا المجال يقول تعالىٰ في القرآن: «لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا».[٢] ثم يصرح بان في الجنة ليس ما يشاؤون فحسب بل فيها اشياء لا تطرق تصورهم كي يتسنى لهم تمنيها، ونحن سنعطيهم هذه الاشياء ايضاً:

---

١. بحار الانوار: ج ٨، الباب ٢٣، ص ٩٢.
٢. ق: ٣٥.

«وَلَدَيْنا مَزِيدٌ».[١] وفي المقابل هنالك طريق آخر ينتهي الىٰ جهنم والعذاب الالهي والنيران الملتهبة والسقوط في ادنىٰ مراتب المخلوقات: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ».[٢] وهذا الطريق الذي سيجعل الانسان يندم بحيث يتمنىٰ لو كان تراباً: «وَيَقُولُ الْكاٰفِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً»،[٣] وان أمر الانسان بين هذين الطريقين من الصعوبة والشدة بمكان، فمن ناحية هنالك الكمال والسعادة الابدية ومن طرف آخر هنالك السقوط والشقاء الابدي، من هنا يتعين علىٰ الانسان التحرك بدقة وحيطة متناهية، وهذه هي الحالة التي يقال لها «التقوىٰ».

علىٰ أية حال، لقد خلقنا الله عز وجل وأبان لنا الطريق من الحفرة: «وَنَفْسٍ وَما سَوّاٰها * فَأَلْهَمَهاٰ فُجُورَهاٰ وَتَقْواٰها». الطريق هو «التزكية»: «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا»، والحفرة هي «التدسية»: «وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا»، فاذا ما اقتفينا طريق التزكية والتقوىٰ فان الله يقول باننا نعادل كل خطوة بعشر خطوات: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها».[٤] وليست عشرة اضعاف فقط، بل ان الله يضاعف مرات عديدة ان اراد: «وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ»،[٥] واذا ما ارتكبنا خطأً ـ لا سمح الله ـ فاننا سننال جزاءنا بما لا يفوق الخطأ الذي ارتكبناه بل بمثله: «وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَها».[٦]

---

١. نفس المصدر.
٢. الانفال: ٢٢.
٣. النبأ: ٤٠
٤. الانعام: ١٦٠.
٥. البقرة: ٢٦١.
٦. الانعام: ١٦٠.



الدرس الرابع

الكمال النهائي للانسان «القرب من الله»

وَنَفْسٍ وَمٰا سَوّٰاهٰا * فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَتَقْوٰاهٰا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا * وَقَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا[1]

نزعة الكمال الفطرية لدى الانسان

كان الحديث في باب تزكية النفس وقد جعلنا الآيات الاولى من سورة الشمس مطلعاً لحديثنا، وقلنا: يستفاد من هذه الآيات الكريمة أن في نفس الانسان استعداداً للرقي والكمال، واستعداداً للسقوط والانحدار، فإن قمنا بتزكيتها فانها تتكامل وترقى، وإن قمنا بتدسيتها فانها تتجه نحو الضعف والهوان والفساد، والناس هنا بأجمعهم ينشدون الكمال بشكل فطري، وليس ثمة انسان يسرّه الخلل بوجوده، بل ان كل انسان يسعى بشكل غريزي وفطري لأن يزداد كمالاً يوماً بعد يوم، ولا يوجد شخص واحد في قلبه رغبة ان يتوقف تكامله أو يزداد وضعه سوءاً يوماً بعد يوم، فاذا ما علم الانسان بان هنالك امكانيةً لبلوغ مرتبة من الكمال فانه يتمنّى بلوغها، وهذه الرغبة والاندفاع الفطري نحو الكمال موهبة أودعها الله سبحانه وتعالى في كيان الانسان وواحدة من النعم الالهية الكبرى. تصوروا لولا وجود هذه النزعة في كيان الانسان لانطوينا جانباً تسيطر علينا حالة من الخمود والخمول دون ان نبدي أية حركة، فهذه النزعة نحو الكمال هي محرّكنا لمزيد من السعي والعمل، وان غاية الباري

---

١. الشمس: ٧ ـ ١٠.

تعالى من خلق الانسان هي ان يسلك طريق التكامل بارادتـه لذلك فـقد اودع في فطرته مثل هذه النزعة.

وبطبيعة الحال ان الانسان يخـطئ احياناً في مقام العمل لدى تشخيص مـصداق الكمال. ومن الطبيعي ان ايَّ انسان لا يوظف طاقته أو امواله أو امكانياته وقابلياته كي يُلقي نفسه بيده في التهلكة ويتجه نحو مزيد من النقص، بل بالعكس فان جميع جهود أي انسان تُبذل من اجل تحقيق التقدم والتحسن والتكامل، والموجود هو انه يُخطئ احياناً في تحديد المصداق وتمييز الجادة من الحفرة. ولغرض التحصن من مثل هذه الاخطاء وهبَ الله الانسان العقل. والعقل مرشدٌ في هذا المجال الى حدٍّ بعيد لكنه لا يجدي نفعاً دون مددٍ من الوحي. من هنا فقد بعث الله الانبياء ليبينوا للناس طريق الحياة الصحيح، وانهم يستخدمون وسـيلتي «التـبشير» و«الانـذار» لغـرض اثـارة الحوافز لدى الناس من اجل سلوك الطريق والابتعاد عن المطبات: (فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ).[1]

ان بعض مصاديق الكمال جليّة وواضحة تماماً ولا شك لدى أي انسان بكونهـا كمالاً، والعلم من بين هذه الموارد، فالجميع يعلم ولا شك لأحد بان العلم حسنٌ وكمال، والجهل سيء ونقص، من هنا فان الناس جميعاً جُبلوا على حب العلم وطلبه ويسعون لان يزدادوا علماً يوماً بعد يوم وتتضح الحقائق أمامهم أكثر، وليس ثمة انسان يطلب الجهل، بل بالعكس فهو يهرب ويتبرّأ منه ما استطاع.

والقوة كالعلم ايضاً، ومن الواضح لكل انسان ان القوة كمال وان الضعف والعجز يُعدّان نقصاً، ليس من أحد يرغب في ان يكون عاجزاً ضعيفاً لا قدرة له على فعل شيء، فالناس جميعاً ينشدون القوة والقدرة، وان اكثر صفات الله الكمالية قطعاً ويقيناً هي «العلم» و«القدرة».

---

١. البقرة: ٢١٣.

من الامور الاخرى التي ينشدها الانسان بفطرته هي «السعادة»، فالناس جميعاً مجبولون على حب السعادة وليس من أحد يحب التعاسة والشقاء، وليس هنالك من يرغب بان يُبتلى بالالم والعذاب والشدة، وما يسعى من اجله الانسان هي الدعة واللذة والطمأنينة والسكينة والراحة، وبكلمة واحدة «السعادة». وبناءً على هذا فقد جعل الله سبحانه وتعالى في الانسان اصل النزعة نحو الكمال من ناحية، واودع لديه النزعة نحو مصاديق الكمال من ناحية اخرى.

«القرب الى الله» الكمال النهائي للانسان

ولكن ما هو الكمال الحقيقي والنهائي للانسان؟ ومتى يُمكن القول ان وجود الانسان اصبح متكاملاً حقاً؟ وكما اشرنا في الدرس السابق ان ما يستفاد من تعاليم الانبياء هو ان تكامل الانسان في القرب من الله، وهذا مفهوم علّمه جميع الانبياء لأتباعهم ويمكن اعتباره امراً فطرياً، وقد نوهنا في الدرس السابق ان المشركين وعباد الاصنام كانوا ينشدون القرب من الله أيضاً: **مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ.**[١] وهذا الكلام دليل على شمولية هذا المفهوم للمؤمن والمشرك، فعابد الوثن يطلب القرب ايضاً لكنه اختار مساراً خاطئاً.

لقد اشرنا آنفاً ان حقيقة هذا المعنى ستظل خافية علينا إن لم توجد فينا ولو بمرتبة واحدة ادنى من مرتبة القرب من الله على اقل تقدير، ومع ذلك من الممكن العمل على اخراج هذا المفهوم من حالة المجهول المطلق وتضييق دائرة المعنى كي تتيسر عملية البحث عن الحقيقة وذلك من خلال الاستعانة ببعض القيود السلبية والاوصاف الايجابية.

لقد اعتدنا استخدام مفهوم القرب من الامور المادية، ومرادنا من ذلك القرب

---

١. الزمر: ٣.

المكاني أو القرب الزماني. ولكن هل ان هذا المعنى من القرب متصورٌ وممكنٌ بشأن الله ايضاً؟ وعندما نقول اننا نقترب من الله فهل المراد تقلُّص بعدنا المكاني أو الزماني عن الله؟

من المسلَّم به ان لا معنى للقرب والبعد المكاني والزماني فيما يخص الله سبحانه. فلا علاقة لله تعالى بالزمان والمكان كي يزداد قرباً من زمان أو مكان أو يزداد بعداً من زمان ومكان ما، فالبعض يتصور ان الله في السماء وكلّما ازددنا ارتفاعاً في السماء ازددنا قرباً من الله! وهذا التصور ناجم عن ضعف معرفتهم بالله سبحانه وتعالى، وهؤلاء يشيرون احياناً الى معراج رسول الله صلى الله عليه وآله لتأييد كلامهم، حيث ارتقى الله سبحانه به صلى الله عليه وآله الى السماوات ثم عرج من هناك حيث يقول تعالى: (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى).[١] فيقولون: ان القرآن صوَّر البُعد بعداً مكانياً وصرّح بان النبي صلى الله عليه وآله قد اقترب من الله بحيث كانت المسافة بينهما اقل من قوسين!

في ضوء الادلة القطعية المتوفرة لدينا فيما يخص عدم جسمية الله وعدم محدوديته بزمان أو مكان فاننا نعتبر مثل هذا الكلام باطلاً، ومن المتيقن ان المراد من القرب في هذه الآية ليس قرباً مكانياً، وهذا التعبير من قبيل «تشبيه المعقول بالمحسوس» حيث تكثر نظائره في القرآن.

حقيقة القرب الى الله

قدّم البعض معنىً آخر للقرب الى الله ربما يبدو في البداية تعريفاً دقيقاً وصحيحاً لكنه لا يخلو من الاشكال. فلقد قالوا: ان وجود الانسان ناقص ويعاني من حالات نقص وضعف كثيرة في بداية خلقه، وعلى امتداد حياته كلما عمل الانسان على تبديل حالات الضعف والنقص والافتقار الى «وجدان» وحقق في نفسه المزيد من الصفات

---

١. النجم: ٨ ـ ٩.

الوجودية ازداد قرباً من الله، لان الله هو الكمال المطلق والوجود المحض. وبناءً على هذا كلما ازداد نصيب الموجود من الوجود ازداد قرباً من الله، فكلما قويت صفة العلم ـ مثلاً ـ وهي صفة وجودية، لدى الانسان وازدادت معلوماته ازداد قرباً من الله.

نقول في تقييم هذه الرؤية: إن كل صفة وجودية لا تؤدي الى التقرب من الله، فزيادة وزن الجسم والسمنة صفة وجودية، فهل ان الانسان كلما ازداد وزنه واصبح اكثر بدانة يزداد قرباً الى الله؟! وان امتلاك ساعدٍ قوي صفة وجودية، فهل ان الانسان كلما ازداد قوة في عضلاته واصبح بطل العالم في رفع الاثقال ـ مثلاً ـ يصبح اكثر قرباً من الله؟! أو فيما يتعلق بصفة العلم، فاننا نعلم ان طلب بعض العلوم حرام أو موضع شبهة في الاسلام على اقل تقدير، فهل ان تعلّم مثل هذه العلوم مدعاة للمزيد من التقرب الى الله؟!

من هنا فان هذا المعنى ليس دقيقاً ولا صحيحاً. وان التمعن في الروايات والآثار الواردة فيها للقرب من الله يعيننا على ادراك المعنى الحقيقي للقرب من الله.

ثمة رواية مشهورة في *اصول الكافي* ولها اسانيد عديدة، وتحدّث عنها الشيخ البهائي ايضاً في كتابه «*الاربعين*»، وتتضمن هذه الرواية معارف سامية وقد اهتم الأعلام من علماء الاخلاق بها كثيراً، ونص هذه الرواية طبقاً لنقل المرحوم الكليني في *اصول الكافي* ورواها الامام الصادق عليه السلام عن النبي الاكرم صلى الله عليه وآله كما يلي:

«قال الله عزّ وجلّ: مَن أهان لي ولياً فقد أرصد لمحاربتي، وما تقرّب إليَّ عبدٌ بشيء احبَّ اليَّ مما افترضتُ عليه، وانه ليتقرب اليَّ بالنافلة حتى احبُّه فاذا احببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصَره الذي يُبصر به ولسانَه الذي ينطق به ويَده التي يبطش بها. ان دعاني اجبتُه وإن سألني اعطيتُه...».[1]

انها عبارات عجيبة وسامية جداً حيث يصبح الله سمع وبصر ولسان ويد العبد! فكيف يا تُرى يصبح الله سمع وبصر الانسان؟

---

١. *اصول الكافي*: ج ٢، ص ٢٥٢، الرواية ٧.

لقد قدَّم الاعلام احاديث مختلفة في شرح وتفسير هذا الحديث، وما هو مسلَّم به أن ليس المراد المعنى الظاهري لهذه العبارات، فظاهر هذا الحديث هو ان الله يصبح أُذناً أو عيناً أو لساناً أو يداً! فهذه مخلوقات مادية ومظاهر محدودة ووضيعة من وجود الانسان، بينما الله موجود غير مادي لا حدود له، ولا نهاية لعظمته.

إن أحد المعاني المعقولة لهذا الحديث ان نقول: إن هذه العبارات كناية عن شدة قرب الله سبحانه وتعالى من العبد، هذا العبد الذي وصل مرتبة وكأن الله معه والى جانبه في كل مكان وكل حال، ومثل هذا الانسان موضع عناية خاصة من الله في كل آنٍ، ولله شأن متميز في كلٍّ من افعاله وهو الذي يتكفل إنجازها. ان عنايات الله الخاصة محدودة جدّاً بالنسبة للعاديين والبسطاء من الناس، غير أن مثل هذا العبد يشمله لطف الله وخاصة عناية الحق تعالى على الدوام.

ان لكلٍّ منا في حياته ـ الى حدٍّ ما ـ تجاربَ من العنايات الخاصة للباريً تعالى، وهذا مما لمسناه، ولو أُريد تصنيف كتاب عن النماذج التي وقعت لكافة الناس في هذا المجال فمن المسلّم به انه سيتحول الى موسوعة كبيرة من عشرات المجلدات، فثمة موارد لم يكن للانسان بشأنها برنامج وحسابٌ أو تخطيط معين، لكن الاعمال أنجزت ودُبّرت فيها كما يشاء هو تماماً، ولا بأس ان أُشير الى حالة أو حالتين تخطران في ذهني الآن:

يقول أحد الطلبة وقد جاء الى ايران مسافراً بعد إقامة في النجف الاشرف استمرت سنوات: مرّت مدة طويلة ولم يصلني خبر عن أُمي. فلقد كان والدي على اختلاف فيما بينهما لسنوات طويلة ولم اكن اعلم اين أمي وماذا تصنع؟ فجئت من النجف وتشرفتُ بمشهد المقدسة فخاطبتُ الامام الرضا عليه السلام: يا سيدي أريد ان أرى أمي! وبعد الفراغ من الزيارة خرجتُ من الحرم واذا بي اعثر عن طريق الصدفة على أمي في أحد اروقة الحرم الطاهر!

ويروي شخص آخر كان قد عاد من العمرة وحج بيت الله الحرام: لقد جاء سفرنا بحيث كان يتعين علينا المكوث في المدينة المنورة خلال شهر رجب لانجاز اعمالنا ولم يكن بمقدورنا التشرف لاداء العمرة الرجبية حيث تتميز بفضيلة جمّة، وكان في التوجه لاداء العمرة الرجبية اشكال شرعي بالنسبة لي بسبب التعهد الذي قطعته، فيما لم يكن بودّي تضييع العمرة الرجبية حيث أنا احلُّ في هذه الارض المقدسة. ولم يبق على انقضاء شهر رجب سوى يومين أو ثلاثة، وفي احدى الليالي اتيتُ الحرم النبوي الطاهر فخاطبته صلى الله عليه وآله: يا رسول الله! انني اطلب منك ان توفر لي سبباً لاداء العمرة الرجبية، بحيث أعرف أن التوفيق له بفضل عنايتك.

وكنتُ انتظر ان يُنجز أمري في الغد علماً ان مقدماته قد تمهدت لكنها لم تفض الى شيء. وعندما اتيت الحرم في الليل خاطبته صلى الله عليه وآله: يا سيدي لم يحدث شيء! ثم عدتُ من الحرم الى الفندق، واذا بهم ينادونني هناك: يا فلان ان الحافلة على أُهبة التحرك الىٰ مكة، ولكي اتيقن ما اذا كان ذلك عناية من رسول الله صلى الله عليه وآله أم لا، قلت لهم: ان لي في المدينة عملاً! لكنهم جاؤوا ليأخذوني الى مكة عنوة بسيارة صغيرة!

اننا نقرأ في دعاء عرفة: **الهي أَغنني بتدبيرك لي عن تدبيري وباختيارك عن اختياري**، وهذا الدعاء لا يعني التكاسل بان لا افكر ولا أتدبر اموري بل هو في الحقيقة طلبٌ لتلك العناية الالهية الخاصة، وذاك قوله تعالى في القرآن: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ.[1] فالعبد المتوكل وان كان يسعىٰ بنفسه لانجاز اعماله لكنه مقتنع ومؤمن من اعماق قلبه بان الله هو الذي يُصلح الامور وينجز المهامَّ، ولا جدوىٰ من جهوده الظاهرية دون مشيئة منه جل وعلا، وهكذا انسان عندما يقول: (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ)،[2] فانه يودع زمام اموره حقاً وصدقاً اليه تعالى وإن كان هو الذي يسعى حسب الظاهر انطلاقاً من تكليفه.

---

١. الطلاق: ٣. ٢. غافر: ٤٤.

ولعل المراد من هذه الرواية الشريفة التي نقلناها عن *اصول الكافي* ان العبد وصل مرتبة بحيث يرى حقاً ان كل تأثير وتأثر وكل حركة أو سكون انما هي بارادة من الله سبحانه وتعالى. وهكذا انسان عندما يتحدث يرى انه ليس هو المتحدث، بل الله هو الذي يؤدي هذا الأمر الوجودي، وعندما يرى يشعر بكل كيانه ان لله حضوراً في تحقق هذا الفعل.

واخيراً يقول هذا الحديث بان العبد اذا ما وصل هذه المرتبة: إن دعاني اجبتُه وإن سألني اعطيتُه، فيبلغ هذا العبد مرتبة يكون فيها مستجاب الدعوة.

القرب أم آثار القرب؟!

ان هذا كله ليس القرب نفسه بل آثار القرب، فاذا كانت هذه آثار القرب فما هو القرب اذن؟! ان اثر القرب هو اذا ما اشار العبد فان الله يعطيه ما يشاء! فاذا كان هذا الأثر فما هو المؤثر يا تُرى؟ ان المؤثر شيء لا يوصف أبداً، وبما انه لا يوصف فقد اكتفوا بذكر آثاره! وهذا القرب هو الذي دفع بآسية زوجة فرعون لأن تدعو الله عزّ وجلّ، فلم تكن آسية امرأة أو مؤمنة عادية بل كانت انسانة عالمة بحيث انها لم تتنازل عن الله حتى عندما علقوها باربعة مسامير ضخمة، ودعت ربها: (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ).[١]

ان الجنة كلّها لله وان بيوتها تتساوى في نسبتها الى الله الـ«لامكان» ومع هذا فان السيدة آسية تطلب بيتاً عنده وليس الىٰ جواره! وهذه عبارات كنائية وليست حديثاً عن البيت أو الجنة، انه حديث مرتبة، مرتبة يكون الانسان فيها اشدَّ قرباً لله عزّ وجلّ.

الحقيقة هي ان هذه المراتب والمنازل والحقائق التي يُشار اليها بهذه الالفاظ أوسع

١. التحريم: ١١.

من ان يستوعبها قالب اللفظ، من هنا فانها حينما تتأطر بالأُطر اللفظية الضيقة تُفرض عليها قيود، وعليه ينبغي الانتباه في مثل هذه الابحاث الى ان العبارات غالباً ما تكون كنائية المقصود منها أمرٌ اكثر مدى بكثير من الظاهر، ففيما يخص بحثنا هنالك ما يشبه عبارات الآية المتقدمة والرواية التي نقلناها عن *اصول الكافي*، قد ورد في المناجاة الشعبانية: **الهي هب لي كمال الانقطاع اليك، وأنِرْ ابصار قلوبنا بضياء نظرها اليك، حتى تخرق ابصارُ القلوب حجبَ النور فتصل الى معدن العظمة وتصير ارواحنا معلقة بعزّ قدسك.**

نعم فبامكان روح الانسان ان ترقىٰ وتتكامل بحيث تغدو كالاشعاع المتصل بمعدن نور الوجود، وكالخيط المعلَّق بعرش قدس الله وعزته، فلم يعد مثل هذا الانسان مستقلاً، فلا يرى ذاته بل يرى معدناً من نورٍ قد توزعت اشعاعاته بكل اتجاه، فيشعر هذا العبد بكل كيانه بتعلقه وارتباطه بذلك الوجود الاقدس الاعزّ، فيقال لمثل هذه المرتبة ـ كما يصطلح العرفاء ـ «مقام الفناء»، المرتبة التي فيها يذوب العبد في جنب الله وكأن «الأنا» قد زال من الوجود.

تصوروا عاشقاً قد أدمنَ السفر هنا وهناك لسنوات طوال بحثاً عن معشوقه، متمنياً ان يراه ولو مرة واحدة عن بعد، أو يسمع صوته، واذا به يفتح عينيه ليلاً فيرى نفسه مستقراً في احضان معشوقه! فهل من لذة اسمى من ذلك يمكن تصورها له؟! في المناجاة الشعبانية يطلب امير المؤمنين وائمة الهدى عليهم السلام مثل هذه المرتبة من الله سبحانه وتعالى، المرتبة التي كأن العبد يرقد مطمئناً في احضان الله: **فتصير ارواحنا معلقة بعزّ قدسك**. هذا هو الفلاح وهذه هي السعادة التي قال تعالى بان الذي ينالها مَنْ زكى نفسه: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**. وذاك هو مقام القرب من الله.



الدرس الخامس

«العبودية» السرُّ في كمال الانسان

التعلق الكامل غاية التكامل

وصل حديثنا حول تزكية النفس الى حيث قولنا ان لروح الانسان ـ في ضوء تعاليم الاسلام ـ استعداداً للتكامل واستعداداً للانحدار والهبوط: (**فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَتَقْوٰاهٰا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا * وَقَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا**).[1] وان تكامل الانسان في القرب من الله، فكلما ازداد الانسان رُقيّاً في مراتب القرب فان روحه تزداد تكاملاً بنفس المستوى، وأسمى مراتب القرب هي أن يبلغ الانسان منزلة بحيث لا يرى حجاباً بينه وبين الله، بل لا يرى «نفسه» بتاتاً، المرتبة التي وصفها عليه السلام في المناجاة الشعبانية: **الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنِر ابصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق ابصارُ القلوب حجب النور فتصل الى معدن العظمة وتصير ارواحنا معلقة بعزّ قدسك**. هذه المرتبة التي طلبها امير المؤمنين عليه السلام وائمة الهدى عليهم السلام من الله تعالى في المناجاة الشعبانية: **الهي وألحقني بنور عزك الابهج فاكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً**. حيث يلتحق الانسان بنور الله وينقطع أمله عن كل ما سواه ولا يرى شيئاً أو أحداً ـ وحتى نفسه ـ غيره. وهذه المرتبة التي يعبّر عنها العرفاء بـ«مقام الفناء».

ليس من السهولة ادراك حقيقة هذه المرتبة بالنسبة لأمثالنا، وما يتسنّىٰ قوله هو ان الانسان لا يرى أية استقلالية لنفسه ويستشعر تبعيته لله بشكل تامّ، ويدرك ان له تعالى الوجود الحقيقي، ويلمس ذلّته الوجودية ازاء الله سبحانه وتعالى، وانه هو الفقير

---

١. الشمس: ١٠ ـ ٨.

بل عين الفقر، وهو تعالى وحده الغني بالذات والمطلق وكل شيء عدمٌ دون ارادته: (عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْء).[1]

هذه الفكرة، وهي أن هذه المرتبة اعلى مراتب وجود الانسان وهي في نفس الوقت مرتبة «الفناء» و«الذوبان» الكامل للانسان في الله، أمرٌ شائكٌ نوعاً ما ويبدو متناقضاً للوهلة الأُولى!

لو اردنا ان لا نستخدم تعبير «الفناء» وهو اصطلاح العرفاء، فان تعبير المناجاة الشعبانية هو ان اعلى المراتب الوجودية للانسان هو «عين التعلق»: **تصير ارواحنا معلقة بعزٍّ قُدسك**. فان اشد واقوى مرتبة وجودية للانسان تكون عندما يدرك انه لا استقلالية له وهو متعلق وتابعٌ تماماً، فادراك غاية التبعية بلوغ قمة الكمال الانساني! فاذا ما حصلت لدى الانسان مثل هذه المعرفة بان يلمس حاجته المطلقة للذات الالهية المقدسة، حينها يكون قد نال اعلى مراتب كماله وان مثل هذه المعرفة لا تحصل الّا بالعلم الحضوري.

العبودية، طريق الوصول الى مقام التعلق

على أية حال، المهم في هذه الأثناء طريق الوصول الى مثل هذا المقام وهذه المرتبة، فكيف يتسنّىٰ للانسان الوصول الى حيث يصبح «معلقةً بعزٍّ قدسه» وينال اعلى مراتب التقرب الى الله؟

في ضوء ما يستفاد من الآيات والروايات ان الطريق الاوحد لبلوغ مثل هذا الكمال هو «العبودية»: (وَمٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ).[2] فاذا ما عبدنا الله نكون قد بلغنا الهدف النهائي الذي يريده الله من خلق الانسان، ولا وجود لطريق غير ذلك، وان التعبير بـ«ما... وإلّا...» في هذه الآية يفيد هذا المعنى، في الادب العربي

---

١. النحل: ٧٥.　٢. الذاريات: ٥٦.

يقولون: اذا جاء الاستثناء (وهنا إلا) بعد النفي (وهنا ما) فانه يفيد الحصر، واستناداً الى هذه القاعدة، يستفاد من هذه الآية ان الطريق الوحيد لبلوغ الهدف الذي رسمه الله لخلقنا هو العبادة والعبودية. وينبغي الانتباه الى ان كلمة العبادة الواردة هنا تختلف عن الاصطلاح الذي يستخدم في الفقه، فالعبادة انما تعني ان يؤدي الانسان كافة اعماله وتصرفاته الاختيارية بدافع الطاعة لله ومن اجل رضاه والتقرب اليه. هذا هو الطريق الأوحد وما عداه هو طريق الشيطان: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ).[1] فالصراط المستقيم وجادة الصواب التي توصل الانسان الى الكمال طريق واحد لا اكثر وهو «ان اعبدوني»، واذا لم يكن سبيلاً وطريقاً لعبادة الله فهي عبادة الشيطان.

فاذا ما اردت الحصول على جدارة تلقي أسمى فيوضات الوجود فان طريقه الأوحد هو ان تكون أُذناً صاغية لأوامر الله وتتحرك وفقاً لمشيته وارادته.

ما هي حاجة الله لعبادة الانسان؟!

ماذا يعني قولنا ان الله خلق الانسان ليعبد ربه؟ هل انه يعني ان الله بحاجة للعبادة وهو متعطش لأن يخشع المرء ويخضع أمامه وقد خلق الانسان ليفعل ذلك أمامه؟ هل اننا اذا لم نعبد الله فانه ينزعج إذ لم نكترث للهدف الذي يتوخاه من الخلق؟ هل ان الحاجة للاحترام لدى الله هي التي تسببت في ان يخلق الانسان، كما يرغب الانسان بان يحترمه الآخرون، وان الله يرغب بدوره بان يتمرغ أناسٌ بالتراب أمامه وعن هذا الطريق يُشبع الشعور بحب الاحترام لديه؟

ان مثل هذه التصورات بشأن الله سبحانه وتعالى في غاية السذاجة والجهل، فالله كمال مطلق ولا معنى لمفردة «الحاجة» بالنسبة اليه، فهو لا «حاجة» له كي يحاول

---

١. يس: ٦٠ ـ ٦١.

سدّها بخلقه للانسان، فلا ينقص من الله شيء أو يزيد نتيجة فعله ولا تصيبه بهجة أو لذة، وان الله لا توحشه الوحدة وفقدان المؤنس والجليس كي يخلق الانسان ليكون انيساً له في وحدته: **ابتدعتهُ... لا لوحشة دخَلتْ عليك... ولا لحاجة بَدَتْ لك في تكوينه.**[1] فلا حاجة لله بعبادتنا ولا يضرّه تمرُّدنا: **فانَّ الله خلق الخلق غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم.**[2]

ان الله لا يتلذذ حينما نعبده، ولا ينقص من كبريائه شيء عندما نبرز لحربه ونتمرد عليه! واذا ما وردت مثل هذه العبارات في الآيات والروايات وبعض النصوص الاخرى ينبغي ارجاعها الى الله بعد تشذيب مواطن النقص عن هذه المفاهيم كما في سائر الموارد، في ابحاث التوحيد والمواضيع ذات الصلة بصفات الله يجري التذكير بهذه المسألة وهي اذا ما قلنا ـ مثلاً ـ ان الله «عالم» أو «قادر» فينبغي ان لا نتصور ان علم الله وقدرته كعلمنا وقدرتنا نحن البشر، فعلمنا حصولي وطارئ على الذات أما علم الله فهو حضوري وعين الذات، و«القدرة» لدينا تعني امتلاك القوة العضلية والاعصاب الحسية والحركية... الخ، ولكن هل ان الله يمتلك يداً وساعداً وعضلات؟ من هنا فاننا نقول ان علم الله ليس كعلمنا (عالمٌ لا كعلمنا)، وهكذا الامر فيما يخص سائر المفاهيم التي ننسبها الى الله سبحانه وتعالى.

وكذا تعبير «الرضا» و«الغضب» وما شابهها التي نستخدمها بشأن الله، فاذا قلنا ان العمل الفلاني مدعاة لرضا الله فليس معناه ان حالة من البهجة والسرور تحصل لدى الله سبحانه وتعالى! فنحن نقرأ في دعاء عرفه: **الهي تقدّس رضاك أن يكون له علّةٌ منك فكيف يكون له علّة مني.** فليس الأمر انك تفتقد الرضا في بادئ الأمر ثم تخلقه بنفسك لنفسك ناهيك عن ان اكون أنا سبباً في رضاك. أو أن نقول ان شيئاً ما يثير غضب الله

---

١. *بحار الانوار*: ج ١٠٢، الباب ٨، الرواية ٦.

٢. نهج *البلاغة*: ترجمة وشرح فيض الاسلام، الخطبة ١٨٤.

وسخطه، أو ان الله قد غضب على فلانٍ من الناس أو على قوم معيّنين، فليس معناه ان الله يغضب كغضبنا بحيث يتغيّر حاله! فليس لله حالةٌ كي تتغير، فالانسان وما سواه اعجز من يُحدث شيئاً بالنسبة لله سبحانه وتعالى أو يؤثر في ذاته، انما هي التي يقول عنها الامام الباقر عليه السلام: «... كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم».[1]

فالكثير مما ننسبه لله سبحانه وتصوراتنا عنه تعالى انما هي واهية وتأتي من باب المقارنة مع النفس.

سبيل الوصول الى مرتبة العبودية

اتضح لحد الآن أن الكمال النهائي للانسان في قربه المتزايد من الله تعالى، وان طريق تقربه الى الله هي العبادة والعبودية، وان حقيقة العبودية ـ كما هو واضح من الكلمة نفسها ـ هي صيرورة الانسان «عبداً»، عبدٌ بالمعنى الذي يقول عنه الله في القرآن: (عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ).[2] فحقيقة وجودنا هي اننا موجود لا يقدر على شيء، وان كمالنا في ان نصل هذه الحقيقة وندركها بالعلم الحضوري والشهودي التام الواعي، وذلك حينما: تخرق أبصار القلوب حُجُبَ النور فتصل الى معدن العظمة. عندما لا يبقىٰ أيُّ حجاب حتى الحجب النورانية منها ولا يفصل بين الله والعبد شيء. في مثل هذه الحالة يرى الانسان انه لا يملك شيئاً لنفسه وكل ما لديه منه «هو». وهذه هي «العبودية المحضة» وحقيقة العبودية حيث يرى العبد تعلقه وارتباطه بالله ببصيرة القلب ونور الباطن وليس بعين رأسه ودليل العقل، في هذه الحالة يشاهد ان لا ارادة ولا تأثير أو حركة أو سكون إلّا بوجود الله.

إن اول خطوة لبلوغ هكذا مرتبة هي أن نسعىٰ لان نجعل ارادتنا تبعاً لارادة الله،

---

١. بحار الانوار: ج ٦٩، الباب ٣٧، الرواية ٢٣. ٢. النحل: ٧٥.

فعوامُّ الناس يرون لانفسهم ارادة مستقلة، اذ ان الذي يقول: ان الله اراد هذا وانـني أريد شيئاً آخر، انما يرى نفسه مستقلاً. وان مجرد ان نرىٰ نحن ان هنالك ارادتين ـ ارادة الله وارادتنا ـ دليلٌ على اننا نرى استقلالاً وجودياً لنا، وهذه مرتبة من نداء (أَنَا رَبُّكُمْ)،[١] الذي كان يطلقه فرعون ويدعي الربـوبية في قـبال الله تـعالى، فكـانت مشكلته انه كان يرى فعلاً وتأثيراً له في عرض وموازاة الله سبحانه وتعالى، والفارق بينه وبين امثالنا هو انه بلغ اعلى درجات الافراط في هذا الاتجاه.

ان الاستقلال يعني عدم اكتراثي بارادة الله فلله ارادته ولي ارادتي، وهذا ما يعاكس العبودية تماماً، فالعبودية هي فقداني للمشيئة والارادة الذاتية، فثمة ارادة واحدة هي التي تجري ولابد أن تجري وهي ارادة الله تعالى، وعليه فان الاستقلال لا ينسجم مع البعودية، فكلما تكامل الانسان في العبودية تضاءل الاستقلال الذي يراه لنفسه حتى يصل الى العبودية المحضة ويغدو عبداً كاملاً، وفي تلك المـرحـلة لا يـرى ذرةً مـن الاستقلال، فان نظر لأحد أو شيء لا تتراءىٰ أمام عـينيه سـوى تجـليات عـن الله وإشعاعات نور وجوده.

من هنا اذا اردنا سلوك طريق العبودية فان أول فعل نقوم به هو ان نقصي جانباً القلبَ ورغباتِه ونجعل ارادة الله محوراً لاعمالنا وسـلوكنا، ولأجـل هـذا جـاء سـنُّ الواجبات والمحرمات في الشريعة، فاداء الواجبات وترك المحرمات تمرينٌ كي نستطيع شيئاً فشيئاً اداء اعمالنا على اساس ارادة الله ولا نكترث لما سوى ارادته.

العبودية أمر ذو مراتب

ان العبودية في منظار التعاليم الاسلامية ليست ذات درجة واحدة بسيطة، أي ليس ان الله يقبل عبوديتنا حينما لا يكون لنا أي تصور في اعمالنا وتـصرفاتنا سـوى الى

---

١. النازعات: ٢٤.

الذات الالهية المقدسة، وإلا فلا يكون لنا نصيب من العبودية. ان العبودية ذات مراتب لا حصر لها وان جميع مراتبها مطلوبة، ومن اشهر التقسيمات لاقسام ومراتب العبودية القول المعروف لأمير المؤمنين عليه السلام الذي صنَّف فيه عبادة العباد الى «عبادة العبيد» و«عبادة التجار» و«عبادة الاحرار» حيث قال: **إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الاحرار.**[١]

ان الاسلام لا يرفض أياً من هذه العبادات الثلاث لان مرتبة من المراد تكون قد حصلت على أية حال، فالمراد هو ان يجعل العبد ارادته تبعاً لارادة الله، وقد تحصل هذه التبعية طمعاً بالجنة، وتارة خوفاً من النار، واخرى يجد العبد ربّه اهلاً للعبادة فيعبده، وبطبيعة الحال ان العبد لا يخلص ما لم يصل الى مرتبة عبادة الاحرار، فهو انما يصبح مُخلَصاً عندما يقول: **ما عبدتُك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك لكن وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك.**[٢] فهذا العبد لا يستهدف من العبادة النفع والضرر بل هو عاشقٌ، وانها المعرفة والمحبة اللتان تدفعانه نحو الله، لا الى الجنة أو النار، واذا ما وصل العبد هذه المرحلة فهو اذا ما تقدم نحو الله خطوة واحدة، تقدم الله نحوه عشر خطوات، وهذا العبد ليس هو الذي يناجي الله بل الله يناجيه: **وأُناجيه في ظُلَم الليل ونور النهار.**[٣]

مراتب العبودية

على أية حال، الطريق الاوحد الذي يوصلنا الى الهدف من الخلق هي العبودية ولا طريق سواها، ولها مراتب أعلاها تلك المرتبة التي كان الائمة المعصومون عليهم السلام

---

١. نهج *البلاغة*: ترجمة وشرح فيض الاسلام، الكلمات القصار، ٢٢٩.
٢. بحار *الانوار*: ج ٧٠، الباب ٥٣، الرواية ١.
٣. نفس المصدر: ج ٧٧، الباب ٢، الرواية ٦.

يطلبونها من الله في المناجاة الشعبانية، فلقد كانواعليهم السلام ينادون: **الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنِر ابصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق ابصار القلوب حُجبَ النور فتصل الى معدن العظمة وتصير ارواحنا معلقة بعزّ قدسك.**

اذا ما اردنا بلوغ ذلك المقام بحيث نتعلق بعزّ قدسه عزّ وجلّ فعلينا أن نقوّي في ذواتنا روح التعلق والتبعية، وبطبيعة الحال فان حقيقة وجودنا ليست سوى التبعية لله لكن المشكلة هي اننا لا ندرك هذه التبعية، فالمهم هو ادراك هذه التبعية وهذا التعلق، هذا الادارك الذي ينبغي ان يحصل بالعلم الحضوري، وحيث اننا لا نمتلك مثل هذا الادراك الآن فاننا نرى انفسنا مستقلين، فعملنا الآن معاكسٌ، اذ نتعلق ونتأمّل من كل شي وكل أحد بان يحلَّ لنا معضلاتِ امورنا، اما اذا حصل ذلك الادراك حينها ينقطع الانسان عن كل شيء ويرى عياناً ان اصل الوجود من الله، وكل جمال وكمال منه ولا وجود لشيء غير الله وفعله وآثاره، وهنا لا يرى احداً سوى الله حتى يحاول التعلق باذياله واللجوء اليه.

والمرتبة الاخرى من العبودية هي اننا نعبد الله ونجعل ارادتنا تابعة لارادته لإيماننا بأنه يعرف مصلحتنا افضل منّا ومن أي أحد آخر، فلا شك ان الله يعرف مصلحة العبد افضل من اي شخص آخر، من ناحية، وهو تعالى لا يبغي من هذه الاوامر والنواهي سوى استيفاء هذه المصالح من ناحية اخرى، وحيث ان الامر كذلك، فعلىٰ من يريد تحقيق مصالحه الواقعية ان ينظّم اعماله وسلوكه على اساس أمر الله ونهيه، ولكن ينبغي الانتباه الى ان هذه العبادة ليست عبادة الاحرار التي تحدَّث عنها امير المؤمنينعليه السلام، فثمة فارق بين هذه العبادة وتلك حيث **«وجدتك اهلاً للعبادة»**، فأنا هنا أسعى لأجل مصلحتي، غاية الأمر انني صممتُ على ان اجعل ارادتي تبعاً لارادة الله وأسيرَ وفقاً لأمره ونهيه كافضل طريق لبلوغ تلك المصلحة. ان مثل هذه العبادة كالعمل بوصفة الطبيب، فاذا ما عمل المريض بتعاليم الطبيب ووصفته فانه ليس حباً

بالطبيب وانما حباً بنفسه وصحته، وهكذا من يتحرك تبعاً لارادة الله من اجل بلوغ مصالحه، فإن عبادته ليست مرفوضة أبداً، لكنها على أية حال ليست «عبادة الاحرار»، ففي هذه العبادة يكمن نوع من «عبادة الذات» وعبادة الذات تختلف عن عبادة الله، ومثل هذه العبادة تشبه «عبادة التجار».

ان عبادة الاحرار تعني التخلي عن مصلحة النفس، بل يردد العبد: وجدتك اهلاً للعبادة، فليس مهماً بالنسبة اليه ما يصيب مصلحته وانما المهم ان يركع على اعتاب معشوقه، ولعل مصداق هذا الحديث لا يتوفر لدينا، لكننا على اقل تقدير نمتلك اليقين بان امير المؤمنين والائمة المعصومين عليهم السلام كانوا كذلك، وهم القائلون: وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك. ويقول الامام زين العابدين في ادعيته: ان ادخلتني النار أعلمتُ اهلها اني احبك[1]، ونظير هذا المضمون موجود في سائر الادعية ايضاً. قارِنوا بين هذه المعرفة وبين معرفة امثالنا، فاذا لم تَدُر عجلة الزمان وفقاً لما نريده ولم يأتِ الله بما نشتهيه فاننا نشتكي على الله ونرفع رؤوسنا متمردين عليه! فشتّان ما بين هذا العبد وذاك! انها جوهرة العبودية التي اودعها الله في ذات الانسان ليُلقي عليه في ظل انوارها جلباب الخلافة الالهية، وقد تحدَّث عنها امير المؤمنين والامام السجاد عليهما السلام حيث تملأ محبة الله كيان العبد بأسره فلا يرى ولا يريد شيئاً سواه.

وانا وانتم اذا ما شددنا حزام الهمة فان بلوغ مثل هذه المراتب ليس متعذراً، فعلينا ان ننطلق من مراتب الدنيا ثم نتقدم خطوة فخطوة، فاذا ما رأينا موضعاً فيه نهي الله اجتنبناه، ونكون حاضرين حيث يكون الموطن مرضياً عند الله. وخلاصة القول ـ كما اشرنا ـ ان الخطوة الاولى هي ان نجعل ارادتنا تابعة لارادة الله، فنرى ماذا يريد الله فنفعله، ثم نجعل رضانا تبعاً لرضا الله بشكل تدريجي، فلا تكون لنا ارادة أو رغبة وهوىً في مقابل الله، فيجب ان نتمرن على التعلق وعدم الاستقلال لوصول قمة «معلقة

---

١. *بحار الانوار*: ج ٩٤، الباب ٣٢، الرواية ١٣.

بعزّ قدسك»، فالاستقلال هو ان ارى ما أريده أنا، وعدم الاستقلال يعني ان ارى ما يريده المحبوب، والاستقلال يعني السعي وراء تمنيات القلب واهواء النفس، فيما يعني التعلق ربط النفس بما يتمناه قلب المحبوب ورضاه، فاذا ما تمرَّسنا على التعلق سنصل تدريجياً الى حيث نرى الله فقط ونطلب رضاه في كل حال، وحينها يتكفل الله تدبير امور مثل هذا العبد، فيناجيه ويُجري ذكره على صفحات قلبه وروحه ويوصله الى مقام «ان توزعني شكرك وان تلهمني ذكرك»،[1] المقام الذي يُلهمُ الله ذكره قلب العبد، وان الامام المعصوم عليه السلام يطلب مثل هذا المقام من الله سبحانه وتعالى، وان (عِبٰادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)[2] الواردة في القرآن هم هؤلاء العباد، هؤلاء الذين لا يريدون شيئاً سوى الله ولا حركة ولا سكون لهم دون ارادة من الله ورضاه، فوجودهم خالصٌ لله، فاذا ما تكلموا فمن اجل الله، واذا ما صمتوا فمن اجل الله أيضاً، واذا ما جلسوا أو نهضوا أو ناموا فذلك كله لله، وهنا تغدو حياة الانسان بأسرها عبادة لان كافة حركاته وسكناته تابعة للارادة الالهية، وان حقيقة العبادة والعبودية ليست سوى ذلك، فالعبادة ليست صلاة وصوماً فحسب، واذا كانت هذه عبادة ايضاً فانما لتعلّق الارادة الالهية بها.

نعم بمقدور العبد ان يصل الى حيث يجعل كافة افعاله وجميع وجوده تبعاً لارادة الله وليس صلاته وصومه فحسب. انه ذلك العبد الذي لا حظَّ لذرة من الشرك وغير الله في وجوده، وحطَّم جميع الاوثان داخليها وخارجيها، وانسلخ عن عبودية الذات وعبودية الغير وعبودية الهوى وكل ما هو عبودية لغير الله وبلغ العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى. وهنا يناجي الله: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).[3] ومثل هذا العبد يتسنّى له أن يقول بحقّ: (إِنَّ صَلاٰتِي وَنُسُكِي وَمَحْيٰايَ وَمَمٰاتِي لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ).[4]

---

١. *مفاتيح الجنان*: دعاء كميل.
٢. الصّافّات: ٤٠.
٣. الأنعام: ٧٩.
٤. الأنعام: ١٦٢.

الدرس السادس

عبودية الذات، سبب السقوط

لمحة عن الابحاث السابقة

كان بحثنا يدور حول تزكية النفس واهميتها في منظار القرآن والاسلام، وقد طرحنا في الدروس المتقدمة مسائل حول هذا الموضوع، وجرت الاشارة الى انه يستفاد من آيات القرآن واحاديث الائمة المعصومين عليهم السلام ان الهدف من تزكية النفس ان نتقرب الى الله تعالى، أي ان الهدف والكمال النهائي للانسان هو «القرب من الله»، كما استفدنا بان الطريق الوحيد لبلوغ القرب من الله هو العبودية: (وَما خَلَقْتُ الْـجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ).[1]

وقلنا ايضاً ان تكامل الانسان تكامل اختياري، وان الاختيار يتلازم مع وجود طريقين أو اكثر أمام الانسان بنحو يتمكن الانسان سلوك اي طريق يريده، من هنا فقد عرَّف الله الخير والبرَّ للانسان وكذلك اودع فيه معرفة الشرّ والسوء ايضاً: (وَنَفْسٍ وَما سَوّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها)،[2] فبمقدور الانسان الارتقاء الى اعلى عليين الى جانب امتلاكه لقابلية الانحدار الى اسفل السافلين، وان هادي الانسان ومعينه في مسيرته التصاعدية نحو مراتب الكمال هو الله تبارك وتعالى، وقائده في مسيرة السقوط نحو اسفل السافلين هو الشيطان الذي اقسم بان يجرف الناس نحو هاوية السقوط: (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ).[3]

---

١. الذّاريات: ٥٦.

٢. الشمس: ٨ ـ ٧.

٣. ص: ٨٢.

ان ذروة وقمة المسار التكاملي للانسان نقطة اذا ما استطاع ان ينالها بفضل المدد الالهي، فانه لا يرى حجاباً بينه وبين الله، نقطة تتعلق فيها روح الانسان بعزة القدس الالهي: وتصير ارواحنا معلقة بعزّ قدسك، كما يُعبّر في المناجاة الشعبانية. في هذا المقام يدرك الانسان جيداً ويرى عياناً انه لا يملك شيئاً بنفسه، وهو يملك كل شيء ان كان مع الله، وهذه هي ذروة رقي الانسان واقصى قربه وارتباطه وتعلقه بالله. انه مقام لا تبق فيه ارادة للانسان، وتتجلّى هذه الحقيقة «وَمَا تَشَاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»[1] وان صاحب هذا المقام يصبو لما تتعلق به ارادة الله ومشيئته، وخلاصة القول انه مقام لا يحيطه الوصف، وهو متعذر الادراك بالنسبة للانسان ما لم يصله، وبطبيعة الحال ان نيل هذا المقام ليس متيسراً بالنسبة للعوام من الناس ولكن ينبغي ان تكون هذه القمة نصب العين كي لا يضيع الطريق، كقمة الجبل التي وان لم نصلها ولكن بامكاننا من خلال النظر اليها في كل آن ان نفهم ما اذا كنا ضمن المسار أم اننا ضللنا الطريق.

نهاية انحدار الانسان

في مقابل نقطة الارتقاء تلك التي يرى فيها الانسان ان كل شيء من الله، هنالك نقطة انحدار، وان غاية السقوط هي ان يحاول الانسان ان يخضع كل شيء وكل انسان لارادته، وان لا يتبع هو لأي شيء وأي أحد. فمثل هذا يسعى لان يتسلط على كل شيء وان يصبح الجميع تابعين لارادته ويتصرفون وفقاً لرغبته، وانه يتصور بان عليه ان لا يخضع لأحد، وان لا ينصت لكلام أحد، وان لا يستسلم لأحد، وان تتحكم ارادته فقط على مصيره بل على العالم والبشر. نعم، قد يصل الانسان مرتبة بالرغم من علمه وادراكه بأنه «عبد» و«مملوك» لكنه ينكر هذا الأمر عالماً عامداً، وبشكل عامّ

---

١. التكوير: ٢٩.

إن إحدى خصائص الانسان هي أنه بالرغم من وضوح هذا الأمر أمامه كـوضوح الشمس لكنه يغمض عينيه ويتنكر احياناً! فهو يفهم ربوبية الله بالنسبة له فهماً تاماً لكنه يقول: كلّا لا وجود لمثل هذا الأمر أبداً! وتثبت حقانية الانبياء بشكل تام أمامه، لكنه لا يرعوي قائلاً ان الوحي ومعجزات الانبياء خيال وسحر! فهو يرى نفسه فقط وليس على استعداد لأن يرى غيره، وتلك هي «عبادة الذات»، وبطبيعة الحـــال ان لعبادة الذات مراتب اعلاها ان يضع الانسان نفسه بديلاً عن الله بشكل كـامل وفي كافة الامور، وباطلاقة لنداء (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ)[1] يقول: ان الله الذي سمعتم به هو أنا!

من النماذج البارزة على التمادي حتى اقصى درجات السقوط هـو فـرعون الذي اعتبر نفسه حائزاً على كافة شؤون الربوبية وبقوله انا ربكم الاعلى ادعى الالوهية. فلقد جاء موسى عليه السلام الى فرعون ودعاه الى الله والى الايمان، فقال فرعون: مَن هذا الاله الذي تتحدث عنه واين هو؟ فقال موسى عليه السلام: انه خالق السماوات والارض وله كل شيء. قال فرعون: ما هو دليلك على وجود مثل هذا الإله وعلى انك رسول منه؟ قال موسى عليه السلام: لقد وهبني الله المعجزات، فاظهر موسى عليه السلام معجزة العصا واليد البيضاء أمام فرعون وفي ذلك المحفل، حيث القى موسى عليه السلام عصاه على الارض فتحولت الى افعى تتحرك بهذا الاتجاه وذاك، ولما رأى فرعون هذا المشهد استحوذت عليه الرهبة، وبما انه لم يجرؤ على انكار كلام موسى عليه السلام ودعواه خلال ذلك المجلس فقد طلب إمهاله للتفكير، ثم انه ولغرض الايحاء للناس على انه يزمع الكشف عن الحقيقة فقد أمـر وزيره هامان بان يبني له صرحاً كي يتحرى الله في السماوات: (يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ * أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً).[2]

ثم انه ـ كما يدّعي ـ قد تحرى عن الله في السماوات فلم يجد هنالك خبراً عنه! من هنا فقد قال للناس: (ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي).[3] وقد شهـد مـوسى عليه السلام كـلام

---

١. النازعات: ٢٤.
٢. غافر: ٣٦ ـ ٣٧.
٣. القصص: ٣٨.

فرعون هذا فخاطبه: (لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا أَنْزَلَ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضِ).[١] فهو عليه السلام يؤكد لفرعون وبتأكيدين قائلاً له «لَقَدْ عَلِمْتَ»، فكل من حرف «اللام» وحرف «قد» تستخدمان في اللغة العربية للتأكيد. في هذه الآية يقول عليه السلام: حقاً حقاً تعلم ان هذه المعجزات التي أريتكها ليست سوى من رب السماوات والارض.

هذا هو بيان القرآن وكلام الله الصادق الذي يقول ان فرعون كان متيقناً بوجود الإله الذي يتحدث عنه موسى عليه السلام وكذلك متيقناً بان موسى عليه السلام رسول ذلك الإله، ورغم ذلك فقد انكر وقال: إِنِّي لَأَظُنُّهُ كٰاذِباً. ومٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي.

ان قصة فرعون وما شابهها تدل على مدى امكانية سقوط الانسان، ومدى امكانية ان يكون عبداً لذاته ومخادعاً، فرغم انكشاف الحقيقة أمامه ناصعة يصرُّ منكراً بدافع حب الذات وطمعاً بالمنصب والثروة وما شابه ذلك. وبالطبع ان عدد امثال هؤلاء الذين يبدون مقاومة الى هذا المستوى بوجه نداء ضمائرهم واشراقة الحقيقة التي تسطع على وجودهم ليس بالكثير، لكن القرآن يشهد على وجود هؤلاء الناس الذين انحدروا الى اسفل السافلين بكل مافي الكلمة من معنى، وهذا الطريق لم يُغلق بعد وربما هنالك من الناس حالياً ـ أو انهم سيأتون فيما بعد ـ ممن يتفوّهون بما هو اكثر صلافة من فرعون!

مراتب رقي الانسان وسقوطه

على أية حال، هذان قطبان متعاكسان في مسارهما يقفان أمام الانسان: احدهما قطب لا يرى فيه الانسان شأناً له: (عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ)،[٢] قد فوَّض اموره بشكل تام لله، بل أودَع اختياره الى الله: **الهي اغنني بتدبيرك لي عن تدبيري وباختيارك عن اختياري.**[٣] أي اللّهم اجعلني في غنىً عن أن أختار بنفسي لنفسي وتولَّ الاختيار

١. الإسراء: ١٠٢. ٢. النحل: ٧٥.
٣. بحار الانوار: ج ٩٨، الباب ٢، الرواية ٣.

بدلاً عني! إنه مقام يرى الانسان ان جميع ذرات الوجود معلقة بوجود الله وجميعها اشعاعات من نور وجوده، ويرى ان العالم بأسره يدور ويتحرك بارادة الله، ولو انه تعالى أشاح بنظره عنه ولو لحظة أو آناً واحداً لانعدم وفني كل شيء، وفي مثل هذه المرتبة يرى العبد عياناً ان ارادة الله تتبلور في وجود أو انعدام الشيء: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[1]

وعلى الطرف الآخر وفي اقصى القطب المعاكس نقطة لا يرى الانسان شيئاً سوى نفسه، نقطة يضع فيها نفسه بديلاً عن الله، وبندائه «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ» يدّعي الالوهية! ويريد كل شيء وكل انسان له ولخدمته، خاضعاً خاشعاً له، ولا يرتضي ارادة أو رغبة سوى ارادته ورغبته.

وبين هذين القطبين مراتب لا حصر لها تشير الى نقطة اللانهاية. فلو لم يكن الانسان موحداً في مقام «العبد الخالص» وهو مقام التوحيد الخالص، فمن الطبيعي انه سيكون مزيجاً من التوحيد والشرك في أية مرتبة اخرى، وهكذا هو حال الكثير من الموحدين المؤمنين بالله والانبياء والكتب، أي تشاهد في ايمانهم شوائب من الشرك، وهذه المراتب من الشرك ليست بتلك المراتب التي تمسُّ اصل ايمان الانسان وسعادته، لكنها تؤثر حتماً في تدنّي درجات كماله. وعادةً ما يجهل البسطاء من الناس هذا الشرك، فيمضون حياتهم مشركين دون علمٍ منهم، فيغادرون الدنيا في خاتمة المطاف تلفُّهم حالة الغفلة والجهل بهذا الشرك الخفي، لكن العظماء والكُمَّل في ايمانهم ومعرفتهم يعرفون هذه القضية.

الشرك والكفر الخفي

نقل عن الشيخ الأنصاري أنه أوصى بقضاء صلواته لمدة طويلة، لأنه كان يتلذّذ بها،

---

١. يس: ٨٢.

فاعتبره منافياً لإخلاص النيّة، فقارنوا بين هذه النظرة وهذا المقام للشيخ الانصاري مع امثالي حيث ان اقصى امانيّنا وجهودنا مدى الحياة هو ان نصل نقطة نشعر فيها باللذة حين اداء الصلاة وليس معلوماً ان نصل اليها في خاتمة المطاف، فيما الشيخ الانصاري يستغفر مما يتمناه الكثير منا طول حياته! فهو يخشى لئلا تكون هذه اللذة صنماً يحول بينه وبين الله، فهذه مراتب من الشرك الخفي والاخفى الذي ربما يصبح عائقاً دون مزيد من الرقي والتكامل لكنها لا تُدخل الانسان الى جهنم، ولعل الآية ١٠٦ من سورة يوسف تشير الى هذا الامر: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ).

على أية حال، هذا شرك خفي وضئيل لا يسلم منه الّا الخواص من اولياء الله، فلو تمعنّا في ذواتنا سنجد حتى عباداتنا الصحيحة والراقية جداً ممزوجة بالكثير من حالات الشرك وليس نوعاً واحداً! فلربما من النادر ان يحالفنا الحظ لان نصلي بحضور تام للقلب، صلاة تكون جميع حواسنا متوجهة الى الله منذ بدايتها وحتى نهايتها وتجري دموعنا ونشعر بكامل الخضوع والخشوع. ولكن اذا ما قيل لنا: انك ستساق الى النار حتى وان أدّيت هذه الصلاة، فهل سنصلي؟! وهل سنكون على استعداد لاداء مثل هذه الصلاة اذا ما قيل لنا: إنك لن تثاب وتؤجر ابداً على هذه الصلاة؟ من هنا يتضح ان ثمة نوايا اخرى تتدخل في هذه الصلاة. وذاك هو الشرك الخفي. يقول العبد الخالص الامام السجاد عليه السلام: **الهي لو قرنتني بالاصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللتَ على فضائحي عيون العباد، وامرت بي الى النار، وحُلْتَ بيني وبين الابرار ما قطعت رجائي منك، وما صرفتُ تأميلي للعفو عنك ولا خرج حبُّك من قلبي.**[1] وهذه الامور هي التي ادت الى ان يقال: **«حسنات الابرار سيئات المقربين»**، فالشيخ الانصاري يعتذر ويستغفر عن تلك الصلاة التي نعدّها من ارقى حسناتنا!

ونؤكد مرة اخرى بالرغم من وجود هذه المراتب من الشرك وأن أغلبنا ممن ابتُلي

---

١. مصباح المتهجد، ص ٥٩٠.

بها، لكنها ليست بذلك الشرك الذي يُعد ذنباً لا يُغفر أبداً: (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ).[١] فاذا ما وجد هذا الشرك فلن يُقبَل اي عمل من الانسان وان ايّ عمل صالح يقوم به يصبح بمثابة هواء في شبك ومصيره الزوال: (وَقَدِمْنا إِلىٰ ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً).[٢] فلا أثر لأية عبادة مع وجود مثل هذه المرتبة من الشرك والكفر وهو شرك وكفر جلي، وكما يعبر القرآن: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّٰى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ).[٣] فالكافرون يظنون اعمالهم الصالحة التي يقومون بها ماءً صافياً سينتفعون به، لكنهم حين يعطشون ويحتاجون له يرون ان ليس ثمة ماء بل هو سراب يتراءى كماء. ولقد كانت اعلى مراتب هذا الكفر والشرك لدى فرعون، ولكن ربما تكمن مراتبه المتدنية فينا ايضاً، فعلينا الحذر لئلا تتنامى ويجب ان نزيلها.

صحيح اننا لم نسقط في مثل هذا المستنقع من السقوط فنقول مثل ما قال فرعون «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ»[٤] لكن وجودنا ينطوي على مرتبة من تلك الفرعونية والانانية اذ تحصل لنا موارد ـ كما هو شأن فرعون ـ تتجلى الحقيقة امامنا لكننا ننكرها لانها لا تصب في صالحنا.

ان الكافر من «الكفر» وتعني التغطية، وقد سمّي الكافر كافراً لانه يُحجِّم الحقيقة، اذن لو اتضحت الحقيقة أمامنا وقمنا بتحجيمها وانكارها فان فينا مرتبة من الكفر، وهذا الكفر لا ضرر فيه مادام ضئيلاً، لكنه اذا استفحل سوف يضرّ باصل الايمان وتقويضه والقضاء عليه، من هنا ينبغي عدم المرور مرور الكرام على عبادة الاهواء والذات الكامنة فينا وتطل برأسها احياناً، فانها الفرعونية الصغيرة التي إن اطلقنا العنان لها فليس من المستبعد أن تجرفنا يوماً لان ننادي «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ».

---

١. النساء: ٤٨ و١١٦.
٢. الفرقان: ٢٣.
٣. النور: ٣٩.
٤. النازعات: ٢٤.

«عبادة الذات» مصدر سقوط الانسان

ان منبع كافة ضروب السقوط هي «عبادة الذات»، فلو تفحصنا الانسان في أية مرتبة من مراتب الشرك والكفر، سواء كان خفياً أو جلياً، سنجده مبتلياً بعبادة الذات بنفس الدرجة. واذا ما اردنا ان نتخذ ملاكاً يميز لنا ما اذا كان أيٌ من افعالنا يسير على منحنى خط الرقي والتكامل أو على منحنى خط الانحدار والهبوط فيجب ان نرى هل انني أقوم بهذا الفعل لان الله هو الذي اراده حقاً أم لانني أريده؟ ففي بعض مراتب الشرك الخفي ربما تكون عبادة الذات من الخفاء بحيث تنطلي علينا ايضاً.

على أية حال لا ينبغي الغفلة عن تسويلات النفس، ومن تسويلات النفس انها ربما تلج المنطق والاستدلال دفاعاً عن عبودية الذات وتحاول إقناع الانسان بان العمل الذي يقوم به هو عين العقل والمنطق، على غرار ما قام به ابليس لتبرير عبوديته لذاته، فلغرض ان يتمرد على خط العبودية ويسلك طريق الانانية انبرى مجادلاً الله علمياً ـ حسب زعمه ـ وجاء بدليل منطقي يُخطّئ سجوده لآدم! نعوذ بالله من مثل هذه التسويلات.

وفي زماننا هذا نعرف أُناساً قد ابتُلوا بهذه المحنة، فنتيجة لتفاقم الانانية في نفوسهم ضيّعوا ايمانهم فاخذوا يطلقون كلاماً يعجّ بالكفر في قالب من الاستدلال العلمي المبرهن ـ حسب زعمهم ـ وبعضهم من الذين درسوا لعدة سنوات في الحوزة العلمية وعلى معرفة بالقرآن والحديث والفلسفة والكلام، ومنهم مَنْ ترعرع لاكثر من اربعين عاماً في احضان الاسلام وكان له شأن مع القرآن لكنه طرح فجأة نظرية تقول «ان الايمان لا يجتمع مع اليقين، والايمان انما يتبلور على الدوام حينما يكون الانسان جاهلاً وشاكاً بمسألة ما»! هذا كلام عجيب جداً ممن شهد القرآن وقرأه وعرفه ولما يزل يتحدث ـ ظاهرياً ـ عن الاعتقاد بالقرآن الذي دأب على ذم التعويل على الظن والشك في مسائل اصول العقائد ويدعو الانسان على اكتساب اليقين، ففي مطلع

القرآن وفي الآيات الاولى من سورة البقرة تحدّث القرآن واصفاً المؤمنين بان اليقين هو اول سماتهم: (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ).[١] فلقد اعتبر القرآن الشك في المسائل ذات الصلة بالايمان خللاً وثغرة لدى الفرد، واصفاً امثال هؤلاء الناس بالسطحية وخفة العقل: (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ).[٢] فالذين يجادلون في الآخرة تنفد قابليتهم العلمية ويُستفرغ وعاؤهم العلمي! وليس فقط ينفد علمهم بل يدورون في حالة من الشك والريبة، بل الادهى انهم يصابون بالعمى ازاء هذه الحقيقة ويعجزون عن مشاهدتها.

علاقة الايمان باليقين

لقد ورد التأكيد في سيرة النبي صلى الله عليه وآله والائمة عليهم السلام على اكتساب اليقين فيما يخص هذه المسائل والتحذير من الشك والارتياب، ومن امثلة ذلك الحديث الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وآله والشاب في المسجد، ففي صبيحة أحد الأيام دخل النبي صلى الله عليه وآله المسجد فرأى شاباً ضعيفاً نحيفاً فقال له: كيف اصبحت؟ فاجاب: اصبحتُ موقناً، فقال صلى الله عليه وآله: وما هي علامة يقينك؟ قال: لقد اصبحت وكأني انظر الى اهل الجنة وهم فيها منعّمون، والى اهل النار وهم فيها معذبون، فلم أنَم ليلي لذلك. فدعا له النبي صلى الله عليه وآله وقال: ثبّتك الله.[٣]

نعم، فالايمان الذي يريده الله ورسوله هو الايمان المقترن باليقين الذي هو من القوة بحيث كأن الانسان يرى الآخرة بجنتها ونارها في هذه الدنيا.

كما ذكرت لليقين مراتب ودُعي المؤمن لان يتجاوز «علم اليقين» الى «عين اليقين» وان لا يكتفي بذلك بل يسعى لبلوغ «حق اليقين» ايضاً، ومع ذلك ينبري من يدّعي الاسلام فيزعم ان اليقين لا يجتمع مع الايمان!

---

١. البقرة: ٤. ٢. النمل: ٦٦.
٣. بحار الانوار: ج ٧٠، الباب ٥٢، الرواية ١٧.

ما السرّ في هذا الأمر؟ ولماذا يقولون ان الايمان متلازم مع الجهل والشك ولا يجتمع أبداً مع اليقين بالرغم من كثرة الآيات والروايات الدالة على تلازم الايمان واليقين في نظر الاسلام؟ والقائل من يمتلك احاطة الى حدٍّ كبير بالآيات والروايات، ويؤمن ـ حسب قوله ـ بالاسلام والقرآن، فلا يمكن القبول بان مثل هذا الانسان جاهلٌ بهذه الآيات والروايات! فما المشكلة اذن؟ المشكلة هي انه ونتيجة لعبودية الذات وصل الى نقطة: اضلَّه الله على علم. وان القرآن يصرّح في هذا المجال: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ).[١]

كيفية الضلال الى جانب العلم

نعم، المشكلة تكمن في عبادة الهوى، فاذا ما وضع امرؤ نفسه موضع الله واستبدل ارادته بارادة الله واصبح تابعاً لهواه فان الله يضلّه على علم. وبطبيعة الحال ان الله لا يناصب احداً العداء، والمراد ان الله جعل الضلالة نتيجة طبيعية لاتّباع الهوى كما يلي: (إِنَّ اللهَ لاٰ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).[٢] فلقد انذر الله والانبياء الانسان بما فيه الكفاية وحذّروه من الطغيان والعصيان، ونبّهوه الى انه ان لم يلتزم الحيطة في خضم هذه التقلبات وسار عجولاً فسيفلت زمام نفسه من يديه ويلقي به حصان النفس الجموح على الارض فيحطّم رأسه، فمن لم يكترث لهذه التحذيرات وأسرع مبادراً دون مواربة في خِضمّ معاندة الله والنبي ﷺ والقرآن والعصيان ضد الله سبحانه وتعالى، فستحيق به العواقب الطبيعية لذلك ويصل مرحلة يسلك معها طريق الانكار بالرغم من العلم: أَضَلَّهُ اللهُ عَلىٰ عِلْمٍ.

ان النبي ﷺ، نبي رأفة ورحمة وهو حريص على هدايتنا: (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

---

١. الجاثية: ٢٣.　　٢. يونس: ٤٤.

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ).[١] ولكن لا جدوى من النبي ما لم يشأ الانسان بنفسه، لان هداية الانسان اختيارية. وان الله يخاطب النبيﷺ في القرآن بان يدع امثال هؤلاء وشأنهم: (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاةَ الدُّنْيا).[٢] فهؤلاء ونتيجة لاتّباعهم اهواءهم وعبوديتهم لذواتهم، قد اوصدوا امامهم جميع السبل وجعلوا على ابصارهم واسماعهم غشاوة لئلا يروا الحقيقة أو يسمعوها، وسواء بالنسبة اليهم ان حذرهم الله ورسوله أم لا: (وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ * وَسَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ).[٣]

ما الذي يُمكن توقُّعه ممن وصل به الامر ان يقول بكل صراحة: انني اتقبل وارتضي كلام «توني بلير» اكثر من كلام الامام السجاد عليه السلام؟ وكيف يهدي الله مثل هذا الانسان؟ واي اثر لانذار النبيﷺ فيه؟ فانذار النبيﷺ انما يؤثر في من يضمر في قلبه الخشية من الله سبحانه وتعالى، وليس مَنْ لا يأبى التمرد على الله: (إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ).[٤]

وخلاصة القول: ان ذروة رقي الانسان وتكامله هو القرب من الله، وليس لذلك سوى طريق واحد لا اكثر هو عبودية الله، والنقطة المعاكسة له السقوط حيث ينحدر الى اسفل السافلين وله طريق واحد ايضاً هو عبودية الذات.

---

١. التوبة: ١٢٨.
٢. النجم: ٢٩.
٣. يس: ٩ ـ ١٠.
٤. فاطر: ١٨.

الدرس السابع

بحث في هوية الانسان

الغفلة، السبب في سلب الهوية الانسانية

اشرنا في الدروس السابقة الى ان من الفوارق الاساسية بين تزكية الانسان وتزكية الشجرة أن التزكية في الانسان اختيارية، على عكس الشجرة التي يُفترض بها انتظار البستاني كي يبادر لإعداد مقدمات هذا العمل لها، كما ان الشجرة في تزكيتها طوع الظروف التي يوفرها لها البستاني والبيئة وبشكل عامّ الآخرون، ولا خيار لها أبداً في انتقاء هذه الاسباب والظروف والاذعان أو عدم الاذعان لها، لكن الانسان هو الذي يقرر بنفسه كيفية مسار التزكية.

من ناحية اخرى، ثبت في الفلسفة ان المعرفة والعلم أحد مبادئ صدور الفعل الاختياري، والفاعل المختار لا يقوم بفعل شيء ما لم يمتلك تصوراً وتصديقاً إزاء ذلك الشيء، من هنا فان التزكية ـ وهي فعل اختياري ـ منوطة بالعلم والمعرفة، وان أول خطوة في طريق المباشرة بهذا الفعل الاختياري هي ان يتمتع الانسان بمعرفة مبدأ ونهاية ومسار التزكية. ولن تحصل التزكية ما لم يتبلور هذا التصور والتصديق، لذلك فمن الطبيعي ان أول شرط لانطلاق الانسان في حركته التكاملية باتجاه القرب من الله هي ان يعلم بهذه المسألة ويخرج عن حالة الغفلة والجهل بها، فمادام الانسان لم يُزح حجاب الغفلة جانباً، فليس ان لا تحصل له التزكية فحسب بل لا يعثر على موقعه في خارطة الوجود، لذلك فاننا نرى ان هذا العنصر «الغفلة» اعتُبر في بعض آيات القرآن

سبباً في حرمان الانسان من السعادة: (وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ).[1]

في هذه الآية يصرح تعالى ان مصير الكثير من الجن والانس سيكون عذاب جهنم، ويجعل ثلاثة عوامل لتبرير وتفسير هذه المسألة وهي:

١ـ ان لهم قلوباً لكنهم لا يستعينون بها لإدراك الحقائق.

٢ـ ان لهم اعيناً لكنهم لا يستخدمونها لرؤية مسار البصيرة.

٣ـ ان لهم آذاناً لكنهم يفتقدون السمع.

ان القلب والعين والاذن تُعرف في قاموس القرآن الكريم «ادوات للمعرفة» بالنسبة للانسان، من هنا يستفاد من هذه الآية ان ما يؤدي الى شقاء الانسان، أو ما يعدّ من اهم علل واسباب الشقاء على اقل تقدير هو الاستخدام غير الصحيح لادوات العلم والمعرفة، فيصرح تعالى: ان الذين لا يستخدمون هذه الادوات للوصول الى الحقيقة انما هم كالانعام، لماذا؟ لان الحيوانات تمتلك آذاناً وعيوناً وقلوباً لكنها بحيث تستطيع أن تنال بها المعرفة الانسانية، واذا لم يستخدم الانسان آلات المعرفة هذه التي تمثل مصدر الاختلاف الحقيقي بينه وبين الحيوانات فانه يتدانىٰ الى مستوى الحيوان. ثم تضيف الآية: بَلْ هُمْ أَضَلُّ، فاذا لم ينل الحيوان معرفة الحقيقة فعذره في ذلك انه لا يمتلك الادوات الضرورية لهذه المعرفة، بيد ان الانسان الضال رغم امتلاكه لهذه الادوات فانه يتعمد اغماض عينيه وسد أُذنيه وفهمه بوجه الحقيقة.

الامر الجوهري في المقطع الاخير من الآية هو: «أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» فهؤلاء انما يقعون بهذا الابتلاء وينحدرون بحيث يصبحون ادنى من الحيوان بسبب تماديهم في الغفلة.

---

١. الاعراف: ١٧٩.

الغفلة عن النفس

السؤال الذي يتبادر هنا هو: هل ان مراد هذه الآية مطلق الغفلة أم غفلة معينة؟ من المسلّم به ليس المراد ان أي جنٍّ أو انس تطرأ لديه ادنى غفلة فان هذا الحكم يصدق بحقه، فنحن في معظم الاوقات نغفل عن الكثير من الاشياء، وانه لافتراض نادرٌ جداً ان يكون هنالك مخلوق ذو شعور يتمتع بحالة من الانتباه في جميع اوقاته وآناته ولا تتطرق اليه الغفلة ابداً.

ومن غير الممكن ان يكون مراد الآية الغفلة المطلقة، فإنّ الغفلة المطلقة تعني استمرار حالة الغفلة على امتداد حياة الموجود ذي الشعور ولا ينتبه ولو لحظة واحدة. من الواضح انه افتراض يشبه المحال، الّا ان نفترض ان يغط الانسان مثلاً في حالةٍ من الاغماء منذ بداية ولادته ويبقى على هذه الحالة لمدة ستين عاماً ثم يرحل عن الدنيا!

بناءً على هذا فان المراد في هذا المقطع «أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» غفلة خاصة، ولابد من ان نبحث ونرى الغفلة عن اي الاشياء هي التي تؤدي الى سقوط الانسان.

لو اردنا ـ بغض النظر عن الآيات والروايات واستناداً للعقل فقط ـ ان نحلل ما هو السبب الذي يؤدي لان يغدو الانسان على قدم المساواة مع الحيوانات بل اسوء منها، لتسنّى القول انه غفلته عن انسانيته، فلو تناسى الانسان انسانيته فانه يبتلي بمثل هذا السقوط.

ولكن هذا الجواب غامضٌ، فما هي «النفس الانسانية»؟ يمكن القول في الاجابة: اننا نشترك مع الحيوانات في الكثير من الامور؛ فالحيوانات تأكل ونحن نأكل، والحيوانات تعطش وتجوع ونحن كذلك، والحيوانات تصاب بالارهاق وتحتاج للراحة وهكذا نحن، وللحيوانات غريزة وحاجة جنسية ونحن كذلك نمتلكها، وبامكاننا ان نسمّي مثل هذه الامور «النفس الحيوانية»، «النفس الطبيعية»، «النفس المادية» أو

تعابير من هذا القبيل، ومن المسلّم به ان المراد ليس الانتباه الى نظائر هذه الامور لان الحيوانات تهتم بهذه الامور ايضاً اولاً، وان الناس جميعاً بما فيهم الكفار والمشركون ليسوا بغافلين عن الاكل والنوم والشهوة واللذائذ الحيوانية والمادية طوال حياتهم ثانياً. وعليه ليست الغفلة عن هذه الامور هي التي تؤدي الى شقاء الانسان. ولابد ان نعثر على امور تتوقف عليها انسانية الانسان، والغفلة عنها هي التي تهبط بالانسان عن الانسانية وتضعه في زمرة الحيوانات بل اسوء منها، بيد ان السؤال هو: ما هي «الماهية الانسانية»؟ يُعبّر عن هذه الماهية احياناً بـ«الماهية الالهية»، «الماهية الملكوتية» في مقابل «الماهية الناسوتية» وما شابه ذلك.

تناسي الانسانية، عاقبة الغفلة عن الله

لقد وضع القرآن الكريم بين ايدينا المفتاح في هذا المجال بقوله: (اَلَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ).[١] فيتضح من هذه الآية ترابط «النفس الانسانية» والانسان بما هو انسان مع الله، وذلك لاعتبار تلازم نسيان الله مع نسيان الذات، فاذا نسي امرؤٌ الله فهو سينسى نفسه ايضاً، واذا ما غفل احدٌ عن الله فسيغفل عن نفسه كذلك، وان عقوبة نسيان الله هي ان الانسان يذكر نفسه! ولو انه لم ينس الله لما ابتُلي بهذه العقوبة، وهنا بامكاننا اكتشاف علاقة وتلازم آخر وهي ان الانسان اذا عرف نفسه الحقيقية والانسانية ولم يَنْسها فهو سيعرف الله ولم يَنْسه ايضاً.

ان لـ«كيركيغارد»[٢] مؤسس الفلسفة الوجودية ـ وكان قسيساً مسيحياً ـ كلاماً مشابهاً حيث يقول: «اذا نسي الانسان الله فقد نسي نفسه» وبما انه عالم مسيحي فثمة احتمال قوي بانه قد اخذ هذا الكلام من التعاليم الدينية، ولكن على اية حال ان هذا الكلام قد اشار اليه القرآن: نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ.

---

١. الحشر: ١٩.

2. Kierkegaard.

ليسوا قلة الذين يتمثل تحليلهم بشأن انفسهم بما يلي: «أنا مخلوق اجوع واعطش فانني احتاج للماء والطعام، وهنالك غرائز جنسية في كياني تُشبع عن طرق معينة، وأنا احتاج للنوم والراحة والرفاهية، واتمنى ان امتلك داراً وسيارة حديثة وانني أُريد الاستمتاع والتلذذ فلابدّ أن أصرف طاقاتي لأجل الحصول على هذه المبتغيات».

من كان يمتلك مثل هذا التصور عن نفسه فهو حيوان ليس الّا، وان كان يحمل شهادة الدكتوراه ويحمل في صدره علم آلاف الكتب: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً).[1] وغاية الفرق بينهما ان الحمار ـ مثلاً ـ لا يرتدي بزةً وسروالاً ولا يضاهي الانسان في نظافته وأُبهته وجماله الظاهري! فاذا ما جاع الحيوان سعى نحو الطعام، واذا ما شعر بالارهاق فهو يرتاح، واذا ما عطش فهو يشرب الماء، واذا تحركت عنده الغريزة الجنسية مال الى الجنس الآخر، ناهيك عن ان هذا الحيوان يفوق بعض الناس شرفاً بدرجة واحدة وهي انه يميل الى الجنس الآخر، لكن بعض الناس يميلون الى الجنس المشابه حينما يشعرون بالهيجان الجنسي!

ان الانسان الذي لايُرى فيه على امتداد حياته سوى الاكل والنوم واللذة والشهوة وفي بعض الاحيان قتل الابرياء وافتراسهم، هل يمكن القول بانه افضل من الكلب؟!: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ).[2] ويعبّر امير المؤمنين عليه السلام ـ وهو تلميذ القرآن ـ عن امثال هؤلاء بقوله: كالبهيمة المربوطة همُّها علفها.[3] فالانسان الذي هو كالحيوان كل همه الاكل والطعام ما هي افضليته على الحيوان؟!

دور التوجه للمبدأ والمعاد في صياغة هوية الانسان

مَنْ يفهم عن وجود هذه المظاهر المادية والحيوانية فقط ويهتم بها وحدها خلال حياته هو ذاك الذي قد غفل عن هويته الانسانية.

---

١. الجمعة: ٥. ٢. الاعراف: ١٧٦.

٣. بحار الانوار: ج ٣٣، الباب ٢٩، الرواية ٦٨٦.

ان الفارق بين الانسان والحيوان يكمن في ان الانسان يتميز ببُعد (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)،[١] الذي يفتقده الحيوان، وان العناية بهذا البُعد هي التي تُخرج الانسان عن الحيوانية، وان تنمية هذا البعد هي التي تجعل الانسان «انساناً»، فاذا مااردنا ان نعرف حقيقتنا فيجب ان نرى ما هي (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) وما هي مقتضياتها؟

روي عن امير المؤمنين عليه السلام قوله: رحمَ الله امرءاً عرف من أين وفي أين والى أين.[٢]

فاذا ما اكتسب امرؤ ثلاثة معارف واستطاع الاجابة على ثلاثة اسئلة رئيسية فقد عرف نفسه، والاسئلة هي:

١ـ من اين جئتُ؟ واين مبدأي؟

٢ـ اين أنا الآن واين اقف؟

٣ـ الى اين اذهب وما هي غايتي؟

ان الجواب عن هذه الاسئلة الثلاثة يمثل في الحقيقة المواضيع الثلاثة التي تـؤلف اصول الدين وهي: التوحيد، النبوة والمعاد. فمعرفة اين كنّا واين يكمن مصدر وجودنا وأصله، انما هي التوحيد ومعرفة الله، ومعرفة الى اين نُقبل وأية وجهة نتحرك نحوها انما هي معرفة المعاد، وما يجب علينا فعله في هذه الدنيا ونحن ما بين المبدأ والمعاد كي نصل الغاية بسلام، انما هو يتعلق ببعثة الانبياء والنبوة.

من هنا ليس صدفةً ان اصبحت هذه الاصول الثلاثة اصولاً للدين، وهي منسجمة بشكل تام، فالدين قد جاء لتحقيق سعادة الانسان، واذا ما اراد الانسان نيل سعادته الحقيقية فلابد ان يضع امام نفسه الاجابة الصحيحة عن هذه الاسئلة الثلاثة.

اذا لم يدرك الانسان علاقته مع الله فلا مجال في ان يتمكن معرفة نفسه: (نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)، فنسيان الله متلازم مع نسيان «النفس» وضياعها، فليس الانسان سوى «فعل الله»، والانسان ليس سوى «التعلق بالله» والانسان ليس سوى

١. الحجر: ٢٩؛ ص: ٧٢.

٢. راجع: *الاسفار*: ج ٨، ص ٣٥٥.

«الارتباط بالمبدأ الذي يفيض عليه وجوده»، فاذا لم يعرف الله فمن الطبيعي ان «فعل الله» و«التعلق بالله» و«الارتباط الوجودي بالله» لن يكون واضحاً ومفهوماً بالنسبة له لان «نفسه» ليست أمراً سوى هذه الامور. ان توضيح هذه الموضوعات وادراكها بدقة يحتاج الى بحوث فلسفية معمّقة، ولكن على اية حال، ان الحقيقة ليست سوى ذلك.

بعد ان عرفنا الله وعلمنا باننا «فعله» و«مخلوقاته وموجوداته» من الطبيعي ان يتبادر هذا السؤال مباشرة وهو لماذا قام الله بهذا الفعل وخلق هذا المخلوق؟ وما كان هدفه من بثه الوجود فيَّ وايجادي؟ والتحقيق للعثور على اجابة لهذا السؤال يوصلنا الى بحث المعاد، أي ان هذين السؤالين وهذين الموضوعين ارتبطا مع بعضهما بشكل منطقي وطبيعي، فالسؤال الاول هو: اين مبدأي؟ والجواب الصحيح هو: أنا فعل الله ومخلوقه، والسؤال الثاني هو: لماذا فعل الله ذلك وخلقني؟

وبسبب الترابط المنطقي على وجه الدقة نرى ان «الايمان بالله وباليوم الآخر» أي المبدأ والمعاد يذكران معاً وسويةً في القران الكريم. تأمّل هذه النماذج:

ـ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.[١]

ـ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صٰالِحاً فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ.[٢]

ـ إِنَّمٰا يَعْمُرُ مَسٰاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.[٣]

ـ لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كٰانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ.[٤]

ـ لاٰ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوٰادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ.[٥]

ـ ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.[٦]

«الله مبدؤنا» و«اليوم الآخر»، يوم القيامة نهاية مسيرنا وغايتنا. فاين القيامة يا

---

١. البقرة: ١٧٧.
٢. المائدة: ٦٩.
٣. التوبة: ١٨.
٤. الاحزاب: ٢١.
٥. المجادلة: ٢٢.
٦. الطلاق: ٢.

تُرى؟ انه مكان فيه الجنة والنار، فيه «لقاء الله» ومجالسة الابرار وفيه سخط الله والمكوث مع الافاعي والعقارب. ومن الطبيعي والمنطقي ايضاً وبعد الحصول على الجواب ان يُطرح سؤال ثانٍ هو: ما الذي علينا فعله كي ننال الجنة ولقاء الله ونأمن النار وسخط الله؟ ماالعمل والقانون الذي يُبقينا على الصراط المستقيم ما بين المبدأ والمعاد ويحول دون انحرافنا عن الطريق؟ واين تقع دنيانا التي نعيشها الآن من خارطة الوجود، وما هي خصائصها؟ هل هي ممرٌ ومعبرٌ الى العالم الآخر فقط، أم انها هي الغاية القصوى؟

هذه الاسئلة هي التي تقودنا الى بحث النبوة وبعثة الانبياء ونزول الاديان السماوية، فالانبياء والاوصياء أناسٌ جاؤوا ليقودونا في مرحلة ما بين المبدأ والمعاد ويميزوا لنا الطريق الصحيح من الطرق الضالة، والدين هو البرنامج والقانون الذي بعثه الله الى الانسان عن طريق الانبياء ليأخذ بيده الى الجنة وينأىٰ به عن جهنم ويوصله الى غايته بسلام.

ان نهج *البلاغة* لامير المؤمنين عليه السلام - أول اوصياء خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله - مفعمٌ بالمضامين التي تحاول كشف حقيقة هذه الدنيا امام الانسان وتوعيته بما عليه ان يتصرف ازاءها، فالكثير من خطب نهج *البلاغة* تتضمن اموراً في هذا المجال: «ان الدنيا دارُ مجاز»،[1] «الا وان هذه الدنيا... ليست بداركم ولا منزلكم الذي خُلقتم له».[2]

الآن حيث تبين ان معرفة «النفس» متلازمة مع معرفة الاصول الثلاثة «التوحيد»، «النبوة»، «المعاد»، فان النتيجة المنطقية لذلك هي ان الغفلة عن النفس متلازمة ايضاً مع الغفلة عن جميع أو بعض هذه الاصول الثلاثة، تلك الغفلة التي تمثل سبباً وعاملاً في اتصاف بعض الناس بـ«كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»، انها الغفلة عن التوحيد

١. نهج *البلاغة*: ترجمة وشرح فيض الاسلام، الخطبة ١٩٤.
٢. نفس المصدر: الخطبة ١٧٢.

والنبوة والمعاد، ولهذا السبب ربط القرآن في آيات اخرى منه انحراف الاشقياء والكفار بالغفلة عن أحد هذه الامور:

ـ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ.[١]

ـ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ.[٢]

ـ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.[٣]

بناءً على هذا، فالانسان بحاجة الى العلم لغرض ان ينطلق بمسيرته الانسنية في قوس القرب الى الله، ولكن العلم بماذا؟ انه العلم بحقيقة نفسه، وقوامه ثلاثة معارف هي: معرفة الله، معرفة اليوم الآخر وطريق الامان الذي ينتهي الى الغاية.

---

١. الانبياء: ١.
٢. يونس: ٧ ـ ٨.
٣. ق: ٢٢.

الدرس الثامن

اليقظة من الغفلة

لمحة عن الدرس السابق

اتضح فيما سبق ان اساس جميع المفاسد وانحرافات الانسان وسقوطه هي «الغفلة» وقد اشرنا في هذا المجال الى الآية ١٧٩ من سورة الاعراف وبعض الآيات الاخرى، واوضحنا بانه ليس المراد من الغفلة مطلق الغفلة بل غفلة خاصة، وفي ضوء التحليل الذي قمنا به توصلنا الى هذه النتيجة وهي ان المراد من هذه الغفلة هي الغفلة عن الهويّة الانسانية. فثمة بُعد في وجودنا لا نختلف فيه مع سائر الحيوانات بل نشترك معها في هذا البُعد، ونحن ليس فقط لا نغفل عن هذا البعد من وجودنا بل ان معظم اهتمامنا منصبٌ عليه، وهنالك بعد آخر في وجودنا لا يمكن مقارنته الى ذلك البُعد فهو الذي يمثل مصدر تكليف الانسان ويمهد لعروجه الى حيث جوار الله والقرب منه والوصول إلى مقام الخلافة الالهية، وان الطبيعة الانسانية للانسان ترتبط في الواقع بهذا البعد من وجوده.

ان محاولتنا بيان حقيقة هذه الطبيعة امرٌ من الصعوبة بمكان، لكننا نعلم على نحو الاجمال ان في الانسان حقيقةً تؤدي العناية بها الى رقي الانسان وتكامله، فيما يفضي اهمالها الى سقوطه، وان الكمال الذي يحصل عليه الانسان جرّاء اهتمامه بهذا البعد خاص به، ولا قدرة لأي حيوان بلوغ هذه المرتبة، فمهما كانت الحيوانات على قدر كبير من الذكاء ولها قدرة فائقة على التعلم ولكن تبق تفصلها اميالٌ عن تلك القمة الشاهقة من الكمال الانساني، وفي المقابل ان للانسان القابلية على السقوط ما لا قدرة

لأي حيوان عليه، فليس ثمة حيوان يستحق العذاب الابدي والخلود في النار جرّاء سقوطه وعدم تكامله.

انها «الهوية الانسانية» للانسان التي توفّر له هذه الدرجة من امكانية التكامل او السقوط. فاذا غفلنا عن هذا البعد في وجودنا وأولينا العناية للبعد الحيواني والمادي فينا فقط نكون قد نزلنا بانفسنا الى مستوى الحيوانات، فمن كان جلّ همّه النوم والاكل والشهوة فلا يسعه ان يضع لنفسه نقطة تفاضل وامتياز عن الحيوان، من يقول تعالى في القرآن واصفاً امثال هؤلاء: **أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**. ان البعد الحيواني في وجودنا مطيّة ينبغي ان يستخدمها البعد الانساني فينا لبلوغ الكمال، من هنا حريٌ بنا ان لا نستبدل الراكب بالمركوب ونكرس البعد الانساني لخدمة البعد الحيواني. فيجب ان يمتطي البعد الانساني البعد الحيواني ويحكمه، وليس ان يخضع البعد الانساني لهيمنة البعد الحيواني، وعلينا ان نمسك بعنان البعد الحيواني بايدينا لا أن نسلّمه زمامنا.

بناءً على هذا، لغرض الابتعاد عن الحضيض الحيواني والسقوط في «**أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**» يتعيّن علينا ان نفيق من «الغفلة عن النفس» وننتبه الى هويتنا الانسانية وان نبدّل الغفلة الى يقظة.

قلنا في الدرس السابق ان لازمة اليقظة والعناية بالهوية الانسانية، معرفة ثلاثة امور هي:

١ـ من اين مبدأي، ومن اين وُجدتُ؟

٢ـ ما هو مآلي والى اين سأنتهي؟

٣ـ كيف اقطع الطريق ما بين المبدأ والغاية؟

وقد اشرنا الى ان الاجابة على هذه الاسئلة الثلاثة تتمثل في الواقع بالاصول العقائدية الثلاثة وهي: التوحيد، المعاد والنبوة. فالجواب الصحيح على السؤال: من اين نحن؟ هو: نحن من الله، وهو اصل التوحيد. والجواب الصحيح على السؤال: اين

نتّجه؟ هو: اننا نسير نحو الخلود ونيل ثواب الله أو عقابه الابدي، وهذه هي نهاية مسيرتنا. وهذا اصل المعاد. والجواب على السؤال: ما هو برنامجنا ما بين المبدأ والغاية؟ هو: ان نعمل وفقاً للتعاليم التي ارسلها لنا الله سبحانه وتعالى عن طريق الانبياء، وهذا اصل النبوة.

من هنا فان متعلّق الغفلة التي تهوي بالانسان حتى «أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» واحدٌ من هذه الامور الثلاثة، لذلك فان آيات اخرى من القرآن تذكر الغفلة عن الله وعن القيامة وآيات الله لدى بيانها للسبب في ابتلاء طائفة من الناس بمصير مشؤوم وبعذاب الله، فيقول تعالى مثلاً: (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ).(١)

الخطوة الاولى للافاقة من الغفلة: معرفة صورة المسألة

ان اول خطوة لغرض الافاقة من الغفلة ازاء اي شيء هي ان يعرف الانسان «صورة المسألة»، فمن الطبيعي اننا ما لم نمتلك تصوراً عن اصل الموضوع فلن نسأل عنه أبداً، فهنالك الكثير من القضايا التي تنطوي عليها العلوم على اختلافها ونحن نجهلها والسبب هو اننا نجهل وجود مثل هذه الموضوعات والقضايا من الاساس. وبعبارة اخرى اننا نعلم احياناً باننا نجهل المسألة الفلانية. فنحن هنا نعرف صورة المسألة، بالرغم من عدم اتضاح جوابها بالنسبة لنا، لكننا قد نجهل اننا لا نعلم، وهنا صورة المسألة بالذات ليست واضحة امامنا، وجهلنا بالكثير من الامور من الصنف الثاني.

ان مقتضى وجودنا نحن البسطاء من الناس هو اننا غافلون عن الكثير من الامور منذ بداية خلقتنا خلال مرحلة الجنين ومن ثَم الولادة وحتى فترة من سني الطفولة والصبا، وحتى لو اردنا تصور بعض المسائل خلال بعض هذه المراحل فلا قدرة لنا

---

١. ص: ٢٦.

لاننا لم نصل بعدُ الى تلك الدرجة من النضوج والرشد العقلي. ان الكثير من المفاهيم العقلية والانتزاعية من هذا الصنف، فعلى سبيل المثال من الصعب على الطفل في الثالثة من عمره تصور المفاهيم المتداولة في المثلثات أو الرياضيات الحديثة، فتصور هذه المسائل بحاجة الى نضوج عقلي وفكري خاص ناهيك عن تصديقها.

ان الاصول العقائدية الثلاثة أي التوحيد والمعاد والنبوة من سنخ المسائل التي لا يتبلور تصورها بالنسبة لنا حتى لسنوات من هنا فاننا نغفلها بشكل مطلق، فتصور هذه الامور والمفاهيم انما يتيسر لنا في سنين معيّنة حينها يتسنّى استخدام اول مفتاح لخروج الانسان من الغفلة ازاء هذه المسائل، ومن ثَم يصبح بالمقدور طرح الاسئلة حول هذه المفاهيم والتحقيق للعثور على جواب عنها.

طرق تصور صورة المسألة

هنالك ثلاثة عناصر بامكانها ان تلعب دوراً في اتخاذ الخطوة الاولى وتجسيد صورة المسألة في ذهن الانسان، وهذه العوامل هي:

١ـ الاستلهام الفطري.

٢ـ المصاعب والابتلاءات.

٣ـ المعلمون وانبياء الله.

قد يتبادر لبعض الناس هذا التساؤل: مِنْ اين جئتُ والى اين أتّجه؟ بشكل فطري في مرحلة من النضوج الفكري، فيما لا يتبادر هذا السؤال للبعض في الظروف العادية بيد ان أحداثاً ووقائع تطرأ في حياتهم فتُبلور هذه القضية في أذهانهم، والبعض تلتفت عقولهم الى هذه القضية بتلقين من المعلم والمربي والتوجيه الذي يبديه لهم. وثمّة نماذج في القرآن الكريم لكلٍّ من هذه الموارد الثلاثة.

ان ابراهيم عليه السلام من النماذج التي تبادر لهم هذا السؤال في مرحلة ما تلقائياً وبشكل

فطري. فالظاهر ان هذا السؤال: مَنْ هو ربُّ هذا الكون وربُّ هـذه السماوات، قـد تبادر له ﷺ حينما كان ينظر الى السماء. هل هي الشمس؟ أم القمر، أم النـجم؟ لقـد تبلورت هذه الاسئلة في ذهنه ﷺ تلقائياً وبشكل طبيعي دون تـدخُّل مـن سـائر العوامل. وان بعض الاطفال يطرحون نظائر هذه الاسئلة خلال سني الطـفولة دون تعليم من أحد، فيقولون: اين كنا؟ كيف جئنا الى الدنيا؟ وما شابه ذلك من الاسئلة.

ومثال الموارد التي تُلفت انتباه الانسان نتيجة الابتلاء وحلول الظروف المتأزمة، هذه الآية الكريمة: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ).[١] فالرحلات كانت عادة ما تجري في السفن البسيطة بـامكانياتها ومعداتها، من هنا كانت هنالك اخطار كثيرة تحيق بالرحـلات البـحرية وتـتعرض الكثير من السفن للغرق. فالقرآن يصرّح ان هؤلاء عندما كانوا يسيرون في وسـط البحر أو المحيط وتحاصرهم العواصف والامواج العـاتية تـوجهوا الى الله فـيدعونه ويتوسلون اليه: اللّهم نجّنا.

كما يشير القرآن في موضعين منوهاً: اننا وحين ارسالنا الانبياء الى الناس عرَّضنا الناس للضغوط والصعوبات علَّهم يتوجهوا الى الله. في موضع من سـورة الانـعام يقول: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ).[٢] ويقول في سورة الاعراف: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ).[٣]

ان تعريض الانسان للشدة والصعوبة يؤدي الى ايقاظ الفطرة الكامنة لديـه وان يتوجه الى قوة لها القدرة على حلّ مشكلته. والانسان مادام مؤملاً الاسباب الظاهرية فانه يغفل عن الغيب، لكنه متى ما قطع الأمل بالاسباب الظاهرية والمـادية اذ ذاك تتيقظ فطرته ويتوجه نحو القوة الغيبية.

---

١. العنكبوت: ٦٥.
٢. الانعام: ٤٢.
٣. الاعراف: ٩٤.

على أية حال، اذا لم يحصل لدى الانسان التوجه الى الله بشكل فطري ولا جرّاء المصاعب والابتلاءات، فان المعلمين وفي مقدمتهم انبياء الله هم الذين يوجّهون الانسان نحو هذه المسألة، ففي نهج البلاغة اعتُبر ايقاظ فطرة معرفة الله أحد الاسرار أو الحِكَم من ارسال الرسل: **فبعثَ فيهم رسلَهُ وواتَر اليهم انبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّروهم منسيَ نعمته.**

ان لكل انسان ميثاقاً فطرياً مع الله لكنه يغفل عنه، فجاء الانبياء ليطالبوا الانسان بالوفاء بهذا الميثاق، فعمل الانبياء التذكير، والتذكير يستخدم عندما يسبق للانسان المرور بقضية لكنه لا يهتم لها ويغفل عنها، وفي آيات عديدة عُبِّر عن القرآن والانبياء والكتب السماوية بالذِّكر والمذكِّر. فيقول تعالى عن النبي الاكرمﷺ: **(قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)**.[١] في هذه الآية يجعل الرسول تفسيراً للذكر ويطلق على النبي الاكرمﷺ انه ذكر، وقد اطلق على القرآن تعبير الذكر ايضاً: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**.[٢] كما عُبِّر عن سائر الكتب السماوية باسم الذكر: **(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)**.[٣] في هذه الآية أُطلق على كتاب موسى عليه السلام ـ التوراة ـ اسم «الذكر».

على أية حال، ان اطلاق «مذكِّر» و«ذِكْر» على الانبياء والكتب السماوية انما جاء لان عملهم التوعية والقضاء على الغفلة.

بناءً على هذا إن اول عمل لانطلاق الانسان في حركته التكاملية هو اخراجه من الغفلة، واول مرحلة لاخراجه من الغفلة هي اثارة التساؤل في ذهنه: هل لك إله وخالق؟ وهل هنالك قيامة؟ وهل هنالك حساب ومؤاخذة؟ من هنا فان القرآن

---

١. الطلاق: ١٠ ـ ١١.
٢. الحجر: ٩.
٣. الانبياء: ١٠٥.

والانبياء الذين جاؤوا للقضاء على الغفلة يقومون بهذه المهمة ويطرحون أمامنا هذا السؤال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾.[١]

ان الذين لا يكترثون بالمرّة بهذه الامور غافلين بشكل تامّ عن وجود شيء اسمه الله والآخرة، ويرون انفسهم مختزلة في هذا البدن وان الحياة محصورة بهذه الحياة الدنيا، لا يواجهون ـ طبعاً ـ سؤالاً أو صعوبة في هذا المجال كي يبادروا لحلّها، من هنا فان اول مرحلة هي ان يُوجهوا ويُنذروا ويوقظوا كي يفيقوا من نوم الغفلة، والانبياء بدورهم يأتون بالدرجة الاولى لاثارة السؤال في ذهن الانسان ومن ثَمّ يبادرون للاجابة عليه.

الخطوات اللاحقة

بعد إثارة السؤال ـ وهي المرحلة الاولى ـ هنالك حالتان متصورتان، الاولى هي ان هنالك اناساً يتلقون هذا السؤال جادين ومهتمين ويتفاعل فيهم الاستعداد للمبادرة من اجل الحصول على الجواب. والحالة الثانية هي انهم يواجهونه بعدم الاكتراث والتجاهل قائلين: إن لنا اعمالنا وحياتنا والكثير من الامور الاكثر أهميةً الآن!

اذا ما حمل أناسٌ هذا السؤال على محمل الجدّ وبادروا للتحرك والعمل للحصول على اجابة عنه ففي ذلك ارضية لان تشملهم الرحمة الالهية، ويزدادون هداية في المرحلة اللاحقة، لان السنّة الالهية تقضي اذا ما قوبلت النعم الالهية بجدية وقُدِّرت فان الله يزيدها: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.[٢] وان ارسال الانبياء وطرحهم هذا السؤال أمامنا نعمة الهية، واذا ما اخذنا هذه النعمة مأخذ الجد وسعينا من اجل الاجابة فان الله يضاعف رحمته وهدايته لنا.

ولكن اذا ما تجاهل الناس هذا السؤال من قِبل الانبياء واعرضوا بالرغم من

---

١. المؤمنون: ١١٥.　　٢. ابراهيم: ٧.

تذكيرهم وخروجهم من الغفلة عن صورة المسألة، في هذه الحالة يستحقون العقاب. وهنا ربما يكون ذنب البعض بمستوى انهم يتذكرون لكنهم لا يحملون الأمر محمل الجد، ويكون ذنب البعض الآخر اكثر مدىً اذ يتذكرون ويعرفون ان القضية جدية وحساسة جداً لكنهم يعرضون، فيما يكون ذنب البعض اكبر من هذا ايضاً فهم يتذكرون وتنكشف أمامهم اهمية القضية ويتوصلون للاجابة الصحيحة عن السؤال، لكنهم في نفس الوقت يتظاهرون بالتجاهل ويعيشون حياتهم وكأنهم لا يعلمون بوجود الله والقيامة: (وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ).[1] وهذه المرتبة اعلى مراتب كفران النعم الالهية وهي التي يعقبها العذاب الابدي.

بعبارة اخرى، في مسيرة التعرف على أية مسألة تكمن المراحل التالية:

الأُولى: معرفة صورة المسألة.

الثانية: اخذ المسألة على محمل الجد والمبادرة لمتابعتها واستجلائها.

الثالثة: تقبُّل الجواب الذي يحصل بعد التحقيق بشأن تلك المسألة.

وفي هذا الاتجاه قد لا يحصل المرء بعد معرفته لصورة المسألة واخْذه إياها على محمل الجد والتحقيق بشأنها، على الدليل والطريق، وخلاصة القول انه لا يقتنع، فمثل هذا الانسان جاهل قاصر، وقد يعثر بعد معرفته لصورة المسألة والتحقيق حولها، على الدليل والجواب المُقنع لكنه يلجأ الى العناد ورغم اقتناع عقله لكنه يقول بلسانه: لم أقتنع! والمرحلة الثالثة هي أن يصل الانسان وبعد معرفته للمسألة وتحقيقه بشأنها الى جواب خاطئ ويتصور انه قد توصَّل الى الحقيقة، بينما الامر ليس كذلك، فيقال لمثل هذا الانسان جاهل مركّب. وللجاهل المركب جهلان: الاول: الجهل بالحقيقة، والثاني: الجهل بجهله، أي انه يظن ان يعلم وهو لا يعلم. ان الجاهل البسيط هو مَنْ يجهل الحقيقة لكنه يعلم انه لا يعلم الحقيقة. هذه مراحل متعددة قد تسمى احياناً

---

١. الصافات: ١٣.

جهلاً واخرى غفلة وثالثة نسياناً. على أية حال ان حقيقة هذه الافتراضات والصور كما اوضحناها.

تحذير!

على اية حال، المهم هو ان هذه الاخطار تعترض طريقنا في المسألة موضع البحث أي معرفة الله والقيامة والنبوة، فلربما نغفل اصل الموضوع أو لا نحمله على محمل الجدّ أو نتشبث بالعناد ـ لا سمح الله ـ بعد ان تنكشف أمامنا الاجابة الصحيحة وننكره على علمٍ منا، بل ربما يصل الانسان نقطة ينفر من اسم الله ـ نعوذ بالله ـ يقول القرآن بهذا الصدد: (وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ).[١]

فثَمةَ أُناس اذا ما ذُكر اسم الله فانهم ليس لا يتقبلونه ولا يخشعون له بل يشمئزون وينزعجون لسماعهم اسم الله! والعجيب هو ان هذه الآية تربط بين تبلور هذه الحالة لدى الانسان وبين انكار الآخرة وعدم الايمان بها، فأي ترابط بينهما حقاً؟

اننا نرى اليوم في مجتمعنا أُناساً يعدّون انفسهم مثقّفين مسلمين ووطنيين دينيين وربما مجاهدين في سبيل الاسلام! لكنهم يأبون ان يبدأوا كلامهم باسم الله! فيؤلفون كتاباً لكنهم يتثاقلون ان يضعوا في مستهله «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ»! والأدهى من ذلك انهم يستندون الى القرآن لتبرير فعلتهم هذه ويقولون: اردتُ ان ابدأ كلامي دون اسم الله كما في سورة التوبة! ان هذه الدرجة من الانحطاط سببها حالات الانكار التي عمدوا اليها في المراحل السابقة عن علم وقصد فانكروا الحق عامدين. والذين يصابون بمثل هذا الانحراف يضاعف الله انحرافهم: (فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ).[٢] وعندما يتشبثون بالعناد رغم توفر الادلة الساطعة اذ ذاك يختم الله على قلوبهم: (خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلىٰ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ).[٣] فهؤلاء هم الذين اتبعوا

---

١. الزمر: ٤٥. ٢. الصف: ٥.
٣. البقرة: ٧.

هواهم واتخذوه معبوداً لهم وانكبوا على عبادة الذات بدلاً من عبادة الله: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ).[١] واذا ما ختم الله على قلب أحد واسدل حجاباً على بصره وسمعه، فمن ذا الذي يهديه؟!: (فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ)[٢] و(وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هٰادٍ).[٣]

هنالك أُناس لا يريد الله ان يذكروه أبداً: (وَلاٰ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنٰا)[٤] وهؤلاء هم الذين يطيعون اهواءهم: (وَاتَّبَعَ هَوٰاهُ).[٥] وامثال هؤلاء يختم الله على قلوبهم نتيجة لعبادة الذات وعبادة الدنيا، فيبلغ بهم الأمر ان يتباهوا بجهلهم وشكوكهم ويدعون الآخرين للشك بكل شيء، والتشكيك في نظرهم فنٌ وليس خللاً!

فايُّ خطر أدهى من ان يتنفر الانسان ليس من سبيل الله وسنّته فحسب بل يشمئز من اسم الله ايضاً الى الحد الذي لم تعد لديه القابلية على تحمُّل السماع باسم الله؟ وايُّ خطر ادهى من ان يوصد قلب الانسان بوجه الحق والحقيقة الى الأبد وليس لا يعتبر به الخجل من عدم فهمه فحسب بل يعتبره مدعاة للمفاخرة؟! لم يرد في مؤلف ان اناساً معينين يواجهون هذه الاخطار والانحرافات، فكلنا عرضة لها ويجب علينا ان نكون في اتم الحيطة وان ندعو الله لئلا نقع في مثل هذه المنحدرات.

من هنا تكون مسألتنا المهمة هي كيف نحصّن انفسنا ازاء هذه الاخطار. فنحن قد عرفنا صورة المسألة والحمد لله وبعد ذلك قمنا بحلها وتوصَّلنا الى الجواب الصحيح وتقبَّلناه وآمنا به من الصميم، فما هي ضروب الغفلة التي تعترض طريقنا؟ وما هي الامور التي ربما تعود بنا الى عالم الغفلة بعد العلم وتصدّنا عن معرفة هويتنا الانسانية؟ ان توجهنا في الوقت الراهن نحو الله ونحو الحساب والمؤاخذة وشعورنا بالمسؤولية امام الله دليلٌ على دخولنا مرحلة الانسانية ولكن ليس من ضمانة لدوام

---

١. الفرقان: ٤٣.
٢. الروم: ٢٩.
٣. الرعد: ٣٣.
٤. الكهف: ٢٨.
٥. الكهف: ٢٨.

هذه الحالة حتى النهاية، فعلينا ان نقوم ببحث خبروي في المخاطر لمعرفة العوامل التي ربما تؤدي بنا الى الغفلة كي نحتاط ازاءها ونتجنبها، كما ان معرفة العوامل التي تحول دون حدوث الغفلة أو انها تزيل الغفلة بامكانه ان يكون مفيداً ومؤثراً بالنسبة الينا في هذا الطريق. وسوف نتحدث في الدروس القادمة عن هذه العوامل باذنه تعالى.



الدرس التاسع

عوامل الغفلة

تحليل عقلي حول الغفلة

اشرنا في الدروس الماضية الى ان السبب في انحطاط الانسان هي «الغفلة»، فالغفلة عن المبدأ والمعاد وواجبات الانسان من المبدأ وحتى المعاد هي التي تؤدي لأن يهبط الانسان الى مستوى الحيوانات أو ادنى منها، وفي المقابل فان الحركة التكاملية للانسان رهنٌ بادراكه الواعي ومعرفته للمبدأ والمعاد وسيره الصحيح بينهما.

وصل بنا البحث الى ان نرى ما هي العوامل التي تمهد لدى الانسان ارضية الغفلة، ومن ناحية اخرى ما هي العوامل التي تقضي على الغفلة وتؤدي الى توجه الانسان الى الامور المذكورة.

وفي مجال العوامل المخفرة للغفلة وكذلك المزيلة لها بامكاننا التوسل بالأدلّة العقلية، وكذلك بامكاننا الاستعانة بالنقل والآيات والروايات لمعرفة هذه العوامل.

بغضّ النظر عمّا تقوله الآيات والاحاديث بهذا الصدد فلقد ادركنا بالتجربة وعلى نحو الاجمال ان سبب غفلتنا عن مسألة ما، هو التوجه نحو سائر المسائل، فلطالما حدث أن اردنا القيام بعمل ما ولكن نتيجةً لانشغالنا باعمال اخرى قد نسيناه وغفلنا عنه، كأن نكون ـ مثلاً ـ نريد شراء شيء عند الطريق، لكن مسألة شغلت ذهننا في تلك الاثناء واذا بنا نتذكر عند دخولنا الدار باننا نسينا شراء ذلك الشيء.

أو ان تكون كافة جوارحنا مركّزة على الخطيب أو المعلم في المحاضرة أو الدرس فنغفل عن مَنْ يجلس الى جانبنا أو خلفنا أو عمّا يحدث في الخارج، أو بالعكس اذا ما كانت حواسنا مركّزة على ما يدور حولنا أو خارج الدرس فاننا لا نفهم شيئاً من

درس الاستاذ، وربما قد حصل لنا كثيراً أن نُحَمْلِقَ بوجهِ من يتكلم ثم ننتبه بعد دقائق الى ان لم نفهم كلمة واحدة من كلماته! لان انتباهنا وحواسنا كانت معلقة بقضية اخرى خلال تلك الفترة.

بناءً على هذا وعلى نحو الاجمال: ان سبب الغفلة عن مسألة ما الانتباه الى مسائل اخرى، وتصدق هذه القضية الكلية على بحثنا خاصة؛ فما يؤدي الى ان نغفل عن الله وعن القيامة وواجباتنا ازاء الله واليوم الآخر هو الانتباه الى مسائل اخرى، فمن الطبيعي أن لنا توجهاتٍ ورغبات وحاجات ونحن نغفل عن المسائل الجوهرية جرّاءَ الاهتمام بتلك المسائل. فالانسان ـ مثلاً ـ بحاجة الى الطعام والمسكن والملبس، ويتعين عليه العمل والسعي من اجل التكسب لتوفيرها، ولا يقتصر هذا التكسب والعمل على يوم أو يومين، بل بما ان هذه الحاجة مستمرة كل يوم فلابد من ان يتواصل هذا التكسب والعمل واستحصال الدخل، وقد ينتبه الانسان فيجد ان عمره بأيامه ولياليه وكل تفكيره وذكره في هذه الامور ولم تسنح أمامه فرصة لان يفكر في المبدأ والمعاد والطريق الذي أمامه فيما بينهما.

ان الامور التي تحيط وتستقطب اهتمامنا بشكل طبيعي قد تكون بنحو يُبعد الانتباهُ نحوها الانسانَ عن المسائل الجوهرية بحيث تُصبح عودته في غاية الصعوبة، وقد حرّم الله علينا مثل هذه الامور، اذ حرّم الله ـ مثلاً ـ المسكرات لانها تؤدي الى زوال عقل الانسان فلم يعد بمقدوره التوجه الى الله، وهكذا الغناء والموسيقى اللهوية. فاذا ما اعتاد الانسان على هكذا امور فانه يغفل كلياً عن الله وعن القيامة وما شابهها من امور: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ»،[1] «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ».[2]

١. المائدة: ٩١.
٢. لقمان: ٦.

ولكن ليست كافة الامور على هذه الشاكلة بحيث يشغل التوجه اليها الانسان عن ذكر الله، وان الله لم يحرّم امثال هذه الامور. ومن الطبيعي انها تحمّل مؤهلات ان يغفل الانسان عن ذكر الله نتيجة انشغاله بها ولكنها ليست كذلك بالالزام. فعلى سبيل المثال ربما تؤدي بعض حالات اللهو من قبيل التفرج على بعض برامج التلفزيون أو التنزه مع الاصدقاء، ان يغفل المرء عن صلاته! ومثل هذه الامور لها حيثيتان، فهي من ناحية تؤدي الى غفلة الانسان عن الله، ومن ناحية اخرى، اذا مهّد الانسان المقدمات في نفسه مسبقاً فان بامكانه توظيفها باتجاه الكمال والتوجه نحو الله ايضاً.

وكمثال هنالك في الاسلام تناول الطعام ربما يفوق الصيام المستحب في فضيلته، فالاسلام يقول: اذا كنت صائماً صياماً مستحباً وحللتَ ضيفاً على اخيك المومن وقدّم لك طعاماً وانت تعلم ان تناولك لطعامه يدخل السرور عليه فافطِرْ! تأملوا في عمق لطافة هذا الحكم من الشريعة الاسلامية المقدسة! نعم، اذا ما أكلت بنيّة خلق اسباب السرور والحبور لاخيك المؤمن فان اجرك اكثر من ان تصوم صياماً مستحباً! وهذا هو ذاك الاكل الذي ربما يؤدي في ظروف خاصة الى غفلة الانسان وانحطاطه!

بناءً على هذا؛ ليست كل الامور ذات الطابع الحيواني والمادي تبعث على الغفلة الزاماً ومائة بالمائة بل هي منوطة بنا وبظروفنا الروحية والنفسية، فبامكاننا ان نهيء الارضية الروحية والنفسية فينا بحيث تصبح هذه الامور التي تسبب الغفلة بالنسبة للكثير من الناس، سُلّما للارتقاء الى قمم الكمالات الانسانية بالنسبة لنا.

اسباب الغفلة في نظر «النقل»

أما اذا بحثنا اسباب الغفلة والتوجه في ضوء «النقل» والآيات والاحاديث فاننا نرى القرآن وتعاليم الاسلام قد ركّزت على موارد خاصة.

فمن الموارد التي اعتُبرت مدعاة غفلة وجرى التحذير منها هو الاهتمام بمظاهر الحياة المادية من قبيل المال، والثروة، المرأة والاولاد. يقول القرآن: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ).[١] وفي موضع آخر اعتبر التكاثر واكتناز الثروة سبباً للغفلة: (أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ * حَتّى زُرْتُمُ الْـمَقابِرِ).[٢] فحب المال ورغبة الانسان بمضاعفة ثروته يوماً بعد يوم وزيادة حسابه المصرفي سبب في غفلة الانسان عن الله وعن القبر والقيامة.

ان المال والثروة والمرأة والولد ليس قبيحاً بنفسه لذلك لم يحرم القرآن والاسلام اصل الاهتمام بها، لكنه حذَّر لئلا تنطوي على دواعي الغفلة. فالقرآن يُثني على الذين لا يشغلهم التكسب والاتجار واستحصال الرزق عن ذكر الله: (رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ).[٣] فهو لم يقل انهم لا يبيعون ولا يتّجرون، أي ان الأمر ليس كذلك بحيث ان من اراد ان يذكر الله عليه ان يوقف حياته ويودّع عمله وتكسُّبه وزوجته وولده وينهمك من الصباح وحتى المساء بذكر الله وعبادته فقط! نعم من الممكن الاشتغال بالتكسب والعمل والحياة العادية وفي نفس الوقت عدم الغفلة عن الله لكن السؤال هو: كيف؟

ان السرَّ في هذه القضية يكمن في تصور المظاهر المادية وسيلة أو هدفاً. فاذا اصبح التكسب والعمل والمال والثروة والولد هدفاً وغدا قبله آمال الانسان، حينها يصبح حائلاً دون ذكر الله ويؤدي الى الغفلة. اما اذا نظر اليها المرء على انها وسيلة وجعلها وسيلة لنيل رضا الله وبلوغ الآخرة، فلن تكون سبباً في غفلته أبداً. ان الانغماس في شؤون الاسرة والزوجة والولد مدعاة غفلة بالنسبة لعوام الناس، ولكن هنالك مَن يبدلون هذه الامور الى عبادة ويتقربون بها الى الله! نعم فمثل هذا الأمر ممكنٌ حقاً! فان نظرة المحبة التي يلقيها الانسان على زوجته، ويد الرأفة التي يمرها على رأس ولده وقُبلته له، بل وحتى مأكله ومشربه ونومه بالامكان ان تصبح عبادة ووسيلة للتقرب

١. المنافقون: ٩.
٢. التكاثر: ١ ـ ٢.
٣. النور: ٣٧.

الى الله! فاذا ما كانت للانسان زوجة مؤمنة وصالحة ومطيعة، وينظر اليها على انها نعمة من الله تشاطره الحياة، وتُشبع حاجاته الطبيعية عن طريق الحلال وتعمل على صدّه عن المعصية والتمرد على الله، فاذا ما عاش مع زوجته بهذه النظرة فانها هذه الزوجة ليست لا تعدّ سبباً في الغفلة عن الله فحسب بل هي تذكّره بالله وتكون وسيلة في ابعاده عن العصيان. وبامكان الانسان أن يقبّل ولده بهذه النظرة ويُمرر يد الحنان على رأسه، وهذا العمل من شأنه ان يوفر له المحبة ويصوغ الشخصية السليمة لديه، وهذا ما اراده الله منه. فمحبة الولد بهذه النظرة ليست لا تبعث على الغفلة فحسب بل هي عين الطاعة وعبادة الله سبحانه وتعالى!

انه هذه المحفزات والنظرات انما تتبلور لدى الانسان حين اداء الاعمال عندما يكون الانسان قد هيأ المقومات الضرورية مسبقاً من خلال بناء النفس. وعلى أية حال، هذا الأمر ليس متعذراً ولا مستحيلاً بل هو ممكن ويسير تماماً.

مظاهر الدنيا، اسباب غفلة أم وسيلة تكامل؟

كما اشرنا، ان الكثير من المظاهر المادية والدنيوية أمور ذات بعدين، فبالامكان النظر اليها على انها تؤدي الى الغفلة عن ذكر الله، وكذلك النظر اليها على انها لا تستصحب مثل هذه الآفة. من هنا فقد عبَّر عنها القرآن الكريم احياناً بانها «فتنة»، والفتنة تعني الامتحان، وميزة الامتحان وجود احتمالين فيه: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ).[1] فاذا ما احسنتم اداء واجبكم تجاههم فانهم يصبحون وسيلة لقربكم وتكاملكم، ولكن اذا ما اصبح التعلق بهم سبباً في التجاوز على احكام الله وغدوا قِبلة آمالكم فانهم سيكونون سبباً في انحطاطكم.

من هنا يحذر القرآن، إياكم ان تخدعكم وتغركم هذه الامور: (فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ

١. الانفال: ٢٨.

الدُّنْيا وَلاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ).[١] فهل يعني ان نكون حذرين من ان تغرّنا الحياة الدنيا ان نتخلىٰ عنها؟ ليس الأمر كذلك اطلاقاً، فالآية لم تقل: دَعوا الحياة الدنيا، بل تقول: احذروا ان تخدعكم، أي ان تكون نظرتكم اليها بنحوٍ لا تخدعكم، وهذه هي نظرة الوسيلة. ولأمير المؤمنين عليه السلام عبارة في غاية السمو، عبارة موجزة جداً وزاخرة بالمعاني في نفس الوقت. يقول عليه السلام: **مَنْ تبصَّر بالدنيا بصَّرتْه ومَنْ ابصرَ اليها أعمتْه.**[٢]

ان الدنيا بامكانها ان تمنحنا البصيرة والرؤية، وكذلك ان تكون سبباً في عمانا وضلالنا، فاذا كانت نظرتكم اليها نظرة وسيلة وآلة فانها ستمنحكم البصيرة، واذا كانت نظرتكم اليها على أنها الغاية وذات طابع استقلالي فانها ستعميكم، فهي كالعوينات التي يضعها المرء على عينيه، فتارة تنظر الى الناس والاشياء بالعوينات ومن خلال زجاجها فتعينك العوينات على ان تنظر بشكل افضل، ولكن اذا ما نظر الانسان الى زجاجات العوينات ذاتها فهي ليست لن تعينه على ان يرى بشكل افضل بل تزيد في ضعف نظره وتحول بينه وبين رؤية الاشياء التي يقصدها.

بناءً على هذا بامكان مظاهر الدنيا ان تكون اسباب غفلة وبامكانها ايضاً ان توفّر مقومات تكامل الانسان، وهذا منوط بطبيعة تعاطينا مع الدنيا، فاذا ما خلق الانسان في نفسه المستلزمات مسبقاً فانه يرى كل مظهر يواجهه من مظاهر الدنيا نعمة الهية، من هنا فانه لا يغفل لرؤيته إياه وانما يذكر الله. واذا ما التزم الانسان في تعامله مع مظاهر الدنيا بالحلال والحرام ويقوم باداء الواجب الذي حدّده الله له ازاءها فلن تكون هذه الدنيا مغفِّلة أو خادعة، فاذا ما اكتسب الانسان مالاً فعليه ان يؤدي الواجب الذي افترضه عليه وإلّا فان هذا المال سيُصبح سبباً في خداعه: (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتّٰى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ).[٣] فعليه ان يُنفق في سبيل الله، فينفق المال والملبس وما

---

١. لقمان: ٣٣، وفاطر: ٥.
٢. نهج *البلاغة*، ترجمة وشرح فيض الاسلام، الخطبة ٨١.
٣. آل عمران: ٩٢.

كان يُحب، وهذا من شأنه ان لا يعشعش حب المال في قلبه ولا يصبح صنماً بالنسبة له. ان الانسان يحب المال حباً بحيث انه عندما ينفق احياناً يحاول دفع النقود القديمة ويحتفظ بالنقود الجديدة والنظيفة! وهذه بداية المحبة والنظرة الاستقلالية الخطيرة. من هنا يتعين عليه العمل كي ينفق احدث النقود لديه! فاذا لم يهتم الانسان بهذه الامور اذ ذاك يتحول المال الى «متاع الغرور» واذا وقع في هذا الفخ فان من الصعوبة خروجه منه فيجب ان لا يسمح تبلور هذه المحبة منذ البداية وذلك من خلال الانفاق.

دور «اصل التداوم» في مسار التزكية

لغرض توطيد التوجه والابتعاد عن الغفلة ينبغي ان يكون لنا برنامج يومي منتظم تكون طبيعته بنحو يذكّرنا بالله، على ان يكون هذا البرنامج يتألف من الدعاء والقرآن والذكر وصلاة الليل وما شابه ذلك. على أية حال ينبغي ان يكون في الحياة اليومية للانسان مثل هذا البرنامج المنتظم، وهذا عامل مهم من شأنه عدم الوقوع في فخ الغفلة، وان الله سبحانه وتعالى اذ فرضَ علينا خمس صلوات واجبة في الليل والنهار انما لعلمه ان الانسان لَيغفل إن لم يكن هَكذا برنامج منتظم ويومي، ولكن بالاضافة الى الصلوات الواجبة يفترض ان يكون للانسان برنامج منتظم من العبادة المستحبة ايضاً، ادنى مستواه ـ مثلاً ـ ان يلتزم بصلواته في وقتها، فالصلاة واجبة ومن المستحب اداؤها في وقتها، وهو من المستحبات التي جرى التأكيد عليها كثيراً، فاذا ما ألزم الانسان نفسه باداء الصلاة في وقتها سيتحول ذلك الى مَلكة بالنسبة اليه رويداً رويداً فيبادر تلقائياً لذكر الله عند وقت الصلاة، بينما لا تتبلور لديه مثل هذه الحالة اذا ما ادى صلاته في اوقات متباينة من اليوم، على أية حال ينبغي ان يتقيد بان يكون له برنامج منتظم من العبادات المستحبة وان كان قصيراً ومختصراً الى جانب عباداته الواجبة.

هنالك بابان مهمان حول العبادة في كتاب *اصول الكافي* احدهما «باب المداومة على العبادة» والآخر «باب الاقتصاد في العبادة» والاخير يتعلق بقضية ان للافراط في العبادة ضررَه ايضاً، فبعض الناس ـ مثلاً ـ يقرأون عشرة اجزاء من القرآن في يوم واحد ثم يصابون بالإرهاق فلا يقرأون القرآن ابداً على مدى شهر كامل. فتلاوة القرآن هذه أقل تأثيراً بكثير عن تلاوة عشر آيات من القرآن على ان تكون خلال ساعة محدودة من كل يوم وتستمر على مدار السنة مثلاً. اذا ما اقترن الاعتدال والمطاولة في العبادة مع بعضهما فسيتركان آثاراً محببة ومؤثرة جداً.

ثمة آيات عديدة في القرآن تؤكد على: اذكروا الله كثيراً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً).[١] أو قوله تعالى: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً).[٢] فيؤكد بان يكون الذكر في الصباح والمساء، أي ان يجعل الانسان من ذكر الله مستهلاً وخاتمة ليقظته، وهذا من شأنه خلق نوع من المواظبة على ذكر الله في قلب الانسان.

والذكر ليس لفظياً فقط بل ان حقيقة الذكر هي الذكر القلبي، والذكر اللساني طريق لان يعيش القلب ذكر الله، والّا فليس كثير جدوى في الذكر اللفظي الذي يكون الانسان حين النطق به متوجهاً نحو مكان آخر. فالصلاة بذاتها من اجل ان يذكر الانسان الله: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي).[٣] من هنا فان ذات التفكير بالله والقيامة والحساب ذكرٌ ومن أسمى اقسام الذكر. وينبغي ان يكون للانسان برنامج لـ«الذكر» ايضاً. فما هي الاشياء التي ينبغي ان نفكر بها في هذا المجال؟ والقرآن الكريم بنفسه يوضح موارد من ذلك: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً).[٤] وسنتابع المزيد من البحث في هذا المجال في الدروس القادمة ان شاء الله.

---

١. الاحزاب: ٤١ ـ ٤٢.
٢. الانسان: ٢٥.
٣. طه: ١٤.
٤. آل عمران: ١٩١.

الدرس العاشر

ذكر الله يصوغ هوية الانسان

علاقة الآية ١٠٥ من سورة المائدة مع موضوع «الغفلة» و«التوجه»

تبين في الدروس السابقة وفي ضوء ما يستفاد من الآيات القرآنية الكـريمة وتـؤيده المدركات العقلية والتجريبية ايضاً ان منشأ انحطاط الانسان والحائل دون تكامله هي «الغفلة»، الغفلة عن النفس وعن مقومات وجود الانسان وغايته ومسيرة تكامله، ومن الطبيعي عندما تكون الغفلة عن النفس ومقومات الوجود والغاية والمسار عاملاً في انحطاط الانسان، فان علاج ذلك في «التوجه» نحو هذه الامور.

من الآيات الواردة في القرآن الكريم ـومن الممكن اعتبارها ذات صلة بـبحثنا ـ هذه الآية الكريـمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَـنُوا عَـلَيْكُمْ أَنْـفُسَكُمْ لاٰ يَـضُرُّكُـمْ مَـنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ).[1]

لقد قدَّم المرحوم العلامة الطباطبائي في ذيل هذه الآية الكريمة وفي الجزء السادس من تفسير *الميزان* بحثاً مطولاً جداً وثرياً حول معرفة النفس ومراتبها، وان ثمرة هذه المعرفة انها تفضي الى معرفة الله تعالى، وهو جدير بالاهتمام جدّاً. فربما تنطوي عبارة «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» على عدة معاني أو عدة مراتب من التوجه، وبعض هذه المعاني يُعدّ «ظاهر» هذه الآية وبعضها الآخر من بطونها.

من المعاني التي يمكن نسبتها الى ظاهر الآية هو ان نقول ان مراد الآية هو: اهتموا

---

١. المائدة: ١٠٥.

بعيوبكم ونواقصكم ولا تبحثوا عن عيوب الآخرين ونواقصهم، فاذا ما أصلحتم انفسكم فلا تضركم انحرافات وضلالات الآخرين. وتوضيح ذلك:

قد يتركز جميع انتباه الانسان وأحاسيسه على ما يحيط به بما يشتمل على المجتمع والآخرين بحيث يغفل عن نفسه تماماً، فربما يحصل لنا كثيراً ان ينشدَّ انتباهنا في البيت أو المدرسة أو محل العمل أو الدائرة ـ وخلاصة القول في الاماكن التي نعاشر الآخرين ـ وبشتى الدوافع نحو عيوب الآخرين ونسعى من خلال التجسس والتنقيب استكشاف عيوبهم، في هذه الحالة عادةً ما يغفل الانسان عن محاسن الناس وايجابياتهم بحيث لو سئلنا عن الذين نعاشرهم فان أول ما يتبادر الى اذهاننا نواقصهم ومعايبهم. فاذا ما استمرت هذه الحالة ستتبلور لدى الانسان ملكة التنقيب عن العيوب، وبما ان احاسيسه متوجهة نحو الآخرين وعيوبهم غافلاً بشكل تام عن نفسه ومعايبها، فتتكون لديه مَلكة الرضا عن النفس.

من الممكن القول ان هذه الآية الكريمة ناظرة الى هذه القضية اذ تصرح: عليكم بانفسكم بدلاً من التوجه للآخرين، وعليكم بالمبادرة لازالة نواقصكم ومعايبكم بدلاً عن الاهتمام بمعايب الآخرين، فاذا ما حصلت لدى الانسان هذه الحالة فلن تبق أمامه من فرصة للتفكير بنواقص الآخرين وتحرّي معايبهم. هذا أحد المعاني التي يُمكن القول انه مستفاد من ظاهر الآية.

ولكن ليس هذا فقط هو معنى الآية، بل يمكن الحصول على مضامين ومعارف اكثر عمقاً من خلال التأمل والتمعن بالآية الكريمة، وقد نوّه العلّامة المرحوم الطباطبائي في تفسير *الميزان* الى بعض هذه المعاني والمضامين. ومن المضامين الجديرة بالاهتمام في الآية هذه العبارة التي تقول: لاَ يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ. فهي تفضي الى بحث الهداية والضلال، أي ثمة علاقة بين التوجه نحو النفس وبين الهداية والضلال: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ. انتبهوا الى انفسكم، لاَ يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ فلن يضركم ضلال

الآخرين ان اهتديتم، أي ان التوجه نحو النفس طريق للهداية، ومن هنا يستشف المرحوم العلامة ان «معرفة النفس» طريق الى «معرفة الله».

التلازم بين «معرفة الله» و«معرفة النفس»

كلّنا جرّب في حياته اننا قد ننغمس فيما يدور حولنا وتحري اللذائذ التي نجنيها من المسائل والقضايا التي تحيط بنا بحيث نغفل تماماً عن انفسنا ومن نكون، واين نحن، وعن ماذا نبحث. وتحصل هذه الحالة في الاوقات التي ينشغل الانسان ببعض النزهات المثيرة والحماسية جداً على وجه الخصوص، ويُطلق على هذه الموارد في الشريعة «اللهو» وورد الذمُّ بخصوصها وحُرِّم بعض مراتبها.

عندما يستغرق المرء بما يحيط به والدنيا التي تدور حوله تستولي عليه حالة من نسيان النفس والغفلة عنها. وعلامة ذلك ان الانسان ينسجم مع المحيطين به والاجواء المحيطة به وينسى نفسه كلياً بحيث يضطرب ويستوحش عندما ينتبه الى نفسه ويتذكرها! واذا ما اختلى بنفسه احياناً وسنحت له فرصة التفكير، من أنا، ومن اين جاء، وماذا عليه ان يصنع، واين وجهته؟ فانه يضطرب ويتوجس ويود لو يكون في مكان يجتمع الآخرون الى جانبه وكأنه يخاف من نفسه! فالذي تعزُّ عليه نفسه دون غيرها ويشعر بان عليه العناية بها اكثر من غيرها يبلغ به الأمر أنْ يستوحش لخلوه مع نفسه! وهذه الحالة تنجم عن اعتياد الفرد بالتوجه نحو ما هو خارجه ومحيطه والآخرين، وهي حالة تسبّب كثيراً من الانحرافات وحالات الانحطاط لدى الانسان.

ان السرّ في هذه القضية هو ان الانسان مخلوق «واعي» وان «الوعي» و«العلم» عين الذات الانسانية وهوية الانسان، من هنا اذا ما ضعف «الوعي» في وجوده فانه يبتعد عن انسانيته وذلك هو نسيان النفس، وقد طرح المنظرون الغربيون اقوالاً

وموضوعات متعددة في مجال نسيان النفس، بيد ان هذا البحث جرى تناوله في العلوم الاسلامية واحاديث اهل البيت عليهم السلام بشكل اكثر عمقاً.

في منظار المعارف الاسلامية اذا ما حصل التوجه نحو «النفس» بشكل صحيح وجرى توطيده فانه يفضي في النهاية الى معرفة الله: **مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه.**[١] وعادة ما نتقبل هذا الحديث ـ المروي بطرق متعددة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن امير المؤمنين عليه السلام ـ تعبداً وكلٌّ يوجهه بما يتناسب مع وضعه، ولكن اذا ما بلغ امرؤ معرفة النفس على حقيقتها فانه يشاهد هذا الأمر عياناً ويدرك ان معرفة النفس وجه آخر من معرفة الرب.

والمهم انه لم يقل ان معرفة النفس طريق لمعرفة الرب بل الحديث عن اقتران هاتين المعرفتين وان المرء اذا ما عرف حقيقة نفسه يكون قد عرف ربه في الواقع.

على أية حال، ان استفادة التلازم بين معرفة النفس ومعرفة الله من الآية **عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**، معنىً دقيق وعميق اشار اليه المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير *الميزان*. وهنالك معاني ومضامين اخرى لهذه الآية نتحاشى ذكرها الآن لاننا لسنا بصدد تفسير هذه الآية.

دور «ذكر الله» في تكامل النفس

خلاصة الكلام هي ان السبب في سقوط الانسان وزلّاته هي الغفلة، فغفلة الانسان عن نفسه وعن هويته الانسانية وعن حقيقته الانسانية هي التي تفرز كل هذه المفاسد. فمتىٰ ما عرف الانسان نفسه، اذ ذاك يعرف ويدرك علاقته الوجودية مع مَنْ يفيض عليه بالوجود آناً بعد آن، حينها يدرك انه لا شيء دون الله وأن كلّ ما يملك لا يمكن ان يكون له وجود مستقل ومنفصل عن ارادة الحق تعالى.

---

١. *بحار الانوار*: ج ٢، الباب ٩، الرواية ٢٢.

ولغرض ان لا نبتلي بوباء الغفلة والانصاب بآفة نسيان الذات والابتعاد عن النفس يتعين ان نخصص دقائق على امتداد الليل والنهار للتوجه نحو النفس، كي نختلي بانفسنا لحظات ونسألها: مَنْ أنا؟ وما أنا؟ واين أنا؟ وعن ماذا أبحث؟ وما المصير الذي ينتظرني؟ واذا ما مورس هذا التوجه وجرى تكراره سوف تحصل آثار ايجابية ومفيدة جداً، لان التوجه الى وجود النفس يتلازم مع التوجه نحو العلة الموجِدة له ومَنْ يفيض علينا بالوجود آناً بعد آن، وليس ذاك سوى الله سبحانه وتعالى.

من الموضوعات التي حظيت بالتأكيد والاهتمام كثيراً في القرآن واحاديث اهل البيت والائمة الاطهار عليهم السلام وسيرتهم العملية هو «ذكر الله»، وربما يتبادر للكثير من الناس التساؤل: ما الدور الذي يمكن لمجرد ذكر الله ان يلعبه في تكامل الانسان كي يحظى بالتأكيد الى هذا المستوى؟

والجواب الذي يُقدَّم عادة لهذا التساؤل هو: اذا ما عاش الانسان ذكر الله فانه لا يرتكب الذنب ويؤدي واجباته على احسن وجه. وهذا جواب صحيح في محلّه، فمن المسلّم به ان أحد العوامل التي تمنع الانسان عن المعصية هو ان يرى الله حاضراً وناظراً وان يكون متوجهاً الى الله، واذا ما عرف الانسان ـ كما يقول قائد الثورة الكبير، الامام الراحل رحمه الله ـ انه في محضر الله فمن الطبيعي انه لا يسعى نحو المعصية، وكذلك اذا ما عرف بحضور الله اثناء ادائه للصلاة ـ مثلاً ـ فمن الطبيعي ان يؤدي واجبه على احسن وجه ويُحسن اداء صلاته.

ولكن الملفت ان هذه الفائدة من ذكر الله على غرار الفائدة التي يحصل عليها الفك من مضغ الطعام، فمضغ الطعام يمثل رياضة للفك اذ تؤدي الى تقوية عضلاته، ولكن هل ان هذا هو الهدف الجوهري من اكل الطعام؟!

وعلى صعيد موضوعنا اذا ما قيل واظبوا على ذكر الله لان من شأنه الابتعاد عن

المعصية واتقان اداء الواجبات فذلك في الحقيقة لكي نزداد اندفاعاً لهذا العمل، والّا فان الفائدة من ذكر الله أثرى واسمى بكثير من ذلك. نعم، بالنسبة للمبتلين بارتكاب الذنوب والذين لا قدرة لهم على التغلب على انفسهم ويهملون اداء فرائضهم الالهية، فان افضل السبل هو التمرس على ذكر الله وتلقين النفس انها في محضر الله، لكن هذا أحد آثار ذكر الله الذي له فوائد اكثر اهمية وشأناً. فاذا ما عرفنا ان الانسان انما خُلق للتكامل أولاً، وان تكامله في ارتباطه التام بالله وان قلب الانسان هو منفذ الارتباط بالله ثانياً، حينها ندرك ان وسيلة تكامل الانسان ليست سوى ذكر الله، فاذا ما ارادت روح الانسان ان تتعاظم وتتكامل فان سبيلها ان تزداد وتزداد من تجلي نور الذات الالهية المقدسة على وجودها من خلال ذكر الله، فكلما ازداد الله تجلياً على قلب الانسان وروحه فانها تزداد تكاملاً ولا طريق غير ذلك.

نظراً لاهتمامنا بالظاهر والاعمال الظاهرية فاننا نظن ان اهم عامل في انحطاط الانسان هو ارتكاب الذنب والاعمال السيئة في حين اننا نجهل ان السبب الجوهري الذي يقف وراء كل هذه الخطايا والاعمال السيئة والنوايا السيئة هي «الغفلة عن ذكر الله»، فعلة العلل في هذا السقوط والانحراف والمعاصي والاعمال القبيحة هي غفلتنا عن الله وحضوره، وفي المقابل ان علة العلل في كافة عباداتنا وطاعاتنا ونوايانا واعمالنا الصالحة هي ذكر الله وتوجهنا نحو نور الانوار.

انها امور ربما يصعب تصورها والاقتناع بها بالنسبة لنا، غير ان الواقع هو اننا اذا ما استطعنا العمل على تكامل روحنا يكون بمقدورنا بلوغ بعض هذه الحقائق والامور التي اشارت اليها الآيات والروايات، ونتذوق طعمها.

من الناحية الفلسفية، ان ارتباطنا بالله هو ارتباط المعلول بالعلة الموجدة، وفي مثل هذا الترابط يكون ادراك المعلولية عين ادراك العلة، فلا امكانية في ان يدرك المعلول حقيقته دون ان يدرك علته، وفي تمثيل ناقص جداً ان وجودنا كقبسٍ من نور يتصل

بمصباح، وان الله نور لا نهاية له: (اللهُ نُورُ السَّماوٰاتِ وَالْأَرْضِ).[١] وان كافة مخلوقات الكون قبسات من ذلك النور المطلق الذي لا نفاد له، فقبس النور اذا ما اراد معرفة حقيقة وجوده فلا سبيل امامه سوى معرفة النور ومصدره ويتوجه نحوه، ونحن قبس من شمس الذات الالهية المقدسة حيث قال تعالى: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)،[٢] فحقيقتنا التي هي عين روحنا قبس من تلك الشمس الازلية، فاين سيكون النور ان اختفت الشمس ولو لحظة أو اقل من الزمن.

من هنا فان تكامل روحنا في ظل معرفة الله، فليست روحنا ونفسنا سوى نفخة من انوار وجوده.

الذكر الكثير والذكر الشديد

جرى الحديث في القرآن الكريم عن «الذكر الكثير» وكذلك عن «الذكر الشديد» فتارة يقول تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)،[٣] أو يقول: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ).[٤] فالحديث في هذه الطائفة من الآيات عن الكثرة والكمية من الذكر، والمراد هو ان نذكر الله كثيراً، لكنه تارة اخرى يقول: (فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً).[٥] والتوصية في هذه الآية بـ«شدة» الذكر، ومن المسلّم به أنه ليس المراد من شدة الذكر ان نقول ـ مثلاً ـ «سبحان الله» أو «الله اكبر» بقوة أو بصوتٍ عالٍ! بل المراد كيفية الذكر والتوجّه. ولكن ما المناسبة من هذه التوصية بعد الفراغ من مناسك الحج؟ فلماذا قال الله: (فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ). فأي تغيير يطرأ في وضع الانسان فيما قبل وبعد مناسك الحج؟

---

١. النور: ٣٥.
٢. الحجر: ٢٩؛ ص: ٧٢.
٣. الاحزاب: ٤١ ـ ٤٢.
٤. آل عمران: ٤١.
٥. البقرة: ٢٠٠.

وتوضيح هذا الامر هو: من المواضع التي تتمهد فيها الارضية لان يستطيع الشيطان خداع الانسان حينما يكون الانسان قد أنجز واجباً أو تكليفاً، لاسيما اذا كان هذا التكليف قد استهلك طاقة متميزة من الانسان، في مثل هذه الحالة يخلد الانسان الى الراحة ويتنفس الصعداء، وزمان الفترة هذا فرصة سانحة امام الشيطان كي يوسوس في قلب الانسان، فمثلاً عندما يصلي المرء ـ حتى صلواتنا هذه المشحونة من اولها الى آخرها بالغفلة ـ فبمجرد فراغه من الصلاة يريد أن يدير رأسه عن القبلة فينظر الى ما حوله ليرى ما الخبر؟ في غضون هذه الدقائق المعدودات حيث كان يصلي ولم يكن بمقدوره النظر الى هذه الجهة أو تلك كأنه كان سجيناً، والآن اذ انتهت الصلاة يشعر وكأنه قد تحرر وانعتق! تصوروا ان انساناً قد ادى اعمال الحج المرهقة نسبياً في غضون عدة أيام، حيث كانت اعمال معينة محرّمة عليه ومُنع من القيام بها، وها هي اعمال الحج قد انتهت وانفلت من الإحرام فهو على عجلة لان يبادر نحو الاعمال التي كانت محرّمة عليه أثناء الإحرام فينظر الى وجهه في المرآة ـ مثلاً ـ أو يتعطر ... الخ، فنظراً لحرصه وولعه، وثقل التكليف الذي ألقي على عاتقه خلال هذه الأيام القلائل، ثمة خطر بان يغفل كلياً وفجأة عن ذكر الله ويبادر بسرعة فائقة نحو مظاهر الدنيا ويُستقطب كل اهتمامه نحوها. فلدى الانسان هذا الاستعداد النفسي، والشيطان يتحين الفرص ويباغت الانسان. من هنا فان الآية الكريمة توصي الحجاج بان لا ينسوا ذكر الله بعد الفراغ من مناسك الحج بل عليهم ان يهتموا به بشدة: (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً). وفي هذا المجال ما المناسبة في ذكر الآباء الذي تشير اليه الآية الكريمة؟ وردت عدة مضامين في كتب التفسير نحيل الراغبين الى تلك الكتب، لعدم ارتباط ذلك ببحثنا الاصلي.

من الواضح ان الذكر بالاضافة الى قلته وكثرته ربما يكون شديداً وضعيفاً ايضاً. فتارة نتذكر أحد الاصدقاء ممن لسنا على قرب أو صميمية معه نوعاً ما، واخرى

نتذكر الولد أو الاب أو الأم أو المحبوب، فالاثر الذي يتركه كلا الذكرين في نفوسنا ليس سواء، فتأثير ذكر الولد اشد واعمق بكثير على روح الانسان من ذكر صديق عادي.

على أية حال ان كثرة ذكر الله مطلوب وموضع تأكيد، لكن كذلك ثمة عناية بان يكون هذا الذكر عميقاً ومؤثراً وليس سطحياً وعابراً، فتارة تكون الموجة موجة حوض من الماء أو مسبح، واخرى تكون موجة عارمة في الجو منشؤها المحيط الهادي. فيجب ان يكون تيّار ذكر الله في وجودنا كموجة في المحيط تعصف بكل زوايا وجودنا وتلقي بتأثيراتها في اعماقه. وبطبيعة الحال ان الاذكار السطحية مؤثرة ايضاً، والتوصية ليست بتركها وانما التأكيد على ان لا يُكتفي بها، فاعملوا على ان تعيشوا اذكاراً يتأثر بها كل وجودكم وقلوبكم وارواحكم من الاعماق.

الأمر الآخر فيما يخص شدة الذكر وضعفه هو: ان البسطاء من الناس عندما يذكرون الله يلفتُ انتباههم اسم أو صفة من اسماء الله أو صفاته، فنحن غالباً ما ننتبه الى اسماء وصفات مثل: الخالقية، الرازقية، الرحمانية والغفارية، فنقول مثلاً: يا رحمن، يا خالق، يا غفار الذنوب... الخ، ولكن هنالك أناس يتوجهون الى ذات الله، وبما ان ذات الله عين وحدته فهي مستجمعة لجميع الاسماء والصفات الكمالية، من هنا ليس ثمة صفة او اسم معين هو المقصود في التوجه نحو الذات، بل موضع التوجه هي الذات بصفتها الجامعة لكافة الاسماء والصفات، ومثل هذا التوجه من المسلّم به انه اشد بكثير من التوجه الذي ينظر الى الله سبحانه وتعالى بصفة غفار الذنوب ـ مثلاً ـ فقط. ونظراً لان التوجه الى الذات في غاية الشدة والقوة فان آثاره تختلف كثيراً عن آثار اذكار امثالنا. فلقد روي ان امير المؤمنين عليه السلام كان متوجهاً نحو الذات الالهية المقدسة خلال الصلاة بحيث أخرجوا السهم من رجله دون ان ينتبه عليه السلام لذلك،[١] وينبغي ان لا

١. راجع: *ارشاد القلوب*: ج ٢، ص ٢١٧.

نستبعد مثل هذه الامور، فالقرآن يصرح ان النسوة المصريات شاهدنَ جمال عبد من عباد الله فقط فانبهرن به بحيث قطّعن ايديهن دون ان ينتبهن لذلك!

خاطرة عن الشهيد المطهري بشأن ذكر الله

لا بأس ان نروي قصة في هذا المجال ـ من باب مسك الختام ـ عن الشهيد المطهري، وانني لم اسمع هذه القصة منه مباشرة ولكن نقلها لي بعض الثقاة وباسناد متعددة ومختلفة. والقصة هي ان المرحوم المطهري حضر ذات مرة عند أحد اولياء الله وأُثير البحث حول ماذا نفعل كي نزيد معرفتنا بالله ويزداد توجهنا وحضورنا القلبي في العبادات. فسأل ذلك الولي المرحومَ المطهري: كيف تحافظ على توجهك وحضور قلبك عندما تصلي؟ فاجاب المرحوم المطهري: احاول ان اهتم بمعاني الالفاظ والاذكار التي اتفوه بها منذ بداية الصلاة وحتى نهايتها كي احصل على حضور القلب من خلال ذلك. فقال ذلك الرجل العظيم: انك اذ تصب توجهك على الالفاظ والمعاني من بداية الصلاة وحتى آخرها، اذن متى تتوجه الى الله؟

انه لقول راقٍ جداً، ويدل على مدى الفاصلة التي تفصل امثالنا عن منازل اولياء الله. وعلى اية حال، ان مراتب التوجه الى الله وذكره متفاوتة جداً وعلينا ان نتعالى قليلاً عن المراتب الدنيا من الذكر، وان ندعو الله ان يمن علينا بنفحة من تلك اللذائذ الخاصة باوليائه.

ان مرتبة التوجه والذكر لدى بعضنا من الدنو بحيث اننا لا نشعر ـ مثلاً ـ منذ قولنا «الله اكبر» وحتى النهاية حيث نقول «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» باننا نصلي، وبمجرد ان نقول «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» نتذكر اننا كنا نصلي، والذين هم احسنُ حظاً بقليل ينصب توجههم منذ بداية الصلاة وحتى النهاية على الالفاظ لاسيما الذين يتمتعون بالدقة في القراءة وامور التجويد وما شابهها، وارقى منهم الذين

يتوجهون الى معاني الالفاظ بالاضافة الى الالفاظ، وارقى منهم الذين يستحضرون المعاني في قلوبهم منذ البداية ثم ينطقون باللفظ. على أية حال، هذه امثلة على المراتب المختلفة للذكر ويتعين على الانسان ان يرتقي في هذه المراتب من خلال المراس.

ان الذكر اللفظي أول مراتب الذكر وعلينا الى جانب الاهتمام بالذكر اللفظي ان نخلق في انفسنا حالة هي اننا اذا ما واجهنا شيئاً نتوجه اليه ونتأمل به بسبب ارتباطه بالله، ونداوم على هذه الحالة. فاذا ما استنشقنا هواءً صافياً وعذباً يبعث فينا النشاط والمتعة نتوجه مباشرة الى قدرة الله في خلق هذا الهواء اللطيف ونشكر الله أن اسبغَ علينا هذه النعمة، في هذه الحالة نستطيع ان نرفع مرتبة توجهنا نحو الله ونشددها لنصل الى نقطة نكون فيها بذكر الله على الدوام ولا نغفل ذكر الله ولو لحظة واحدة ان شاء الله.



الدرس الحادي عشر

الذكر اللفظي والذكر القلبي

لمحة عن الدروس السابقة

من الابحاث التي جرت في الدروس السابقة توصّلنا الى هذه النتيجة: استناداً الى ما يستفاد من الآيات والاحاديث الشريفة وكذلك الادلة العقلية والتجربية للانسان، إن السبب الجوهري لسقوط الانسان وانحطاطه هي «الغفلة»، وهذه الغفلة ـ بالطبع ـ ليست غفلة عن كل شيء، بل غفلة عن «الهوية الانسانية». فقد اتضح من خلال التحقيق ان الغفلة عن الهوية الانسانية لها جذر في ثلاثة حالات اساسية اخرى من الغفلة، هي الغفلة عن: من أين جاء الانسان، وأين هو وأين سيتّجه. ومثلما ان السبب الجوهري في سقوط الانسان هو الغفلة عن هذه الامور الثلاثة ففي المقابل إن العامل الاساس في تكامله التوجه اليها، وهي باجمعها تمثّل في الحقيقة نوعاً من «معرفة النفس». وقد اوضحنا ان هذا الأمر ـ وكما قال المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير *الميزان* ـ يمكن استفادته من هذه الآية الكريمة: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ).[1]

من جانب آخر يمكن القول ان المحور الاصلي بين هذه الامور الثلاثة هو «التوجّه الى الله» والامران الآخران يمثلان في الحقيقة ثمرة التوجه الى الله، من هنا فنحن ولكي نعرف حقيقتنا يجب ان نعرف وندرك علاقتنا الوجودية مع الله، فوجودنا هو عين التعلق والارتباط بالله، من هنا فاننا ان لم نعرف هذه العلاقة لم نعرف انفسنا في

---

١. المائدة: ١٠٥.

الحقيقة، فاذا ما عرفنا انفسنا وعلاقتنا الوجودية مع الله حينها سنعرف اننا «فعل» الله، وبما ان الله حكيم، فمن المؤكد ان لفعله هدفاً وغاية، وهنا نصل الى بحث المعاد من خلال الاستطراد في بحث الغاية الالهية من خلق الكون والانسان، واثر ذلك يحل بحث معرفة الطريق والمسار الذي يوصلنا الى ذلك الهدف وتلك الغاية، وذاك هو بحث النبوة وبعثة الانبياء.

لو تمعّنا جداً بهذه الامور سنعرف وقتها ان ذكر الله ليس بالأمر الهامشي والتشريفي في حياتنا بل هو اصل وجوهر وحقيقة حياتنا السعيدة، وهنا يتضح لنا السرّ في تأكيد الآيات والاحاديث على ذكر الله، فلا حاجة لله بذكرنا وقولنا «سبحان الله» و«لا اله الّا الله»، بل القضية ان تكاملنا لا سبيل له سوى ذكر الله والتوجه نحو الحق تعالى.

الذكر القلبي أم الذكر اللساني؟

من الاسئلة التي ربما تتبادر فيما يخص الذكر هو: هل هي الالفاظ التي تلعب الدور الحقيقي في خلق التوجه الى الله، أم حقيقة الذكر بما تعنيه من التوجه و«الذكر القلبي»؟

ربما يبدو للوهلة الاولى ان الاجابة على هذا التساؤل في غاية الوضوح وهي حقيقة الذكر، والذكر القلبي وإلّا فان مجرد لقلقة اللسان وتدوير المسبحة باصابع اليد لا يحل مشكلة، واذا ما أُعطي الذكر اللساني شأناً فلكونه طريقاً للتوجه والذكر القلبي.

ولكن يبدو ان هذا الجواب الموجز ليس كافياً، وحريٌ بان نقوم بالمزيد من البحث والتحقيق بهذا الشأن، فاذا ما قبلنا بان حقيقة الذكر هي الذكر القلبي، فان اول سؤال يتبادر الى الذهن هو: لِمَ هذا الحديث عن الاذكار اللفظية الخاصة والتأكيد على النطق بها في ثقافة اهل البيت عليهم السلام؟ وهل اذا ما عملنا على ان تتوجه قلوبنا الى الله على الدوام لم تعد هنالك حاجة للذكر اللساني؟

ثمة أناس من الفرق الصوفية قد سلكوا طريق الافراط والتفريط سواء على صعيد الذكر اللساني أو الذكر القلبي. فطائفة منهم يركّزون على الذكر اللساني بحيث يشكّلون حلقات ويجتمعون في جلسات ويأخذون بترديد اذكار معيّنة وفق ألحانٍ وحركات معينة باصوات عالية ولمدة ساعات، وهذا ما يصطلحون عليه «الذكر الجلي». وعلى الطرف الآخر لا تعتني فرق اخرى منهم بالذكر اللساني وتكتفي بالذكر القلبي فقط، وأنا بنفسي شاهدتُ بعض هؤلاء يؤدون الصلاة دون ان تتحرك شفاههم ويقولوا شيئاً منذ اول الصلاة وحتى آخرها! فيؤدون كافة اجزاء الصلاة بدءاً من القراءة وانتهاءً بالركوع والسجود بسكوت مطبق، والدليل الذي يوردونه على عملهم هذا هو ان الذكر اللساني من اجل ان يتوجه القلب فقط، فاذا كان قلبنا متوجهاً لم تعد هنالك من ضرورة للذكر اللساني، بل هو ضارٌ وحاجبٌ ايضاً!

ان كلا الاتجاهين انحرافٌ في منظار معارف اهل البيت عليهم السلام ولدى مراجعتنا للقرآن والاحاديث نجد ان هنالك اذكاراً خاصة جرى تحديدها والتأكيد عليها، حتى ورد في بعض الروايات التأكيد بان يُنطق ذات اللفظ الذي نطق به المعصوم نصاً دون نقيصة أو زيادة، ومثال ذلك الرواية التي نقلها المرحوم العلامة المجلسي في *البحار* ومفادها ان عبد الله بن سنان روى عن الامام الصادق عليه السلام قوله: ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى ولا امام هدى لا ينجو مها إلاّ من دعا بدعاء الغريق. قلت وكيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك. فقلتُ: يا مقلب القلوب والابصار ثبّت قلبي على دينك. فقال: ان الله عز وجل مقلب القلوب والابصار ولكن قل كما أقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».[1]

فنرى انه عليه السلام ينهى عن زيادة كلمة واحدة ويؤكد بان يُقرأ الذكر بالصيغة التي قالها عليه السلام. وكذلك القراءة في الصلاة فهي واجبة ولابد من النطق بسورة الفاتحة وسورة

١. *بحار الانوار*: ج ٥٢، الباب ٢٢، الرواية ٧٣.

اخرى باللسان، أو التشهد والتسليم وسائر اذكار الصلاة فيجب الاتيان بها باللسان ولا يكفي مجرد التوجه القلبي ولا يسقط التكليف والواجب عن عاتق الانسان.

بناءً على هذا ان كلاماً من قبيل: «الغاية الاساسية هو التوجه القلبي وهذه الاذكار مقدمة له، ومن كانت له القابلية على التمتع بالذكر القلبي بلاذكر لساني كفاه» ما هو الّا كلام باطل وقائله إما غافل أو جاهل أو يضمرُ اغراضاً ونوايا سيئة. وهذا الكلام على شاكلة القول الذي يطلقه البعض: «ليكن القلب طاهراً فليس الالتزام بتعاليم الشريعة والحلال والحرام بمهمّ»! ففي نظر هؤلاء اذا كان قلب الانسان طاهراً فلا اهمية تذكر لما يرتكب من معاصي وذنوب! ولعلكم صادفتم مَنْ يعرفن حكم الحجاب في الاسلام لكنهن مع ذلك لا يلتزمن بالحجاب، واذا ما نبّهتموهن يَقلنَ: ليكن قلبك طاهراً!

ان هذا الضرب من العقائد والكلام باطل ولا اساس له برمّته، فليس لنا ان نبتدع ديناً من عند انفسنا بل يجب ان نلتزم بالكتاب والسنّة وان نرى ماذا قال القرآن واهل البيت عليهم السلام وماذا عملوا، ولدينا شواهد عديدة من احاديث اهل البيت عليهم السلام وسيرتهم العملية فيما يخص بحثنا من انهم كانوا يرون ضرورة الذكر اللساني، فقد وردت رواية عن الامام الصادق عليه السلام انه كان يقول عن ابيه الامام الباقر عليه السلام: **وكان أبي كثير الذكر لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ولو كان يحدث لقوم ما يشغله ذلك عن ذكر الله وكنت أرىٰ لسانه لاصقاً بحنكه يقول: لا اله الا الله.**[1]

هل يمكن لأحد ان يكون تابعاً للائمة الاطهار عليهم السلام ويتجاهل مثل هذه الروايات؟ فمها كان توجُّهنا وذكرنا القلبي قوياً فهو ليس بأقوى من ذكر وتوجُّه الامام الباقر والامام الصادق عليهما السلام فاذا ما كانا عليهما السلام يمارسان الذكر اللساني فهل لنا ان نقول لا

١. نفس المصدر: ج ٩٣، الباب، ١، الرواية ٤٢.

ضرورة للذكر اللساني، والذكر القلبي يكفي لوحده؟ فلغرض بلوغ مرامنا علينا ان نرى ماذا قال اهل البيت عليهم السلام وكيف تصرفوا فننظم سيرتنا في ضوء اقوالهم وسيرتهم العملية على وجه الدقة.

بعض فوائد الذكر اللساني

كي لا يبدو البحث تعبدياً محضاً من المناسب هنا أن نشير الى بعض الحِكَم والفوائد في الذكر اللساني:

اول ملاحظة فيما يخص الذكر اللساني وهي ذات بُعد عرفاني الى حدٍّ ما، تتعلق بان كل عضو من اعضاء الجسم ينبغي ان يستمتع بعبادة الله، فعبادة العين ان تنظر الى آيات الله، من هنا فان النظر الى آيات القرآن أو النظر الى الكعبة في مكة المكرمة عبادة، فأمور من هذا القبيل تمثل نصيب العين ومتعتها بالعبادة. وعبادة الاذن هي ان تستمع الى آيات القرآن ـ مثلاً ـ من هنا فان الإنصات الى آيات القرآن عبادة، ونصيب القلب من العبادة هو ان يكون وعاءً لمحبة الله، وهنا ينبغي ان يكون للسان نصيبه من العبادة ايضاً، ونصيب اللسان من العبادة في ان يذكر الله.

والملاحظة الاخرى يمكن الاشارة اليها في مجال الحكمة من الذكر اللساني هي البعد التربوي للمسألة، فلو اردنا التوجه الى الله ونعمل على مضاعفة هذا التوجه وترسيخه بمرور الزمن فيجب علينا التمرين، وان الذكر اللساني أسهل بكثير من الذكر القلبي لممارسة التمرين، فمن الصعوبة بمكان بالنسبة للانسان ان يقطع اهتمامه عن كافة مظاهر الدنيا والحياة ويتوجه الى الله فقط، وهذا ما يتسنى لمدة دقائق معدودات أو ساعة أو ساعتين على مدى الليل والنهار على اكثر تقدير بالنسبة للعوام، فالدراسة والقراءة والتكسب والعمل واعانة الآخرين وقضاء حوائج المؤمنين وما شابه ذلك اعمال يتعين علينا القيام بها يومياً، وان تثبيت القلب على التوجّه إلى الله حين ادائها أمرٌ في غاية الصعوبة.

ان الكثير منا وحتى اثناء الصلاة ـ حيث ميعاد توجهنا ـ يتمتع بحضور القلب في اللحظات الاولى من الصلاة حينما يكبّر وينطق بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، فبعدها تتبعثر حواسنا ونغفل عن الصلاة وذكر الله حتى نهاية الصلاة! وعليه فان الذكر اللساني هو الاسهل بالنسبة لنا نحن العوام، فاذا ما اعتاد الانسان على الذكر اللساني فان ذلك يغدو شيئاً فشيئاً سبباً في ان يتوجه الى معنى الذكر اثناء التلفظ به، وخلاصة القول يصبح هذا الذكر اللساني تدريجياً وسيلة وطريقاً جيداً للتوجه والذكر القلبي. من هنا من الممكن ان يكون الذكر اللساني منفذاً وآلة صالحة لتوجه القلب لاسيما بالنسبة لحديثي العهد في هذا الطريق.

ملاحظات حول الذكر القلبي

اتضح لحد الآن ان الذكر اللساني أمر ضروري ولا يُمكن انكار دوره، ولكن يجب أن لا ننسى ان للذكر القلبي آثاره وفوائده ايضاً، فاول ملاحظة حول الذكر القلبي هي ان اساس حركتنا المعنوية والتكاملية هو التوجه القلبي وحضور الله في قلوبنا وارواحنا، فالأمر المهم في الحج والطواف حول الكعبة هو توجه القلب نحو الله وطوافه حول تجليات المعشوق.

اذا ما طوى الانسان كل هذا الطريق ولم يُسلم قلبه ـ وهو في مكة والى جوار الكعبة ـ لصاحب البيت وانصبَّ جلّ همه وتوجهه وجوارحه بالصكوك والتأمينات وديونه ومديناته فلن ينال نصيباً من هذا الحج، ولدينا روايات بشأن الكثير من العبادات تؤكد ان روح ذلك العمل والعبادة اذا لم تقترن به فلن يكون ذا فائدة كثيرة لصاحبه، فثمة رواية تقول: **ربّ قائم حظّه من قيامه السَهر.**[١] أو **ربَّ صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش.**[٢]

---

١. *بحار الانوار*: ج ٨٧، الباب ١٢، الرواية ١٧.

٢. نفس المصدر: ج ٩٦، الباب ٣٦، الرواية ٤.

من هنا فان اول ملاحظة فيما يخص الذكر القلبي هي ان لا ننسى ان التوجه والذكر القلبي هو الذي يتمتع بالاصالة، ولو اننا افنينا عمرنا بأكمله بالذكر اللساني دون ان يكون فيه ذرة من التوجه وحضور القلب فلن يكون له اثر في تكاملنا الروحي أبداً.

وبالاضافة الى ان اساس الذكر هو الذكر القلبي فمن الفوارق الكبرى للذكر القلبي على الذكر اللساني هو انه لا سبيل للرياء اليه، فمن المشكلات الكبرى التي تعترض مسيرة تكامل الكثير منا وتُفسد اعمالنا وتفقدها تأثيرها هي الرياء وحب الظهور. وهذه المشكلة تنتفي تلقائياً الى حدٍّ كبير في الاعمال والعبادات التي ليس لها شكل ظاهري، والصيام ـ مثلاً ـ من نمط هذه العبادات فبما ان الصيام ليس له شكل ظاهري فما لم يُبح الانسان لأحد بصيامه لا يعلم الآخرون بانه صائم، وهذا ما يمتاز به الذكر القلبي ايضاً، فنحن ننظر ظاهرياً الى الشجرة أو الزهرة أو السماء ـ مثلاً ـ لكننا نسبِّح الله في الباطن متأثرين بجمال الزهرة والنبات أو عظمة السماوات ونتفكر بعظمة الله وجبروته. فالذي ينظر من الخارج يتصور اننا منشغلون بمشاهدة الزهور لكنه يجهل ما يجري في دواخلنا، وهذه هي ميزة الذكر القلبي عن الذكر اللساني. فاذا اجهرتم بالذكر اللساني سمعه الآخرون، واذا ما تلفظتم به بصوت خافت علم الآخرون من خلال حركة شفاهكم بانكم مشغولون بالذكر، إلّا ان ينهمك المرء بالذكر في الخلوة والانفراد. وعلى أية حال فان عدم وجود مجال امام الرياء للذكر القلبي يعدّ ميزة له.

الملاحظة الاخرى في مجال الذكر القلبي والتي لا يخلو ذكرها من الفائدة هي خصوصية الذكر القلبي عند أولياء الله، فشأن قلوب الاولياء شأن آخر، اذ اننا نقرأ في الزيارة الجامعة لائمة المؤمنين: ولكم القلوب التي تولى الله رياضتها.[1] ففي تلك المرتبة يتولى الله بنفسه جذب القلوب وتوجيهها نحوه، ولا تقتصر هذه القضية على المعصومين عليهم السلام، بل ان كل من يسلك طريق عبودية الله صادقاً فانه تعالى سيمده بعونه بما يفوق سعيه، فمن ثبت صدق نواياهم بان يكونوا عباداً لله ويسلكوا طريق

١. *مفاتيح الجنان*: الزيارة الجامعة لائمة المؤمنين.

الطاعة، اذا ما استحوذت عليهم الغفلة فان الله يهيء لهم اسباب زوال تلك الغفلة، بل ربما يُري الانسان اشياء لا يراها الآخرون كي يستقطب توجُّهه نحوه ويصدّه عن المعصية. نعم انها مرتبة اذا ما غفل المحبُّ عن محبوبه احياناً فان المحبوب يقصده بنفسه ويتجلى امام انظاره فيبهره ليصد نظره عمَّن سواه.

انواع ومراتب الذكر القلبي

لقد وردت روايات كثيرة في اطار معارف اهل البيت عليهم السلام فيما يخص انواع الذكر اللساني وزمانه وشروطه والتأثير الحاصل عن كلٍّ منها. وبطبيعة الحال ان الذكر اللساني لا يشترط بزمان أو مكان أو عدد خاص، فهو مطلوب ومستحب في كل زمان ومكان وبأي عدد كان، والاذكار المقيّدة بالزمان والمكان والعدد والشروط الخاصة قد وردت في كتب الأدعية وسائر الكتب الروائية، وبامكان الراغبين الرجوع اليها. وعلى أية حال، لا حاجة لان يبحث هنا عن الذكر اللساني اكثر من هذا.

ولكن من المناسب القيام بالمزيد من البحث والتحقيق حول الذكر القلبي، ونظراً لان الذكر القلبي هو اساس الذكر وجوهره فعلى الانسان ان يقوم بمزيد من المطالعة بشأنه ويستعين بالسالكين والعارفين بكيفية حصول الذكر القلبي ودوامه على وجه التحديد.

لقد ابتدع بعض الصوفيين صوراً معينة للذكر القلبي لم ترد في الشريعة، والذي يستفاد من الآيات والروايات الواردة في هذا المجال ان للذكر ثلاث مراتب:

فالمرتبة الاولى من الذكر القلبي هو الذكر المتلازم باداء الواجبات وترك المحرمات، فقد ورد في حديث عن الامام الصادق عليه السلام انه قال: **من اشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً ثم قال: لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا اله الّا الله والله اكبر وإن كان منه، ولكن ذكر الله عندما أحلَّ وحرَّم فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها.**[1]

---

١. *اصول الكافي*: ج ٢، باب اجتناب المحارم، الرواية ٤.

وهنالك مرتبة اعلى من هذه المرتبة، وهي ان يتجنب الانسان الشبهات والمكروهات ايضاً. وبناءً على هذا فان مرتبة من هذا الذكر تتمثل في ان يحذر الانسان لئلا يعمل خلافاً لارادة الله. وهذه المرتبة من الذكر هي التقوى في واقع الأمر، فالتقوى هي ان يراقب الانسان دائماً من ان العمل الذي يقوم به موضع رضي الله أم لا، والتقوى ليست سوى أداء الواجبات وترك المحرمات، ومن الطبيعي ان الانسان عندما يواظب على الالتزام بحلال الله وحرامه فان هذه الحالة تستلزم ذكر الله، فلا يصح ان يلتزم الانسان على الدوام بالحلال والحرام ويكون في نفس الوقت غافلاً عن الله! فمن المسلَّم به ان هنالك نوعاً من ذكر الله في التلازم بين اداء الواجبات وترك المحرمات وان كانت درجة خفيفة، وقد قلنا ان المرحلة العليا في هذه المرتبة هي ان يراعي الانسان المستحبات والمكروهات ويترك الشبهات.

والمرتبتان الثانية والثالثة من مراتب الذكر القلبي وردتا في الحديث الذي رواه ابو ذر عن النبي الاكرمﷺ، وقد ورد مضمون هذا الحديث في روايات اخرى ايضاً بيد ان ما يمتاز به هذا الحديث هو انه موضع اجماع الشيعة والسُنّة ورواه الفريقان. فاستناداً لهذه الرواية، سأل ابوذر النبي الاكرمﷺ عن الاحسان، وكأن السبب في سؤال ابي ذر الآيات التي مضمونها على غرار الآيات القائلة: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).[١]

ظاهر هذه الآية ان الدخول في زمرة المحسنين يأتي بعد مرحلة التقوى وبعد مرحلة العمل الصالح، من هنا فقد تبادر الى ذهن ابي ذر التساؤل عمّا هو الاحسان الذي يقصده القرآن وكيف يمكن الوصول الى مرتبة المحسنين التي هي اسمى من مرتبة

---

١. المائدة: ٩٣.

المتقين؟ على أية حال، قال النبي الاكرمﷺ في الاجابة عن سؤال ابي ذر فيما هو الاحسان: **الاحسانُ ان تعمل لله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك.**[١]

في ضوء هذا الحديث ان مرتبة من الذكر القلبي تتمثل في ان يتذكر الانسان دائماً انه في محضر الله سبحانه وتعالى وهو عزّ وجلّ يراه وشاهدٌ وناظرٌ على اعماله وافعاله. ولتقريب الفكرة الى الذهن، ان هذه الحالة شبيهة بان يقف الانسان خلف زجاجة مظللة لا يرى الجانب المقابل لها لكنه يعلم بان هنالك أُناساً خلفها يرونه، فبالرغم من ان الانسان هنا لا يرى أحداً حسب الظاهر، ولكن بما انه يعلم علم اليقين بان أناساً يرونه من خلف الزجاجة فهو يحتاط لئلا يبدر منه خطأ أو يقوم بعمل قبيح. فالنبيﷺ بدوره يصرح بان احدى مراتب الذكر القلبي هي ان تعلم دائماً ان الله يراك وانك في محضره اثناء خلوتك وجلوتك ولا يخفى على ادنى عمل منك حتى تنفُّسك وارتداد طرفك.

والمرتبة الثالثة والاسمى هي ان يغدو الانسان: كأنك تراه، أي كأنه يرى الله، وهذه حالة اكثر صعوبة من المرحلة السابقة، ففي المرحلة المتقدمة لم يكن الانسان يرى الله لكنه وصل اليقين بان الله يراه في جميع الاحوال وهو شاهد وناظر عليه، وهنا علاوة على علمه بان الله شاهدٌ وناظرٌ على افعاله يكون بحيث كأنّه «يرى» الله حاضراً. واذا ما تكررت هذه الحالة لدى الانسان وغدت «ملكة» وترسخت فيه بما يشبه تلك الحالة التي يصرّح بها اميرالمؤمنينؑ في ردِّه على ذعلب اليماني حينما سأله: يا امير المؤمنين هل رأيت ربك؟ فاجابؑ: **أفأعبدُ ما لا أرى؟**[٢] اذ يصرّح اميرالمؤمنينؑ: انني لا أعبدُ رباً خافياً بل انني اراه فاعبده! ومن الواضح ان هذه الرؤية ليست بعين الباصرة بل هي تحصل للقلب نتيجة لنور الايمان. ثم قال

---

١. *بحار الانوار*: ج ٥٩، الباب ٢٤، الرواية ٣٥.
٢. نهج *البلاغة*: ترجمة وشرح فيض الاسلام، الخطبة ١٧٨.

امير المؤمنين عليه السلام مجيباً على سؤال ذعلب اليماني: كيف رأيت ربك؟: **لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان.**[١] وهذه المرتبة الثالثة تتجاوز الذكر العادي وتقترب من «الرؤية».

بناءً على هذا، يمكن على نحو الايجاز تصور ثلاث مراحل للذكر القلبي: المرحلة الاولى: ذكر الله في مقام العمل والذي يحصل جرّاء الالتزام باداء الواجبات وترك المحرمات. والمرحلة الثانية هي ان يرى الانسان نفسه دائماً في محضر الله، والمرحلة الثالثة هي التي تعتبر اكمل مراتب الذكر بحيث يصل الانسان نقطة وكأنه يرى الله: (فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ).[٢] وهذا مقامٌ اينما ينظر المرء والى أي شيء ينظر واينما كان فهو يرى الله، والرؤية ـ بطبيعة الحال ـ بمعناها الصحيح المتمثل بالمشاهدة القلبية وليست الرؤية التي تستلزم اثبات صفات النقص والجسمانية لله سبحانه وتعالى.

نحو اللانهاية!

على أية حال، لقد اعدَّ الله سبحانه وتعالى الكثير من مقومات تكامل الانسان وسموِّه ما لو لم يضّل الانسان الطريقَ ولم يقع في مصيدة الشياطين والغاوين فان بمقدوره سلوكَ صراط الله بحيث يتمتع بطمأنينة وسكينة في الحياة الدنيا ويتنعم بسعادة الآخرة ولذائذها. ان مقومات تكامل الانسان وعروجه في عالم المعنويات لا حد ولا حصر لها. ومن غير الممكن وضع نقطة محددة لها والقول ان بمقدور الانسان بلوغها، فغاية الانسان هو الله والقرب منه، وان الله وجودٌ لا نهاية له، وعليه كلما اقتربنا منه فذلك في حدود جنوحنا نحو اللانهاية ولكن من الطبيعي ان هذه اللانهاية لا نفاد لها كي نجعلها نقطة النهاية لكمال الانسان وعروجه.

ان لله عباداً قد اسكرهم ذكر الله والتوجه نحو الذات الالهية المقدسة وغرقوا في

---

١. نفس المصدر.

٢. البقرة: ١١٥.

بحبوحة اللذة بنحو اصبحت سائر لذائذ الدنيا صفراً ولا شيء ازاءهـا! وان افـعالنا وحركاتنا في نظرهم كألاعيب الاطفال وتحركاتهم ولهوهم، فالاطفال يفرحون ببعض وسائل اللعب المصنوعة من الخشب أو النايلون ويتنازعون ويتخاصمون ويتصالحون من اجلها، وخلاصة القول ان عالم الطفولة عالم ممتعٌ، وبهذه الصورة التافهة الخاوية يشاهد الذين بلغوا المراتب العليا من المعنويات نزاعاتنا وخصوماتنا وصلحنا حول امور الدنيا على وجه الدقة، ويضحكون منا في قرارة انفسهم لاستهلاكنا اعمارنا من اجل هذه الامور التافهة الواهية. فمن دواعي الاستهجان لديهم ان يسعى اناس وعلى امتداد حياتهم من اجـل اكـتساب عـنوان أو مـنصبٍ وان يمـنحوا لقب دكـتور أو بروفسور أو آية الله وما شابه ذلك! أو أن يسعوا خلال حياتهم كي يكتنزوا حفنات من الدنانير أو يُضاف المزيد في حساباتهم المصرفية! حقاً ان مثل هذه الامور تـعد مسخرة وتافهة بالمعنى الحقيقي للكلمة قياساً مع لذة المناجاة مـع الله والانس بـالله ولقاء الله التي يدركها اولياء الله، ومشكلتنا اننا نجهل تلك اللذائذ ولم نتذوق طعمها.

ان الائمة الاطهار عليهم السلام ومنهم الامام السجاد عليه السلام اذ تذوقوا هذه اللذة فانهم ينادون في مناجاتهم: يا مولاي بذكرك عاش قلبي.[١] من هنا فان قراءة مـناجاة الائمـة عليهم السلام والتمعن في مضامينها طريق لأن يلتفت الانسان الى ان هنالك لذائذَ اخرى في هـذه الدنيا تتوقف عليها سعادة خاصة اولياء الله وحياة قلوبهم. نسأل الله جل وعلا أن يزيح عن قلوبنا حُجب الغفلة ويُلبسَ ارواحنا ثوب ذكره ويمنَّ علينا برؤية جماله.

---

١. *مفاتيح الجنان*، دعاء ابي حمزة الثمالي.

الدرس الثاني عشر

طريق الى ذكر الله

كل شيء مدعاة لذكر الله

فيما تقدم تبين ان المسيرة التكاملية للانسان مسيرة واعية مقترنة بالادراك والارادة، وان الكمالات التي لا شأن لها بالادراك والارادة والوعي ليست كمالاً انسانياً، وفي المقابل بما ان كمال الانسان متلازم مع الوعي فان اعتى اعداء حركة تكامل الانسان ومعرقل لها هو «الغفلة». من هنا فان اول شرط لانطلاق الحركة التكاملية للانسان وسلوك الطريق الذي رسمه الله وضحى الانبياء واتباعهم لأجل تحقيقه هو الخلاص من الغفلة، ولغرض التخلص من الغفلة يتعين معرفة عدة اشياء هي: معرفة المبدأ، معرفة المعاد، ومعرفة الطريق ما بينهما. وقد اوضحنا ان الدور المحوري والاساس في هذه الاثناء هو لمعرفة المبدأ، وان المعرفتين الأُخريين يمثلان في الحقيقة لوازم هذه المعرفة.

من هنا فقد ركّزنا بحثنا على التوجه الى المبدأ وهو التوجه الى الله وذكره، وقد اشرنا فيما يخص ذكر الله الى ان للذكر مراتب ادناها الذكر اللساني والمهم فيه التوجه الى المعني ومفاد اللفظ وان اثر الذكر اللساني يكون عندما ننتقل عن طريق اللفظ الى المعنى ونتوجه اليه، فالخالق والرازق والرحمن والرحيم... الخ انواع مختلفة من الذكر اللساني يقترن التوجه الى معانيها بمرتبة من ذكر الله. ثم اردفنا بالتطرق الى الذكر القلبي واقسامه واشرنا الى ان اساس الذكر وحقيقته هو الذكر القلبي وبهذا يتعين على الانسان ان يصبّ جلَّ سعيه وهمته لغرض بلوغ الذكر القلبي.

بالرغم من ان الهدف النهائي في الذكر هو الذكر القلبي والتوجه الى الذات الالهية المقدسة بيد ان المسار الطبيعي في هذا الطريق بالنسبة لنا نحن العوام من الناس هو ان ننطلق في البداية من الذكر اللساني ومعرفة اسماء الله وصفاته ونـنال مرتبة الذكر القلبي والتوجه الى الذات تدريجياً.

ان أحد الطرق لبلوغ الذكر القلبي هو أن يسعى الانسان حين نظره وتوجهه لأي شيء وأي أحد لان يتصور ارتباطه بالله، فمن المسلَّم به والثابت من الناحية العقلية والبرهانية ان كل موجودات العالم هي خلق الله وفعله، من هنا ينبغي للانسان ان يتمرس حينما ينظر الى مخلوقات الكون ان لا يراها زهوراً ونباتات وسماوات وأرضٍ وقمراً ونجوماً وبحاراً، بل يراها خلق الله وفعله، فاذا ما تمرسنا واعتدنا على ان ننظر الى كل شيء على انه فعل الله وخلقه فسوف ننجح في مغالبتنا للغفلة ونفوز بدوام الذكر. وقد اشرنا آنفاً ان غفلتنا عن شيء ناجمة عن توجهنا إلى اشياء اخرى، وغفلتنا عن الله نتيجة لتوجهنا نحو موجودات واشياء اخرى، فاذا ما استطعنا العمل على ان ننظر الى كافة المخلوقات من زاوية انها فعل الله وخلقه لن تطرأ هذه الغفلة. وهذا أمر ـ بالطبع ـ ليس بتلك السهولة ويحتاج الى كثير من التمرين لكنه على أية حال ممكن التحقق.

ان التوجه الى الكون ومخلوقاته من قبيل التوجه الى نتاج فني من رسمٍ أو عمارة، فقد يتركز انتباهنا على ذلك الأثر فقط دون ان نتوجه الى صانعه وموجده. من البديهي ان لكل اثرٍ مؤثراً قد خلقه ولكل فنٍّ يدُ فنانٍ ابتدعته لكننا في هذا النمط من المشاهدة نستغرق في جمال الأثر نفسه وبداعته ودقته ونغفل الموثر تماماً. لكننا احياناً نرى الأثر والمؤثر معاً، وفي نفس الوقت الذي تتعلق انظارنا بالأثر فاننا نـثني من الصميم وباللسان على مبتدعه وخالقه ونمجده على مثل هذا الابداع. فمن الممكن ان تكون لنظرتنا الى عالم الكون كلتا هاتين الحالتين. ان الكثير من الناس ولدى مواجهتهم لمخلوقات الكون وظواهره تتركز حواسهم وانتباههم على نفس المخلوق

والظاهرة ويغفلون عن خالقه وصانعه تماماً، وتلك هي النظرة والتوجه اللذان يفرزان الغفلة عن الله، فلا شك في ان كل ما نراه في عالم الوجود تجليات لعظمة الله وقدرته وعلمه وحكمته وجلاله وجماله. من‌هنا من‌الممكن رؤية قدرةالله‌تعالى وعلمه وحكمته وعظمته والتوجه اليه والثناء عليه لدى التوجه الى المخلوقات، مثلما يتسنى الى جانب مشاهدة لوحة الرسم الجميلة امتداح مبتدعه من القلب واللسان والثناء على ابداعه.

ان خواص اولياء الله يصلون مرتبة يرون فيها المؤثر وحده فهم لا ينظرون نظرة استقلالية لأيٍّ من مظاهر المادة ويشاهدون الله فقط في جميع الاحوال، فهم ليسوا مثلنا يدركون المؤثر عن الأثر، بل على العكس منا، فبما انهم يشاهدون المؤثر فهم يشاهدون آثاره ايضاً، ومثل هذا ليس متيسراً لنا نحن الذين في بداية الطريق، وما نقدر على فعله في هذه المرحلة هو ان نعيش ذكر المؤثر الى جانب التوجه الى الأثر وعن هذا الطريق نتخلص من الغفلة.

السرّ في تأكيد القرآن على التدبّر في آيات الله

ان اصطلاح الآيات والتفكر والتدبر بالآيات الذي جرى التأكيد عليه كثيراً في القرآن والروايات، يمثل في الحقيقة اشارة الى ان على الانسان ان يتوجه الى المؤثر من خلال توجهه الى الآثار، فنحن كثيراً ما نصادف في القرآن الكريم كلمات «آية»، «آيات»، «آياتنا» وما شابهها. والآية في اللغة تعني العلامة، وان استخدمنا هذه الكلمة في مصطلحاتنا واعرافنا الشائعة بمعنى «آية من القرآن». والقرآن الكريم يدعونا في آيات عديدة منه الى التفكر والتمعن بآيات الله التكوينية:

ـ (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).[1]

---

١. النحل: ١٠ ـ ١١.

ـ (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَالنَّهٰارِ لَآيٰاتٍ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ).[١]
ـ (وَمِنْ آيٰاتِهِ مَنٰامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهٰارِ).[٢]
ـ (وَمِنْ آيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهٰا).[٣]
ـ (وَجَعَلْنَا السَّمٰاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيٰاتِهٰا مُعْرِضُونَ).[٤]

هل يا ترى اننا قد تدبرنا حتى الآن بهذه الآيات والآثار العظيمة لله كما تستحق؟ كيف تتحول بذرة صغيرة الى غرس مثمر وقوي؟ هل انتبهنا جيداً حتى الآن الى كيفية هطول المطر ومنافعه التي لا تُحصى؟ هل فكرنا ماذا يحدث لو استمر الليل أو النهار على الدوام؟ هل فكّرنا أي نعمة سائغة وكبرى في النوم عندما نصاب بالارق احياناً؟ هل تمعّنا بالسماء الواسعة واسرارها الخفية؟ ان القرآن يصرح ان الارض والسماء والنبات والجبال والبحار والقمر والشمس والنجوم... الخ كلها آيات الله ودلائل على وجوده سبحانه وتعالىٰ، والسماء والارض والقمر والشمس والنباتات والاشجار ماثلة امامنا ليلاً ونهاراً ونحن غافلون عن الله في الليل والنهار! وهذه القصة تشبه قصة ذلك الذي يُمسك بصورة شخص وينظر اليها في الليل والنهار لكنه يغفل عن صاحب الصورة تماماً جراء افتتانه بنفس الصورة ومميزاتها من قبيل الورق والحجم والتلوين والارضية! فيجب ان نتمرس على ان ننظر الى الكون وظواهره على انها تجليات لجمال الحبيب ويكون لسان حالنا:

انني مسرور بهذا الكون من حيث ان نضارته من الله
وأحب هذا الكون كلّه لأن وجوده من الله[٥]

فاذا ما تبلورت مثل هذه الرؤية بصورة ملكة لدينا لن نغفل عن ذكر الله مطلقاً.

---

١. آل عمران: ١٩٠. ٢. الروم: ٢٣.
٣. الروم: ٢١. ٤. الانبياء: ٣٢.
٥. أصل الشعر باللغة الفارسية كالآتي:
به جهان خرّم از آنم كه جهان خرّم از اوست عاشقم بر همه عالم كه همه عالم از اوست

الزمان والمكان يذكّران بالله

من بين الامور التي بوسعها ان تكون مذكّراً لنا بالله هو الزمان والمكان. صحيح ان جميع الازمنة والامكنة مخلوقات الله لكن بعض الازمنة والإمكنة تتشرف على غيرها من الازمنة والامكنة بسبب انتمائها المتميز لله، فجميع البقاع قد خلقها الله تُنسب اليه غير ان للكعبة وبيت الله انتماءً خاصاً وشرفاً متميزاً: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْـحَرَامَ قِياماً لِلنّاسِ﴾.[١] وكافة الازمنة تُنسب الى الله لكن شرف «أيام الله» تختص بـبعض الازمنة: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيّامِ اللهِ﴾.[٢] فليلة القدر من الشرف بحيث: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.[٣] وشرف يوم غدير خم بحيث جُعل اعظم عيد في الاسلام، ففي هذا اليـوم اكتمل الدين وتمت نعمة الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.[٤] ولقد كان يوم الثاني والعشرين من بهمن[٥] يوماً منَّ الله عزّ وجلّ بنصرة الشعب الايراني المسلم على الكفار وعملائهم من هنا فاننا نعتبره من أيام الله.

على أية حال، مثلما تستقطب الارض والسماء والقمر والشمس والجـبل والبـحر اهتمامنا بوصفها آيات الله، فهنالك أزمنة وامكنة معينة ايضاً تتمتع بمثل هذه الموهبة والاهلية، بل قد تتمتع بعض المعالم الاعتبارية والتعاقدية بهذه الميزة ايضاً، فكل من يرى عن بُعد ـ مثلاً ـ القبة الذهبية للحرم الطاهر للامام الرضا عليه السلام فانّه لا محالة يذكر الله والمعنويات. أو من المتعارف بناء القبة أو المنارة في المساجد، فالقبة والمنارة ليست مذكّرة بالله تكوينياً ولكن نظراً لانها جُعلت وأعـتُبرت عـلامة عـلى المسـجد وان المسجد بيت الله، من هنا فان الانسان يذكر الله برؤيته لها. أو عندما يقترب القادمون الى قم منها، فلدى رؤيتهم للقبة الذهبية لمرقد السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام يتداعى

---

١. المائدة: ٩٧.
٢. ابراهيم: ٥.
٣. القدر: ٣.
٤. المائدة: ٣.
٥. هو يوم انتصار الثورة الاسلامية في ايران بقيادة الامام الخميني قدس سره ويصادف يوم ١٢ شباط عام ١٩٧٩، وفيه أطيح بالنظام البهلوي [المترجم].

لاذهانهم ان أحد اولياء الله تعالى مدفون هناك وبهذا فهم يذكرون الله عن هذا الطريق. وهكذا الشعائر الدينية، فالسرّ في التأكيد على تعظيم الشعائر الدينية يكمن في ان الناس يذكرون الله لدى رؤيتهم لها: (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ).(١) ولدى مشاهدة الناس للأعلام والرايات وسائر الطقوس التي تدلل على حلول محرم وعاشوراء فانهم يتذكرون الله والدين والامام الحسين عليه السلام وتحيا في اذهانهم هذه المفردات، ويصف القرآن الكريم مناسك الحج انها من «شعائر الله» فيقول عن الصفا والمروة اللتين يسعى بينهما الحجيج: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ).(٢) وبعد عدة آيات من سورة الحج حيث اشار تعالى الى مناسك الحج ومنها الأُضحية، يقول: ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ، من هنا فان الذين يعينون على احياء الشعائر في المجتمع انما يعينون في الحقيقة على إحياء ذكر الله.

امثلة من شعائر الله

ان إحدى الشعائر زيُّ العلماء هذا الذي نرتديه أنا وأنتم، فارتداء هذا الزي مفخرة كبرى لان المرء بارتدائه له يكون مدعاة لان يتذكر الناس الله سبحانه وتعالى. وهذا بحد ذاته توفيق إلهي بان يُحيي الانسان ذكر الله في القلوب بارتدائه لزي العلماء فقط دون ان يبذل جهداً أو يستهلك وقتاً. ان رؤية العمامة وزي العلماء يقترن في اذهان الناس بالمسجد والقرآن والدعاء والرثاء، وبايجاز بالامور التي ترتبط بالله، وحتى الذين يسيئون الظن بالعلماء يتذكرون الله والدين في البداية لدى رؤيتهم للعالم ومن ثم يقولون ان هذا العالم الدينيّ كذا وكذا!

من هنا يتعين على الذين يرتدون بزّة العلماء ان يسعوا لان يكونوا أُناساً روحانيين ومعنويين، فاذا ما صدر فعلٌ أو تصرفٌ عمن يرتدي زي العلماء ـ لا سمح الله ـ فان

١. الحج: ٣٢.
٢. البقرة: ١٥٨.

هذا الفعل ليس من شأنه امتهانه هو لوحده فحسب بل يؤدي الى تشاؤم الناس ازاء الدين ايضاً ويؤثر سلباً على توجههم نحو الله والامور الدينية، من هنا مثلما ان ارتداء لباس العلماء مبعث فخر ومكسب للاجر فان ذنب عدم الالتزام بشأن هذا الزي عظيمٌ جداً ايضاً.

الإعراض عن شعائر الله دليل على مسخ الهوية الانسانية

من علامات الحياة في القلب تعزيز الروح المعنوية لدى الانسان وتزايد توجُّهه الى الله حين رؤيته للشعائر الدينية، فاذا ما وجدنا عدم حصول أي تغيّر في قلوبنا وارواحنا عند مشاهدة الشعائر الدينية ومواجهتها ـ لا سمح الله ـ فلنعلمْ اننا على وشك انحطاط رهيب، وفي المقابل اذا ما حييَ ذكر الله في قلوبنا وحلّق في سمائها طائر المعنويات لدى رؤية الشعائر الدينية فلنحمد الله باننا مازلنا في طريق التكامل ومازال مصباح الهداية يشعُّ في قلوبنا.

وهنا يشير القرآن الكريم الى أناس ليس فقط لا يستوحشون اذا ما شاهدوا الشعائر الالهية وانما ينفرون ويشمئزون لدى مواجهتهم إياها، فيقول القرآن الكريم بهذا الصدد: (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ).[1] نعم، فبعض الناس ليس لا يزداد توجههم الى الله عند سماعهم بأسمه فقط وانما تلتهب في قلوب نيران النفور ايضاً! فهم ينزعجون اذا ما ذكر اسم الله، وليس فقط لا يذكرون اسم الله بانفسهم وانما يسوءهم اذا ما ذكر الآخرون الله! ويصرح القرآن بان هذه الحالة إفراز لفقدان الايمان بالآخرة وانكارها: (الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ).

نماذج من «الاشمئزاز» في عصرنا

في أيامنا هذه نصادف امثال هؤلاء الناس احياناً هنا أو هناك في وطننا الاسلامي،

---

(١) الزمر: ٤٥.

فثمة اناس دائماً ما يتبجحون في كتاباتهم واحاديثهم بـالوطنية والطـقوس القـومية والاسلاف ويحتفلون بيوم الاربعاء السوري[١] وينفقون على مثل هذه الاحتفالات من بيت مال المسلمين، لكنهم ينزعجون اذا ما جرى الحديث عن الله وعن الشعائر الدينية! وهؤلاء اذ لا تجمعهم علاقة بالدين وبالله اذا ما تحدثوا عن امور الدين احياناً فلغاية ولخداع الجماهير واستقطاب المزيد من الاصوات. وهؤلاء يخصصون الاموال لاحياء الطقوس والاعراف القومية وإن كانت تنطوي على شواخص الكفر والشرك، ولكن حينما يصل الأمر الى المساجد والى رب العالمين يـقولون: لا نمـتلك الامـوال ويجب ان تكون المساجد ذات طابع جماهيري وان تدار من اموال الشعب! وهؤلاء ليسوا فقط لا يخطون خطوة واحدة لغرض التبليغ للاسلام والقرآن والقـيم الديـنية والشهداء بل يضجرون اذا ما ذكر أحدٌ اسم الشهداء والقيم ويقولون ان هذه أمور تعود الى السنوات الاولى من انتصار الثورة وبالجبهة والحرب وينبغي ان لا تُـطرح الآن. انهم هم الذين يصرح القرآن قائلاً: **وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ**، ان هؤلاء ليسوا فقط يأبون تقديم الشكر لمن يعملون على احياء ذكر الله والقيم الدينية داخل المجتمع وانما يُعرضون عن مثل هذه الامور ايضاً: (**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**).[٢] ومَثلُ هؤلاء كالمريض الذي يوشك ان يموت عطشاً فتقدِّم له كأساً فيه ماء بارد وعذب وبدلاً من ان يُسدي لك الشكر يقوم برميه ورفضه!

ان امثال هؤلاء مصداق كامل لـ«**أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ**» لان الله تعالى يقول ان سـبب الصيرورة كالانعام هو: (**لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا**).[٣] فالذي لا ينتفع بقلبه وعينه وأُذنه ـ أي الادوات التي يمتلكها للفهم والمعرفة ـ لإدراك الحق والحقيقة ومعرفتها ويُعرض عنها فان انسانيته على شـفير

١. وهو آخر يوم اربعاء من العام الهجري الشمسي ويتم فيه اشعال النيران والقفز عليها، وهذه طقوس انبرى النظام الاسلامي في ايران للقضاء عليها [المترجم].

٢. الكهف: ٥٧؛ السجدة: ٢٢. ٣. الاعراف: ١٧٩.

الموت والاستحالة الى «كالانعام» والعلاج الناجح لمثل هذا الانسان هـو ذكـر الله، ولكنه للاسف قد انحدر في السقوط بحيث يُلقي باكسير الحياة هذا ويُعرض عنه. فمن اظلمُ من هذا الانسان يا تُرى؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا. وهؤلاء ليسوا فقط لا يستمعون للحديث عن الله والحساب والعذاب والقبر والقـيامة وانما يقولون: ان عصرنا عصر الحضارة واستيفاء الحقوق، وقـد انـتهى زمـن التكـليف والعبودية والحساب والعقاب! ان تعيين التكليف للبشر ودعوتهم لعبادة موجود اعلى والتذلل امامه يعود الى زمن الرق! ان الانسان في هذا الزمان متحضرٌ ويطالب بحقوقه ويحـاول استرداد حقوقه التي صودرت منه لآلاف من السنين! وان «عـبد» اسمٌ لا يليق بالانسان، ودعوة الانسان لـ«العبودية» اعظم اهانة ترتكب بحقه!

أليسَ في هؤلاء مصداق تام لآية «الاشمـئزاز»: إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ. ان هؤلاء لا يعتقدون في بواطنهم بالله والاسلام وينزعجون حقاً لاثارة عناوين من قبيل الله والاسلام والشهداء والقيم ويسعون عـلانية وسرّاً للحيلولة دون طرحها بما اوتوا من قوة. واذا عجزوا في موضع ما عن عرقلة اصلها فانهم يحاولون ان لا تكون سوى ظاهر خالٍ من المضمون، ويعملون عـلى اشـاعة الموسيقى والرقص والغناء بشتى الصور بدلاً عن اشاعة ثقافة القرآن والقيم الدينية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً! وحيثما عجزوا وأُرغموا على أن يخـصصوا فـقرة للـقرآن ضمن برامجهم فانهم يحصرونه في القراءة بلحن وصوت وتجـويد والنـاس يـردّدون للقارئ «الله» و«احسنت»، فهل نزل القرآن لنقرأه بصوت جميل أو تتلو آية طويلة بنَفَسٍ طويل فقط؟ فاذا ما قرأنا القرآن دون ان نفهم معناه وتفسيره ونأخذ منه درساً فما الفارق بـين القـول «الله» و«احسـنت» لهـذه القـراءة وبـين التـصفيق والزعـيق للمطرب؟! انه مخطط الشياطين الذين يريدون إفراغ هذا المـفصل ـ حـيث الانـظار معلقة بالقرآن ـ من تأثيره الحياتي.

من الضروري ـ بالطبع ـ الالتفات الى هذه الملاحظة وهي ان الذين يريدون توجيه الناس نحو الله يجب ان لا يكونوا غافلين، فلو اراد عالمٌ دعوة الناس الى الله ويمنحهم درساً في التوجه الى الله وذكره، فيجب ان يكون ذلك بنحو يلمس الناس أولاً ذلك التوجه والذكر في سيرته وحياته. فعلى المرء ان لا ينظر لهذا العمل بصفته مهنة ويكتفي بعرض هذه السلعة على الآخرين وهو لا ينتفع بها.

اصبحت خلاصة ونتيجة ما قلناه في هذا الدرس أنه يجب ان تكون نظرتنا الى عالم الوجود بحيث نرى الأثر والمؤثر معاً وبرؤيتنا للآثار نتذكر صانعها وخالقها، فاذا ما شاهدنا المطر واستمتعنا به، نتفكر بمن انزله ولا نرتشف من هذا الماء ونحن غافلون، هذا الماء العذب الذي وفَّرت اسباب نزوله يدُ خالق قدير: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْ لاَ تَشْكُرُونَ).[1]

اذا ما اعتاد الانسان على ان ينظر لكل شيء على انه فعل الله ومخلوقه اذ ذاك سيتخلص عن مصيدة الغفلة ويرتقي سلَّم التكامل الانساني المتمثل بالقرب من الله يوماً بعد يوم ويزداد قرباً من الغاية العليا والقصوى للخلق.

---

١. الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠.

الدرس الثالث عشر

حائل مهمٌ دون الذكر

لمحة عن الابحاث السابقة

لقد اشرنا ـ استناداً الى ما يستفاد من القرآن الكريم ـ الى ان العامل الجوهري في سقوط الانسان وانحطاطه هو الغفلة، فغفلة الانسان عن نفسه وعن هويته الانسانية هي التي تؤدي بالانسان للانحدار حتى درجة (أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ).[1] والغفلة عن النفس تتلازم مع الغفلة عن المبدأ والمعاد والطريق فيما بينهما، وبعبارة اخرى ان الغفلة عن النفس إفراز ونتيجة للغفلة عن هذه الامور الثلاثة، وقد استندنا الى بعض آيات القرآن لتأييد هذا المدّعى من قبيل الآية القائلة: (نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ).[2] فهذه الآية تعتبر نسيان النفس والغربة عن الذات نتيجة لنسيان الله، وفي المقابل يقول تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ).[3] فيستفاد من هذه الآية ان ثمرة التوجه الى النفس هي الهداية التي ليست سوى العروج الى الله والقرب منه، وقلنا كذلك ان متعلّق الغفلة اعتُبر في آيات عديدة الله والمعاد ونِعَم الله وآياته، وما له الدور الجوهري والمحوري في ذلك هو معرفة الله، وان معرفة المعاد والطريق ما بين المبدأ والمعاد تحصل نتيجة لمعرفة الله وحكمته وعدالته والتوجه اليه، فان عرفنا الله نعرف ان الله خالق جميع الكون والانسان من ناحية، وانه حكيم ايضاً من ناحية اخرى، وعليه فان الله الخالق الحكيم لا يفعل دون حكمة، ومن المؤكد انه

---

١. الاعراف: ١٧٩.
٢. الحشر: ١٩.
٣. المائدة: ١٠٥.

جعل هدفاً من هذا الخلق، وهكذا تُرشدنا معرفة المبدأ ومعرفة الله تلقائياً الى معرفة المعاد والقيامة: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ).[١] فاذا ما عرف الانسان الله سيعرف ان مآله سيكون في النهاية اليه.

وكما اشرنا ان على الانسان ـ في طريق معرفة النفس ـ ان يعرف ثلاثة امور أحدها معرفة المعاد وعالم الآخرة، فعالم الآخرة غاية الحركة التكاملية للانسان والمحطة النهائية التي وضعها الله تعالى له، وقد ورد التأكيد في آيات كثيرة من القرآن على ان شقاء الانسان وابتلاءه بالعذاب الابدي انما هو نتيجة لنسيان المعاد ويوم القيامة. يقول تعالى في سورة «ص»: (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ).[٢] فلو كان هؤلاء يعرفون بان هنالك يوماً للحساب وسيحاسبون على اعمالهم، وكانوا يعملون الصالحات لما نالهم العذاب الابدي في جهنم. اذا ما تصور الانسان ان العالم عالم عبث ولهو، تكون نتيجة ذلك التصور ان ليس ثمة حساب وعقاب، أما اذا لم يعتبره عالم عبث وان ثمة حكمة من وراء خلقه فمن البديهي ان تلك الحكمة سترشده نحو المعاد ووجود الحساب، وبالتالي سيراقب اعماله في هذه الدنيا كي لا يتجرع العذاب الشديد يوم القيامة، وعلى اية حال، ان تناسي ذلك اليوم سيعقبه الانحطاط عن درجة الانسانية.

عباد منسيّون!

الآية الاخرى من الآيات التي تذكر نسيان المعاد يوم القيامة سبباً في خسران بعض الناس، هي هذه الآية: (فَالْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا).[٣] من الواضح ان المراد من «ننساكم» ليس ان هؤلاء الناس يخرجون عن حدود علم الله ومعرفته! فان

١. المؤمنون: ١١٥. ٢. ص: ٢٦.
٣. الجاثية: ٣٤.

الله منزَّهٌ عن النسيان والسهو وأي عيب ونقص، بل المراد: اننا نمنع نـعمنا وألطـافنا عنهم: وهذا التعبير موجود ايضاً في طريقة تحاورنا، فالمراد هو: مثلما لم يكن الكفار يفكرون بانهم سيلاقون الله يوماً ما، فان الله سيصرف عنهم لطفه وعنايته في يـوم القيامة ويُعرض عنهم وكأنه قد نسيهم.

ويقول تعالىٰ في آية اخرى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمىٰ * قٰالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قٰالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيٰاتُنٰا فَنَسِيتَهٰا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسىٰ).[1] «الإعراض» يعني الغفلة المتعمدة، والإعراض عـن الذكر يعني ان المرء يُعرض حتى لو توفرت له اسباب ذكر الله، ومثل هذا الانسـان سيعيش حياةً قاسية. وقد قال المفسرون ان هذه الحياة القاسية لا تختص بالآخرة بل ان حياته تقترن بالقلق والاضطراب في هذه الدنيا ايضاً، فالقرآن يقول ان طـمأنينة القلوب انما تحصل عن طريق ذكر الله فقط: (أَلاٰ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْـقُلُوبُ).[2] ومـن الطبيعي ان المعرضين عن ذكـر الله يـفتقدون الاسـتقرار الروحـي وثمـة نـوع مـن الاضطراب الدائم في دواخلهم، وهذا الاضطراب وعدم الاستقرار يكون سبباً في شدة حياتهم، وفي الآخرة ايضاً تبدأ مصاعبهم منذ بداية الحشر والقيامة، واول مصاعبهم انهم يردون المحشر عمياناً: وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْـمىٰ، وهـنا يـعترضون عـلى الله بالقول: قٰالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً. فيأتيهم الجواب: كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيٰاتُنٰا فَنَسِيتَهٰا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسىٰ. فانك قد تجاهلت آياتنا بالرغم من امتلاكك للبصر في الدنيا واغمضتَ عينيك ولم تشاهد الآيات التي ارسلناها اليك ونسيتها، فها انت الآن تنال جزاء ذلك التجاهل فحُشرتَ اعمى ونحن سوف نتجاهلك هنا أيضاً ونحـبس عنك ألطافنا ونعمنا.

على اية حال، ان نسيان الله وصفاته وافعاله وآياته والآخرة التي هي من افعال الله

---

١. طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

٢. الرعد: ٢٨.

وآياته سيؤدي الى شقاء الانسان وحرمانه ومسخ هويته الانسانية. فاذا ما اراد الانسان بلوغ السعادة وتلك الرتبة التي تجدر بانسانيته والتي ارادها الله له فعليه ان يتوجه الى إلهه وبارئه. واذا ما نسي فسينسى نفسه ايضاً.[١] فالناسون لانفسهم سينسون مآلهم وما خُلقوا من اجله والطريق الذي عليهم سلوكه لبلوغ السعادة وسينضمّون في عداد الاشقياء واهل جهنم.

معرفة اسباب الغفلة، خطوة نحو الذكر

ان مفتاح النجاة يتمثل في ان نزيح عنا هذه الغفلة والنسيان ونتيقظ، فدرجة انسانية الانسان مرهونة بمستوى معرفته بنفسه وبُعده عن نسيانها ومعرفته بـ: من هو، وماذا ومن أين جاء واين سيذهب وما الطريق الذي يتعين عليه سلوكه للوصول الى الغاية. فكلما غفل الانسان عن هذه الامور وملأت عينيه وأُذنيه زخارفُ الدنيا واختطفت عقلَه وحواسه سيزداد بُعداً عن انسانيته. فمحور انسانيتنا في الحقيقة في ثلاثة معارف هي: معرفة المبدأ وهو الله، ومعرفة الغاية وهي المعاد ويوم القيامة، ومعرفة الطريق الذي أمامنا والدليل الذي يوصلنا الى الغاية وهو النبي.

من اهم اعمال الانسان لبلوغ الكمال الانساني الذي انما يتحقق في ظل معرفة الامور المذكورة هو معرفة الاسباب التي توقعه في مصيدة الغفلة، وفي بيانه وتشخيصه لاسباب الغفلة يقول القرآن الكريم: (**وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**).[٢] يتبين من هذه الآية ان أحد اسباب غفلة الانسان ونسيانه هو الشيطان. وينبغي ان نعلم ان الشيطان في المصطلح القرآني اعمُّ من ابليس. فابليس هو ذلك الشيطان الذي يُذكر في قصة آدم عليه السلام والذي تمرَّد على أمر الله بالسجود لآدم عليه السلام، أما الشيطان في المصطلح القرآني فهو يشمل شياطين الجن والانس[٣]

---

١. الحشر: ١٩.　　٢. الانعام: ٦٨.

٣. يصرّح القرآن بوجود شياطين الانس والجن: وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ : الانعام: ١١٢.

ويُطلق على كل مخلوق يمثل مصدراً للشر ويحول بشيطنته دون تكامل الانسان ويصدّ عن الله وطاعته. وان ابليس كبير أمثال هؤلاء وزعيمهم وهم ـ ومن بينهم جماعات من البشر ايضاً ـ يتلمذون ويدرسون في مدرسته!

على أية حال، تصرّح الآية المذكورة بأنك اذا ما ذُكِّرتَ وانتُشلتَ من الغفلة والنسيان فاياك ان تقع فيها ثانية، فكيف يمكن ان يغفل بعد الذكرى يا ترى؟ يقول تعالى ان مجالسة الظالمين والمتعدّين لحدود الله تورث هذه العاقبة: فَلاٰ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ.

سببٌ للذكر وحائلٌ دونه

ان من اسباب الذكر هو القرآن، فمن اسماء القرآن «ذكر» و«تذكرة»: (إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)،[1] (مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقىٰ * إِلاّٰ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ).[2] إن كون القرآن «ذكراً» و«تذكرة» يعني إنه مبعث تذكير ومن له شأنٌ مع القرآن يتخلص من الغفلة.

يستفاد من نظائر هذه الآيات التي تذكر القرآن بوصفه «ذكر» ان أحد طرق الحيلولة دون الغفلة هو ان يكون لنا برنامج للأُنس مع القرآن في حياتنا، ففي سورة القمر تكررت هذه الآية الكريمة عدة مرات: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ).[3] فنحن قد يسّرنا القرآن وبامكانكم ان تنتفعوا منه بيسر للتذكّر والخلاص من الغفلة، فهل انتم منتفعون من هذا القرآن؟ لقد تكرر هذا الأمر اربع مرات في سورة واحدة وفي ذلك دلالة على تأكيد الله والقرآن بان ننتفع من القرآن في هذا المجال، وبطبيعة الحال ان الشرط في ذلك هو ان ندرك معنى القرآن ومضمونه لدى تلاوته.

---

١. يس: ٦٩.
٢. طه: ٢ ـ ٣.
٣. القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

ان الأُنس بالقرآن والاستماع اليه ومعرفة مضمون آياته ومعانيها يزيح الغفلة ويغدو مبعث توجه، مثلما ان مخالطة بعض الناس والاستماع اليهم والى ما يقولون تجلب الغفلة وتعدّ سبباً في نسيان الله: ﴿وَإِذٰا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيٰاتِنٰا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّٰى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمّٰا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطٰانُ فَلاٰ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ﴾.[١] فمجالسة الظالمين تورث الغفلة، و«الظالم» في المصطلح القرآني يختلف عن ذلك المفهوم الخاص الشائع في أعرافنا. فالظلم في المصطلح القرآني لا ينحصر ببعض مصاديق الظلم التي عادة ما تتداعى في اذهاننا. فالقرآن يعتبر الشرك أعظم ظلم: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[٢] وفي آية اخرى يصرح بانَّ هذا الظلم من العظمة بحيث ان ربما يغفر أي ذنب سواه: ﴿إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ﴾.[٣]

على أية حال، في الآية المتقدمة ﴿وَإِذٰا رَأَيْتَ الَّذِينَ﴾ يقول القرآن ان مجالسة ذوي الاطباع الشيطانية والاستماع للكلام الذي يثير الشبهة حول القرآن وآيات الله ودينه يجلب الغفلة ويُعدّ ظلماً، فاذا ما رأيت أناساً قد عقدوا جلسة وحديثاً ليجادلوا في آيات الله ويثيرون الشكوك حولها فلا تشاركهم الجلسة ولا تجالسهم إلّا ان يبادروا الى جدال وحديث في موضوع آخر: ﴿وَإِذٰا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيٰاتِنٰا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. ونحن في زماننا نعرف نظائر هؤلاء ممن يجادلون ويقولون: هل ان القرآن يخضع للنقد أم لا؟ هل القرآن كلام الله أم كلام النبي؟ هل ثمة خطأ في القرآن؟ فيجيبون: نعم، فالقرآن خاضع للنقد كأي كتاب آخر! وانتقاده يأتي عن طريق التجربة فينبغي ان نُجرّب التعاليم الالهية عملياً فان كانت التجربة ناجحة استفدنا منها وإلّا القينا بها جانباً! فالقرآن يصرِّح بأن اجتنبوا امثال هؤلاء واجتنبوا الاستماع الى

---

١. الانعام: ٦٨. ٢. لقمان: ١٣.
٣. النساء: ٤٨ و١١٦.

اقوالهم: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً).[١]

استهزاء متحضرا!

في هذا الزمان وفي بلدنا الاسلامي نعرف أُناساً يسخرون بصراحة من آيات القرآن والاحكام الالهية المصرَّح بها في القرآن، فهم ينتقدون قطع يد السارق وجَلد بعض المجرمين الذين ورد حكمهم بشكل صريح في القرآن قائلين: إن هذا العصر عصر المدنية والحضارة، أَوَيصح قطع يد أحدٍ أو جَلده في مثل هذا العصر؟! إن هذه الاحكام العنيفة تعود الى زمن بربرية الانسان والزمن والمجتمع الذي كان يفتقد الحضارة والمدنية وشأنهم القتل والاغارة، واليوم قد ولّى زمن هذا العنف ولا يمكن التعامل مع الانسان المتحضر وجلده كالحيوان! ان القرآن يؤكد: إبتعدوا عن هؤلاء ولا تخالطوهم خشية ان تؤثر فيكم افكارهم واقوالهم الباطلة فتصبحوا منهم.

انني بالذات رأيت امثال هؤلاء واعرفهم عن قرب، ومن المناسب ان اشير هنا الى مورد واحد: في السنوات الاولى التي اعقبت انتصار الثورة الاسلامية جرى تشكيل لجنة الثورة الثقافية بأمر من الامامﷺ ليدرسوا قضية الدروس والكتب في الجامعة ومطابقتها مع نظريات الاسلام، فاوعز الامامﷺ الى اعضاء هذه اللجنة قائلاً: «اذهبوا الى الحوزة وقوموا بالتحقيق في هذه الامور داخل الحوزة وعلى علماء الحوزة توضيحها»، وبعد أمر الامامﷺ تشكّل «مكتب التنسيق بين الحوزة والجامعة» وقد حالفني الحظ للعمل فيه، ولغرض تطبيق أمر الامامﷺ بالتعامل والتواصل بين الحوزة والجامعة في هذا المجال، فقد قررنا ـ كممثلين للحوزة ـ ان نعقد جلسات مع بعض

١. النساء: ١٤٠.

الشخصيات والاساتذة في الجامعة، فكان من بين الذين التقيناهم عالمُ دين كان يعمل استاذ جامعة في فرع الحقوق، فتوجهنا من قم الى طهران للقائه، وعندما التقيناه طلبنا منه بكل ادب وتواضع ان يتعاون معنا في مجال عمل لجنة الثورة الثقافية، فقال اثناء تلك الجلسة: انني مسرورٌ جداً لأن الحوزة قد فكّرت بالجامعة، ولكن للاسف فمازال في الحوزة أناسٌ يظنون امكانية ضرب الناس ـ الآن ـ بالعصا كالحمار!! وكان مراده الآية الكريمة التي تقول: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).[١]

لقد قال هذا الرجل كلامه هذا في بداية انتصار الثورة ما بين العامين ١٣٥٩ أو ١٣٦٠هـ.ش[٢] والآن يردد تلاميذه ـ وبعضهم ينتمون للحوزة وللاسف ـ تلك الاقاويل بلغة وبيان آخر. فهم يقولون: اننا نؤمن بالقرآن ويحظى باحترامنا كثيراً غير انّ احكامه تعود الى ١٤٠٠ سنة مضت ولا ينفع المجتمع المعاصر!

والعجيب في القرآن ـ وليس من عجب لأن القرآن كلام الله عالم الغيب والعلانية ـ انه تحدث قبل ١٤٠٠ عام بنحوٍ وكأنه قد نزل اليوم ويقصد الأحداث التي يشهدها هذا الزمن: إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ. فاذا ما سمعتم آيات الله تتعرض للانكار والسخرية فلا تجالسوا الذين يطلقون مثل هذه الاقاويل، لماذا؟ لان الله خالق هذا الانسان والعارف به، يعلم ان التلقين يؤثر في الانسان، فاذا ما اعادوا عليه أمراً عدة مرات فانه يقتنع به رويداً رويداً وإن خلا من الحقيقة، والشياطين بدورهم يعرفون هذا الأمر جيداً. لذلك فهم يكررون قولهم الباطل، وتكرارهم ليس لان احداً لم يردّ عليهم، بل لعلمهم ان بامكانهم ترسيخ افكارهم الباطلة في العقول عن طريق التكرار، من هنا فان الله والقرآن ـ الذين يعرفان البناء

---

١. النور: ٢.

٢. أي ما بين العامين ١٩٨٠ و١٩٨١ [المترجم].

الوجودي للانسان ـ ينهيان عن الاستماع لمثل هذا الكلام والمشاركة في هذه الجلسات، وقد وردت رواية معتبرة في هذا المجال نُقلت بعدة اسانيد تقول: **مَنْ اصغى الى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عَبَد الله وإن كان الناطق عن ابليس فقد عبدَ ابليس.**[١]

من هنا يستفاد ـ على نحو القطع والتسليم ـ من القرآن والروايات ان على المرء ان لا يحضر المجالس التي يتعرض فيها الله والدين والقرآن للسخرية والشبهات وان ولا يستمع لمثل هذا الكلام.

معنى الآية «فَبَشِّرْ عِبادِ»

وفي مواجهة ما قلناه ومن خلال استدلال منحرف وخاطئ، يُستند الى آية من آيات القرآن وهي: (**فَبَشِّرْ عِبادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**).[٢] فيقولون: ان القرآن بنفسه قال: ان المنهج الصحيح هو ان نستمع جميع الاقوال ونهتم بكافة الطروحات.

حريٌ بنا القول في الرد على هذا الكلام: أولاً: ان المراد من «القول» في هذه الآية هو القرآن. ثانياً: ان القرآن يقول في وصف هؤلاء الناس انهم يتبعون الاحسن منه بعد سماعهم للكلام المختلف، وهذا بحد ذاته يعدّ قرينة على ان هذه الآية تخص الذين يمتلكون القابلية على تمييز القول «الاحسن» من «غير الأحسن» و«الصحيح» من «السقيم» ولا تشمل سواهم، وبأمر الآية المتقدمة على من يفتقرون لمثل هذه القابلية ان لا يستمعوا للكلام الذي يُضعف دينهم وعقائدهم: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم. وكذلك قوله تعالى: **إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ**. فهو تعالى لم يقل: لا تسمعوا، بل انه قال: لا تقعدوا مع هؤلاء ولا

---

١. بحار الانوار: ج ٧٢، الباب ١١٥، الرواية ١. ٢. الزمر: ١٧ ـ ١٨.

تخالطوهم أبداً! لماذا: انكم إذاً مثلهم. وفي ختام الآية يقول: (إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً). أي انكم وان قلتم نحن مؤمنون فانكم تفقدون ايمانكم جرّاء علاقتكم بهؤلاء، واذا لم تصبحوا كافرين ستكونون من المنافقين الذين يتظاهرون بالاسلام لكنهم لا يؤمنون في قلوبهم بالله وامور الدين مثقال ذرة، وان الله سيُدخل المنافقين والكافرين في جهنم معاً.

بناءً على هذا، انما يجوز لنا الاستماع الى الاقاويل الضالة للآخرين ونعتبر أنفسنا مصداقاً للآية: (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) عندما نكون قد رسخنا ايماننا وتحصَّنا في مواجهة هذه الشبهات والاقوال الباطلة، ويكون الاستماع لكلام امثال هؤلاء من اجل الرد على اقوالهم، وإلّا فاننا اذ ثبت لدينا ان الله والنبي والاسلام حق فلا داعي لأن نقتل وقتنا بالاستماع لمثل هذا الكلام. واذا ما كان هنالك شك لدينا حول الله والاسلام والقرآن فان طريق ازالته يتمثل في ان نقوم بالمزيد من التحقيق وان نبحث عن الدليل اليقيني والقاطع في هذه الامور لا أن نسعى وراء الاقاويل الباطلة التي تفسد العقيدة والايمان.

من هنا فان من اهم الاسباب التي ربما توقع الانسان في الغفلة والنسيان في البداية ومن ثم في الكفر والنفاق هي مجالسة المنحرفين فكرياً وعقائدياً، فجليس السوء يؤثر في الانسان سواء كان في الابعاد السلوكية أو الابعاد العقائدية والفكرية، وان السبب في وقوع الكثير من الناس في الانحرافات والمفاسد الاخلاقية والسلوكية هو صديق السوء فهو الذي يجرف الانسان نحو الإدمان والرذيلة والطيش والفساد، وأصدقاء وجلساء السوء في الجانب الفكري والعقائدي أخطر بكثير من أصدقاء السوء في الجانب الاخلاقي.

خدمة الشباب أم خيانتهم؟!

اننا اليوم نشهد ـ وللاسف ـ ان البعض يجرف الشباب نحو الفساد بذريعة احترامهم،

ويقومون باستقدام الافلام المستهجنة وعرضها علناً داخل الجـامعة ومكاتب بعض التنظيمات الطلابية بحجة الاعتزاز بالشباب وتلبية رغباتهـم! فهل هـذا العـمل يمـثل احتراماً لجيل الشباب وخدمة له أم هو تدمير للشباب وافساد لهم؟ يـنبغي القـول لهؤلاء: إن لم تؤمنوا بدين فكونوا متمسكين بوطنيتكم التي تنشدقون بها على اقـل تقدير. فهل ان جرَّ الطلبة وخيرة الشباب الذين هم ثروة البلاد نحو الابتذال والفساد خدمة للشعب أم انها اعظم خيانة وجريمة تُـرتكب بحـقه؟ انهـم يـقومون بـانشاء المنتديات ومراكز الشباب باموال هذا الشعب ويشيعون الرقص والموسيق والافلام المبتذلة فيها باسم الثقافة! فهل ان هذه الافعال خدمة للشباب؟ إن هذا العمل قـتلٌ لروح الايمان والاعتقاد والاخلاق لدى الشباب وفي ذلك ذنب أعظم بكثير من القتل الظاهري: (الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ).[١]

هل ان التنمية الثقافية الموعودة تعني تدمير الثقافة الدينية لهـذا الشعب وشبابه؟ وهل ان التنمية الثقافية تعني ان نقدم لأناسٍ الاموال ونفسح المجال أمامهم كي يعدّوا الافلام ويصدروا الكتب والجرائد المناوئة للاسلام ولله وللنبي والمقدسات؟ هل تعني التنمية الثقافية انكم اذا ما أُرغمتم نتيجة لضغوط واحتجاجات المتدينين على إقصاء من كان يقف على رأس الخيانات الثقافية، تقومون بعد ذلك بتكريمه وتسمُّون عنصر الفساد الثقافي انساناً متديناً وحريصاً؟ يـاله مـن ضـلال وانحـراف: (إِنَّ اللهَ جَـامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً).[٢]

١. البقرة: ١٩١.
٢. النساء: ١٤٠.



الدرس الرابع عشر

اهمية التفكّر في السلوك المعنوي

العلم مقدمة التوجه

قلنا في الدروس السابقة في ضوء ما يستفاد من القرآن الكريم وتؤيده الادلة العقلية: ان اساس جميع زلّات الانسان وانحطاطاته الغفلة عن هـويته الالهـية والانسـانية. فالانسان بوصفه موجوداً مختاراً يجب ان يقرر بنفسه سلوك طريق السعادة أو طريق الانحدار والانحطاط، فاذا نال البصيرة وعمل بما يقتضيه الهدف من خلقه نال السعادة، واذا ما غفل عن هويته ولم يعمل بمقتضاها فانه يسقط بحيث يتساوى مع الحيوانات أو ادنى منها: **أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**.

لقد اشرنا الى ان الانسان ولكي لا يتعرض للغفلة يجب ان يعرف اسباب الغفلة والتوجه، والى جانب تحاشيه لاسباب الغفلة، يقوم بتنظيم برامجـه للانتفاع بـعناصر التوجه في حياته والعمل في ضوئها. ويجب ان تكون هذه البرامج بنحو تتبلور عـلى اثرها حالة من التوجه للنفس وللمبدأ والمعاد فتصير «ملكة» لدى الانسان لتـظل راسخة على الدوام.

من الطبيعي ان المعرفة مقدمة التوجه، فمادمنا لا نعرف الشيء ونجهله من الطبيعي ان لا نتوجه له، من هنا فان التوجه الى الله والمعاد والطريق ما بين المبدأ والمعاد منوط بمعرفتها. من ناحية اخرى، وكما اشرنا آنفاً ان الذي يلعب دوراً مركزياً هو التوجه الى الله من بين هذه العناصر الثلاثة (المبدأ والمعاد والطريق فيما بينهما). من هنا بوسعنا القول ان جوهر ومحور الموضوعات التي تحدّثنا عنها لحد الآن هو «معرفة الله» فمادمنا

لا نعرف الله فلن يكون هنالك معنىً للتوجه اليه وذكره بالنسبة الينا، وبالتالي لن يتيسر تحقق التوجه الى المعاد والطريق ما بين المبدأ والمعاد المتشعب عن التوجه الى الله، من هنا يتبادر السؤال التالي: ما هو طريق بلوغ معرفة الله وصفاته وافعاله ـ التي تنتهي بمعرفة المعاد والنبوة ـ؟ في هذا الدرس نزمع التحدث قليلاً حول هذه المسألة.

التفكر مقدمة المعرفة

لا يحصل الانسان على أية معرفة اخرى تلقائياً ماعدا المعارف البديهية، والايمان بالله والآخرة وصفات الله وافعاله ليست من المعارف البديهية، أي انها ليست بنحو يتحقق معه التصديق بالحكم والنسبة بمجرد تصور الموضوع وتصور المحمول وتصور العلاقة بين الموضوع والمحمول، فهي من المعارف النظرية التي نحتاج لحصولها الى التفكير والتحقيق، وفي المنطق والفلسفة يثبت ـ طبعاً ـ ان اصل كافة العلوم النظرية يجب ان ينتهي في خاتمة المطاف بالبديهيات كي يتحقق اليقين بها، والفكر في الاصطلاح المنطقي ليس سوى ترتيب مبادئ معلومة للحصول على تصورات وتصديقات مجهولة. من هنا من الطبيعي ان نتجه نحو «التفكر» لبلوغ معرفة الله وسائر المعارف الضرورية لنيل الكمال الانساني، الأمر الذي جرى التأكيد عليه كثيراً في القرآن الكريم.

من خلال التوضيح المتقدم يتجلى السرّ في التأكيد المتعاظم من القرآن وعلوم اهل البيت عليهم السلام على التفكر، فالتفكر مفتاح الانسانية والتعايش الانساني، واذا لم يتفكر الانسان لن يعرف هويته الحقيقية وبالتالي لن ينال الكمال الانساني المطلوب، وبسبب هذا التأثير المهم والمصيري للتفكر في حياة الانسان اعتبرت الروايات الاسلامية تفكر ساعة افضل من عبادة سنة[١] بل وحتى افضل من عبادة ستين سنة[٢] طبقاً

١. *بحار الانوار*: ج ٧١، الباب ٨٠، الرواية ٢٢: تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة سنة.
٢. نفس المصدر: ج ٦٩، الباب ٣٧، الرواية ٢٣: تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة ستّين سنة.

لبعض النقول. فتفكير ساعة ربما يغيّر مصير حياة الانسان بشكل تامّ، ولن يكون لعبادة سنة تأثير يُذكر في تكامل الانسان لاسيما اذا لم تكن معمّقة ومقرونة بالمعرفة، ولكن اذا ما جاءت هذه السنة من العبادة بعد التكامل المعرفي للانسان وعبد الله عارفاً فسيتضاعف تأثيرها مئات وآلاف المرات.

لكن السؤال هو ما الذي يُفترض ان يكون متعلَّقاً للتفكر؟ هل ان مراد هذا الحديث ايَّ تفكير كان؟ نقول في الجواب: كما مرَّ في الغفلة والتوجه لم يكن المراد الغفلة عن كل شيء أو التوجه الى كل شيء بل كان المراد غفلة وتوجهاً معيّنين، وهكذا الأمر هنا، فقد قلنا هناك ان غفلة الانسان عن هويته الانسانية وعن الله والمعاد والطريق ما بين المبدأ والمعاد سبب سقوطه، والتوجه الى هذه الامور سبب تكامله، وهنا نقول ايضاً: ان المراد التفكر في الامور ذات الدور الجوهري في سعادة الانسان، التفكر الذي يوّلد ارتباطاً بالله باي نحو كان، التفكر بالله وصفاته وافعاله ونعمه وآياته هو الذي يحول دون غفلة الانسان ويكون نافعاً له في زيادة توجهه واندفاعه لعبادة الله سبحانه وتعالى.

التفكر في صفات الله وافعاله

ان البعض من الآيات القرآنية التي أمرت بالتفكر، يحث على التفكر بصفات الله وافعاله. فالتفكر في صفات الله وافعاله والمعرفة الدقيقة بها يؤدي الى ان لا يخلط الانسان بين الله وبين سائر المخلوقات وان لا ينسب الى سائر الموجودات صفات وشؤوناً خاصة بالله. فالانسان وإن كان موحداً وعارفاً بالله بفطرته لكنه ربما يخطئ احياناً فيضع المخلوقات الاخرى موضع الله. والقرآن يصرّح بان مشركي مكة والجزيرة العربية الذين كانوا يعبدون الاصنام لم يكونوا ينكرون الله بل ان مشكلتهم كانت في تحديد الصفات والافعال الخاصة بالله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ

وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ).[١] فالكثير منهم كانوا يقولون: يجب ان نعبد هذه الاصنام كي نقترب من الله: (مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللهِ زُلْفىٰ).[٢]

لقد كان خطؤهم في انهم كانوا يجهلون ان اصناماً بهذه المواصفات لا يمكن ان تُعبد وتكون سبباً في قرب الانسان من الله، ولو انهم كانوا يعرفون صفات الله جيداً لعرفوا ان الله لا يأمر اطلاقاً بعبادة الصنم والسجود له.

بناءً على هذا يجب ان يختص جانبٌ من تفكرنا بصفات الله كي نتجنب من خلال معرفتنا الصائبة بصفات الله الوقوعَ في الخطأ لدى تحديد المصداق.

التفكر في نِعم الله

البعض الآخر من الآيات القرآنية التي أمرت بالتفكر والتدبر، يتعلق بالتفكر في نعم الله، فالتفكر في نعم الله يؤدي لأن نتحفز أكثر لعبادة الله وشكره للنعم التي أسبغها علينا. وثمة آيات كثيرة في القرآن الكريم تخص هذا المجال نشير الى نماذج منها هنا:

-(وَمِنْ آيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهٰا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).[٣]

تفكروا كيف ان الله سبحانه وتعالى جعل بينكم وبين ازواجكم علاقة عاطفية ملؤها المحبة والمودة. فقبل الزواج كنتم تعانون حالة دائمة من القلق والتوجس، وربما لم تكونوا تعلمون السبب في هذه الحالة، ولكن بعد أن مَنَّ عليكم بالزوج الصالح وقامت بينكم علاقات عاطفية واذا بكم تشعرون بالسكينة وكأنكم قد عثرتم على مفقود مهمّ في حياتكم، وكما يقول بعض العلماء ان الانسان «نصف انسان» قبل الزواج ويتكامل عندما يتزوج، فبالزواج يشعر الانسان ان حياته قد تغيرت وحصل على

---

١. العنكبوت: ٦١. ٢. الزمر: ٣.
٣. الروم: ٢١.

شخصية اخرى، وكما يعبر القول المشهور انه يصبح انسـاناً آخـر وكـل ذلك آثـار وبركات اودعها الله في نعمة اسمها «الزوج». والقرآن يأمر بان تفكروا في هذه الامور.

ـ (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).(١)

فلو قُدِّر لهذه الارض ان تبق هامدة على الدوام ولم يُنزل الله الماء والمطر كي تنمو الاشجار والنباتات على سطحها فما الذي كان يحصل؟ فهل فكَّرنا جيداً بعواقب عدم وجود هذه النعمة البسيطة حسب الظاهر ـ نزول المطر ـ؟

ـ (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْ لاٰ تَشْكُرُونَ).(٢)

ما الذي بمقدور الانسان فعله لو كانت المياه التي على وجه الارض مُرّة أو مالحة؟

ـ (وَأَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).(٣)

أيُّ بدائع اوجدها الله في هذا المخلوق الصغير! وحقاً كيف يقوم هذا الحيوان بانتاج العسل باسلوب مذهل وعن طريق امتصاص رحيق الازهار والنباتات؟! هذا العسل الذي يكمن فيه العلاج لأدواء الناس.

والخلاصة هي ان نعم الله سبحانه وتعالى تملأ حياة الانسـان بأسرهـا، وحسبُ الانسان ان يفتح عينيه قليلاً ليرى المئات بل الآلاف من النعم التي تحيط به ويتمتع بها، والتفكر في هذه النعم يُلهم الانسان يَدُ أيِّ بـارعٍ اوجـدتْ كـل هـذه الروائـع والنعمة؟! ألا يستحق هذا الموجود أن يُحبَّ ويُعبد!

---

١. الروم: ٢٤.
٢. الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠.
٣. النحل: ٦٨ ـ ٦٩.

التفكر في النفس

الطائفة الاخرى من الآيات التي تدعو الانسان الى التفكر موضوعها الانسان، وكيف يولد، وكيف ينمو ويترعرع وكيف ينقذه الله من الشدائد والمصاعب ويوصله الى حيث الطمأنينة والاستقرار وامور من هذا القبيل، وهنا نستقريء نماذج من هذه الآيات:

ـ(قَدْ كٰانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتٰا فِئَةٌ تُقٰاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرىٰ كٰافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشٰاءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصٰارِ).[1]

في هذه الآية يحدِّث الله المسلمين عن أحداث معركة بدر، ففي تلك المعركة كان عدد المسلمين ـ حسب الظاهر ـ ثلث عدد الكفار، بيد ان الرعب كان قد دخل قلوب الكفار بمعجزة الهية فاخذوا يرون جيش المسلمين ضعفهم مرتين، كما امدَّ الله المسلمين بامدادات غيبية اخرى في هذه المعركة، فنصر الاسلام والمسلمين بالرغم من انهم كانوا أقلَّ عدةً وعدداً من جيش الكفر. وبتذكيره بهذا التأييد والنصر الالهي يقول هنا: ان ذوي البصيرة سيستقون العبرة من هذه الواقعة وسيعرفون الله ويؤمنون به ايماناً صميمياً.

ـ(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنٰاهُ فِي قَرٰارٍ مَكِينٍ * إِلىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنٰا فَنِعْمَ الْقٰادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ).[2]

في هذه الآيات الى جانب تذكيره تعالى بكيفية خلقه بيد قدرته لمخلوق معقَّد كالانسان من نطفة من ماء مهين، يدعو الله الناس بصورة غير مباشرة بان يتفكروا بهذه القضية، وعبارة (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تدل على ان الانسان لو تمعّن فقط بقضية خلقه وايجاده لا يبقى أمامه أيُّ مجال للانكار والتكذيب.

---

١. آل عمران: ١٣. ٢. المرسلات: ٢٠ ـ ٢٤.

ـ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[١]

في هذه الآية يذكّر الله المسلمين كيف انهم كانوا في الأيام الأُولى من صدر الاسلام قلةً مشردين لا حول لهم يعيشون خوفاً وقلقاً دائماً، وفي غضون فترة وجيزة بدّل تلك القلة والتشريد والخوف الى كثرة ومنعة وثقة بالنفس وقوة واقتدار. وفي نهاية الآية يذكّر تعالى بان الناس ان كانوا يعرفون الحق سيشكرون الله ويحمدونه إزاء هذه النعم الكبرى.

التفكر في هدفية الخلق

الفئة الاخرى من هذه الآيات، هي الآيات التي تسعى لإثارة هذا الأمر وهو ان على الانسان ان يدرك من خلال التفكر والتدبر بآيات الله ونعمه هدفيتها وهدفية الخلق ككل. وهنا نستقرئ ايضاً نماذج من هذه الآيات:

ـ يقول تعالى في اواخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً﴾.[٢]

يقول تعالى: ان اولي الالباب هم الذين يدركون من خلال التدبر والتفكر في خلق السماوات والارض هدفيتها ويتوصلون الى هذه النتيجة وهي ان خالق السماء والارض يقصد هدفاً من خلقها.

ـ ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا إِنْ كُنّا فاعِلِينَ﴾.[٣]

---

١. الانفال: ٢٦. ٢. آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.
٣. الانبياء: ١٦ ـ ١٧.

يشير في هذه الآية الى ان الله لم يخلق السماء والارض بدافع الهوى ولغرض اللعب، بل كان يقصد هدفاً وغاية من خلقهما، تلك الغاية والهدف الذي يتعين على الانسان يتفكر فيه وان يتلمس طريقه من خلال معرفته.

ـ (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ).[١]

لو كنا قد خلقناكم عبثاً لما كان هنالك معاد وعقاب وكتاب وجزاء وثواب، ولكن اعلموا ان خلق الكون لم يكن لهواً و لاعبثاً وثمة حساب وعقاب.

ان الانسان الذي لا يتفكر في هذه الامور ولا يكترث لها من الطبيعي انه سيجد العالم مشوهاً وخالياً من المعنى والمضمون، فان منشأ الافكار العدمية والنظرة الفارغة هو تجاهل الناس للروابط القائمة في عالم الوجود، فمن المسلّم به اننا اذا فصلنا علاقة عالم الوجود بالله ولم نقم لله حساباً في حساباتنا ودراساتنا حول عالم الخلق فلن نحصل على نتيجة سوى عالم فارغ. اذ ان الشيء الوحيد الذي يجعل عالم الوجود مفعماً بالمعنى ومقبولاً هو صلته وارتباطه بالله سبحانه وتعالى، والعالم لا مبدأ له ولا غاية ولا أول ولا آخر ولا معنى ولا مبرر ولا أي شيء آخر دون الله. وحقيق بنا ان نتعجب إن لم نصل الى نتيجة في عالمٍ يخلو من الله سوى اللاشيء والفراغ، فالوصول الى اللاشيء نتيجة منطقية تماماً في عالم يخلو من الله! وعالمٌ دون الله ودون مبدأ ومعاد يشبه الاواني التي يبذل صانعها جهداً مضنياً في صناعتها وفي النهاية يقوم بتكسيرها ورميها! (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ).[٢] من المسلّم به ان الأمر كذلك، فالعالم ذو هدف وسيعود الى الله، لكن التوصل الى هدفية العالم وما هو ذلك الهدف على وجه التحديد، هو مايحصل في ظل التفكر. من هنا فان الانسان بلا تفكر يتوصل الى فراغ ولا شيء بل ينسلخ عن انسانيته.

١. المؤمنون: ١١٥.

٢. الاعراف: ١٧٩.

التفكر وجه التمايز بين الانسان والحيوان

بسبب هذه الاهمية المصيرية للتفكر يأتي تأكيد القرآن على ان يتفكر الانسان ويصبح في زمرة «أُولُوا الْأَلْبابِ». واولوا الالباب ليسوا أُناساً واهـين لا عـقل لهـم بـل ان وجودهم مفعم بالعقل والتعقل. ومن ليسوا اولي الباب بشرٌ بالظاهر والصورة فـقط وحيوانات في بواطنهم وحقيقتهم: أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ. فأُولوا الالباب يتمتعون في كل الاحوال بالمقوم الجوهري للانسانية لان وجودهم وانسانيتهم ـ بالاضافة الى ظاهرهم ـ مفعمٌ بالعقل والوجود: (يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِهِمْ).[١] فهم في تفكّر دائم بالمُنعم عليهم وبخالق السماء والارض ومدبِّر الليل والنهـار، فأنّى لهـم أن ينسوا وليَّ نعمتهم وبارئهم وربهم: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰـا خَلَقْتَ هٰذٰا باطِلاً).[٢]

كي لا يقع الانسان في الغفلة، ويعيش ذكر الله على الدوام ويتحفز للتقرب من الله، عليه ان يُقبل على التفكر، ذلك التفكر الذي تفوق ساعة منه بقيمتها عبادة سنة كاملة أو عبادة ستين سنة، التفكر الذي يكون في الله وصفاته والحـكمة والغاية من خلقه، التفكر الذي يعقبه توصُّل الانسان الى هذه النتيجة: (رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا باطِلاً)، واذا ما وصل الانسان جرّاء التفكر الى هذه النتيجة بان الخـلق ليس عبثاً ولا باطلاً بل له هدفه وغايته اذ ذاك يفهم ان لله غاية من خلقه بصفته أحد مخلوقات هذا العالم. ومن خلال المزيد من التحقيق والتفكر يصل الى هذه النتيجة وهي ان خلق العالم مقدمة وتمهيد لخلق الانسان لقوله تعالى: (خَلَقَ لَكُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ).[٣] ومن ثم يقول: لقـد خلقتك ايها الانسان مختاراً كي تعبدني وتشكرني وتتكامل بـاختيارك. ونـظراً لان كمال الانسان اختياري فلربما يسيء اناس استغلال اختيارهم فيقعون في الانحطاط

---

١. آل عمران: ١٩١.
٢. نفس المصدر.
٣. البقرة: ٢٩.

والضلال بدلاً من سلوك طريق التكامل: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً).[١]
فالايمان والكفر اختيار الانسان نفسه: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ).[٢]

وهنا تكمن المرحلة اللاحقة من التفكر التي توصلنا الى حيث معرفة لابد هنالك من حساب ومحاسبة كي يتبين مَن الذي أحسن استغلال اختياره واستحق تلقي الأجر والرحمة الالهية ومَن الذي اساء استغلال اختياره فاشترى النعمة والعذاب الالهي.

بناءً على هذا نرى ان التفكر يأخذ بايدينا خطوةً فخطوة وينقلنا من اللاشيء والفراغ الى الهدفية والحساب والكتاب، الحساب والكتاب الذي سينال البعض نتيجة له العقابَ والنيران وسيكونون من المخلَّدين فيه. وهنا يرفع الانسان يديه بالدعاء معترفاً بعدم عبثية وباطل الخلقة طالباً العون من الله ليأمن ذلك العذاب فيقول: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

هذا ما يبينه القرآن بكل روعة في الآية: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ).[٣]

ان طريق العثور على اليقين بالآخرة هو التفكر أيضاً. ذلك اليقين الذي يقول عنه القرآن: (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ).[٤] واذا اردنا ان لا نكون مصداقاً للآية: (لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)،[٥] يجب علينا عن طريق التفكر أن نُبعد عن انفسنا أيَّ نوع من الشك والريبة بالآخرة.

---

١. الانسان: ٣.
٢. الكهف: ٢٩.
٣. الروم: ٨.
٤. البقرة: ٤.
٥. ص: ٢٦.

الدرس الخامس عشر

مقارنة بين الدنيا والآخرة

المواظبة على التفكر

تبين في الدروس السابقة واستناداً لما يستفاد من القرآن الكريم ان السبب الجوهري في انحطاط الانسان هو الغفلة، وفي المقابل ان مفتاح رقيّ الانسان وتكامله هو البصيرة والتوجه الى الله. وقد اشرنا الى ان معرفة النفس يتشعب عن التوجه ومعرفة ثلاثة امور هي: المبدأ والمعاد والطريق ما بينهما، فاذا ما عرف الانسان نفسه عرف ربه: من عرف نفسه فقد عرف ربه.[1] واذا ما توجه الى هويته الانسانية يكون قد توجه الى الله لان الهوية الانسانية ليست سوى (نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)،[2] وعين التعلق والارتباط بالذات الالهية المقدسة، وقلنا ان الانسان ولكي يأمن الوقوع بالغفلة عليه ان يعرف اسباب الغفلة وكذلك العناصر التي تخلق التوجه والى جانب ابتعاده عن الغفلة يجب ان يكون له برنامج منظم للعمل باسباب التوجه.

لقد اشرنا الى ان احد الطرق التي يذكرها القرآن للتوجه هو التفكر، واذا كان للانسان برنامج للتفكر فانه مؤثر جداً لصياغة التوجه وتوطيده، وقلنا ان التفكر من الاهمية بحيث ان ساعة من التفكر تعتبر افضل من عبادة سنة أو افضل من عبادة ستين سنة وفقاً لبعض النقول، وقد بحثنا ايضاً في «ما الذي يجب أن نفكر فيه» واوردنا بعض الموارد استناداً لآيات القرآن الكريم اشرنا من بينها للآيات الاخيرة من سورة آل عمران حيث يقول تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ

---

١. بحار الانوار: ج ٢، الباب ٩، الرواية ٢٢.

٢. الحجر: ٢٩، ص: ٧٢.

اللَّيْلِ وَالنَّهٰارِ لَآيٰاتٍ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيٰاماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً سُبْحٰانَكَ).

الأمر الآخر الذي ينبغي ان نشير اليه هو المواظبة على التفكر، فحلُّ مسائلَ تتعلق بالله وصفاته وافعاله والغاية من الخلق والهدف من خلق الانسان والمعاد والقيامة ليس بالأمر الذي ينتهي بتفكير لمرة واحدة ولمدة ساعة من الزمن، ومن ناحية اخرى بعد ان تتضح مسألة من هذه المسائل أمام الانسان عادة ما توجد عواصف من مسببات الغفلة والمثيرة للشكوك في المجتمع والبيئة الحياتية للانسان. وهذا ما يؤكد بدوره على ضرورة المواظبة على التكفر، فحالات الانسان واوضاعه وافكاره تعيش حالة مستمرة من التغيير واذا لم يتواصل التفكير في هذه الاصول الجوهرية فلربما يفاجأ الانسان بفقده للايمان الراسخ بهذه الاصول. وهذه القضية تبرز اكثر في آخر الزمان والعصور التي هي من قبيل عصورنا على وجه التحديد. فقد ورد في الروايات ان وضعاً من حيث الاجواء الفكرية والعقائدية يطرأ في آخر الزمان بحيث يُصبح المرء مؤمناً ويمسي كافراً! أي ان الجو الفكري والثقافي يصبح من الشدّة بحيث يجعل المؤمن كافراً في غضون ساعات: **يُصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً**.[1]

ان وساوس شياطين الجن والانس تتربص بالانسان ليلَ نهار كي تدهمه وتضلّه إن سنحت لحظة من الغفلة، من هنا ينبغي ان لا نظن اننا اذا ما جلسنا مرة واحدة للتفكير واثبتنا معتقداتنا على اساس الادلة اليقينية، فقد انتهى الامر ولم تعد ثمة حاجة لدينا لمزيد من التفكر، فالانسان عرضة للزيغ والانحراف حتى آخر عمره، وقد تتهدده الشبهات العقائدية في كل آن. من هنا يجب ان نجعل التفكر من المهامّ الاساسية في لائحة اعمالنا على الدوام.

١. راجع: بحار *الانوار*: ج ٣٣، الباب ٢٣، الرواية ٥٨٧؛ *اصول الكافي*: ج ٢، ص ٤١٨.

التفكر في المقارنة بين الدنيا والآخرة

كما اشرنا في الدروس السابقة ان الانسان يتوصل عبر مراحل التفكر الى هذه النتيجة وهي ان خلق الكون لم يكن عبثاً ولهواً بل من اجل غاية وهدف، والهدف النهائي من خلق الانسان هو ان يسلك طريق التكامل باختياره ويستحق رحمة الله وجنته ويخلد في النعم الالهية، ونظراً لان الاختيار هو الاساس فربما يسيء أناسٌ استغلال اختيارهم فيرتكبون المعاصي والاعمال الطالحة فيستحقون الغضب والسخط الالهي فتحيق بهم ناره وعذابه.

من الامور المهمة التي يتعين التفكر بشأنها هي المقارنة بين الدنيا والآخرة. فبعد أن نكون قد توصَّلنا الى هذه النتيجة بان حياة الانسان ليست محدودة بهذه الدنيا وسوف تستمر بعد الموت، فان المقارنة بين هاتين الحياتين والتفكر فيهما بامكانه ان يكون معيناً مؤثراً لسلوك طريق التكامل. يقول القرآن الكريم: (كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ).[١] فبعد أن عرفتم بان هنالك آخرةً بالاضافة الى الدنيا فضعوا الدنيا والآخرة الى جانب بعضهما وقارنوا بينهما.

وهنا نشير الى أهمّ وجوه التمايز بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة التي حريٌ بالانسان ان يتمعّن بها:

١ـ محدودية الدنيا وعدم نفاد الآخرة: يشير القرآن الكريم في آيات عديدة الى ان الانسان وانطلاقاً من طبيعته المادية يميل الى الحياة الدنيوية المادية ويؤثرها على الآخرة، ثم ينبّه الى ان هذا العمل خاطئ وان الحياة الآخرة هي الراجحة على الحياة الدنيا: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ).[٢]

جرت الاشارة في هذه الآية الكريمة الى ان الحياة الاخروية هي الابقى وهذا الأمر من الفوارق المهمة والاساسية بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ومن المناسب ايراد مثال لذلك لتوضيح هذا الأمر:

---

١. البقرة: ٢١٩ ـ ٢٢٠.
٢. الاعلى: ١٦ ـ ١٧.

لو افترضنا ان امرءاً عكف على مدى مائة عام وحتى آخر حياته على كتابه رقم، ولكي يكون هذا الرقم هو الاكبر قدر الامكان ـ ولنفترض ان كافة الارقام التي يسطرها الى جانب بعضها تكون رقم: ٩: ...٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩ ـ فمن الطبيعي ان مثل هذا الرقم سيكون كبيراً جداً بحيث تتعذر قراءته بل وحتى تصوره ذهنياً بالنسبة الينا، ولكن بالرغم من عظمة هذا الرقم فهو ليس كافياً لبيان طول الحياة الاخروية لان طولها «لا نهائي»، وان هذا الرقم وإن كان كبيراً فهو محدود ودليل محدوديته امكانية اضافة الكثير من رقم ٩ إليه، وحتى لو افترضنا عمر هذا الانسان ألف أو عشرة آلاف سنة وانهمك مدى حياته بكتابة هذا الرقم فلن يكون الرقم قادراً على بيان طول الحياة الآخرة لأنه محدود، ولو انه كُتب على مدى حياة انسان طولها عشرة آلاف سنة وضاعفناها مائة مرة او ألف مرّة أو مليون مرّة أو مليار مرّة بل وحتى مليارات المرات وقلنا ان هذا المقدار هو طول الحياة الآخرة فان هذا الادعاء ليس صحيحاً ايضاً لان هذا العدد رغم محدوديته وخروجه عن تصوراتنا عدد محدود بينما الحياة الاخروية غير محدودة زمانياً!

لو خُيِّر الانسان بين حياة مائة عام من الدنيا وبين هذه الحياة التي لا نفاد لها، فأيُّ منهما يحكم العقل باختيارها؟ فلو خُيرنّا بين ان نعيش في منطقة لمدة عام واحد وبكافة الامكانيات والتسهيلات الرفاهية أو أن نعيش لمدة عامين في منطقة موازية لها بنفس الامكانيات فمن المسلَّم به اننا نختار الحياة لمدة عامين، فكيف يخيروننا بين حياة مائة عام من الدنيا ملؤها المرارة وبين حياة الآخرة التي لا نفاد لها بما تحفل به من الطمأنينة والسكينة والنعيم والدعة فنختار الحياة الدنيا؟! ولو اننا فكّرنا جيداً بفعلنا هذا فلربما نُعيد النظر بقرارنا ورأينا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٢ـ اقتران مُتع الدنيا بالمرارة والصعوبة: ان افضلية الآخرة على الحياة الدنيا ليس

في انها اطول من الحياة الدنيا فحسب، بل ان الحياة الاخروية خير من الحياة الدنيا في جوانب اخرى أحدها ان مُتع الآخرة ولذائذها ليس فيها ذرة من الشدة والمرارة والمعاناة وانما هي لذة محضة، في حين اننا لو اخذنا بنظر الاعتبار أية لذة من لذائذ الدنيا سنجدها محفوفة بالمصاعب والشدائد والمنغِّصات والمعاناة، فمن اجل الحصول على طعام لذيذ والاستمتاع بأكله، كم يتعين عليك العمل في البداية لكسب المبلغ الضروري لشرائه؟ ومن ثم عليك شراء المواد الضرورية من قبيل اللحم والرز والبقول والزيت وغير ذلك، وبعد ذلك يتعين عليك قتل وقتك وبذل الجهد لطهي ذلك الطعام واعداده. وخلاصة القول عليك ان تقطع هذه المقدمات باجمعها كي يتسنى لك ان تتذوق طعم لقمة طعام لذيد! وان عناء غسل الأواني أو اصناف الامراض وارتفاع نسبة الدهن والسُمنة والآلام التي تعقب تناول الطعام، لها عالمها! انكم تشاهدون كم من المقدمات والآثار التي تبعث على المعاناة يجب عليكم تجرُّعها من اجل لحظة وجيزة تحصلون عليها اثناء تناول ذلك الطعام؟! علماً انكم تغفلون عن تسطير الأتعاب والجهود التي يتحملها الآخرون لإعداد لقمة الطعام هذه! من الفلاح الذي بذل الكثير من الجهود لإنتاج الحنطة والمراحل التي طويت حتى اصبحت طحيناً، والخباز والذين ساهموا في انتاج الخبز، والمزارع الذي قام بزراعة الرز والجهود المبذولة في المعامل والسيارات التي تنقله حتى يصل الرز اليكم، والاعمال المنجزة لانتاج الزيت الخاص بهذا الطعام والعشرات من الجهود الاخرى ما خفي منها وما ظهر. فان أية لذة نضعها في الحسبان من لذائذ الدنيا تتكرر فيها هذه القصة.

وعلى هذا المنوال الذي ذكرناه في هذا المثال تصوروا كم من التمهيدات والملحقات التي يتعين عليكم طيّها لبلوغ متعة التنزه ـ مثلاً ـ والسفر الى سواحل البحر وشمال البلاد؟! وان الأتعاب والمنغّصات والمعاناة التي تكتنف بعض لذائذ الدنيا مما لا يمكن مقارنتها أبداً بهذا المثال البسيط بل هي اكثر منها بكثير. فكم من الجهد يجب ان يبذله

من يريد التلذذ بشهادة الدكتوراه والموقع الاجتماعي أو الدخل الحاصل عنها؟! يجب عليه ان يدرس بدأب وجدية سنوات بأيامها ولياليها ويذهب الى المدرسة والجامعة في الحر والبرد ويتجرع السهر الى ان ينال لذتها بعد سنوات من الانتظار والجهد!

لكن لذائذ الآخرة ليست كذلك فهي لذائذ خالصة ومحضة ولا عناء يواجه الانسان قبلها أو بعدها ولا ضرورة لطي المراحل التمهيدية لبلوغها، كما انها تخلو من التبعات، ولا تظهر على الانسان ادنى حالة من التعب والملل بسببها، حتى ان القرآن يذكر بعض هذه النعم بانها تقترن في هذه الدنيا بآثار وخيمة بينما تتوفر هذه اللذائذ في الآخرة وفي الجنة دون ان تكون لها آثار سيئة، فعلى سبيل المثال ان المشروبات المسكرة في الدنيا تزيل عقل الانسان وتخرجه عن وضعه الطبيعي ويصاب الانسان بالآلام ومختلف الامراض في الكبد والقلب والرئة وسائر الامراض نتيجة للافراط في تناولها، بيد ان القرآن يصرّح بان ثمة شراباً بالجنة ويقول في وصفه: (وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ).[1] فهو يصرّح اولاً: انها ليست قطرة واحدة أو كأساً واحداً وانما انهار جارية من الشراب، وثانياً: ان هذا الشراب لا صداع فيه ولا سكر: (لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ).[2] والقرآن يعبر بان الانسان في الجنة لا يطاله أيُّ معاناة: (لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ).[3]

من الهواجس التي تراود الانسان بشأن نِعَم الدنيا ولذائذها هي انها تخرج من يديه وتنفد، ولكن لا وجود لمثل هذا القلق في الجنة: (وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ).[4] فلا قلق يراود الانسان في الجنة من ان تنفد هذه اللذة أو النعمة في غدٍ، بل هو مرتاح البال من ان هذه المتعة والسكينة دائمة خالدة: (يُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها).[5]

---

١. محمد: ١٥.
٢. الواقعة: ١٩.
٣. الحجر: ٤٨.
٤. نفس المصدر.
٥. المجادلة: ٢٢.

الدنيا نزهة الاطفال!

انه لأمر أدهى من ذلك بكثير ويفوق حد التصور، وما قلناه كان في حدود دائرة آيات القرآن ولو اننا استقرأنا الروايات الواردة في هذا المجال فان المرء يصاب بالذهول والحيرة حقاً فأيُّ جنان ونِعَم ولذائذ اعدَّها الله للانسان! فما الانسان قد تعلَّق بهذه الميتة النتنة ـ الدنيا ـ وهو ليس على استعداد للانفصال عنها وتركها مهما كان الثمن. لقد ورد في الروايات ان ليس من الضروري ان تبذل في الجنة ذلك القدر من الجهد الذي يستدعيه نهوضك لاقتطاف ثمرة من احدى الاشجار ان رغبتَ فيها بل ان الغصن أو الثمرة هي التي تنحني وتكون في متناولك ويتسنى لك الاستمتاع بها!

نعم، ان الله الذي يعرف ويعلم بما اعدَّ لنا من جنان يؤكد: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ). حقاً ان التعلق بلذائذ الدنيا ونعمها ازاء لذائذ الآخرة ونعمها المتنوعة التي لا تنفد، عملٌ صبياني، فالطفل لا يفهم من لذائذ هذه الدنيا سوى الشكولاتا والحلوى ونحن نضحك لتصوره الطفولي هذا، فما يهزأ اولياء الله لتعلقنا بالدنيا المحفوفة بالمرارة والضيقة في مقابل جنان الله الواسعة، ان إثرة الدنيا على الآخرة غاية الجهل والبلاهة حقاً، ولكن ما الذي يمكن فعله ان كان الكثير من الناس مصداقاً للآية الكريمة: (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً).[١]

وعلى وجه الدقة، بسبب ان الحياة الدنيا تمثل أمراً صبيانياً وجهولاً قياساً للآخرة، فان القرآن الكريم اعتبرها في آيات عديدة منه اُلعوبة، والحياة فيها شبه حقيقة واصفاً الحياة الآخرة هي الحياة الواقعية، فالقرآن يعبر تارة عن الدنيا بما يلي: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ).[٢] فاحذروا من ان تخدعكم الدنيا والحياة الدنيوية، ولا تنشغلوا بها عن المتاع الحقيقي وهو الحياة الآخرة. وتارة اخرى يقول القرآن: (وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).[٣]

١. الاحزاب: ٧٢.
٢. آل عمران: ١٨٥.
٣. العنكبوت: ٦٤.

هنالك عدة تأكيدات ـ من الناحية اللغوية ـ في العبارة: إن الدار الآخرة لهي الحيوان، وهي: «إن»، «لام التأكيد»، «الضمير المنفصل هي» و«الحيوان» وهي خبر «إنَّ» وجاءت معرّفة بالالف واللام، وهذه جميعاً من ادوات التأكيد في اللغة العربية. من هنا يكون معنى هذه الآية: البتة، ومن المسلَّم به، وحتماً ولا شك في ان الحياة الاخروية هي الحياة الحقيقية، فاذا كنتم تريدون الحياة حقاً فابحثوا عنها في الآخرة حيث لا حدود ولا حصر للحياة من حيث طول المدة أو طبيعتها أو مقدار التمتع باللذائذ والنعم، وحيث لا سبيل للهمّ والغم والآلام والمعاناة فيها. ألاَ تعتبر الحياة الدنيا سوى لهو وعبث في مقابل مثل هذه الحياة؟! وبطبيعة الحال ان هذه القضية ليست بتلك التي تُحلّ بالكلام والحديث، بل لابد للانسان ان يدرك حقيقة الدار الآخرة ليفهم معنى هذه الآية ونظائرها.

إن فهم حقيقة الحياة الآخرة ليس بمستوى أمثالي، ومثل هذا الادراك يتمتع به النبيﷺ والائمة المعصومون عليهم السلام وهم الذين يرون عياناً ان حقيقة الحياة تكمن في الدار الآخرة، والعوام من الناس انما يفهمون معنى القول بان هذه الحياة الدنيا لم تكن حياةً وان الحياة الواقعية في الآخرة، عندما يردون الآخرة، من هنا فهم ينادون: (يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي).[1] يُفهم من هذه الآية ان المرء يصل الى هذه النتيجة يومذاك بان ما أفناه في الدنيا لم يكن حياةً!

هذا هو الفارق الثالث بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وان ادراك الفارقين الأولين كان يسيراً نوعاً ما بالنسبة الينا، لكن ادراك الفارق الاخير ليس بالأمر الهيّن، فكما قلنا ان اكثر الناس لن يتجلى امامهم هذا الفارق ما لم يردوا الآخرة ويشاهدوا ويلمسوا عن قرب الحياةَ الاخروية، وخاصة اولياء الله وحدهم الذين بمقدورهم ادراك هذا الأمر جيداً في هذه الدنيا.

---

١. الفجر: ٢٤.

تأكيد القرآن على تفاهة الدنيا

يحاول القرآن الكريم وفي آيات متعددة وبمختلف الاساليب ان يُفهم الانسان بان الدنيا فانية ولا تستحق التعلق بها: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).[١] فمثلُ الحياة الدنيا كزرعٍ نال النضارة والطراوة والخضرة أياماً معدودات فلا ينبغي الانخداع بجماله وخضرته فلن يمضي وقت حتى يصبح يابساً هشيماً. يقول تعالى في آية اخرى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً).[٢] فالحياة الدنيا مثلها كنبات سيصبح يابساً بعد عدة أيام وتنثره الرياح بحيث لا يبقى اثرٌ منه وكأن لم يكن هنالك زرع.

هذه الامثال وما شابهها انما الغاية فيها استقطاب عناية الانسان من اللذائذ الدنيوية العابرة الفانية نحو الآخرة ولذاتها ونعمها حيث أُعدت الحياة الواقعية للانسان.

السؤال الذي يتبادر هنا هو عندما نصل الى هذه النتيجة القائلة ان الدنيا «مَتَاعُ الْغُرُورِ» ولا تستحق التعلق بها وان حياتنا الواقعية في الآخرة فهل علينا ان نترك الدنيا ونكفّ عن العمل ونستقبل القبلة منتظرين الموت والورود على الآخرة؟ أو نُعرض عن لذائذ الدنيا ونتزوي في كهف فنختلي فيه وننشغل بإعداد ما يسدّ الرمق ونعكف على عبادة الله حتى يحين الموت ويحل أوان الحياة الاخروية؟

فهمٌ خاطئ عن تفاهة الدنيا

يُشاهد بين المسلمين وأتباع سائر الديانات ـ سواء في الماضي أو الحاضر ـ هذه

١. يونس: ٢٤.　　٢. الكهف: ٤٥.

النظرية القائلة بوجوب ترك الحياة الدنيا ولذائذها والاعراض عنها بشكل تامّ لغرض التمتع بالحياة الآخرة. فالتاريخ يعرف العديد من الاشخاص الذين اختاروا الانزواء وقضوا حياتهم بعيداً عن المجتمع في كهف أو صومعة أو ديرٍ متنعمين بالقليل من مواهب الدنيا ولذائذها، والمذاهب الصوفية من بين الموارد التي ينطوي عليها مثل هذا الضرب من التفكير، وبعضهم يقوم بهذا الفعل زوراً ولغرض استقطاب انظار الناس، ولكن حتى الذين سلكوا مثل هذا المسلك بنية صادقة من السير والسلوك وطي مسيرة التكامل والقرب الى الله انما اخطأوا ويخطئون الآن ايضاً. فالله تعالى والقرآن لم يأمرا أبداً أن اتركوا الدنيا، بل قالا: لا تتعلقوا ولا تنخدعوا بها، والغاية انهما يلفتان نظرنا الى ان أمام الانسان لذائذ اسمى واكثر من لذائذ الدنيا مما لا يمكن مقارنته بلذائذ الدنيا.

ان الحديث لم يجر عن الاعراض عن الدنيا بل ان لا نجعلها هدفاً وانما ان نتخذها وسيلة لبلوغ لذائذ الآخرة. انهما يريدان تعليم الانسان باننا لم نجعل الدنيا غايتك، بل ان تسلك مستعيناً بها طريق القرب الى الله والتكامل وبلوغ الحياة الواقعية في الآخرة.

اذا كان معنى افضلية الآخرة على الدنيا بان نترك الدنيا كلياً فلمن خلق الله سبحانه وتعالى هذه النِعَم؟: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ).[١] فالله عزّ وجلّ يؤكد بانني خلقتُ هذه النعم كي تتمتعوا بها، لكننا نستنبط من القرآن وجوب ترك الدنيا واختيار العزلة وتحريم نعم الدنيا علينا: (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ).[٢] فلو كانت متعة الاكل والشراب والزواج وما شابه ذلك أمراً قبيحاً لما جعلها الله في الجنة، فالبحث لا يدور حول تحريم نعم الدنيا على النفس بل عن حُسن الاستفادة منها: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ

---

١. الاعراف: ٣٢.
٢. نفس المصدر.

مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).[١] تنعموا بالدنيا ولكن لا تبيعوا الآخرة بالدنيا ولذائذها بتجاوزكم لحدود الله، فالدنيا القبيحة والمذمومة والتي تعد متاع الغرور هي التي تعرقل السير المعنوي للانسان، أما الدنيا التي هي بمثابة مزرعة الآخرة وقنطرة للعبور الى حياة الخلود فهي لا بأس بها بل هي ضرورية، أوَ يمكن للانسان ان لا ينتفع بنعم الدنيا بالقدر المعقول والمشروع وفي نفس الوقت يستطيع العمل من اجل الآخرة؟! فالانسان بحاجة للطاقة والنشاط من اجل العبادة والدراسة والتدريس والجهاد في سبيل الله واداء سائر الفرائض الشرعية وهذا مالا يتأتى الّا عن طريق الاستعانة بنعم الدنيا ولذائذها.

ان الموضع الذي ينبغي الاعراض عن الدنيا ومتعها هو حيث يتزاحم التلذذ بالدنيا مع التلذذ بالآخرة، أي التلذذ بدنيا محرمة أو بمرجوحٍ لو اردنا بلوغه نكون قد اشترينا عذاب الآخرة أو سنفقد لذةً في الآخرة على اقل تقدير، ولكن حينما لم يكن هنالك تزاحم وتعارض فلم ترد توصية بترك تلك اللذة. فالتمتع بنعم الدنيا ولذائذها بحد ذاته من سبل التوجه الى الله والاقبال نحو اداء الشكر له، فعندما يعطش الانسان ويرتوي بكأس من ماءٍ عذبٍ حينها يدرك أي نعمة طيبة ومباركة وضعها الله في متناوله وبذلك تتبلور فيه حوافز الشكر فيطلق لسانه بالثناء على الله قائلاً: الحمد لله.

ليست جميع لذائذ الدنيا مادية، فثمة لذائذ في هذه الدنيا مالو تذوق المرء طعمها فان جميع لذائذ الدنيا ستبدو حقيرة وتافهة في نظره. يقول أحد اساطين الحوزة ومفاخرها: لو علم سلاطين الدنيا ـ المتوفرة لديهم افضل وسائل اللذة ـ ما في الصلاة من لذة لتخلّوا عن سلطانهم واقبلوا على العبادة! نعم، فهذه اللذة من افضل النعم الالهية في هذه الدنيا، من هنا فان من اعظم العقوبات التي ينزلها الله ببعض عباده هي ان يسلب من قلوبهم لذة وحلاوة العبادة، وهذا العقاب يخص الذين تذوقوا هذه اللذة

---

١. المائدة: ٨٧.

وتحيق بهم مثل هذه العقوبة بسبب بعض حالات الغفلة، ولكن ليس واضحاً ما اذا كان أمثالي قد حصلوا على مثل هذه اللذة كي تُسلب منهم! فمثل هذه اللذائذ يجعلها الله جل وعلا قرة عينٍ لخاصة عباده ويقدمها هدية خاصة اليهم: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ).[1] نعم فلله عباد ليسوا على استعداد لاستبدال لحظة واحدةٍ من عبادته ومناجاته والتضرع اليه والانس به بالدنيا وما فيها. نسأل الله تعالى ان يمن علينا ـ نحن العباد المقصرين ـ بنفخةٍ من توفيقاته الخاصة. آمين.

---

١. السجدة: ١٧.

الدرس السادس عشر

الدنيا في منظار الاسلام

لمحة عن المواضيع السابقة

استفدنا من القرآن الكريم ان أحد سبل القضاء على الغفلة هو التفكر؛ التفكر بآيات الله وعلاقة الانسان بمبدئه والغاية من الخلق وبالمعاد والقيامة، واشرنا الى ان من الموارد المهمة والاساسية للتفكر هو المقارنة بين الدنيا والآخرة، وقد اوردنا في الدرس السابق مطالب بهذا الشأن. ان القرآن يؤكد على ان الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية والحياة الدنيا ليست سوى لعب: (وَما هٰذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ).[1]

اذا ما تمعّن الانسان بخصوصيات كلٍّ من الحياة الدنيوية والحياة الاخروية وقارن بينهما فانه يدرك بوضوح ان الدار الآخرة افضل بكثير من دار الدنيا ولا قياس بينهما. في هذه الاثناء، بما اننا موجودات مادية وعلى تماسٍ بالمحسوسات فمن الطبيعي ان نميل نحو الحياة الدنيا وسرعان ما تملأ عيوننا زخارف الدنيا وزبرجها. ان الكثير من الناس ينخدعون ويتعلقون بالدنيا ولذائذها بحيث انهم يغفلون تماماً عن الآخرة والحياة التي لا تنفد، والانسان لا يمتلك قلبين ليعطي أحدهما للدنيا والآخر للآخرة، فمن الطبيعي انه اذا تعلق قلبه بالدنيا فانه يضيق عن التعلق بالآخرة بمقدار تعلّقه بالدنيا: (ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ).[2]

---

١. العنكبوت: ٦٤.　　٢. الاحزاب: ٤.

الملاحظة التي نوّهنا اليها في الدرس السابق كانت كيفية امكانية الجمع بين الدنيا والآخرة وقلنا: ان البعض استنتجوا من الآيات والاحاديث الواردة في ذم الدنيا وكونها لعباً باننا يجب ان نُعرض عن الدنيا ونحطم قيود اللذائذ الدنيوية لغرض التوجه نحو الآخرة ونيل نعمها، من هنا فانهم يوصون بادنى مراتب التنعم بمواهب الدنيا ولا يسوِّغون التمتع بالدنيا بما يتجاوز حدود الضرورة للبقاء على قيد الحياة، واستناداً الى هذا التصور كان الكثير منهم يلجأون الى المغارات والأديرة والصوامع ويقضون حياتهم بعبادة الله بما قلَّ من المتاع وبعيداً عن الناس ولذائذ الدنيا، ومشهورة في التاريخ رهبانية أتباع عيسى عليه السلام، فهؤلاء يستدلون بما يلي: اذا ما انعزلنا عن الدنيا وقلّما طرقت اسماعنا اصوات الدنيا، وقلّما شاهدت أعيننا مظاهر الدنيا، وقلَّ أكلنا ونومنا وقلَّ اختلاطنا بسائر الناس لاسيما المذنبين منهم فمن الطبيعي ان نحصل على المزيد من الوقت للتوجه الى الله ونستخدم اسماعنا وابصارنا والسنتنا وقلوبنا في طريق التوجه الى الله.

وهذا النمط من التفكير لا ينحصر بالمسيحيين ورهبانهم بل هنالك في الاسلام بعض الفرق الصوفية ممن يحملون هذه الفكرة، فهؤلاء وبغية ان يكونوا في توجه دائم نحو الله والقيامة ويخرجوا من قلوبهم ذكر غيره يؤثرون الانعزال عن المجتمع والحياة الاجتماعية والانزواء، وان سبيل التصدّي للغفلة في نظرهم هو ان نكون على ادنى تماس مع مظاهر الدنيا وان نعيش في بيئة قلّما تقع اعيننا على مظاهر الحياة المادية كي يخلو القلب مما سوى الله.

الويل من البصر ومن القلب كليهما	فكل ما يراه البصر يهواه القلب
لأصنعنَّ خنجراً رأسه من فولاذ	وأفقأنَّ به البصر ليرتاح القلب[1]

١. اصل الشعر باللغة الفارسية كالآتي:

ز دست ديده و دل هر دو فرياد	كه هرچه ديده بيند دل كند ياد
بسازم خنجرى نيشش ز فولاد	زنم بر ديده تا دل گردد آزاد

رفض الرهبانية في منظار الاسلام

على أية حال، كما اشرنا في الدرس السابق ان مثل هذا النمط من التفكير مرفوض في منظار الاسلام وثقافة اهل البيت عليهم السلام، فالقرآن الكريم يصرّح فيما يخص رهبانية أتباع عيسىٰ عليه السلام بانها كانت امراً ابتدعوه بانفسهم ولم يكن بأمرٍ منّا فنحن لم نطالبهم بالرهبانية وان الذي كان عليهم كسبه هو رضى الله: (ثُمَّ قَفَّيْنا عَلىٰ آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ). فهذه الآية تدل بكل صراحة على ان الله لم يطلب من عباده ترك الدنيا واذا ما ترك أُناس الدنيا فهذا ما ابتدعوه بانفسهم.

لقد جرى التصريح في الاسلام ايضاً بان لا وجود للرهبانية، فيقول النبي الاكرم صلى الله عليه وآله: «ليس في أمتي رهبانية».[1] وقد ورد في رواية ان عثمان بن مظعون ونتيجة لحزنه على وفاة ابنه ترك داره ولجأ الى المسجد وعكف على العبادة فيه فذهب اليه النبي صلى الله عليه وآله وقال له: يا عثمان ان الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية انما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله.[2]

بالرغم من ذلك ثمة اناس يقولون: انه لأمر واضح من اننا كلّما كنا على مزيد من التماس مع مظاهر الدنيا ولم نبتعد عن الدنيا فمن الطبيعي ان نزداد توجهاً نحو الدنيا شئنا أم ابينا، والتوجه نحو الدنيا يورث الغفلة عن الله وعن الآخرة، فما الحيلة اذن؟ انكم من جهة تقولون واستناداً الى الآيات والاحاديث ان اعتزال الدنيا أمرٌ مذموم، ومن جهة اخرى تقولون ان حب الدنيا والدخول في زمرة اهلها والعيش حيث يعيش عباد الدنيا ليس صحيحاً، فيبدو ان هاتين الوصفتين لا تنسجمان مع بعضهما.

لقد اشرنا في الدرس السابق الى جواب هذا السؤال ولكن نظراً لاهمية الموضوع

---

١. *بحار الانوار*: ج ٧٠، الباب ٥١، الرواية ٢.
٢. *بحار الانوار*: ج ٨، الباب ٢٣، الرواية ١١٢.

من الضروري ان نقدّم المزيد من الايضاح بهذا الشأن. كانت خلاصة القول ان الدنيا المذمومة القبيحة هي التي تصبح هدفَ الانسان وغايته وينظر الانسان اليها نظرة استقلالية، اما الدنيا التي يُستعان بها من اجل نيل الآخرة والمراتب المعنوية وتُجعل من خلال النظر اليها على انها وسيلة، أداة لبلوغ القرب من الله فهي ليست غير مذمومة فحسب بل يجري الحث عليها ايضاً.

ذم الدنيا الشديد في كلام امير المؤمنين ٧

ان لأمير المؤمنين عليه السلام كلاماً كثيراً وعجيباً في ذم الدنيا، وقد ورد في *نهج البلاغة* من الكلام في ذم الدنيا مالو قال المرء ان *نهج البلاغة* كتاب ذم للدنيا فهو لم يقل عجباً، فقد تمتلئ عدة صفحات من خطبة واحدة بكلامٍ في استهجان الدنيا وذمها، ولعل من النادر العثور على خطبة لم يتحدث فيها امير المؤمنين عليه السلام عن ذم الدنيا: «**فلتكن الدنيا في اعينكم اصغر من حثالة القرظ وقراضة الجَلَم**».[١] ويقول في موضع آخر: «**أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً**».[٢] ويقول ايضاً: «**عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم**».[٣] ويردف عليه السلام قائلاً في هذه الخطبة: «**أوَلستم ترون اهل الدنيا يُمسُون ويُصبحون على احوال شتى فميّتٌ يُبكى وآخرُ يُعزّى وصريعٌ مُبتلى وعائدٌ يعود وآخر بنفسه يجود وطالبَ للدنيا والموتُ يطلبه وغافلٌ وليس بمغفول عنه**».[٤]

ولعل من اعجب كلمات امير المؤمنين عليه السلام في ذم الدنيا هذه العبارة التي يقول فيها: «**والله لدنياكم هذه اهونُ في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم**».[٥] فحتى ميت الحيوانات التي يحل اكلها لا يطاق ناهيك عن الخنزير الذي يحرم اكله وحتى الحيّ منه يثير الاشمئزاز، كما ان صورة الذي يُبتلى بالجذام تصبح كريهة وقبيحة ورهيبة بحيث

١. *نهج البلاغة*، ترجمة وشرح فيض الاسلام، الخطبة ٣٢.
٢. نفس المصدر: الخطبة ٣٤.
٣. نفس المصدر: الخطبة ٩٨.
٤. نفس المصدر.
٥. نفس المصدر: الكلمات القصار، الكلمة ٢٢٨.

لايرغب الانسان بالنظر الى وجهه ويديه، فلكم ان تتصوروا عظمَ خنزير ميت في يد انسان مجذوم، فهل تكون لديكم ادنى رغبة فيه؟! فيقول امير المؤمنين عليه السلام انني اشد زهداً واعراضاً عن هذه الدنيا التي اندفعتم حرصاً وولعاً لكسبها، من زهدكم بعظم خنزير ميت في يد انسان مجذوم! وهذا اقصى نفور واشمئزاز من الدنيا يُمكن التعبير عنه.

مفهوم الدنيا المذمومة في كلام امير المؤمنين عليه السلام

الآن وفي ضوء هذه التعابير والاحاديث ما هو واجبنا ازاء الدنيا وكيف علينا التصرف بحيث يكون سلوكنا علوياً وموضع رضىً وقبول من لدن الله والنبي صلى الله عليه وآله والائمة عليهم السلام؟

تكمن الاجابة على هذا السؤال في *نهج البلاغة* وفي كلام امير المؤمنين عليه السلام فاذا كانت لأمير المؤمنين عليه السلام مثل هذه التعابير عن الدنيا، فله عليه السلام في الجانب الآخر اقوال اخرى بهذا الشأن ومن خلال وضع هذه التعابير الى جانب بعضها يتضح المراد الحقيقي لأمير المؤمنين عليه السلام وطبيعة التعامل الصحيح ازاء الدنيا. وهنا نشير الى بعض هذه القرائن:

ورد في *نهج البلاغة* ان رجلاً ذم الدنيا عند امير المؤمنين عليه السلام، والظاهر ان ذلك الرجل كان من اهل الدنيا وكان يتظاهر بالنفور من الدنيا عند امير المؤمنين عليه السلام والحاضرين عنده، وبغضّ النظر عن هذا الأمر فقد ادلى عليه السلام بكلام يبين فيه محاسن الدنيا والنقاط الايجابية فيها رداً على الرجل وهي مما يجدر بالاهتمام: **«إن الدنيا دارُ صدقٍ لمن صدقها ودار عافية لمن فهمَ عنها ودار غنىً لمن تزوَّد منها ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحبّاء الله ومصلّى ملائكة الله ومهبطُ وحي الله ومتجرُ اولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنّة فمن ذا يذمُّها وقد آذنت ببَيْنها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها...»**.[1]

---

١. نفس المصدر: الكلمة ١٢٦.

لولا الدنيا أنَّى وبايِّ عمل يدخل المؤمنون الجنة؟ ان الدنيا مكان يعبد الملائكة به الله سبحانه وتعالى، والدنيا متجر اولياء الله الذي فيه يتكاملون ويشرون الجنة لانفسهم، فهل ان دنيا بهذه المواصفات تستحق الذم؟!

وله عليه السلام في موضع آخر كلام فيما يخص طبيعة التعامل والتعاطي مع الدنيا، مفعمٌ بالمعنى والهداية رغم ايجازه، اذ يقول عليه السلام: «مَنْ ابصرَ بها بصَّرتْه ومَن أبصرَ اليها أعمتْه».[١] وتعبيره عليه السلام ناظرٌ الى الفارق بين «النظرة الآلية» و«النظرة الاستقلالية» التي تكلمنا عنها آنفاً، فلو نظرنا الى الدنيا نظرة اعتبار فستعطينا مواعظ ودروساً جمة، ولكن اذا ما اخذنا نحملق فيها وانغمسنا في لذائذها وشهواتها فستُعمينا.

النظرة الآلية والنظرة الاستقلالية للدنيا

اذا ما اردنا ان نحصل على لذائذ ونِعم الآخرة وجنانها فلا سبيل أمامنا سوى الحياة في هذه الدنيا والانتفاع منها، فشجرة الجنة نغرسها بقولنا «لا اله الا الله» في هذه الدنيا، كما في قوله صلى الله عليه وآله: «مَنْ قال لا اله الّا الله غُرست له شجرة في الجنة».[٢] فلولا اعمالنا الحسنة في هذه الدنيا لن يكون لنا نصيبٌ من نِعم الجنة، وليس لدينا رصيد سوى هذه الدنيا لأن نشري به الجنة، فاذا اردنا ان نحصد السعادة وننال لذائذ الجنة ونعمها في الآخرة فان المزرعة التي يجب ان نزرع فيها البذرة هي الدنيا، ولولا تربة الدنيا ليس لدينا مزرعة اخرى نزرع ونغرس فيها كي نحصد النعيم الالهي في الآخرة.

بناءً على هذا، المهم هو ان نعرف حقيقة الدنيا كما هي، فالدنيا وسيلة لنيل الآخرة، والدنيا مكانٌ يُفترض بنا ومن خلال الاتّجار فيه أن نُعدّ زادنا ومتاعنا الى الآخرة، وخطؤنا هو اننا نتصور احياناً اننا خُلقنا لهذه الدنيا ومقدَّرٌ لنا ان نخلد فيها الى الأبد، وخطؤنا في اننا نظن ان الدنيا آخر مآبٍ لنا ومقرّنا الأبدي، وخطؤنا يكمن في نظرتنا الاستقلالية للدنيا بدلاً عن الرؤية الآلية لها.

---

١. نفس المصدر: الخطبة ٨١.

٢. *بحار الانوار*: ج ٨، الباب ٢٣، الرواية ١٤٦.

النظرة الاستقلالية للدنيا تناظر ذلك الذي يواظب على غسل سيارته وتـنظيفها وهو يمسك على الدوام بالمنديل ويقف على اهبة الاستعداد لتنظيف أية نقطة تـظهر على زجاج السيارة أو بدنها، ومثل هذا الانسان قد تناسى لماذا اشـترى السـيارة، فالسيارة وسيلة توصلنا الى المـقصد وتعمل على التقليل مـن أتـعابنا والوقت الذي تستغرقه اسفارنا الداخلية أو ما بين المدن بما تتميز به من راحة وسرعة. فاذا ما دأب المرء على تنظيف سيارته ومسحها على مدار الساعة في مثل هذه الحالة يكون هو في خدمة السيارة بدلاً من ان تكون هي في خدمته!

ان الدنيا على هذه الشاكلة ايضاً، فالدنيا وسيلة جعلها الله تعالى تحت تصرُّفنا كي نستحق من خلال الاستعانة بها تلقي المزيد من رحمة الله ونعمه ونبلغ غايتنا، وتلك هي الدنيا الوسيلة، ولكن اذا ما تعلقت اهتماماتنا بالدنيا ذاتها وبلذائذها وتناسينا ان هنالك آخرةً هنا تكون الدنيا مدعاة انخداع و«مَتَاعُ الْغُرُورِ»، ومثل هذه الدنيا هـي المذمومة، الدنيا التي بدلاً من ان تعجّل بوصولنا الى الهـدف تـعرقل وصـولنا اليـه. وافضل وابلغُ كلام في هذا المجال هو كلام أمير الكلام: «**وانـما الدنـيا مـنتهى بـصر الاعمى لا يُبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفَذُها بصره ويعلمُ ان الدار وراءها، فالبصير منها شاخصٌ والأعمى اليها شاخصٌ، والبصير منها متزود والاعمى لها متزود**».[١]

ان الدنيا كالعوينات التي يضعها الانسان على عيونه، والعوينات انما الغرض منها تحسين رؤية المرء، والسبيل الافضل للرؤية عن طريق العوينات هـو ان نـنظر الى الاشياء والعالم الذي يحيط بنا عبر زجاجها، فما الذي سيحصل لو شخص بصرُ المرء على العوينات وزجاجها بدلاً من النظر من خلال العوينات؟ هل سـيرى شـيئاً أو احداً أو مكاناً؟ كلا.

بناءً على هذا ان ما يخضع للذم في الواقع هو طبيعة نظرتنا ورؤيتنا للدنيا وليس

---

١. نهج *البلاغة*، ترجمة وشرح فيض الاسلام: الخطبة ١٣٣.

الدنيا بذاتها، وإلّا فان الدنيا خلقُ الله كل ما فيها قد خُلق على احسن صورة: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ).[١] ان الدنيا ليست سيئة بذاتها، وما يجعلها سيئة هو سوء انتفاعنا منها، واذا ما وجدنا في القرآن والروايات وفي *نهج البلاغة* ان الدنيا قد ذُمَّت في اغلب الموارد وجرى اكثر الحديث عن كون الدنيا «مَتَاعِ الْغُرُورِ» وعن تفاهة الدنيا وكونها لعباً فما ذلك الّا بسبب عدم صحة رؤية الكثير من الناس عن الدنيا في اغلب الموارد، وتعرُّضهم لخداعها. من هنا فقد جرى السعي لتحذير الانسان بما فيه الكفاية عن طريق هذه التعابير، وقد قلنا آنفاً باننا ونظراً لتماسّنا مع المحسوسات ومن النادر ان نستشعر اللذائذ غير المحسوسة، من هنا جاءت طبيعتنا بنحو نميل نحو الدنيا ولذائذها ونغفل عن الآخرة ولذائذها غير الملموسة بالنسبة الينا في الوقت الحاضر، فنحن حيثما فتحنا عيوننا بأي اتجاه نرى المادة والماديات. اذن يتعين على الله وقادة الدين العمل لترجيح كفة المعنويات والآخرة واستقطاب اهتمامنا من الدنيا نحو الآخرة، والى جانب ذلك ولغرض ان لا يسيء أناسٌ الفهم ولا يظنوا ان معنى مثل هذه التعاليم تجاهل الدنيا ولذائذها ونعمها كلياً، يجري التذكير احياناً بلذائذ الدنيا والتنعيم بها: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ).[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ).[٣] وبالطبع ان نسبة هذه التعابير أقل قياساً للتعابير من النوع الاول لان الانسان يميل بشكل طبيعي للتنعم بنعم الدنيا ولذائذها دون حاجة للترغيب والتشجيع.

هل التعاليم الدينية تعرقل التنمية والتطور الاقتصادي؟

من الاسئلة الاخرى والاشكالات التي تثار احياناً ضد التعاليم الاسلامية فيما يخص

---

١. السجدة: ٧.
٢. الاعراف: ٣٢.
٣. البقرة: ١٧٢.

التعاطي مع الدنيا هو ان هذه التعاليم تتنافى مع حركة التنمية والتطور الاقتصادي. وهذه القضية اخذت تثار خلال السنوات الاخيرة على وجه التحديد من قِبل بعض المثقَّفين في الداخل كمؤاخذة على الاسلام وتعاليمه، فهم يروجون بان شعبنا مادام متمسكاً بالدين وتعاليمه فان بلادنا ستبقى مكبَّلة بالركود والتخلف الاقتصادي وستزداد تقهقراً عن ركب التنمية والتطور، فالدين الذي مافتئ يوحي الى أتباعه ان الحياة الدنيا فانية وعابرة، والدنيا «مَتَاعُ الْغُرُورِ»، وان الحياة الدنيا لعب و...، انما هو دين لا ينسجم بطبعه مع التنمية والتطور الاقتصادي. فاذا انتزعنا الرغبة من الناس بالدنيا بحيث إنهم يرونها عظام خنزير في يد مجذوم، فهل يمكن الأمل من هؤلاء ان يساهموا بمضاعفة الدخل والثروة الوطنية من خلال المزيد من العمل والإنتاج، وان يصبحوا اداة في حركة التنمية والتطور في البلاد؟ واذا ما أوصينا أتباعنا: عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم، فهل بالامكان تأمل ان ينبري هؤلاء الاتباع لمنافسة سائر الشعوب والبلدان والتسابق معها في المجال الاقتصادي؟! إن من اهم اسباب تخلف البلدان الاسلامية لاسيا بلدنا يكمن في هذا النمط من التعاليم، من هنا يتعين التخير ما بين الدين والتنمية والتطور الاقتصادي! فليس يصح ان نطالب الناس بالتمسك بالدين والاحكام والتعاليم الدينية واطلاق الوعود لهم بتحقيق التقدم والتنمية والتطور الاقتصادي! فروح التعاليم الدينية لاسيا التعاليم الاسلامية بنحو تسلب من الناس روحية العمل والجدّ والانتاج واكتساب الثروة والاموال! وفي التعاليم الدينية يجري افتعال اشباح عن المال والثروة في الدنيا بحيث لا يفكر المتديّنون ولا يتجرأون على اكتساب الثروة! ان العمل من اجل التنمية والتطور الاقتصادي يعني السعي والتنافس في ميدان السباق للحصول على دنيا افضل واكثر حجماً ورفاهية، وان الاسلام يحذِّر اتباعه من التسابق للحصول على الدنيا ويكافح البهرجة والترف!

ما يصبح سبباً في هذا التساؤل والاشكال هو ادراكنا الناقص للتعاليم الاسلامية، ولو شئنا الردِ بعبارة واحدة وباختصار وايجاز نقول: ان الاسلام يذم الانبهار بالدنيا والتعلق بها ويذم روح الاستهلاك، لكن لم ترد التوصية في الاسلام للمسلمين بالقليل من الإنتاج. وان استقراء الروايات الاسلامية والسيرة العملية للنبي صلى الله عليه وآله واهل البيت عليهم السلام يثبت هذا الأمر.

ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام يُعدّ من اسمى وابرز النماذج بالنسبة للمسلمين وانكم لا تعثرون على أحد عمل في مختلف الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية اكثر من امير المؤمنين عليه السلام الذي بلغ الكمال بدءاً بأمر ادارة حكومة شاسعة ضمت ايران والحجاز ومصر واليمن والعراق وبعض ولايات سوريا المعاصرة ومروراً بالمشاركة بالحرب والجهاد وانتهاءً بالنشاط في المجال الزراعي، والتاريخ يشهد كم من النخيل قد اعطت ثمارها على يديه المباركتين، وكم حفر من الآبار والانهار لسقي الاراضي الزراعية والبساتين، ولم يوص عليه السلام أبداً بعدم العمل والإنتاج كما انه عليه السلام لم يكن كذلك في حياته. ان علياً عليه السلام هو الذي كان يحمل في النهار بيديه المجرفة وعلى عاتقه المعول تحت وطأة شمس المدينة والعراق المحرقة، وفي الليل يحمل زنابيل الخبز والتمر يجوب المدينة لإشباع الجياع. ان مافتئ علي عليه السلام يوصي به هو عدم التعلق بالدنيا والتقليل من التمتع بلذائذها من اجل عدم التعلق بها.

ربما يقال ان هذا القدر من التوصية بالزهد والقناعة وقلة التمتع بالملذات والمادية لا يمكنه الانسجام مع روح الإنتاج والتنمية والتطور الاقتصادي.

نقول في الرد: اذا كان المزمع تحريف الكلام والاستغلال فبامكان المرء ايراد المعايب والاشكالات على كل كلام. فالحديث يدور حول اذا ما وضعنا في الحسبان مجموع اقوال الدين وقادته وسيرتهم العملية، فلن يكون اعتناق الاسلام مُلازماً لعدم التطور والتحرز عن تحقيق التنمية والتطور الاقتصادي، فلا افراط ولا تفريط في هذا

المجال اذ ان أياً منهما ليس صحيحاً. فمن ناحية يقول علي عليه السلام: «يا دنيا أبي تعرضتِ وإليَّ تشوقتِ، غرّي غيري».[١] ولكن ينبغي ان لا ننسى من ناحية اخرى ان علياً عليه السلام هو ذاك الذي كان يعمل ويتصبّب عَرقاً في النهار وما بين النخيل تحت وطأة حرارة الشمس اللاهبة ويستخرج الماء من الآبار وينهمك بالعمل والانتاج، وهو ذاك علي الذي يوظف جانباً من وقته للاهتمام بامور الفقراء والمحتاجين، وهو ذاك علي الذي أفنى ردحاً من حياته في جبهات القتال، فاين ذَكر التاريخ ان علياً عليه السلام كان يفترش سجادة صلاته ويتعبد ليل نهار؟ واين سجَّل التاريخ ان علياً عليه السلام أقلعَ عن الدنيا وأوى الى مغارة في كبد الجبال ولم يكن له نصيب من ناتج أو وارد اقتصادي؟

والنتيجة هي اولاً: ان الدنيا بذاتها لا سوء فيها ولا موضع ذم، فالدنيا خلق الله وان الله يقول عن مخلوقاته: **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**.[٢] وثانياً: ان الاسلام لم يقل أبداً لا تنتفعوا ولا تتنعموا بالدنيا ونعمها ولذائذها على الاطلاق بل بالعكس فقد ذمَّ الذين يمتلكون مثل هذه الفكرة وهذا المنحى قائلاً: (**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**)[٣]، وبعبارة اخرىٰ ان الاسلام لم يقل لا تسعوا من اجل العلم والتصنيع والتطور والانتاج، وانما منطق الاسلام يتركز على: أن تستخدموها للوصول الى هدفٍ اكثر اهمية، كما ان تعليمات الاسلام تنص على: قللوا من الاستهلاك لتجنُّب التعلق بالدنيا والانبهار بها، لكنه لم يوصِ بقلة الانتاج أبداً.

من التعاليم التي زوّدَنا بها الاسلام للحيلولة دون التعلق بالدنيا وتجنب الانبهار بها هو ان نغض الطرف احياناً بشكل اختياري عن نعم الدنيا المتوفرة اسباب الانتفاع بها بالنسبة الينا، فاذا ما تمرس المرء على هذا العمل وكرره فذلك من شأنه ان لا تتبلور في قلبه محبة الدنيا والتعلق بها. وكذلك اذا ما حصل على شيء بعد عناء وجهد

---

١. *بحارالأنوار*، ج ٣٣، الباب ٢٠، الرواية ٥٢٤.
٢. السجدة: ٧.
٣. الأعراف: ٣٢.

ان لا ينتفع به لنفسه وان يهبه لغيره رغم محبته له، وهذا الفعل يعدّ عاملاً مساعداً لقتل حب الدنيا في النفس ويحول دون تبلور هذا الحب، وللقرآن الكريم تعبير في غاية البلاغة بهذا الشأن: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ).[1] انه لعمل صعبٌ جداً أن ينضح امرؤٌ عرقاً ويتجرع الشدائد والمحن من اجل شيء، وما أن ناله وبالرغم تعلّقه به وحاجته له يقوم بتقديمه بيديه الى الآخرين! ولهذا السبب يعدّ عملاً في غاية الصعوبة، بيد ان من استطاع القيام به يكون قد خطى خطوة كبرى في طريق اخراج حب الدنيا من قلبه.

المهم هو ان لا نتعلق بالدنيا وان ننظر اليها على انها وسيلة لا ان نجعل منها هدفاً جوهرياً واصلياً لنا، فاذا ما نظرنا الى الدنيا على انها وسيلة حينها سنحبها بالقدر الذي تتوفر فيه على الفائدة لبلوغ هدفنا النهائي، ونغض الطرف عنها ونتخلى عنها متى ما اصبحت حائلاً دون بلوغ هدفنا النهائي لانها وسيلة فقط ولا رغبة لنا فيها بالذات وبالاصالة.

ان من السهولة ـ بالطبع ـ النطق بان ننظر الى الدنيا نظرة وسيلة ونعتبرها وسيلة لبلوغ الهدف النهائي، ولكن العمل به في غاية الصعوبة، وان جميع التعليمات الصادرة في الاسلام فيما يخص الزهد والقناعة وما شابه ذلك انما لكي يتخلص الانسان من الانبهار بالدنيا والاغترار بها، ولا حاجة للتوصية بالسعي وراء الدنيا واللذائذ الدنيوية والمادية، فالانسان يميل بشكل طبيعي نحو الماديات واللذائذ الدنيوية ويعمل من اجل الحصول عليها دون تشجيع من أحد، وما يحتاج الى التوصية هو المسير والتوجه نحو الآخرة وتجنُّب الافراط في الاهتمام بالدنيا.

ملاحظة اخرى حول شبهة تعارض الدين مع التطور

في الرد على الذين يرون ان تعاليم الدين تحول دون التحرك نحو التطور والنمو

١. آل عمران: ٩٢.

الاقتصادي هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي ان بعض علماء الاجتماع في الغرب صرحوا بان من اسباب التطور الاقتصادي في اوربا والغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان العامل الديني واخلاق البروتستانت. فالبروتستانت أحد المذاهب المسيحية الثلاثة المعروفة ـ الكاثوليك، الارثوذوكس، البروتستانت ـ وقد تأسس في القرن السادس عشر وكان يدعو أتباعه الى الزهد وقلة التمتع بالدنيا. وقد ادعى ماكس وِبر عالم الاجتماع الآلماني المعروف في كتابه *(اخلاق البروتستانت وروح الرأسمالية)* ان تطور المجتمع الغربي انطلق منذ ان شاع فيه المذهب البروتستانتي، وزعم ان الدول التي كانت شعوبها تدين بالمذهب البروتستاني هي التي حققت تطوراً اقتصادياً اكثر من بين الدول الاوربية معتبراً ذلك منوطاً باخلاق البروتستانت التي تحث على الزهد بالدنيا والتقليل من الاستهلاك، وهذا الأمر أدى الى ان يقلل الناس من الاستهلاك ويقبلون على اكتناز الثروة فأدى اكتناز الثروات الى تعزيز البنية الاقتصادية.

وبطبيعة الحال ان استدلال ماكس وِبر على كيفية حصول التقدم والتطور في الغرب ناقصٌ بالنسبة الينا، لكن الغرض هو ان نرى ان بعض الذين لا يؤمنون بدين الله وجميع انبيائه يرون ان تعاليم الانبياء في مجال الزهد والقناعة تؤدي الى التطور الاقتصادي وليس الى التخلف في هذا المجال.

على أية حال، كما اوضحنا ان تعاليم الدين بالزهد والقناعة وقلة الاستهلاك لا تتنافى بأي حال مع كثير العمل والانتاج، فلربما يكون شعب يحتل المرتبة الاولى من حيث الانتاج والثروة الوطنية لكنه الادنى استهلاكاً من بين الكثير من الدول، فالجمع بين هذين الأمرين لا ينطوي على اي تناقض.

من ناحية اخرى ان الذين ينصبّ كل اهتمامهم بالدنيا وتتملكهم روح الاستهلاك والمزيد من التلذذ يتسببون بالمشاكل لأنفسهم ولمجتمعهم نتيجة افراطهم في هذا الأمر،

فالكثير من هؤلاء يلجأون الى السرقة والخيانة والاختلاس والرشوة وممارسات من هذا القبيل، ومن خلال نظرة عامة نجد ان الميزانيات التي تُرصد احياناً للتصدي لهذه الامور تكون كبيرة الى الحد الذي تؤثر العائد الوطني للبلاد، واستناداً للارقام التي تنشرها الدول الغربية المتطورة فان الاموال التي تنفقها هذه الدول لعلاج الامراض العصبية وبعض الامراض من قبيل الايدز تشكل ارقاماً مرتفعة جداً، فالامراض العصبية ومرض الايدز يمثلان إفرازين لروح الاستهلاك والافراط في اللذة، واذا ما اضفنا الاموال والامكانيات التي تُرصد في هذه البلدان للشرطة والسجون ومراكز التأهيل والشؤون ذات الصلة بالجريمة سنرى انه رقم يعتد به وجدير بالتأمل، ولو ان هذه الدول قرنت التطور والتصنيع والانتاج بالاخلاق والقناعة وروح الزهد في الاستهلاك لما أهدرت الكثير من هذه الاموال.

على أية حال، لو احسنّا الفهم والعمل بالدين والتعاليم الدينية سنرى ان دنيانا وآخرتنا ستزدهران معاً. فللأسف اننا نفسر الزهد بالتكاسل، والتوكل بالتقاعس والبطالة، ومن ثم نلصق عواقب التكاسل والبطالة السيئة بالدين، وليس معنى الزهد والتوكل التكاسل والبطالة ابداً. فالاسلام دعا الى الزهد والتوكل وليس الى التكاسل والتقاعس، وان المشكلة فينا اذ نسيء تفسير هذين المفهومين، ونُخطئ فهمهما. انهما مفهومان من الممكن ان يكون لهما آثار ايجابية كثيرة في سلوك الفرد وشخصيته وتكامل المجتمع ورقيّه، قد تبدلا الى عوامل عرقلة نتيجةً لاستنتاجاتنا الخاطئة.

ان حكم الاسلام وشعاره هو: (لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً).[١] فهل يمكن تحقيق هذا الأمر اليوم إلّا بالعمل والانتاج والمزيد من التطور في المجالين العلمي والصناعي؟ والاسلام يقول: (وَلِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ).[٢] فهل يمكن توقُّع ان يكون المؤمنون والمسلمون اعزّاء في عالم اليوم بالتكاسل والتقاعس والبطالة؟

---

١. النساء: ١٤١. ٢. المنافقون: ٨.

لو اخذنا هاتين الآيتين فقط من بين تعاليم القرآن والاسلام سنجد انه يجب على المسلمين والشعوب الاسلامية ان تعمل ليلَ نهار في ميدان العلم والانتاج والتصنيع والتقنية الحديثة كي لا يضطروا لان يمدوا ايديهم نحو الكفار واعداء الله من اجل ادنى حاجة تواجههم ويسحقون على عزتهم الى جانب التمهيد لتسلط اولئك عليهم.

اذا ما انبرى احدٌ للتحقيق العلمي والعمل والانتاج من اجل تطبيق هاتين الآيتين عملياً وبنية الامتثال للامر الاهلي وتحقيق ارادة الله، فذلك ليس لا يُعدّ انبهاراً بالدنيا بل هو عين عبادة الله والتقرب اليه. من ذا الذي يهتم بـاشاعة التكـاسل والبـطالة والترويج لهما في حين ان رأي الاسلام هو: **ان العبادة عشرة اجزاء تسعة منها طـلب الحلال.**[1] نعم فالاسلام يرى العمل في المزرعة والمـصنع والادارة مـن اجـل ادارة شؤون الحياة والترفيه على الزوجة والولد، عبادةً وليس طلباً للدنيا وانخداعاً بها.

اذا ما كان هنالك اشكال ومؤاخذة فهو في فهمنا واستنتاجنا الخاطىء أو في طبيعة نظرتنا الى الدنيا ونوايانا ودوافعنا نحو العمل والانتاج، وإلّا لو اننا احسنّا فهم الاسلام ومن ثم احسنّا العمل به سنرى انه يضمن لنا الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

---

١. *بحار الانوار*: ج ٧٧، الباب ٣، الرواية ٦.



الدرس السابع عشر

دور الايمان والعمل الصالح في تكامل الانسان

لمحة عن المواضيع السابقة

كان العنوان الاصلي لبحثنا تزكية النفس، وهذا مفهوم أصيل من ادبيات القرآن الكريم، وقد استخدم القرآن مفردة التدسية في مقابل مفهوم التزكية حيث يقول في سورة الشمس: (وَنَفْسٍ وَما سَوّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها). ومعنى هذه الآية ان نفس الانسان بنحو تستطيع من خلال حركة تدريجية ان تترقى وتبلغ الكمال مثلما لها القابلية على طي سير تنازلي وتهبط الى «أَسْفَلَ سافِلِينَ» والى الحضيض: (أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ).[1] وان سلوك أيٍّ من هذين المسارين منوط باختيار الانسان، أي ان كمال الانسان كمال اختياري وليس جبرياً. وهذا السلوك مرتبط بروح الانسان اذ ان حقيقة الانسان روحه والّا فان جسم الانسان وبعد طيّه لمسار الرقي والصعود في مرحلة ما يسلك طريق الهبوط والسقوط تلقائياً فتلك حركة خارجة عن اختيار الانسان: (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً).[2]

ان الحركة الطبيعية لعجلة التكامل ومسيرة جسم الانسان بنحو تضعف حافظته كثيراً وينسى اموراً كان يعلمها وذلك في سنوات معيّنة من عمره بسبب شيخوخته الطاعنة. ويقول تعالى في آية اخرى: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ).[3] وهذا قانون

---

١. الاعراف: ١٧٩.
٢. النحل: ٧٠.
٣. يس: ٦٨.

الطبيعة بشأن جسم الانسان وهو لا مناص منه، لكن مسيرة روح الانسان خاضعة لاختياره وربما تستمر مسيرته التكاملية حتى آخر لحظات حياته.

الفارق الآخر بين جسم الانسان وروحه هو ان الملاك في تقييم النمو أو الضعف والخلل في جسم الانسان كميٌّ وأمرٌ هيّنٌ، ولكن ليس الامر كذلك فيما يخص الروح، فمعيار تكامل وانحطاط روح الانسان في منظار المعارف الاسلامية هو القرب من الله، فكلما كانت روح الانسان اكثر قرباً وأُنساً بالله فان ذلك علامة المزيد من الرقي والكمال، وكلما ابتعدت ونأت عن الله فتلك علامة سقوطها وانحدارها. لقد أُخذ مفهوم القرب من ادبيات القرآن: (كَلاَّ لاٰ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ).[١] ويُفهم من القرآن ان هذا المفهوم كان موجوداً ايضاً في ادبيات المشركين وعباد الاوثان: (مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللهِ زُلْفىٰ).[٢]

على أية حال، ان آخر مرتبة يذكرها الله في مسيرة القرب الى الله هي المرتبة التي تحدّث عنها في آيات متعددة وبتعابير مختلفة من قبيل: عند الله، جوار الله، جنة الله وما شابه ذلك: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ).[٣] وكان دعاء آسية امرأة فرعون: (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ).[٤] ويصف القرآن الكريم مرتبة النفس المطمئنة بما يلي: (يٰا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبٰادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي).[٥]

ان ما يمضي قدماً بالانسان في مسيرة القرب الى الله ويقرّب روحه الى الله هو العمل الصالح، والعمل الصالح هو العمل الذي فيه مرضاة الله. ويطلق العمل الصالح في المصطلح القرآني على العمل الطيب والصالح في نفسه والذي يقوم به الفرد بنية التقرب الى الله ونيل رضاه، فمثل هذا العمل هو الذي يرتقي بالانسان ويتسلق به سُلَّم الكمال،

---

١. العلق: ١٩.
٢. الزمر: ٣.
٣. القمر: ٥٤ ـ ٥٥.
٤. التحريم: ١١.
٥. الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

ويسمى هذا العمل في الثقافة الاسلامية والقرآنية «عبادة». وفي إطار هذا المصطلح لا يقال «عبادة» للصلاة والصيام والحج وما شابهها فقط، بل وكما قلنا ان كل عمل صالح وحسنٌ في ذاته مضافاً الى ذلك يُفعل بنية نيل رضى الله سيكون عبادة. وهذا المعنى هو المراد من العبادة في الآية الكريمة: (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ).[1] أي انني لم اخلق الانسان إلّا ليتقرب اليَّ بالاعمال الصالحة التي يقوم بها بنية كسب رضاي.

ان الهدف المرسوم للانسان هو القرب من الله، وان ما يصدّه عن هذا الهدف وسلوك هذا الطريق هو الغفلة، وتأييداً لهذا الأمر نشير الى الآية ١٧٩ من سورة الاعراف: (وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ). والغافلون هم الذين لا يفكرون من اين جاؤوا والى اين يسيرون وما الطريق الذي يجب ان يسلكوه. ان غفلتهم عن المبدأ والمعاد والطريق ما بين المبدأ والمعاد هي التي تورطهم بحيث يصبحوا كالانعام بل اسوء حالاً.

ان اول خطوة لسلوك مسيرة التكامل هي ان ينسلخ الانسان عن الغفلة ويعرف اين هو ومن الذي خلقه وما الذي خلقه من اجله وماذا عليه ان يعمل، فلن يرسو أمر الانسان على حال مادام منغمساً في اللذائذ المادية ويتركز جلّ اهتمامه وحواسه على الشهوة والبطن، فمثل هذا الانسان يناظر الحيوان على اكثر تقدير مهما ارتفعت رتبته! ولغرض الخروج عن مستوى الحيوانية والدخول في رحاب الانسان يجب تحطيم اسوار الغفلة وتجاوزها.

ان الحالة التي تعاكس الغفلة هي «التوجه» الذي يسمى في المصطلح القرآني «الذكر» والذكر يعني توجه القلب نحو الله، وقد اشرنا بهذا الصدد الى الذكر القلبي

---

١. الذاريات: ٥٦.

والذكر اللساني وقلنا ان حقيقة الذكر هو الذكر القلبي وان الذكر اللساني يمثل في الحقيقة منفذاً لبلوغ الذكر القلبي. وقد اوضحنا بانه واستناداً للآيات والروايات وتعاليم اهل البيت عليهم السلام يعدّ الذكر اللساني مفيداً على أية حال، وان الذين يتركون الذكر اللساني بشكل كامل ويكتفون بالذكر القلبي انما يقومون بفعلٍ مخالفٍ للمتعارف عليه ولرضى الله واهل البيت عليهم السلام.

وفيما يخص كيفية تبلور حالة الذكر والتوجه وما هو متعلّق الذكر اشرنا الى آيات من القرآن الكريم من بينها الآية الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.[1]

كانت تلك خلاصة المواضيع التي كنا قد تناولنا في الدرس السابق حول موضوع تزكية النفس وها نحن نتابع البحث.

انواع سلوكيات الانسان وعلاقتها بالتزكية

بعد أن خرج الانسان من الغفلة وحصل على التوجه وعرف طريقه، يتعين عليه القيام باعمال وافعال من شأنها بلوغ الهدف. وسؤالنا الراهن هو: ما هي هذه الاعمال وما هي الاعمال التي يتعين على الانسان القيام بها لبلوغ القرب من الله بما يمثله من غاية الانسان؟ وفي معرض الاجابة على هذا السؤال نقسّم اعمال الانسان وافعاله الى ثلاثة اقسام:

١ـ الاعمال التي محورها الانسان نفسه: فبعض الاعمال التي نقوم بها لا علاقة لها بالآخرين والمهم في ادائها نحن شخصياً مثل تناول الطعام وشرب الماء وافعال من

---

١. آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

هذا القبيل. فهي افعال لا نلتفت الى ما سوانا في ادائها وانفسنا فقط التي نضعها في الحسبان.

٢ـ الاعمال التي محورها الله سبحانه وتعالى: وهي تلك المجموعة من اعمالنا التي ترتبط بالله جلّ وعلا ونحن لا نقوم بها من اجل انفسنا بالذات بل نضع الله في نظر الاعتبار، وابرز مثال على هذه الافعال اداء الصلاة التي نؤديها تعظيماً لله وعبادة له.

٣ـ الاعمال التي محورها مخلوقات الله والآخرون: وهذا النوع الثالث من افعالنا يمكن تصنيفه الى عدة اصناف مثل التعامل مع العائلة والاقارب، والتعامل مع الاصدقاء، والتعامل مع مختلف طبقات الناس داخل المجتمع، التعامل مع الاعداء، بل وحتى التعامل مع الحيوانات ومع الارض والطبيعة وما شابه ذلك.

ولكي يتضح البحث اكثر ينبغي تناول كلٍّ من هذه الانواع الثلاثة من الاعمال وعلاقتها بتزكية النفس وبلوغ مرتبة القرب الالهي كلاً على حدة.

الايمان والعمل الصالح ركنان اساسيان في التقرب الى الله

ان الايمان والعمل الصالح هما الأمران اللذان طالبنا الله سبحانه وتعالى بهما معتبراً إياهما شرطاً لنيل الكمال وسعادة الانسان. وقد ذُكر هذان المفهومان الى جانب بعضهما في الكثير من الموارد في القرآن الكريم وجرى التركيز على تلازمهما. فلنقرأ معاً نماذج من هذه الآيات:

ـ (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ).[١]

ـ (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ).[٢]

ـ (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ).[٣]

---

١. البقرة: ٢٥.
٢. النساء: ١٢٤.
٣. الرعد: ٢٩.

ـ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً). (١)

ـ (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاٰ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ). (٢)

ـ (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً). (٣)

يتبين من هذه الآيات أن واجبنا امام الله عزّ وجلّ هو الايمان والعمل الصالح. من هنا علينا ان نبحث ونحقق بشأنهما ونقوي في انفسنا هذين الركنين الاساسيين بشكل تام. ونحن هنا نتناول بالبحث في البداية الايمان ومن بعده العمل الصالح والعلاقة بينهما.

علاقة الايمان بالعلم

ان اول بحث ينبغي تناوله حول الايمان هو ما هي حقيقة الايمان وما هو المراد من اننا يجب ان نؤمن بالله؟ وعلى صعيد هذا البحث لسنا بصدد الحديث عن مختلف التعاريف التي ذكرتها الروايات للايمان، بل المراد ان نرى ما المفهوم الذي يتداعى الى الذهن من هذا اللفظ لاسيا وان الايمان قد فُصل عن العمل الصالح واعتُبرا شيئين في هذه الآيات.

في الوهلة الاولى يتبادر الى الذهن ان الايمان يعني التصديق والاعتقاد وأن نعلم بان الله موجود، والمراد بالطبع. العلم التصديقي لا العلم التصوري، أي لا يقال ايماناً لمجرد تصور الله، بل الايمان يقع عندما نصدق بان الله موجود، من هنا فان الكثيرين ظنوا ان الايمان مساوٍ للعلم.

ولكن من خلال الرجوع الى القرآن الكريم يتضح خطأ هذه النظرية، فالقرآن لا

---

١. الكهف: ٣٠.   ٢. الانبياء: ٩٤.

٣. الطلاق: ١١.

يرى التماثل بين العلم والايمان، بل يستفاد من القرآن ان العلم اوسع مدى من الإيمان، فليس كل أحدٍ يعلم بشيء يؤمن به، فلا يستشف من القرآن ان كل من علم بوجود الله آمن به، أو اذا ما تبينت له نبوة أحد فذلك يعني ايمانه بذلك النبي، بل بـالعكس فالقرآن الكريم يشير الى موارد كان لأُناس علمٌ بهذه الامور لكنهم لم يؤمنوا بهـا. يقول تعالى عن آل فرعون: (وَجَحَدُوا بِهٰا وَاسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا).[1] فـهذه الآية صريحة بان اولئك كانوا يعلمون تمام العلم ان الله موجود وان موسى عليه السلام نبي ذلك الاله، لكنهم ونظراً لروح التعالي والظلم التي كانوا عليها كانوا ينكرون هذه القضية. وفي آية اخرى يخاطب موسى عليه السلام فرعون قائلاً: (قٰالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا أَنْزَلَ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضِ).[2] فيوضح بأداتي التأكيد «اللام وقد» ان فرعون كان يعلم ان هذه المعجزات التي تحققت على يدي موسى عليه السلام لم تنزل الّا من عند الله مالك ورب السماوات والارض، اذن بصريح هذه الآية ان فرعون كان متيقناً بوجود الله ونـبوة موسى عليه السلام ولكن هل كان مؤمناً؟ انه ليس لم يؤمن فحسب بل ظلَّ مصرّاً على كفره: (يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي).[3] ثم انه ولغرض خداع الناس أمر وزيره هامان بان يبني له برجاً كي يبحث من اعلاه عن الله عزّ وجلّ في السماء!: (يٰا هٰامٰانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبٰابَ * أَسْبٰابَ السَّمٰاوٰاتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كٰاذِباً).[4]

بناءً على هذا ليس من الضرورة ان يكون هنالك ايمان اذا ما وُجد العلم، ولكن في المقابل لابد من وجود نوع من العلم والمعرفة كي يحصل الايمان، فالانسان يعجز عن الايمان بشيء وهو جاهل به جهلاً تاماً.

لقد كانت هذه المسألة (ضرورة العلم أو عدم ضرورته بالنسبة للايمان) مـوضع

---

١. النمل: ١٤.
٢. الاسراء: ١٠٢.
٣. القصص: ٣٨.
٤. غافر: ٣٦ ـ ٣٧.

بحث وجدال بين المسيحيين منذ القدم، ولعل تاريخ هذا الجدل بينهم يعود الى القرن الثالث أو الرابع الميلادي، فيما أثير هذا البحث بشكل جادّ بين المسلمين مؤخراً وقبل عدة سنوات اذ يُصر بعض المثقفين المسلمين على ان العلم والايمان مما لا يمكن الجمع بينهما أبداً والايمان يكون بالضرورة حيث يكون الجهل!

وعلى أية حال، قال المتكلمون المسيحيون بامكان الانسان ان يؤمن بما لا علم ولا فهم له به، وان شعار «آمِنْ تَفهم» شعار مشهور في المسيحية. وباعتقادنا ان هذا الرأي باطل لكننا الآن لا نزمع طرح الابحاث الفلسفية في هذا المجال ونقد هذا الرأي، واردنا فقط توضيح انه ليس من الضرورة ان يكون هنالك ايمان حيثما وُجد العلم، وان الايمان ليس مجرد علم ومعرفة ذهنية.

العنصر الاختياري في الايمان

ان الايمان يحتاج بالاضافة الى العلم الى «أمر اختياري»، فالايمان بالاساس أمر اختياري ويجب ان يتحقق باختيار الانسان نفسه، بينما لا يحصل العلم في الكثير من الاحيان باختيار الانسان، فلربما نرى شيئاً أونسمع به ونعلم به عن طريق الصدفة وبشكل مفاجئ في حين لم نكن نقصد الحصول على ذلك العلم، والشاهد على اختيارية الايمان هو ان الله يأمرنا به: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ).[١] (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا).[٢] فاذا كان الايمان أمراً جبريّاً وخارجاً عن ارادتنا فلا معنى لأمرنا به.

ولكن ما هذا العنصر الاختياري الذي يتدخل في الايمان؟ والجواب هو ان هذا العمل الاختياري أمرٌ يتعلق بالقلب ويحصل في باطن الانسان ومن المتعذر تعريفه. فهذه خصوصية مشتركة بين الحالات الباطنية والذاتية للانسان حيث نعجز عن

---

١. النساء: ١٧٠.
٢. التغابن: ٨.

تقديم تعريف لها، وإنّما نعرفها ونشخّصها من خلال لوازمها فقط، فمثلاً ان الحب والعشق حالة باطنية وأمر يتعلق بالقلب واذا ما طُلب منا تعريف العشق والحب فاننا لا نقدر على تعريفه ولكن بامكاننا بيان علائمه وأماراته ولوازمه.

ان الايمان بشيء يتبلور في القلب عندما نقرر ونتعهد بالالتزام والعمل بلوازمه بعد ادراكنا لحقيقته، وهنا نقول اننا آمنا بذلك الشيء. واذا ما علمنا بشيء ولكن لم نزمع ان نلتزم بلوازمه، فهنا علم فقط ولا ايمان. ولغرض المزيد من التمييز بين العلم والايمان من المناسب ان نسوق مثالاً:

ان الكثير من المدمنين على التدخين سمعوا ادلة واحاديث كثيرة عن الاطباء وذوي الاختصاص حول أضرار التدخين، وهم قد رأوا بأم اعينهم العديد من الناس قد ابتلوا بصنوف من الامراض نتيجةً لإدمانهم على التدخين. فمجموع ذلك يبلور حالة من العلم لدى الكثير من المدخنين بان التدخين مضرٌ للانسان، ولكن في نفس الوقت الذي يعلمون بذلك يأبون الاقتناع بهذه الحقيقة في دواخلهم وترك التدخين جرّاء ادمانهم على التدخين، من هنا فهم يتشبثون بمختلف المبررات.

تُسمى مثل هذه الحالة في العقائد «كفراً»، واعظم الكفر يكون حينما يعلم المرء ويفهم ان الله موجود ولكنه ينكره لأنه لا يريد الالتزام بلوازمه. ان الكفر في اللغة يعني السَّتر، وقد قيل لـ«الكافر» كافراً لانه يستر الحقيقة والسبب في ذلك انه يرى انه اذا ما اراد الايمان بالله فعليه تقبُّل بعض القيود والعمل بالتعليمات وعبادة الله... الخ، وللقرآن الكريم تعبير رائع حول انكار المعاد والكفر به: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ).[1]

انه يصرّح: هل ان الذين ينكرون المعاد يملكون دليلاً حقيقياً على ان الله غير قادر على ان يحييهم مرة اخرى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ). فنحن قادرون ايضاً

١. القيامة: ٣ ـ ٥.

على ان نُعيد بنان اصابعه: (بَلىٰ قٰادِرِينَ عَلىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنٰانَهُ). ان الانسان ليعلم اننا قادرون على هذا الفعل. اذن ما السبب في ان يُصر على انكار المعاد؟ سبب الانكار هو: (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسٰانُ لِيَفْجُرَ أَمٰامَهُ)، فالانسان يريد ان يكون المجال مفتوحاً أمامه وان لا يكون هنالك من حدّ أو قيد لاشباع نزواته وان يفعل ما يحلو له! والانسان ينشد التحلل والحرية المطلقة وهذا ما لا ينسجم مع الايمان بالمعاد. فاذا ما كان هنالك حساب وعقاب لم تعد لديهِ القدرة على فعل شيء وعليه ان يتخلى عن الكثير من رغبات نفسه وطموحاتها، وحيث ان الامر كذلك فهو ينكر اصل ذلك.

خلاصة القول هي: الايمان هو ان الانسان وبعد علمه يحاول العمل بلوازم ذلك العلم ويكون لديه الاستعداد للقبول بلوازمه. وبعبارة اخرى ان للايمان عنصرين هما: العلم والالتزام العملي بلوازم ذلك العلم، على ان يلتزم ويعمل ببعض لوازمه على نحو الموجبة الجزئية على أقل تقدير. اما اذا أزمع على ان لا يلتزم بأيٍّ من لوازمه بعد علمه فان هذه الحالة تسمى كفراً وجحوداً: (وَجَحَدُوا بِهٰا وَاسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ).[١]

---

١. النمل: ١٤.

الدرس الثامن عشر

متعلّق الايمان ومراتبه

لمحة عن الدروس السابقة

عرفنا لحد الآن واستناداً لما يستفاد من القرآن والاحاديث ان اهم عامل في انحطاط الانسان هو الغفلة، وفي المقابل ان ما يأخذ بيده نحو الكمال والسعادة هو التوجه، واشرنا انه ليس المراد الغفلة عن أي شيء أو التوجه نحو اي شيء، بل المراد الغفلة والتوجه ازاء اكثر المسائل الحياتية ضرورة بالنسبة لأي انسان، أي المبدأ والمعاد والطريق ما بينهما. واهم مسألة يتعين على الانسان الاهتمام بها والمبادرة للتحقيق حولها هي: هل ان عالم الوجود ومخلوقات الكون ومن بينها الانسان قائمة بذاتها أم بغيرها؟ هل ان لكلٍّ من مخلوقات الكون وجوداً مستقلاً بحيث يستغني عن الموجد؟ اذا ما اتضحت هذه المسألة المهمة بالنسبة للانسان ستتبعها سائر المسائل الضرورية والجدير بالاهتمام تلقائياً وهي بأسرها تعود الى هذا الاصل. فلقد قال الأعلام ومن بينهم الاستاذ المرحوم العلامة الطباطبائي ان جميع المعارف الاسلامية تعود الى التوحيد، وهذه حقيقة لو تأمل الانسان فيها سيصدقها.

اذا ما قبلنا بان هذا العالم ليس مستقلاً وقائماً بذاته فمن الطبيعي ان نقبل بانه قائم بذات أخرى وتلك الذات غنية بالذات ومستقلة ولا مجال للنقص فيها أبداً وتمتلك كافة الكمالات بما لا نهاية لها. وبعد معرفة هذه الذات يصل الدور الى معرفة صفاتها، أي ان معرفة الذات ومسألة التوحيد توصلنا الى معرفة الصفات، وان احدى الصفات التي نتوصل اليها خلال مرحلة معرفة الصفات هي صفة الحكمة.

ان حكمة الله تقضي بان هذا العالم لم يخلق سدىً وعبثاً بل له غاية، وعلى هذا الاساس كان وراء خلق الانسان هدف، ومن الطبيعي يبدو من الضروري على الانسان ان يتعرف على هذا الهدف وطريق الوصول اليه، وهو يرى هنا عدم كفاية التعويل على العقل والمدركات العقلية لوحدها لهذا الغرض، وثمة حاجة بان يتولى الله سبحانه وتعالى ارشاد الانسان في هذا المجال عن طريق الوحي وارسال الرسل، وهكذا نصل من بحث التوحيد الى بحث النبوة. ومن ناحية اخرى ان العدل الذي هو من صفات الله يقتضي بان يكون هنالك فارق بين الذين يأخذون بتوجيهات رسل الله هؤلاء ويسلكون جادة الصواب وبين اولئك الذين يسلكون طريق الكفر والجحود والطغيان، فيثاب المؤمنون ويتلقون رحمة الله فيما ينال الكافرون جزاء عصيانهم وجحودهم. وبهذا يستنتج اصل المعاد عن اصل التوحيد ايضاً.

بناءً على هذا ان قول الأعلام بان كافة المسائل تعود الى التوحيد قول مدروس ودقيق. وبذلك يمكن اعتبار التوحيد الجوهرَ الحقيقي والاصلي لحياة النفس وعنفوانها

وبذلك يمكن القول ان حقيقة الدين وحقيقة الاسلام ليست سوى معرفة الله وعبوديته وهي تختزل بالكلمة الطيبة «لا اله الّا الله» والاله تعني المعبود الذي يستحق العبادة، فاذا ما قبلنا بان ليس ثمة أحد وموجود يستحق العبادة سوى «الله» اذ ذاك يثار هذا التساؤل: كيف نعبده؟

ان تعاليم الاسلام تمثل في الواقع إجابة على هذا التساؤل، فهذه التعاليم بأسرها ليست سوى رسم لطريق العبودية وثمرة جميع هذه التعاليم هي ان نسلِّم مخلصين لذلك الأوحد الذي يستحق العبادة: الاسلام هو التسليم.[1] فجميع الجهود تأتي من اجل ان يبلغ الانسان تلك النقطة وهي: (أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ).[2] فيجب على الانسان ان يصل الى حيث يقطع توجّهه عن كل ما سوى الله ويعلّق اهتمامه باكمله بذلك الموجود الذي خلق كل شيء، وان الوجود قائم به ويخضع لارادته واختياره.

١. بحار الانوار: ج ٦٨، الباب ٢٥، الرواية ١.	٢. آل عمران: ٢٠.

من هنا جرى التأكيد كثيراً في القرآن الكريم على عنصري الايمان والعمل الصالح، فهما عاملان يجسدان ذلك التسليم في كيان الانسان بشكل عملي. ولغرض ان نبلغ الايمان والعمل الصالح علينا في البداية ان نوضح لانفسنا مفهومهما على وجه الدّقة، من هنا كنا قد طرحنا في الدرس السابق اموراً حول حقيقة الايمان وها نحن نتابعها الآن.

متعلَّق الايمان في القراءة الماركسية والجديدة

من الاسئلة المهمة التي يجدر طرحها فيما يخص الايمان هي مسألة متعلق الايمان: بأيِّ شيء علينا ان نؤمن؟ وهذا السؤال مهمٌ لمعرفة اي شيء يمكن افتراضه لمتعلق الايمان، فالمشركون يؤمنون بآلهتهم، والطبيعيون القائلون بأصالة المادة يؤمنون بماديتهم ونظرياتهم المادية. فعندما يقول القرآن: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ).[1] فهل المراد مطلق الايمان بكل شيء، أم المراد ايمان بشيء معين؟ ربما يكون الجواب على التساؤل واضحاً بالنسبة الينا نحن المطلعين على المعارف الاسلامية والمفاهيم القرآنية، ولكن بما ان الريبة والشكوك تثار هذه الأيام حتى بخصوص اكثر مسائل الدين ضرورة، فمن المناسب ان يكون لنا بحث في هذا المجال.

قال أناسٌ ان المراد من الايمان هو الايمان بالهدف ولا فرق أياً كان الهدف! وهذا الكلام كان يثار قبل انتصار الثورة خصوصاً ومن قبل أناسٍ كانوا ذوي ميول ماركسية ومادية. وكان هذا التيار قد راج كثيراً وقتذاك، فكانت ذروة الثقافة ان تكون للمرء ميول ماركسية ومادية! حتى ان بعض المتلبسين بزي العلماء قد وقعوا تحت تأثير هذا التيار وبلغ بهم الأمر انهم اخذوا يفسرون القرآن على اساس الافكار المادية ونظريات ماركس! حتى ان بعض هذه التفاسير طُبع على شكل كتاب وقتذاك.

---

١. النساء: ٥٧.

وكان بعض زعماء التنظيمات الماركسية أناساً درسوا في الحوزة العلمية لسنوات عديدة، كما هو الحال بالنسبة لزعيم زمرة فرقان التي اغتالت الشهيد المطهري. ويومها لم يكن مصطلح «القراءات» قد طُرح بعدُ وكانوا يستخدمون بدلاً عنه مصطلح «الاستنتاجات الخاصة» فهؤلاء ـ كما يقولون ـ يقدمون استنباطات خاصة وحديثة عن القرآن، فكان من بين هذه الاستنباطات الخاصة انهم كانوا يقولون ان المراد من «آمنوا» في القرآن هو الايمان بالهدف، وهدفنا عبارة عن «اقامة مجتمع توحيدي على الطراز الحديث» وهو ذاك المجتمع اللاطبقي الموجود في الادبيات الماركسية، غاية الأمر انهم كانوا يستخدمون هذا المصطلح لتكون لكلامهم صبغة وطابع اسلامي.

لقد كان من شعارات ماركس ونظرياته ان تذاب الطبقات الاجتماعية ولا تكون هنالك سوى طبقة واحدة. من هنا فان مراد المثقفين في الداخل من «التوحيدي» هو «أُحادية الطبقة» والمجتمع الأُحادي الطبقة. وخلاصة القول انهم كانوا يصورون التوحيد في الاسلام بالاتحاد الطبقي الذي صرّح به ماركس وانجلس، ويقولون ان الايمان هو الايمان بالهدف، أيّ هدف؟ اقامة المجتمع التوحيدي، وماذا يعني التوحيد؟ انه يعني اللاطبقية وتكون طبقة واحدة وازالة الفوارق الطبقية، أي ذاك الذي تسعى اليه الماركسية.

وكان تفسيرهم لـ«العمل الصالح» انه يعني الكفاح لاقامة مجتمع توحيدي حديث، وعليه فان (آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يعني آمِنوا بالهدف الذي هو اقامة المجتمع التوحيدي الحديث ومن ثم كافحوا من اجل اقامة مثل هذا المجتمع.

واليوم يطرح أناس آخرون نظير هذا الكلام بقوالب أخرى وجاؤوا بمصطلح «القراءات الجديدة» بدلاً عن «الاستنباطات الخاصة» التي كان يقول بها الماركسيون، قائلين اننا نمتلك قراءة جديدة عن القرآن، والقراءات الجديدة ـ بالطبع ـ يعود تاريخها الى عهد النبي ﷺ لكنها يومذاك كانت تحمل اسم «التفسير بالرأي»، والقراءة الجديدة

هي التي أن آمنوا ـ مثلاً ـ تعني الايمان بكرامة الانسان، الايمان بحاكمية الانسان على مصيره، والايمان بحرية الانسان، والعمل الصالح يعني العمل من اجل ضمان الحريات الفردية والشخصية.

وبهذا فان الذي يسميه القرآن عبادة الهوى وعبادة الوثن والشرك، يُسمى في القراءة الجديدة ايماناً وعملاً صالحاً. يقول القران الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾.[1] فالقرآن يصرِّح ان السعي وراء هوى النفس وعبادة الذات ضلالٌ، فيما تقول القراءة الجديدة للدين والقرآن يجب ان ننظر ماذا يريد الانسان، فاي شيء أراد يجب احترام ارادته وتوفيره له!

متعلَّق الايمان في آيات القرآن

على أية حال اننا نرى البحث عن متعلَّق الايمان أمراً لازماً واذا لم تتضح هذه المسألة أمامنا وضوحاً كاملاً فليس بعيداً ان نتورط نحن ايضاً بهذه الافكار الباطلة والضالة يوماً ما.

لإيضاح متعلق الايمان علينا ان نرجع لآيات القرآن نفسها ونرى الايمان بأيّ شيء طرحت. ومن خلال استقراء القرآن نجد ان متعلقات عديدة ذكرت للايمان، من قبيل الآية التي تقول: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلاٰئِكَةِ وَالْكِتٰابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.[2] فالوارد في هذه الآية هو الايمان بالله ويوم القيامة والملائكة والكتاب السماوي والانبياء.

ولكن بالرغم من ذكر متعلقات متعددة فمن الممكن اعادتها جميعاً الى متعلَّق واحد والقول ان متعلَّق الايمان هو «الله بجميع صفاته ولوازمه»، وهذا على شاكلة ذلك الأمر

---

١. الجاثية: ٢٣. ٢. البقرة: ١٧٧.

الذي اشرنا اليه في مستهل الحديث في هذا الدرس، المرتكز على ان جميع المعارف الاسلامية تعود الى التوحيد وعنه تتفرع سائر المعارف، وهنا تعود روح جميع انواع الايمان الى الايمان بالله، وان الايمان بسائر الامور التي تقدم ذكرها هو في الواقع من لوازم وآثار وإفرازات الايمان بالله. فاذا ما آمنا بالله فيجب ان نؤمن بصفاته ايضاً، ومن صفات الله الحكمة، وقد اوضحنا ان مقتضى حكمة الله بعث الانبياء.

بناءً على هذا ان الايمان بالله يثمر الايمان بالانبياء، والايمان بالانبياء يورث الايمان بالكتب السماوية التي يأتي بها الانبياء من عند الله، كما ان لازمة الايمان بالانبياء القبول بالملائكة والايمان بوجودهم، لانهم هم الذين ينزلون بالوحي الالهي على الانبياء، كما ان من لوازم الايمان بالله والانبياء والكتب السماوية الايمان بالمعاد ويوم القيامة.

على أية حال، ان كل منصفٍ يدرس القرآن يجد بكل وضوح ان متعلَّق الايمان في نظر القرآن هو «الله» وصفاته واللوازم المرتبطة به من قبيل الانبياء والملائكة والآخرة والكتب السماوية... الخ وان القرآن وبما يستدعيه المقام قد يذكر اثنين أو ثلاثة بل وحتى خمسة أو ستة متعلقات للايمان وبشكل تفصيلي، وهنا نذكر موارد على سبيل المثال:

ـ (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ).[١]

ـ (آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ).[٢]

ـ (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ).[٣]

ـ (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ).[٤]

---

١. البقرة: ٢٨٥.
٢. المائدة: ٦٩.
٣. الاعراف: ١٥٨.
٤. الانعام: ٥٤.

ـ (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا).[١]

ـ (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ).[٢]

الفرق بين الايمان والعلم

اشرنا في الدرس السابق الى ان الايمان أمر يخضع الى اختيار الانسان الى حدٍّ بعيد، من هنا فهو يختلف عن مطلق العلم والمعرفة، وقد اوضحنا ان لازمة الايمان وجود نوع من العلم ولكن ليس كل من عرف الله وثبت له وجوده، يؤمن بالله ايضاً. واستندنا في ذلك بآيات وردت في القرآن بخصوص فرعون وملائه: (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ). وقوله تعالى في فرعون: (ما أَنْزَلَ هٰؤُلاءِ إِلاّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ).

من هنا يلزم في الايمان بالاضافة الى العلم والمعرفة، أمرٌ اختياري وهو ان يكون ذا ارادة قلبية بتقبُّل ما عَلِمَ به، أي أن تتبلور في نفسه حالة من القبول والاقتناع به، وبعبارة اخرى ان يُزمع بعد العلم بان يعمل بلوازمه ويقرر الالتزام العملي بها. فمن يعلم بشيء دون ان تكون لديه النية للعمل بلوازمه فهذه الحالة هي الكفر، بل هي اعلى مراتب الكفر وتسمى الجحود، وذاك قوله تعالى: (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ)، فتارة يكون انكار الكافر عن جهل فيكون معذوراً في بعض اقسامه «الجهل القصوري» وذاك ما يسمى «المستضعف الفكري» فيما لا يُعذر في بعضه الآخر «الجهل التقصيري» وتارة يكفر المرء وينكر بالرغم من علمه وهذا اعلى مراتب الكفر.

بناءً على هذا ان مجرد علم الانسان ـ مثلاً ـ بان الله موجود أو اتضحت أمامه حقانية وصدق نبي الاسلامﷺ ليس كافياً لإسعاده، بل بالاضافة الى العلم عليه ان يؤمن بقلبه ايضاً وينوي العمل بلوازم هذا العلم، ولهذا السبب يتعذر الايمان دون

---

١. التغابن: ٨.

٢. التغابن: ١١.

عمل، فاذا ما علم المرء لكن لا نية لديه للعمل فهو كما قلنا كافرٌ، وحتى اذا ازمع العمل ببعض دون العمل والايمان بالبعض الآخر فذلك كفر ايضاً، وثمة آيتان في القرآن بخصوص التبعيض بالايمان والقبول ببعض الاحكام الالهية والتنكر والكفر ببعضها الآخر، فيقول في واحدة منهما: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا).[١] وفي الآية الاخرى يقول عن التبعيض في الايمان والقبول ببعض الحقيقة وانكار بعضها الآخر: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ أَلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ).[٢]

يصرح القرآن بان مَنْ بالرغم من ايمانه ببعض مضمون الوحي والرسالة ينكر البعض الآخر من ذلك المضمون هو الكافر حقّاً، فاذا كان معيار الايمان بذلك البعض انه نازل من عند الله فان هذا المعيار متوفر في البعض الآخر. اذن لماذا ينكره؟! واذا كان الملاك في قبول ذلك البعض موافقته لهواه فهذا في الحقيقة عبادة للنفس وليست عبادة لله! وهذا الانسان يسعى لارضاء نفسه وليس طاعة الله وعبادته. والذي يؤمن في باطنه بان بعض تعاليم الاسلام واحكامه ليست صحيحة والقرآن شأنه كسائر الكتب خاضع للانتقاد! فهو كافر في الحقيقة، ولعلنا قد ذكّرنا في مناسبة ما سابقاً بأن هذا الكفر «كفر باطني» يجتمع مع «الاسلام الظاهري» والذي يستبطن الكفر هو من اهل جهنم والنيران البتة وإن عومل في الدنيا معاملةَ المسلم حسب الظاهر، لان التلفظ بالشهادتين هو الملاك في ترتب الاحكام الظاهرية للاسلام، فاذا ما تلفظ شخص بالشهادتين واعتنق الاسلام ظاهرياً لن يترتب خلل في الاحكام الظاهرية وإن لم يؤمن في باطنه كالمنافقين في عهد النبيﷺ حيث كانﷺ يعلم بانهم لم يؤمنوا

١. النساء: ١٥٠ ـ ١٥١.
٢. البقرة: ٨٥.

بالاسلام في دواخلهم لكنه كان يتعامل معهم ظاهرياً كسائر المسلمين. على أية حال ينبغي ان لا يحصل خلط بين الكفر الظاهري الذي يجري بحثه في الرسائل العملية ووضع الاحكام الخاصة بالكافر وبين الكفر الباطني الذي اشرنا اليه هنا.

مراتب الايمان

المسألة الاخرى التي حريٌ بنا العناية بها فيما يخص الايمان هي البحث في مراتب الايمان، فللايمان مراتب ودرجات متعددة وليس أن كل الذين يُسمَّون مؤمنين هم على حدٍّ سواء في درجة الايمان. واصل هذه القضيّة (ان للايمان مراتب) يمكن استشفافه من آيات القرآن، فثمة آيات في القرآن تدل على ان الايمان قابل للزيادة والاشتداد، وهذا ما يفيد بان ليس للايمان درجة واحدة. فلنقرأ معاً بعض هذه الآيات:

ـ (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً).[1]

ـ (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدٰادُوا إِيمٰاناً مَعَ إِيمٰانِهِمْ).[2]

ـ (الَّذِينَ قٰالَ لَهُمُ النّٰاسُ إِنَّ النّٰاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزٰادَهُمْ إِيمٰاناً).[3]

ـ (وَلَمّٰا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ إِيمٰاناً وَتَسْلِيماً).[4]

استناداً لمثل هذه الآيات ان اصل القول بان الايمان على درجات وهو خاضع للزيادة والنقصان أمرٌ يقيني ولا مجال للشك فيه، ولكن ما هي كيفية تفصيل هذه المسألة وكم هي مراتب الايمان؟ هذا ما اشارت اليه بعض الروايات. فثمة رواية عن

---

١. الانفال: ٢.
٢. الفتح: ٤.
٣. آل عمران: ١٧٣.
٤. الاحزاب: ٢٢.

الامام الصادق عليه السلام يقول فيها ان الايمان عشر درجات وان سلمان في العاشرة وابوذر في التاسعة والمقداد في الثامنة.[١] أو ما ورد في رواية اخرى: **إن الله عزّ وجلّ وضع الايمان على سبعة اسهم على البرِّ والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم ثم قسَّم ذلك بين الناس... وقسَّم لبعض الناس السّهم ولبعض السَّهمين ولبعض الثلاثة... ثم قال لا تحملوا على صاحب السَّهم سهمين ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهظوهم، ثم قال كذلك حتى انتهى الى السبعة.**[٢]

ومن الواضح أن مثل هذه الروايات في مقام بيان الاقسام والمراتب العامة للايمان وليست تتعرض للمراتب والتقسيمات التفصيلية له، فالايمان من قبيل الكميّات المتصلة التي يمكن تقسيمها الى ما لا نهاية، فيمكن تقسيم جزء من خط الى اجزاء اصغر الى ما لا نهاية.

من هنا ليس مبالغة اذا ما قيل ان مراتب الايمان من الكثرة بحيث تميل الى ما لا نهاية، فتلك الرواية ـ مثلاً ـ التي تقول ان الايمان عشر درجات يمكن افتراض الكثير من المراتب الجزئية ما بين كلٍّ من هذه المراتب العشر المذكورة فيها.

المعيار في تقييم مرتبة الايمان

من الممكن الرجوع لمستوىٰ الالتزام العملي للافراد لغرض تقييم مراتب الايمان، فلازمة اعلىٰ مراتب الايمان أن يلتزم صاحبها بجميع المستلزمات العملية مائة بالمائة دون نقيصة حتى يصل الأمر الىٰ المراتب الدنيا حيث ينخفض هذا الالتزام العملي، وبالطبع لو عزم شخص منذ البداية على ان يؤمن ببعض المستلزمات ولا يؤمن ببعض فهو كافر وكفره باطني بالتوضيح الذي قدمناه. ولغرض الدخول في ميدان

١. راجع: *بحار الانوار*: ج ٦٩، الباب ٣٢، الرواية ٩.
٢. نفس المصدر: الرواية ١.

الايمان الباطني من حيث العزيمة ولو بادنىٰ مراتبها فلابد أن يعزم علىٰ ان يعمل بجميع اللوازم ولو انه ربما يعجز عن الايفاء بتعهده علىٰ الصعيد العملي، وان مراتب الايمان تنبثق في الواقع عن مستوىٰ الالتزام هذا وليس عن مستوىٰ التأسيس، فيجب ان يكون التأسيس تاماً مائة بالمائة وإلا فانه يصبح (نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ)[1] الذي قلنا انه كفر حقيقي وباطني، والعوام من الناس علىٰ هذه الشاكلة فبالرغم من انهم يؤسسون علىٰ ان يلتزموا مائة بالمائة لكنهم يتهاونون في العمل ويرتكبون المعصية، ومثل هذا الانسان مؤمن مذنب ويختلف عن الكافر الباطني، فالكافر الباطني يعاني اشكالاً في اصل التأسيس، أما المؤمن المذنب فاشكاله في مستوىٰ الالتزام بالتأسيس، والكافر الباطني يفرّق ويُبعّض في التأسيس أما المؤمن المذنب فبالرغم من تأسيسه علىٰ ان يلتزم مائة بالمائة لكنه ونتيجة للغفلة ووسوسة النفس والشيطان يعجز عن مواصلة التزامه بهذا التأسيس.

ان الذين يبقون ملتزمين مائة بالمائة وفي جميع الاحوال بما أسسوه ولا يتجاوزونه قيد أنملة يُسمّون «معصومين» وفي منظار العقائد والتعاليم الاسلامية ان الذين ضُمنت عصمتهم ليسوا اكثر من اربعة عشر في هذه الأُمّة، ويُعبَّر عنهم بـ«المعصومين الاربعة عشر»، وربما يكون هنالك آخرون ممن يبقون علىٰ التزامهم مائة بالمائة وفي جميع الاحوال لكنهم لا يسمّون معصومين اصطلاحياً وليسوا ممن ضُمنت عصمتهم، من هنا فاننا نعتقد بان أناساً مثل السيدة زينب عليها السلام أو علي الاكبر وأبا الفضل العباس عليهما السلام أو السيدة فاطمة بنت الامام موسىٰ بن جعفر عليهما السلام لم يكونوا يرتكبون الذنب. لكن اختلافهم عن المعصومين الاربعة عشر في ان عصمة الاربعة عشر قد ضُمنت، اما عصمة اولئك فليست كذلك. وعليه اذا ما قلنا ان المعصومين ليسوا سوىٰ اربعة عشر فليس معنىٰ ذلك اننا نعتقد بان الآخرين جميعاً ممن سواهم يرتكبون الذنب، بل

١.النساء: ١٥٠.

بالمعنىٰ الذي اوضحناه، والايمان بعصمة اولئك الاربعة عشر شرط التشيع، ومن لا يمتلك مثل هذا الايمان فان خللاً يعتري تشيعه، لكن الايمان بعصمة الآخرين ليس شرطاً للتشيع.

ولكن كيف يتسنىٰ لغير المعصومين الاربعة عشر ان لا يرتكبوا الذنب فذلك يحتاج الى بحث علمي وفلسفي، ولغرض بيان هذا الأمر ربما يكون لإيراد بعض القصص والحكايات تأثير يفوق بكثير تأثير الاستدلالات المنطقية والفلسفية. من هنا من المناسب ان نورد هنا قصة أو قصتين جرىٰ نقلهما عن طرق موثقة جداً.

نماذج عينية من المراتب العليا للايمان

ان المرحوم السيد المرتضىٰ والمرحوم السيد الرضي من كبار ومشاهير علماء الشيعة، وهما شقيقان كانا من تلاميذ الشيخ المفيد، وقد روي فيما يخص حضورهما درس الشيخ والتتلمذ على يديه ما يلي: ان الشيخ المفيد رأىٰ في المنام ان الصديقة الكبرىٰ فاطمة الزهراء عليها السلام قد امسكت بيدي الحسن والحسين عليهما السلام وجاءت بهما الى الشيخ المفيد وقالت: يا شيخ علِّمهما الفقه. فذُهل الشيخ لهذه الرؤيا. وفي الصباح جاءت امرأة عند الشيخ وهي تمسك بيد غلامين وقالت: يا شيخ علِّمهما الفقه. وهكذا فُسِّرت رؤيا الشيخ. فكان الغلامان الذين جاءت بهما المرأة الىٰ الشيخ السيد المرتضىٰ والسيد الرضي.

الغرض انه نُقل في احوال هذين العظيمين انهما كانا ذات يوم وحدهما في مكان وارادا الصلاة، وفي فقهنا من المستحب في صلاة الجماعة ان يؤم من هو اتقىٰ الآخرين، والسيد المرتضىٰ والسيد الرضي عالمان ويعرفان هذا الحكم، من هنا ولغرض ان يلتزم السيد المرتضىٰ بهذا الاستحباب اراد أن يُفهم أخاه السيد الرضي بانه اتقىٰ منه وعليه الاقتداء به، ولكن بما انه لم يكن يريد الادلاء بذلك بصراحة فالتفت الى السيد الرضي

وقال له: لا بأس بأن يؤم الجماعة من لم يرتكب ذنباً! وهكذا أراد أن يُفهم أخاه انه لم يرتكب ذنباً الى الآن، فاجابه السيد الرضي: لا بأس أن يؤم الجماعة منا مَنْ لم يهم بالذنب! وبقوله هذا اراد أن يُفهم أخاه: انني لم أهمّ بذنب الىٰ الآن!

وقصة اخرىٰ سمعتها أنا شخصياً من سماحة آية الله بهجت ـ الذي افتخر بتقبيل يديه ومحبتي له ـ اذ قال: خلال الفترة التي كنا ندرس في النجف كنتُ اعرف رجلاً من الاسرة القاجارية وكان انساناً ورعاً، وكان يشغل منصب القنصل الايراني في العراق ومن ثم أقام هناك وجاور مرقد امير المؤمنين عليه السلام في النجف. يقول آية الله بهجت: كان هذا الرجل طويل القامة معتدل البنية وكان يتمتع بوقار مدهش اثناء المشي لكنه كان يتميز بخضوع باطني وكأنه يمتلك رأساً ورقبة اخرىٰ لانحنائهما نحو الارض! الىٰ ان سمعتُ يوماً انه واثناء احتضاره قال بمحضر اثنين من المراجع وعظماء الحوزة ـ احدهما المرحوم آية الله الخوئي والآخر يحتمل ان يكون المرحوم آية الله الميلاني ـ: «الهي انك تعلم انني ومنذ ان بلغت سنَّ التكليف وحتىٰ الآن لم ارتكب ذنباً عامداً عالماً، لكنني اعترف بانني اقف أمامك خالي اليدين ليس لدي ما أُقدمه! فارحمني يا الهي» يقول آية الله بهجت «حفظه الله»: عندما سمعنا هذه القصة وجدنا ان ذلك يتناسب مع الوضع المعنوي الذي كنا نشاهده عليه.

علىٰ أية حال من الممكن من الناحية العقلية والفلسفية ان يصل انسان عادي الى حيث يلتزم بشكل تام بلوازم ايمانه في جميع الاحوال ولا يرتكب الذنب أبداً. لكن العوام من الناس ضعاف الايمان ويعيشون حالة من التقلب الدائم مدىٰ حياتهم فتارة مطيعون واخرىٰ عاصون ومن هنا تنبثق مراتب الايمان فهي رهن بمقدار ما يرتكب الانسان من الذنب وينتهك ذلك الالتزام العملي بايمانه القلبي. علينا ان نسعىٰ مستعينين بالله سبحانه وتعالىٰ ان نزداد ابتعاداً يوماً بعد يوم عن المعصية ومن خلال ذلك نضاعف درجة ايماننا. في الدرس القادم سنتحدث عن طريق زيادة الايمان وتقويته ان شاء الله.



الدرس التاسع عشر

طرق تعزيز الايمان «١»

الايمان الظاهري والكفر الباطني

قلنا في الدروس السابقة ان اول مرحلة في طريق تـزكية النـفس وبـلوغ التكـامل الانساني هي خروج النفس من الغفلة وتبديل حالة الغفلة الى حالة التوجه. وبـعد هذه المرحلة فان اول عمل اختياري يجب ان يقوم به الانسان كسب الايمان، وقلنا في توضيح مفهوم الايمان ان الايمان ليس أمراً جبرياً وفيه عنصر اختياري واحد علىٰ الأقل وقد ذكرنا اموراً حول هذا العنصر الاختياري بما وسعنا.

ونوّهنا كذلك الىٰ ان الايمان ليس على درجة واحدة، شأنه في ذلك شأن الذكـر والتوجه التي لها مراتبها ايضاً، بل هو ذو مراتب عديدة، واستندنا في ذلك الىٰ آيات من القرآن الكريم يستفاد منها ان الايمان خاضع للزيادة والنقصان من قبيل هذه الآية التي تقول: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً).[1] أو الآية الكريمة التي تقول: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُـلُوبِ الْـمُؤْمِنِينَ لِيَزْدٰادُوا إِيمٰاناً مَعَ إِيمٰانِهِمْ).[2]

قلنا ان أول مراتب الايمان للخروج من الكفر البـاطني والحـصول عـلى قـابلية الدخول في دار كرامة الله أو بتعبير آخر الخلاص من جهنم والحـصول عـلىٰ الاذن بدخول الجنّة هو أن نؤمن بالله وجميع ما انزل الله، واوضحنا في هذٰا الصدد ان الايمان بجميع ما نزل الله أمرٌ واجب، أي ان نؤمن بجميع الانبياء فيما يخص الانبياء وبجميع

---

١. الانفال: ٢. ٢. الفتح: ٤.

احكام الدين فيما يخص الاسلام، فلا يمكن ادعاء الايمان بأن يقول أحد انني أُؤمن بنبي الاسلامﷺ فقط ولستُ أقبل بنبوة سائر الانبياء وبما جاؤوا به من عند الله! كما لا يمكن الادعاء بكوننا مؤمنين ومسلمين بينما نحن نؤمن ببعض احكام الاسلام ومعارفه ونأبىٰ الايمان ببعضها الآخر.

حتىٰ لو آمنا بـ«٩٩٩» حكمٍ من ألف حكم ـ مثلاً ـ أنزلها الله تبارك وتعالىٰ وانكرنا حكماً واحداً فقط فلا جدوىٰ من ذلك ولمّا نرد اول مراتب الايمان وادناها بعدُ ومازلنا علىٰ الكفر! ولقد اشرنا الىٰ قول القرآن الكريم في هذا المجال: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا).[١] ويقول كذلك في موضع آخر حول الايمان ببعض والكفر ببعض: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتٰابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمٰا جَزٰاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلاّٰ خِزْيٌ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَيَوْمَ الْقِيٰامَةِ يُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ الْعَذٰابِ).[٢]

بناءً على هذا، ان اول مراتب الإيمان هي ان نؤمن بدون ادنى نقص وبدون أي قيد أو شرط بجميع مضامين الوحي الالهي الذي نزل على جميع الانبياء وبكل مضامين الشريعة الاسلامية وما نزل على النبي الاكرمﷺ. فحتى لو كان في صميم قلوبنا حالة من الاعتراض أو الانكار ازاء حكم واحد من الاحكام الإلهية ونحن على يقين بان الله قد أمر به، فهذا كافٍ لكفرنا. وقد اوضحنا ان هذا الكفر الباطني يمكن ان يجتمع مع الاسلام الظاهري، أي وإن كان ـ المرء ـ يعامل ظاهرياً في الدنيا معاملة المسلم وتشمله احكام من قبيل طهارة البدن وحق الميراث و... الخ لكنه سيكون في الآخرة أهل النار و العذاب.

قلنا ايضاً عن مراتب الايمان بانها كثيرة جداً بحيث انها تميل الى ما لا نهاية ولا

١. النساء: ١٥٠ ـ ١٥١.
٢. البقرة: ٨٥.

حصر لها، فنحن لا نعلم مقدار ما يفصل ايماننا عن ايمان اولياء الله، ناهيك عن ايمان انسان مثل امير المؤمنين عليه السلام الذي يقول: «لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً».[١] ونحن حتى لو اردنا المقارنة بين ايماننا وبين ايمان اولياء الله من قبيل الامام الخميني رحمه الله أو عظماء من امثاله يكون ايماننا كقطرة ازاء بحر! وهذا بطبيعة الحال من باب التشبيه والتمثيل، والّا فان المسافة الحقيقية ليست ممكنة الادراك بالنسبة لنا، وكذا لو اردنا من خلال تشبيه متواضع جداً أن نصور المسافة بين ايمان اناسٍ من قبيل الامام رحمه الله وايمان امير المؤمنين وائمة الهدى عليهم السلام فحقيقٌ علينا القول انه قطرة بل أقل في مقابل محيط.

ويتجلى تأثير هذا التفاوت بالايمان في طاعة الله وعبادته بدءاً من ترك المعصية واداء الواجبات وترك المحرمات ومروراً بالعمل بالمستحبات وترك المكروهات وانتهاءً بتجنب الشبهات ومدى استعدادنا للعمل في سبيل الله ودينه طواعية وعن رغبة واندفاع.

من الواضح لنا جميعاً على نحو الاجمال ان تسلُّق مراتب الايمان لا يتأتى بمجرد الدراسة والتعلُّم، فلقد شاهدنا اثناء سنوات الدفاع المقدس أُناساً لم يكونوا يتمتعون بتحصيل دراسي ظاهرياً لكنهم بادروا صابرين متطوعين وباندفاع تامّ في طاعة الله والذود عن دينه، ولقد شاهدنا في تلك السنوات مشاهد عن هؤلاء لم تكن سهلة التصور حتى بالنسبة لنا، وكنا نشاهد اموراً تخص الشهداء وآبائهم وامهاتهم مذهلة في الحقيقة بالنسبة لنا. فما اكثر الأباء والامهات الذين شاهدناهم وهم يواجهون استشهاد ابنائهم وهذه الفاجعة الاليمة بصدر رحب وتسليم تامّ أمام الله سبحانه وتعالى. اننا لنغبط هؤلاء حقاً، بل يعترينا الخجل ان نسمّي انفسنا مؤمنين.

مشكلة الاكتفاء بالمراتب الدنيا من الايمان

من مميزات الانسان عن الحيوانات هي ان الانسان لا يعرف حداً لاشباع رغباته

---

١. غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١١٩.

واهوائه، وبعبارة اخرى ان الانسان يطلب ما لا نهاية له. رحم الله قائد الثورة العظيم سماحة الامام واعلى درجاته فلقد كان يضرب هذا المثل احياناً بهذا الخصوص فيقول: ان الانسان يتمنى في البداية أن يمتلك مالاً يوفر به لقمة العيش ويقنع ـ كما في القول المشهور ـ بان يكون على رأسه سقف يحميه ويحفظ كرامته. لكنه اذا ما نال هذا القدر يبدأ قلبه بالتمني رويداً رويداً بان تكون له دار اكبر، وبعد ان يكون قد حصل على هذه الدار يُزمع اقتناء المزيد من وسائل المعيشة والترف، واذا ما استمر على هذه الحالة فانه يتمنى ان يمتلك الكرة الارضية بأسرها واذا ما أُعطي الكرة الارضية تراوده فكرة الاستحواذ على كوكب القمر، ثم يرتفع حتى يبلغ به الأمر بان يفكر بالاستحواذ على كواكب اخرى ان كانت في المجرات! وخلاصة القول ان رغبات الانسان لا تعرف حداً تقف عنده، وهذه صفة تكمن لدى كافة الناس. من هذا المنطلق كان الامامﷺ يستدل بان الانسان واستناداً لذلك طالبُ ما لا نهاية، وبما ان الكمال الذي لا ينفد لا يوجد الّا في الذات الالهية المقدسة اذن الانسان يطلب الله بالفطرة.

بالرغم من ان الانسان طامحٌ الى الـ «لا نهاية» ويطمح بكل كمال بحده الذي لا ينفد لكننا نرى ان الكثير من الناس تتلكأ اقدامهم حينما يصل بهم المطاف الى الله والدين والقرب الى الله والمراتب المعنوية! ورغم اننا نعلم ان مراتب الايمان والدرجات المعنوية والتنعم بنعم الله ورحمته لا حدَّ لها لكننا عادة ما نقنع بالمرتبة الاولى أو المراتب الدنيا منها ولا نسعى لبلوغ مراتبها العليا! كيف لنا ان لا نقنع على صعيد القضايا المادية حتى بالقمر وسائر الكواكب في سائر المجرّات لكننا نكتفي على صعيد المعنويات بمقدار لقمة العيش وما يسد الرمق بل وحتى بادنى من ذلك؟! فنكتفي بان يقدموا لنا اللبن والعسل فقط في الجنة! أو حتى بما هو ادنى حيث يُسمح لنا بان نتجول في الجنة وكفى! بل وحتى ادنى من ذلك ايضاً فنرضى بان لا يدخلونا النار! من

المسلَّم به ان هذا الأمر لا يستند الى فطرتنا، فنحن لا نقنع بحدٍّ في أي شيء فطرياً، ووجود مثل هذه الحالة لدينا على صعيد المسائل المعنوية والتقرب الى الله انما هو ناجم حتماً عن ضعف ومرض وخلل في روحنا، على شاكلة حب الانسان للاكل لاسيما للطعام اللذيذ بشكل طبيعي ولكن قد يحدث ان لا يشتهي أو يرغب في الاكل وإن لم يأكل شيئاً لساعات بسبب المرض، وحتى لو أكل شيئاً فانه يصاب بحالة من التقيؤ، وهذه حالة ليست طبيعية وانما تحدث عندما يصاب جسمنا بمرض أو خلل.

هكذا الأمر في البُعد الروحي فالمفترض بنا ان نطمح بشكل طبيعي لـ«اللانهاية» في جميع ابعاد الكمال، واذا لم نكن كذلك على صعيد الكمالات الروحية والمعنوية فذلك دليل على وجود نوع من المرض في روحنا وعلينا ان نبادر الى علاجه. فلو راجع الكثير منا انفسهم سنجد باننا لو كنا واثقين بان من المؤكد ان ادنى مراتب الجنة ستُمنح لنا ولن ندخل جهنم اذ ذاك يرتاح بالنا ولا نتحرك للحصول على ما يفوق ذلك ونؤثر الانهماك بالدنيا والماديات! وهذه ـ على أية حال ـ واقعية قائمة، وهي كما قلنا دليل خلل في النفس وضعف في ايماننا، ويُفترض بنا ان ندعو الله لأن يزيل عنا هذه الحالة حتى لا نضع حداً في القضايا والكمالات المعنوية كما في القضايا المادية ولا نكتفي بأي حدٍّ أبداً. وبالرغم من وجود الملايين من المراتب التي تفصل بين ايماننا وايمان اولياء الله ولكن علينا ان نخلق في انفسنا هذه الأُمنية بان يطمح الواحد منا بالوصول الى تلك المراتب. فاذا ما أردنا نحنُ فان الله سبحانه وتعالى ليس ببخيل، فهو لم يخلق هذه المراتب لأحد غيرنا نحن عباده، وقد ارسل الانبياء ليدعوننا اليها، وعليه فهو لا يبخل بمنحها للعباد، لكن المشكلة في ضعف هممنا «اذا كان السائلُ كسلان فما تقصير صاحب الدار»؟!

تعزيز العلم طريق لتعزيز الايمان

بعد ان تبين ان الايمان على مراتب، وأن الانسان بمقدوره تسلُّق هذه المراتب بالعمل

على تكامل ايمانه يتبادر سؤال هو: ما هو طريق الارتقاء بالايمان وبلوغ مراتبه العليا؟ وما علينا فعله إن اردنا الارتقاء بايماننا ونسمو دائماً في مراتب القرب والتكامل ونتقرب الى الله ويمن علينا بالثواب واعلى المراتب الاخروية؟

للاجابة على هذا السؤال حريٌ بنا ان نرى ما الذي يؤدي الى تبلور الايمان كي نعمل على تعزيزه اكثر فاكثر، فليس ثمة معلول دون علّة، والايمان بدوره معلول لعوامل. فلا يتحقق شيء لمجرد ان نطمح ونريد ان يتقوى ايماننا، بل ان ذلك يُكلِّفُ جهوداً ولابد من ان نتحمل العناءات لتحقيق هذا الطموح، فكلما ازدادت البضاعة نفاسةً وقيمة كان الوصول اليها اصعب، والايمان اغلى وانفَسُ بضاعة خلقها الله جلّ وعلا.

لابد من معرفة رؤوس خيوط الايمان من اجل تقويته وترتيبها بدءاً من بسيطها وحتى اكثرها تعقيداً، فننطلق من العوامل الاكثر بساطةً، وبعد تعزيزها نتحول تدريجياً الى العوامل الصعبة والاكثر تعقيداً ونعمل على تقويتها.

لقد اشرنا آنفاً ان في الايمان عنصرين على الاقل: احدهما يتعلق بمقولة العلم والمعرفة، والآخر بالارادة والهمة والعزيمة. ومن الطبيعي وفي ضوء المقدمة التي سقناها يتعين ان نعمل على الاهتمام بهذين العنصرين وتقويتهما، وهنا نبحث في طرق تعزيز هذين العنصرين كلاً على حدة.

ما الذي يجب فعله للحصول على علم ومعرفة اكثر بمقدمات الايمان؟ والجواب هو بالامكان القيام بعدة اعمال لإنجاز هذا الأمر، ولكن ثمة عملان ربما يكونان الأهمَّ من سائر الاعمال هما:

أ ـ العمل الاول هو ان نسعى لان نعثر على ادلة ووثائق اكثر وضوحاً واتقاناً على الامور التي نؤمن بها لنتعلمها.

ان اكتساب العلم بمتعلقات الايمان، أي العلم بالله والعلم بالقيامة والعلم بالحسن

والقبيح من آليات وسبل تكامل الايمـان وتعزيزه، ومن هنا فان طلب العلم يحـظى بأهمية فائقة، وقد خُصَّ العلم والعالم وطلب العلم بمكانة واهمية متميزة في المعارف الاسلامية. ومن الضروري التذكير بان قيمة العلم ليست مطلقة فما اكثر العلماء الذين فاق ضررهم لانفسهم وللآخرين ضررَ الجهّال بكثير وذلك بسبب علمهم. من هنا فان طلب العلم وتعزيزه شرطٌ ضروري في هذا المجال وان كان ليس شرطاً كافياً.

بناءً على هذا، الخطوة الاولى ان نعمل لمعرفة متعلقات الايمان بشكل افضل ونثبتها بالنسبة لنا بأدلة متقنة ونعمل على ازالة الشك والشبهة عنها اذا ما اعترتْنا ازاءها.

ب ـ العمل الثاني ان نولي المزيد من التوجه للموارد التي عرفناها ونحيطها بالعناية الدائمة كي لا ننساها. ان الكثيرين يغفلون عن هذا الأمر، فنحن نتصور اننا عـندما نعالج قضية واتضح الجواب عنها أمامنا، فقد انتهى الأمر ولم تعد امامنا أيّ مشكلة ومسؤولية في حين ان الأمر ليس كذلك. فاذا ما قُدِّر للمعرفة ان تكون ذات تأثير في حياتنا وسلوكنا وسيرتنا فلابد ان تكون معرفة حيّة واعية، فالعلم الذي يختزنه كنز معارفنا لكنه ليس في معرض اهتمامنا ويُـلفِت انـتباهَنا في بـعض الاحـيان وعـند الضرورة لن يكون ذا تأثير كبير، ولا فرق يعتد به بين وجود مثل هذا العلم وعدمه، اذ ان العلم ذو التأثير هو الذي يكون في معرض توجُّهنا واهـتمامنا ومـعرفتنا عـلى الدوام.

من الاسرار في التأكيد على تكرار الالفاظ والمفاهيم في العبادات الشرعية هو ان تكون هذه العلوم عرضة لاهتمامنا الفكري دائماً، ففيما يخـص ذكـر «الله اكـبر» ثمـة افتراض بان نتوجه مرة واحدة في حياتنا الى هذا الأمر ونثبت بالدليل والبرهان ان الله اكبر من كل شيء أو ان الله أعلى واعظم من ان يوصف وان تكون حقيقة صفاته ممكنة الادراك، فلن يكون لـ«الله اكبر» تأثير يُذكر على روحنا وشخصيتنا وسلوكنا. والافتراض الآخر هو ان نكرر هذا الذكر عدة مرات بوعي وتوجه بل وحتى في كل

صلاة وكل يوم سيكون حينها لـ«الله اكبر» تأثيرات ملموسة جداً في حياتنا. من هنا بما ان الله سبحانه وتعالى يريد تكامل الانسان فقد اختار الافتراض الثاني، فـنحن نقول في بداية الصلاة «الله اكبر» ومن المستحب تكرارها لدى الإهواء للركوع وكذلك بعد رفع الرأس من السجود وللسجدة الثانية، وفي التسبيحات الاربعة، والخلاصة ان هذا الذكر يتكرر في عدة موارد من الصلاة الواحدة.

ان افكارنا تعيش تغيراً مستمراً، فدائماً تتراكم معلومات على اخرى سبقتها ويتم اختزانها بحيث ان المعلومات السابقة تزول بعد مدة عن واجهة اهتمامنا، ولغرض ان لا تطرأ مثل هذه الحالة ينبغي تكرار المعارف ذات الاولوية باستمرار، وهذه الفلسفة يمكن ادراكها جيداً في تشريع الصلاة المفروضة في كل يوم بل عدة مرات في اليوم، فهذا التكرار يؤدي الى ان تترسخ هذه المعرفة في اذهاننا شيئاً فشيئاً وتكون موضعَ توجه واهتمام على الدوام، والآية الكريمة في اواخر سورة آل عمران تشير الى هـذا الأمر حيث تقول: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِهِمْ).[١]

ان الانسان ـ على أية حال ـ لا يخرج عن حالات ثلاثة فهو إما جالسٌ أو قائم أو نائم. وعليه فان معنى ان يكون الانسان في ذكر قائماً وقاعداً ونائماً هو انه يعيش ذكر الله في جميع الاحوال، أي ان ذكر الله قد اصبح «مَلَكة» بالنسبة اليه ولا يزول عن واجهة اهتمام ذهنه على الاطلاق.

اذن ـ على نحو الإيجاز ـ يلزم عملان جوهريان لتعزيز العنصر الاول في الاول، أي المعرفة: الاول البحث عن ادلة وبراهين واضحة ومتقنة، والثاني: المحافظة على تلك المعرفة حيّة طرية. والعمل الاول يحظى بمزيد الاهمية في الفترات التي يسخن فـيها سوق الشبهات العقائدية، ونحن نواجه مثل هذا الوضع في زماننا الراهن اذ نشهد كل يوم شبهة تثار في جريدة أو كتاب أو درس... الخ حول الله أو القـرآن أو النـبي أو

١.آل عمران: ١٩١.

الاحكام أو معارف القرآن، ولو اكتفينا في مثل هذا الزمان بما تعلّمناه لمرة واحدة من علم واستدلال فمن المحتمل جداً ان نعجز عن المقاومة في مواجهة عواصف الشبهات وتتزعزع قواعد عقائدنا ويعترينا الشك إزاءها، ففي مثل هذه الحالة يضعف الايمان رويداً رويداً وبالتالي يزول نهائياً.

العنصر الارادي في الايمان والسبيل الى تعزيزه

العنصر الثاني الذي قلنا انه ذا دخل في الايمان هو الارادة التي تتعلق بالقلب، أي بعد اتضاح الحقيقة يجب ان تكون لدى الانسان روح الاذعان والتسليم أمامها ويعزم على ان يلتزم بالعمل بلوازمها، فبالرغم من ادراك الانسان للحقيقة في الكثير من الاحيان لكنه يتخذ موقف الانكار ولا يُذعن لها. اذن الطريق الآخر لتقوية الايمان هو ان يعزز المرء في نفسه حالة الاذعان والتسليم للحقيقة.

السؤال هو: لماذا لا نذعن ولا نستسلم للحقيقة احياناً بالرغم من وضوحها أمامنا؟ نقول في الاجابة: لان لنا رغباتٍ اخرى تتزاحم مع القبول بالحقيقة والعمل بلوازمها، وبهذا يتعين تخيّر أحد الأمرين اما بلوغ تلك الرغبات أو الاذعان للحقيقة ولوازمها، وفي كثير من الاوقات يُؤثر الانسان بلوغ تلك الرغبات على القبول بالحقيقة، فاذا ما كانت الرغبات مهمة جداً بالنسبة الينا ونكون قد تعلقنا بها كثيراً فاننا نضحي بالحقيقة ولا نذعن لها إن هي تعارضت معها، وهذا ما فعله آل فرعون في مواجهة دعوة موسى عليه السلام: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا)، فلو كان اولئك يريدون الاستجابة لدعوة موسى عليه السلام كان عليهم ان يتخلوا عن الطغيان والظلم وان يتساووا مع الآخرين ويقتنعوا بما لهم من حقٍّ ولا يتشبثوا باكثر منه.

بناءً على هذا، لكي نجعل القلب يسلِّم للحقيقة يتعين علينا إضعاف الرغبات والاهواء التي تخلق التزاحم في قلوبنا ونعمل بشكل عامّ على إضعاف الحالات التي لا تنسجم مع ذلك الاعتقاد.

اننا نخجل من ارتكاب بعض المعاصي أمام حتى الصبي المميّز وإن لم يكن بالغاً، وعليه يجب ان نخجل من ارتكاب الذنب إن كنا نعلم بان الله عزّ وجلّ حاضرٌ وهو الشاهد والرقيب على اعمالنا في كل مكان، ولكن لماذا الأمر ليس كذلك؟ لاننا قد تعلقنا بذلك الذنب واللذة المتأتية عنه بحيث نتناسى الله. وقد جاء في الروايات فيما يخص بعض الذنوب: ان المؤمن لا يبقى مؤمناً وتزول عنه روح الايمان اثناء ارتكابه بها، وتعود اليه روح الايمان بعد الفراغ من اقترافها وخمود حالة الطغيان والتمرد في النفس.[١] من هنا فان اقتراف المعصية لا ينسجم مع حقيقة الايمان بأي حال، وليست حقيقة الايمان ان نعرف ان الله موجود وهو الشاهد والرقيب، بل بالاضافة الى ذلك يجب ان نلتزم بلازمة ذلك ايضاً، فلو اننا آمنا حقاً ومن صميم القلب ان الله موجود وشاهد ورقيب فمن المحتّم اننا لن نذنب حياءً من حضوره، ولا نرتكب ذنباً ان كنا مؤمنين حقيقة الايمان بان الله موجود وسيحاسبنا ويؤاخذنا على اعمالنا. ان هذا الاعتقاد وهذه الحقيقة يزولان عنّا في تلك اللحظة التي نقترف الذنب، ونحن اذا ما أذنبنا دون وجل فذلك دليل على ضعف العنصر الثاني للايمان فينا، والسؤال هنا هو: ماذا يتعين علينا فعله كي يقوى هذا العنصر؟

قلنا في العنصر الاول ـ أي المعرفة ـ ان طريق تقويته يكمن في الدراسة والتحقيق والتتلمذ على يد استاذ ثم التمرين وتكرار تلك المعلومات كي لا تُنسى وتبقى على الدوام في معرض اهتمامنا وتوجهنا، لكن ذلك شرط ضروري فقط ومقدمة لحصول النصف الآخر والاصلي وهو الايمان القلبي والعزم على الالتزام العملي. ومشكلتنا تكمن نوعاً مافي العنصر الثاني، فنحن في اغلب الحالات نعرف الحقيقة ولا نعاني معضلة في بُعد العلم والمعرفة لكننا نعاني مشكلة في الالتزام العملي بتلك المعرفة. فنحن نعلم ان الصلاة واجبة وان الله يريدها لكننا لا نرغب بأدائها، وصوت تلاوة القران

١. راجع: *بحار الانوار*: ج ٦٨، الباب ٢٤، الرواية ٣٠.

يطرق اسماعنا ولكن دون ان تخلق فينا رغبة للإنصات اليه، بينما اذا ما بثّت قناة اخرى في تلك الاثناء صوتاً آخر فاننا نستمع اليه بكل رغبة واندفاع! فاذا كان الانسان محباً حقاً لله سبحانه وتعالى فهل بامكانه ان يسمع باسم محبوبه ولا يتبلور في نفسه دافع أو اشتياق، أو أدهى من ذلك ان ينزعج لسماع أو ذكر اسم الله؟! يقول القرآن: ان الامر يصل بالبعض بحيث: (إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ).

من المهم التدقيق في تحليل هذه الآية، لماذا يصل الحال بالبعض بحيث لا ينزعجون من ذكر الله فحسب وانما تتولد فيهم حالة من النفور لسماع اسم الله؟! انه يقول: السبب انهم لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، فلا يقول انهم يعانون هذه المشكلة لعدم ايمانهم بالله، بل انه يذكر العلّة بانها انكار المعاد والآخرة وعدم الايمان بهما.

من هنا لغرض تقوية العنصر الثاني يتعين علينا السعي لكبح جماح القلب والنفس، وبتطويعنا لهما نحول دون ان يجرفاننا حيثما شاءا!

ان ضبط النفس ليس بالأمر الذي يتيسر بسهولة وبمجرد اتخاذنا للقرار بل هو بحاجة الى توفير مقدمات، فلكي يتسنى للمرء ضبط رغبات النفس وإضعاف منفرات الايمان بتسلطه على نفسه، هنالك سبل لابد من تحرّيها، ولغرض إنجاز هذه المهمة لابد من ان نباشر من الاعمال البسيطة ونتقدم تدريجياً فنعمل على اطّراد الشوق ورغبة النفس لجميع مراحله الى المطاوعة والتسليم أمام الله سبحانه وتعالى وأمام الحقيقة. فاذا اردنا أن نرهق النفس منذ البداية وفي المراحل التمهيدية بالاعمال والممارسات الثقيلة فحتى لو نجحنا في التطبيق لعدة أيام لكن النفس ستهلك بالتالي وستطغى وتجمح اكثر فاكثر، من هنا يجب ان نقمع ونضعّف الاهواء الحيوانية والشيطانية في نفوسنا تدريجياً وطبقاً لبرنامج منظّم ومدروس ونجعلها تشتاق للانس بالله والذكر والقرآن والمناجاة. ولكن ما هذا البرنامج يا تُرى؟ هذا يحتاج الى البحث.

آملين ان يمن الله سبحانه وتعالى علينا بأن نستلهم بالتدريج من تعاليم القرآن

واهل البيت عليهم السلام اسبابَ ترسيخ الايمان في ضوء اولوية الابتداء من الاسهل حتى الاصعب ونمضي قدما في مراحل تزكية النفس وبنائها. ان بناء النفس يعني ان الانسان يبني قلبه ويربّيه بحيث يزداد قرباً من الله ويقوىٰ ايمانه يوماً بعد يوم. وما يقتضيه بحثنا ودروسنا الراهنة هو البحث عن الطرق المؤدية الى تعزيز العنصر الثاني من الايمان. ان تعزيز العنصر الاول أي المعرفة الذي يحصل بالدراسة والبحث والمطالعة والتحقيق يجب ان تجري متابعته في المحافل التعليمية والبرامج الدراسية المتعارف عليها. بناءً على هذا سوف نركّز في الابحاث المقبلة على طرق تعزيز العنصر الثاني للايمان.

الدرس العشرون

طرق تعزيز الايمان «٢»

لمحة عن الدروس السابقة

اشرنا في الدروس السابقة الى ان اهم قضايا حياة الانسان يمكن ايجازها في ثلاثة مسائل هي المبدأ والمعاد والطريق ما بين المبدأ والمعاد، وعلى الانسان أنْ يعلم في البداية ان لعالم الكون خالقاً ومدبراً واحداً بيده أمر الكون كلّه منذ البداية وحتى النهاية. ثم يجب عليه أن يعلم بان حياة الانسان لا تقتصر على هذه الحياة المادية بل انه سيواصل حياته بعد الموت في عالم آخر، وسيُبعث مرة اخرى في يوم القيامة للحساب والتحقيق في اعماله. واخيراً عليه أن يعرف ان الله سبحانه وتعالى قدَّم الى البشر الطريق اللاحب والصائب بدءاً من المبدأ وحتى المعاد في اطار برنامج يسمى «الدين» وذلك عن طريق الانبياء. واشرنا كذلك الى ان روح هذه المسائل الثلاث تعود في الواقع الى المسألة الاولى أي التوحيد، وان المسألتين الأُخريين تعدّ من تفرعاتها، من هنا يمكن القول ان اصل جميع المعارف هو التوحيد.

وقلنا ايضاً ان انسانية الانسان تدور حول قطب التوجه أو الغفلة عن هذه المسائل الجوهرية الثلاث، فمن غفل بشكل تامّ عنها فانه سيتصرف في ضوء غرائزه الحيوانية فقط، من هنا يستخدم القرآن الكريم في وصف هؤلاء تعبير: (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ).[1] أو قوله في موضع آخر بحق امثال هؤلاء الذين لا يتدبرون ولا

---

١. الأعراف: ١٧٩.

يتعقلون بهذه المسائل: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاٰ يَسْمَعُ إِلاّٰ دُعٰاءً وَنِدٰاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ).[١]

على أية حال ان بعض الناس يتوجهون الى هذه المسائل الثلاث، وبعد الدراسة والتحقيق يتضح أمامهم وجود المبدأ والمعاد والانبياء والشرائع السماوية فيحصل لديهم العلم بها، وبعد حصول المعرفة والتصديق الذهني بهذه الامور الثلاثة ربما تطرأ حالتان: إما ان يكون الوضع النفسي للفرد بنحو يتوفر لديه الاستعداد للقبول بهذه الاصول الثلاثة والالتزام بلوازمها، أو أن ينعدم مثل هذا الاستعداد، فاذا ما توفرت الحالة الاولى فانها تفضي الى الايمان، واذا ما وُجدت الحالة الثانية فانها تؤول الى الكفر.

في الحالة الثانية يكون الانسان بمستوى يُمكّنه من اثبات هذه الامور بالادلة القطعية الواضحة حتى للآخرين ان كان هنالك بحث علمي فقط ولا يلحقه ضرر من ذلك، ولكن بالنسبة إلى الالتزام العمليّ فهو يُنكر ظاهرياً وبلسانه رغم يقينه القلبي، وقد اشرنا الى ان القرآن يقول عن فرعون وملأه: (وَجَحَدُوا بِهٰا وَاسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ).[٢]

ان السبب الجوهري لهذا الانكار هو ان الانسان يرى ان الايمان بهذه الحقائق والالتزام العملي بها يتزاحم مع رغباته، وبما انه لا يريد التنازل عن رغباته فهو يبادر الى الانكار. من المناسب هنا ان نورد نموذجاً تاريخياً آخر بهذا الصدد.

مثال من الكفر رغم اليقين بالحق

في عهد النبي الاكرمﷺ جاءت مجموعة من النصارى الذين كانوا يعيشون في منطقة تسمى «نجران» لمحاورة ومناظرة النبيﷺ. وكان هؤلاء في نجران صيتٌ وقدرة وكان

١. البقرة: ١٧١.
٢. النمل: ١٤.

يعيش بينهم كبار علماء النصارى، فأغراهم هذا الرصيد العلمي وظنوا أنهم قادرون على التغلب على النبي في البحث والمناظرة ويثبتوا لهﷺ حقانية المسيحية ووجوب اتّباعها. على أية حال وافق النبيﷺ بالمناظرة، وعلى العكس مما كانوا يتصورون في البداية غُلبوا أمام النبيﷺ في المحاورة ولم يكن لديهم ما يقولون، لكنهم رغم ذلك أبوا اعتناق الاسلام، من هنا فقد دعاهم النبي الاكرمﷺ للمباهلة: (**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**).[١]

وافق نصارى نجران على المباهلة، ولما حلّ اليوم الموعود وحضر النبي الاكرمﷺ مع امير المؤمنين وفاطمة الزهراء والإمام الحسن والإمام الحسينعليهما السلام، وأتمر علماء النصارى وقال بعضهم: اذا تباهلتم مع هؤلاء فلن يبق أحد من النصارى على وجه الارض! لكن الظريف انهم ورغم هزيمتهم في المناظرة وانكشاف حقانية النبي أمامهم، لكنهم ابوا الايمان بالاسلام وقالوا: نعطي الجزية! والشاهد في هذه القضية ذو الصلة ببحثنا الحاضر هذا المقطع عن القصة حيث قال: **قدم وفد النجران على النبيﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الاسلام فقالا اسلمنا يا محمّد قبلك. قال: كذبتما، إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام. قالا: هات. قال: حب الصليب وشرب الخمر وأكل الخنزير...**.[٢]

هذا الأمر يشير الى ملاحظة دقيقة في علم النفس وهي ان السبب في رفض الحق هو ان الانسان يراه احياناً يتعارض مع اهوائه ورغباته، وهذا التعارض يؤدي بالانسان لان يتنكر للحق بالرغم من فهمه له وعلمه به، وذلك لبلوغ مآربه واشباع رغباته. وقد اشرنا فيما تقدم ان هذه الحالة من انكار الانسان للحق عالماً عامداً تسمى «جحود» وهي أسوء صور الكفر: (**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**). ومن أُبتلي بمثل هذا الكفر فان جزاءه العذاب الأبدي.

---

١. آل عمران: ٦١.

٢.راجع: *بحار الانوار*: ج ٣٥، ص ٢٦٢.

القرآن ونماذج من عناصر تعزيز الايمان

لكن ما نعاني منه نوعاً هو اننا وبعد معرفة الحق والعزيمة على القبول بلوازمه العملية نعجز عن الالتزام عملياً بهذا التعهد، وقد نخالف احكام الله وأوامره. وهذه المخالفات سببها ضعف إيماننا وليست ناجمة عن إنكار، ولو سُئلنا أثناء ارتكابنا للمخالفة: هل انكم قمتم بفعلٍ صائب؟ سنجيب: كلا. اذن في تلك الاثناء نظلّ نؤمن ونقتنع بأن أمر الله وحكمه صحيح، لكننا نعجز عن الالتزام به نتيجة لضعف ايماننا، ولو قُدِّر لايمان المرء ان يصل مرتبة معينة فلن يرتكب ذنباً. والفارق بين اولياء الله والمعصومين عليهم السلام يكمن في ان ايمانهم اقوى بكثير من ايماننا، وهو في مستوى لا يمكن المقارنة بينه وبين ايماننا، وبحثنا يتركز في: ماذا نصنع كي نخرج من هذا الضعف والصغار ونعمل على تقوية ايماننا بحيث نصبح مسلّمين لأمر الله ومطيعين لأحكامه ولا نخطو خطوة واحدة خلافاً لمرضاته؟ ولهذا الغرض سنتناول بالبحث آيات من القرآن الكريم وردت بهذا الخصوص، ونُتبع ذلك بتقديم بحث تحليلي وعقلي في هذا المجال.

المورد الاول

من الموارد التي جرت الاشارة فيها الى زيادة الايمان وتعزيزه هذه الآية الكريمة: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).[1] وهنالك آية اخرى في سورة الاحزاب تشابه هذه الآية، تقول: (وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً).[2]

هذه الآية بشأن معركة الاحزاب. بعد ظهور الاسلام قام المشركون واعداء الاسلام بمختلف المؤامرات للقضاء على هذا الدين الجديد والفتي وطيّ صفحة

---

١. آل عمران: ١٧٣.
٢. الاحزاب: ٢٢.

الاسلام والمسلمين، فكان من أهم مؤامراتهم ومخططاتهم تدبير معركة الاحزاب، وقد اتحد في هذه المعركة كافة اعداء الاسلام من مشركين ووثنيين ويهود ونصارى ومنافقين واجتمعوا تحت قيادة واحدة وتظافروا لكي يطووا بساط الاسلام والمسلمين في هذه المرة، وحشدوا في هذه الحرب كافة امكانياتهم وطاقاتهم واستعانوا بالاضافة الى ذلك بالحرب النفسية، هذه الاستراتيجية الرائجة اليوم في العالم كانت يومذاك ذات طابع بسيط لكنها اتخذت صفة علمية وجرى تدوين مجموعة من العلوم الجامعية وهناك أناس يحصلون على تخصص وشهادة عليا في هذا المجال، وفي بلادنا ثمة أناس ذهبوا الى الخارج بعد انتصار الثورة وبتمويل من بيت المال وحصلوا هناك على الدكتوراه في الحرب النفسية وخلال السنوات الاخيرة اخذوا يشنّون حرباً نفسية ضد هذا الشعب وهذا البلد بما يخدم مصالح امريكا والاستعمار مستعينين بتخصصهم هذا.

على أية حال، كان اعداء الاسلام في عهد النبي الاكرمﷺ على معرفة بهذا الاسلوب ويستخدمونه. وتعويلاً على هذا الاسلوب أشاع اولئك ـ لغرض زعزعة قلوب المسلمين وإرعابهم ـ أن جيش العدو وامكانياته في هذه المرة في غاية القوة والكثرة، وان هزيمة الاسلام والمسلمين أمر حتمي في هذه المعركة، واخذت الافواه تتناقل هذه الشائعة واصبح هذا الكلام يُسمَع في كل الارجاء من ان هذه الأيام هي الأيام الاخيرة من حياة النبيﷺ وما أسرع أن يُقتلﷺ على أيدي جيوش الاعداء ويفنى الاسلام والمسلمين. فخلقت هذه الشائعة جوّاً ثقيلاً لضعاف الايمان واستحوذ عليهم الرعب وأذعنوا مسبقاً بهزيمتهم وهزيمة الاسلام، ولكن كان هنالك مؤمنون وقفوا كالطود الشامخ ولم تستطع هذه الاشاعات زرع الوهن والضعف فيهم فحسب بل أدت الى ان تقوى روحهم واصبحوا اكثر قوة واندفاعاً من ذي قبلُ، واستعداداً لمواجهة العدو وجهاده. يقول القرآن الكريم بهذا الخصوص: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ). فلقد كان الناس يقولون لهم: ان الاعداء قد اجتمعوا عليكم بأسرهم واتحدوا ضدكم ومن المحتم انكم لن تستطيعوا المقاومة في مواجهتهم وان هزيمتكم مسلَّمٌ بها، فكان ردُّ فعلهم إزاء هذا الكلام: (فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ). فهم ليسوا فقط لم يخافوا ولم تتدانَ معنوياتهم بل ازدادوا ايماناً. ونتيجة لصمود هذه الثلة من المسلمين والإمدادات الإلهية الغيبية كانت النتيجة في هذه المعركة: (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ).(١)

لهذه القضية مصداق في زماننا أيضاً، فبعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران عام ١٣٥٧هـ ش (١٩٧٩م) حاك الاعداء العديد من المؤامرات لإلحاق الهزيمة بهذه الثورة والقضاء عليها، وعلى امتداد هذه الأعوام كنا شهوداً على ضروب واصناف شتى من المؤامرات في هذا المجال فيها الحرب الداخلية، الحصار الاقتصادي، الغزو العسكري، إثارة الإشاعات، اغتيال الشخصيات، الغزو الثقافي... الخ.

ان امريكا والاستعمار الغربي يرون اليوم وبعد زوال الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي السابق، ان الاسلام هو الخطر المهم والجادُّ بالنسبة اليهم، لذلك فهم يكرّسون كافة قواهم وقدراتهم لدحر الاسلام ومحوه، فعلى مدى ثماني سنوات وضعوا جميع قدراتهم ومعداتهم الضرورية تحت تصرف صدام كي يقرأوا ـ واهمين ـ الفاتحة على الاسلام والثورة في هذا البلد. من ذا الذي لا يعلم اننا كنا نقاتل صدام على مدى ثماني سنوات؟ بل ان الدنيا بأسرها انبرت لحربنا عن طريق صدام، فلقد كانت امريكا وبريطانيا والمانيا وفرنسا وايطاليا والاتحاد السوفيتي... الخ يقدّمون الدعم للحكومة العراقية بجميع صوره وانواعه: العسكري والاقتصادي والسياسي، كما اشاعوا في اوساط شعبنا ان الدنيا بأسرها انبرت لاستئصال هذا النظام وهذه

---

١. آل عمران: ١٧٤.

الثورة، فما عساكم صانعين في مواجهة قوىً عظمى من قبيل امريكا وبريطانيا وفرنسا التي هبَّت لمساعدة صدام؟ لكن شعبنا المسلم الثوري ليس لم تُرهبه هذه التهديدات والأخطار فحسب، بل عقد العزم معتمداً على المدد الالهي بان يقف بكل رجولة ولوحده بوجه الدنيا كلها، فوقف قائلاً: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

على أية حال، هذا أحد المشاهد والموارد التي يصرّح القرآن بانها تبعث على زيادة ايمان المؤمنين، فعندما قيل لهم ان الاعداء قد تظاهروا للقضاء عليكم، لم يزلزلهم هذا الكلام وانما دفعهم لان يقفوا في مواجهة العدو بايمان اكثر صلابة وقوة من ذي قبلُ ويزدادوا تسليماً أمام الله سبحانه وتعالى. وهذا الأمر يصدق ايضاً على سائر المؤمنين وسيفضي مثل هذا المشهد الى رسوخ ايمانهم واطّراده. ومن الطبيعي ان مثل هذا الأمر ممكن عندما تكون قواعد ايمان المرء صلدة وجرى تشييدها على أساس صلب منذ البداية.

المورد الثاني

المورد الآخر الذي اعتبره القرآن مبعثاً لزيادة ايمان المؤمنين، الآية الكريمة: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ).[1]

استناداً لهذه الآية، إن ذوي الايمان الراسخ يُنزل الله جل وعلا على قلوبهم وأرواحهم حالة من الطمأنينة والاستقرار تؤدي الى تعزيز ايمانهم وزيادته، وهذه الحالة يسميها القرآن «السكينة»، وانني اتذكر انه وقبل عدة سنوات كان لقائد الثورة الاسلامية بحث رائع في هذا الموضوع في احدى خطاباته ربما يكون الرجوع اليه في غاية الفائدة.

الاصل اللغوي لهذه المفردة مأخوذ عن «السكون». وعلى نحو الاجمال ان السكينة

---

١. الفتح: ٤.

حالة من الطمأنينة والسكون تهيمن على الانسان في مختلف المواقف ومن بينها الظروف الطارئة والمتأزمة. فالقرآن يصرّح بان من مواهب الله تبارك وتعالى إسباغ هذه الحالة على بعض عباده والصادقين من المؤمنين، فمثلما يُنزل الله علينا النعم المادية من قبيل الأمطار من السماء، فهو يمتلك نعماً معنوية لا يُنزلها على سطح الارض وانما على قلوب المؤمنين الصادقين، ولكن كيف يكون هذا النزول وما هو المُنزَل؟ فهذا أمرٌ يقوى على ادراكه اولئك الذين حَظَوا بمثل هذه الموهبة وتلقَّوا مثل هذا الفضل من لدن الحق تعالى. وبالطبع ان هذه النعم لا تُعطى لأحد عبثاً. ومن المسلَّم به ان الذين تشملهم هم الذين خلقوا في انفسهم جدارة واستعداداً خاصّين، وقد وعد الله بانه سيُعين من تحرك باتجاه القرب من الله، واذا ما خطى خطوة واحدة نحو الله فانه تعالى سيخطو نحوه عشر خطوات، فهو القائل في الحديث القدسي: مَنْ تقرَّب اليَّ شبراً تقربتُ اليه ذراعاً.[1] ويقول القرآن: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً).[2] وتصدق هذه القضية ايضاً بالاتجاه المعاكس وعلى الذين يسلكون طريق الضلال، والشاهد عليها آيات القرآن: (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ).[3] فالبحث يدور هنا حول آيات القرآن التي تقول ان هناك أُناساً لا تتسبب آيات القرآن بهدايتهم فحسب بل تزيدهم ضلالاً! وهم اولئك الذين أسسوا بنيانهم على الانحراف وعزموا على ان يُسرعوا بارجلهم نحو الضلال والإضلال، وان الله سيعجِّل بسقوطهم: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).[4] نعم، هكذا هو إضلال الله وان مَنْ يُضلّه الله لن يكون بمقدور أحدٍ هدايته: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).[5] وبطبيعة الحال ان سوء اختيار هؤلاء هو الذي يجلب لهم هذا البلاء.

على أية حال، ان هذه سنّة الله في ان يُعين ويزيد في هداية من يسلك طريق

---

١. *بحار الانوار*: ج ٨٧، الباب ١١، الرواية ٥.
٢. محمد: ١٧.
٣. التوبة: ١٢٥.
٤. الصف: ٥.
٥. الزمر: ٢٣.

الهداية، ومن وضع خطاه في طريق الضلال والانحراف فان الله يزيد في ضلاله، وقد جرى التصريح بهذه السنّة الالهية في سورة الاسراء: (مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعٰاجِلَةَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِيهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرٰادَ الْآخِرَةَ وَسَعىٰ لَهٰا سَعْيَهٰا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَهٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ وَمٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً).[1] بناءً على هذا ان الله يمدُّ الفريقين ولا يمنع مدده عن ايٍّ منهما، وبالطبع ان الذي يسلك طريق الهداية والجنة يوصله المدد الالهي الى غايته بسرعة، أما ذلك الذي يسير في طريق الضلال وجهنم فان المدد الالهي يؤدي الى ان يصل جهنم والعذاب الالهي!

هذا هو المورد الثاني الذي يصرّح القرآن ان الله وبإنزاله للسكينة على قلوب بعض المؤمنين يزيد في ايمانهم ويقوّيه، ونزول هذه السكينة لا يأتي دون تمهيد ودون محاسبة ودراسة، بل ان هذه الفئة من المؤمنين كانت قد أعدّت مقوّمات ذلك مسبقاً، فهؤلاء صادقون في ايمانهم، وبعد ان آمنوا نزلوا الميدان بكل ثقلهم وعقدوا العزم على تطبيق الاحكام الالهية تطبيقاً تاماً وان ينخرطوا لخدمة الله ودينه، فتكون ثمرة عملهم هذا انهم يصمدون تكللهم راحة بال مثالية دون ادنى خوف أو وجل أو شك في الميادين التي يصاب عوام الناس بالاضطراب والتشويش والقلق والازدواجية، ويبدون صموداً وصلابة في سبيل الله ودينه حتى الرمق الاخير وآخر قطرة من دمائهم. ومن المتعذر التحلي بمثل هذه المعنويات دون مدد إلهي، ومن كانوا هكذا فانهم يتمتعون بالمدد الإلهي حتماً.

المورد الثالث

الآية الاخرى التي اشارت الى زيادة الايمان، هذه الآية: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ

١. الاسراء: ١٨ ـ ٢٠.

اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً).[١] في البداية تصف الآية المؤمنين الحقيقيين وليس اولئك الذين يدّعون الايمان بالظاهر، فكلمة «انما» من ادوات الحصر وتفيد الحصر في اللغة العربية، فيقول: انما المؤمنون، أي المؤمنون الحقيقيون هم الذين: (إِذٰا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)، أي ان قلوبهم تهتز حينما يُذكر الله. لماذا؟ وهل ان الله يُخيف؟ الجواب هو: انهم قد تبدُر عنهم ذنوب وبحلول ذكر الله يتذكرون المعاصي التي ارتكبوها فيستحوذ الاضطراب عليهم، أما ذوو المراتب العليا والعلم السامي فتستحوذ عليهم هذه الحالة حينما يُذكر اسم الله نتيجة معرفتهم بعظمة الله، ونحن باجمعنا قد جرّبنا هذه الحالة نوعاً ما، فعندما نقف أمام شخصية كبيرة يعترينا الاضطراب وتزداد نبضات قلوبنا ويستحوذ علينا الارتباك وتنعقد ألسنتنا، وكل ذلك يحصل تأثراً بعظمة ذلك الشخص وهيبته وهو لم يوجّه لنا توبيخاً أو تهديداً ولا مشكلة لنا معه، وانما هيبته وعظمته هي التى تترك مثل هذا التأثير فينا. فالمؤمن الحقيقي يدرك العظمة الالهية بما يتناسب مع معرفته، ولهذا السبب يستحوذ على فؤاده نوع من الاضطراب عندما يسمع باسم الله ويتذكر الله سبحانه وتعالى: (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ). فهل نحن كذلك؟ لو ان حقيقة نور الايمان قد اشرقت على قلوبنا لاهتزّت ابداننا اذا ما ذُكر الله!

ويواصل القرآن الكريم عرضه للمزيد من علامات الايمان والمؤمن الحقيقي ومن بينها: (وَإِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً) فاستماع آيات الله من شأنها تقوية ايمانهم وزيادته، ويذكر علامة ثالثة ايضاً: (وَعَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).[٢]

ما يُعد شاهداً على بحثنا في هذه الآية الكريمة هذا المقطع من الآية الذي يصرّح بان من الامور التي تؤدي الى زيادة الايمان وتعزيزه هو الاستماع لآيات الله والقرآن، فالذين تتميز ارواحهم بالتأهب للاذعان للحقيقة والتسليم امام الله وليس ايمانهم

---

١. الانفال: ٢.

٢. نفس المصدر.

قشرياً ولا سطحياً يزداد ايمانهم بسماع آيات القرآن. بناءً على هذا فان أحد الطرق لتقوية الايمان التوجه الى آيات الله ومعانيها وحقائقها.

وجه الاشتراك بين دواعي تعزيز الايمان

ولكن هنالك سؤال هو: ما العلاقة بين هذه الموارد التي ذكرناها؟ فما هو الاشتراك بين التهديد وإرعاب الأعداء وبروز الظروف المتأزمة والقاسية ونزول السكينة، وسماع الآيات القرآنية بحيث انها تؤدي الى تقوية الايمان؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغي ان نعود الى مفهوم الايمان ونرى ما هي حقيقة الايمان. فاذا ما اتضحت حقيقة الايمان اذ ذاك يتسنى لنا فهم كيفية تناميها واطّرادها بسبب هذه العوامل.

ان فطرة الانسان تقتضي بان الانسان اذا ما ادرك حقيقةً أن يعمل بمقتضاها، فهو يُسرج المصباح أو السراج حينما يعيش في مكان مظلم، ويرتدي لباس الدفء اذا ما اصبح المناخ بارداً فيما يخفف من ملابسه ويستخدم اجهزة التبريد اذا ما اصبح الجوّ حاراً. من هنا فان عمل الانسان بمقتضى الواقع الذي يواجهه ليس بالأمر العجيب بل هو أمر طبيعي وينسجم مع الفطرة تماماً، انما غير الطبيعي هو أن يدرك الانسان حقيقة ولا يعمل بمقتضاها، وغير الطبيعي ان الانسان يفهم ويعلم ان الله موجود في كل مكان لكنه لا يستحيي فيرتكب الذنب، ويدرك ان كافة المقدرات والاسباب بيد الله لكنه يتملق لهذا وذاك لعلاج مشاكله وإنجاز أعماله، ويعلم ان الله لا يجني نفعاً مما يأمر به والانسان هو الذي ينتفع مما ينفِّذ لكنه يصرّ على التمرد عليه، ويعلم انّ ما نهى الله عنه فبسبب الأضرار التي يلحقها بالانسان لكنه يباشره رغم ذلك.

ان السبيل لعلاج هذه المشكلة وان يعمل الانسان بمقتضى ايمانه هو ان يتوجه اكثر لايمانه، فذلك من شأنه ان تتجلى آثاره اكثر. ولا بأس من ان نسوق مثال أو مثالين لتوضيح هذا الأمر:

من المعروف ـ وقد جرّبنا ذلك نحن ايضاً ـ ان الانسان المريض يزداد شعوره بالالم مساءً فيما يقلّ شعوره بالالم كثيراً بل وحتى يتناساه في النهار احياناً. والسبب في ذلك ان توجه الانسان الى امور متعددة في النهار يؤدي الى التقليل من توجهه الى الألم، فهو لا يتحسس الالم نوعاً ما بالرغم من وجوده بسبب عدم توجهه اليه. وفي الليل حيث تقلّ التحركات والارتباطات ويختلي الانسان بنفسه أو بدائرة اكثر ضيقاً مما عليه في النهار وحيث تنعدم سائر الامور أو انها تقلّ كثيراً قياساً لما في النهار يزداد التفات المرء نحو الالم ومن هنا يزداد شعوره به.

وكذا السرور من شيء، فاذا ما حصل ما يُفرح الانسان ومرَّ عليه مروراً عابراً ولم يلتفت اليه كثيراً لن يكون سروره كثيراً، ولكن كلما فكّر اكثر بتلك الموهبة ومزايـا العديدة التي تعود اليه يزداد فرحاً بها. وهكذا بالذات محبتنا للآخرين، فكلما ازددنا تفكيراً بمن نحبّه وركّزنا تفكيرنا عليه ستزداد مودتنا ومحبتنا له، فيما تقلّ محبتنا كلما غفلنا عنه. أو افترضوا ان انساناً يخاف من شيء فهو كلما ازداد تفكيراً به سـيزداد خوفه وكلما قلَّ تفكيره سيقلّ خوفه ايضاً.

وهكذا فيما يخص الايمان، فبعد ان علمنا ان الله موجود وحصل لدينا العلم بصفاته من قبيل الربوبية والرحمة والرزاقية والعلم والحكمة والقدرة وما شابه ذلك، سيزداد ايماننا كلما ازددنا توجهاً لمعلوماتنا وعلومنا هذه، من هنا فان كل شيء يـؤدي الى توجهنا نحو هذه المعارف يُعد من اسباب تعزيز الايمان. فآيات القرآن، كلام الله وبما ان الانسان يذكر الله حين سماعه لها فذلك يعني ان الاستماع لآيات الله مدعاة لتوجهنا اكثر نحو الله، وتوجهنا اكثر نحو الله من شأنه تقوية ايماننا واطّراده: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً). من الطبيعي ان الانتباه الى كلام ايّ متحدث يؤدي الى الانتباه نحو ذلك المتحدث، فالتوجه الى كلام الله يؤدي الى التوجه نحو الله.

هذا ما يحصل بالطبع حينما يهيء المرء الارضية في نفسه وليس ان يؤسس بنيانه

منذ البداية على الإعراض والصدود، فاذا كان كذلك لن يكون لتلاوة القرآن أيُّ تأثير عليه: (وَلاٰ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ).[١] فالأصمُّ لا يسمع الصوت حتى وإن حدَّثته من الأمام، وبالامكان افهامه الاشياء عن طريق الايماء والاشارة فقط. واذا ما ادار الاصمُّ ظهره للمتحدث فمن الطبيعي اننا مهما صرخنا لن تكون لذلك فائدة تُذكر. فهنالك أناس صمموا على ان يُعرضوا عن آيات الله ولا يسمعوها فلا فائدة من تلاوة القرآن بالنسبة لهؤلاء، بل لها تأثير عكسي وستؤدي بهم الى العقاب ايضاً: (وَلاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً).[٢] ولا هم يزدادون ايماناً بل يزدادون نفوراً وابتعاداً: (فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً).[٣] فلدى سماع هؤلاء لآيات القرآن يبدون وكأنهم قد شعروا بخطرٍ، ولغرض الحصول على الأمن منه يهربون عنه بسرعة فائقة! وامثال هؤلاء ليسوا لا يزدادون خضوعاً وخشوعاً لدى سماعهم آيات الله بل يعترضون ويستهزؤون بالآيات: (عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمٰا جَعَلْنٰا أَصْحٰابَ النّٰارِ إِلاّٰ مَلاٰئِكَةً وَمٰا جَعَلْنٰا عِدَّتَهُمْ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ وَيَزْدٰادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمٰاناً وَلاٰ يَرْتٰابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكٰافِرُونَ مٰا ذٰا أَرٰادَ اللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً).[٤]

اذا ما قلنا ان تسعة عشر ملكاً هم القيّمون على جهنم فان سماع هذا الكلام عن النبي من شأنه ان يستيقن الذين كانوا قد قرأوا هذا القول في الكتب السابقة بان هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى ويزداد ايمانهم بالقرآن والنبيﷺ، لكن هذا الكلام لا يترك اثراً ايجابياً على المشركين بل يضاعف كفرهم فيأخذون بالاستهزاء والطعن فيقولون مثلاً: ألم يكن بالامكان تعديل عددهم واختيار عشرين منهم! وكأن الله حينما وزّع الملائكة ووصل الى جهنم مدَّ مغرفته الى قعر جهنم فلم يكن لديه سوى تسعة عشر ملكاً!

---

١. النمل: ٨٠.
٢. الاسراء: ٨٢.
٣. فاطر: ٤٢.
٤. المدثر: ٣٠ ـ ٣١.

بناءً على هذا ان الجامع ووجه الاشتراك لجميع هذه الموارد التي اعتُبرت في القرآن الكريم سبباً في زيادة الايمان هو أنها جميعاً اسباب تزيد في توجه الانسان نحو الله، واذا ما ازداد توجه الانسان نحو الله سيدرك وجوده اكثر وبشكل افضل وبالتالي سيُزاد في ايمانه. وهذا بالطبع يحصل في حالة عدم التأسيس على الاعراض والصدود منذ البداية، كما ينبغي ان لا ننسى سنة الله من ان الذي يتقرب الى الله خطوة واحدة فان الله سيتقرب اليه اضعافاً مضاعفة ويهيء له مقومات قربه: (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها).[١]

آملين ان نفلح من خلال العمل بلوازم الايمان بتمهيد اسباب المزيد من القرب الى الله تعالى يوماً بعد يوم ان شاء الله.

---

١. الانعام: ١٦٠.

الدرس الحادي والعشرون

تحليل العلاقة بين الايمان والعمل

لمحة عن المواضيع السابقة

قلنا فيما تقدم في ضوء ما يستفاد من الآيات القرآنية الكريمة وكذلك من الروايات ان الطريق الوحيد لسعادة الانسان هو الايمان بالله والقيام بالاعمال الصالحة، وقلنا ايضاً ان للايمان درجات عديدة شدةً وضعفاً، وان قوة الايمان أو ضعفه يبرز في العمل، فالذين هم اكثر تقيداً باداء الواجبات الشرعية والقيام بالاعمال الصالحة فذلك دليل على قوة ايمانهم، وكذلك في مقام الاحتراز عن الذنوب فكلما كان المرء اكثر تحرزاً وتوجساً ازاء الذنب بحيث انه يتجنب حتى الشبهات والامور المشكوك فيها وكذلك المكروهات فذلك دليل على قوة ايمانه.

لقد اشرنا الى ان السير التكاملي للانسان وما يجعل الانسان انساناً حقيقياً ومن ثم يرتقي به في سلّم الانسانية ليس سوى الايمان، من هنا كلما كان ايمان المرء اكثر تكاملاً فانه سيكون اكثر تمتعاً بالكمالات الانسانية، وكلما ضعف الايمان ستتضائل الكمالات الانسانية ايضاً. من ناحية اخرى ان ما يؤدي بالانسان الى السقوط ويهوي به في هذا الاتجاه هو الكفر والإلحاد، وان الكفر كالايمان له مراتب وان آثاره تظهر في العمل كما في الايمان، فكلما ازداد تعنُّت المرء وعصيانه امام الله سبحانه وتعالى تعززت فيه مظاهر الكفر، فبعض الناس في ادنى مراتب الكفر والشقاء بحيث ان القرآن يعبّر: (**فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**).[1] وكلما ابتعدنا عن هذه المرتبة الدنيا يتضاءل الكفر حتى

---

١. النساء: ١٤٥.

يصل الى الحد الفاصل بين الايمان والكفر أي اذا ما خطا الفرد خطوة بهذا الاتجاه فهو «مؤمن» واذا ما خطا خطوة بذاك الاتجاه عُدَّ «كافراً»، ويُصطلح على هذه المنطقة نقطة الصفر، وان الدخول الى دائرة الكفر أو الايمان منوط بالاتجاه الذي تنطلق نحوه الخطوة الاولى للانسان من تلك النقطة. وقد تركّز جهد الانبياء والاولياء ـ بالاضافة الى ما يحصلون عليه من مراتب اكثر كمالاً من الايمان ـ على حث الآخرين أن يشقّوا طريقهم بهذا الاتجاه ايضاً. وان جميع الذين اختاروا خط الانبياء كان هدفهم تقوية ايمانهم اكثر فأكثر، أي العمل على مضاعفة كمالاتهم الانسانية، وهذا بدوره يتلازم مع المزيد من القرب الى الله.

لقد كان السؤال الذي طرحناه هو كيف يمكن تعزيز الايمان؟ ان الاكتفاء بالمراتب الدنيا من الايمان ينطوي على خطر تعرُّض الانسان دائماً للوقوع في فخ الكفر، لأنه قريب جداً من الحد الفاصل بين الايمان والكفر، وسيسقط في مهوى الكفر مع ادنى خطأ وانزلاق، والأمر على العكس من ذلك في الجانب الآخر حيث المراتب الكاملة من الايمان، فلو هجم الناس بكل قواهم على من يحمل ايماناً متكاملاً فلن يؤثروا عليه قيد أنملة، وان اعلى مراتب الايمان تلك التي يتحدث عنها امير المؤمنين عليه السلام: **لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً.**[1] وقليلٌ جداً اولئك الذين هم على مثل هذه المرتبة بل وحتى أدنى منها واقرب اليها، واذا ما سلكنا الطريق الذي خطَّه الانبياء سيكون اتجاه حركتنا نحو هذه القمة، ولكن الى اي مستوى نقترب منها يا ترى؟ انه أمر منوط بارادتنا وهمتنا ومدى التوفيق الالهي.

الايمان وتعزيزه رهنٌ بعاملين

لكن السؤال المهم في هذا المجال هو ما الذي يتعين فعله لقطع هذا الطريق والاقتراب

١. *بحار الانوار*: ج ٦٩، الباب ٣٣، الرواية ٢٢.

اكثر فاكثر من تلك القمة؟ كانت حصيلة بحوثنا المتقدمة ان الايمان افـراز لاجـتماع عاملين، الاول: العلم والمعرفة، والآخر ارادة الرقي والتكامل والقرب الى الله، من هنا فان تقوية الايمان والارتقاء في مراتبه ودرجاته رهنٌ بتقوية هذين العاملين، فعلينا ان نعمل على توطيد معرفتنا وعلمنا اكثر فاكثر بالله سبحانه وتعالى وصفاته وافعاله كي نزداد ايماناً، كما ان معرفتنا كلما ازدادت بالنبي الاكرمﷺ والائمة الاطـهارعليهم السلام فـان ايماننا سيزداد ايضاً، وقد نكون جرّبنا باننا اذا شاهدنا كرامة لأحد اولياء الله أو سمعنا بها عن طريقٍ موثقٍ أو يبعث على اليقين نجد اننا قد نزداد نورانية ويتضاعف اندفاعنا للقيام باعمال الخير وسلوك طريق الكمال، وذلك هو زيادة الايمان بفعل زيادة المعرفة، فكلما تحولت معرفتنا الاجمالية بهذه المسائل الى معرفة تفصيلية يغدو متعلق الايمان اكثر شفافية ووضوحاً بالنسبة الينا ويكون بمقدورنا الايمان به بسهولة اكثر.

العامل الثاني لتقوية الايمان هو ترصين الارادة لأداء الاعـمال الصـالحة وافـعال الخير، والارادة لا تحصل بالعلم والمعرفة فقط بل هي تحتاج الى التمرين والممـارسة، وذلك ما يطلق عليه العرب «الرياضة»، ومن هنا جاءت الريـاضة الديـنية، أي ان الانسان يقوم لمجموعة من التمارين لتوطيد الابعاد المعنوية لديه. ومن فلسفة الحكم الصادر الينا بالتعبد كل يوم وخمس مرات في اليوم هو ان هذا العمل نوع من التمرين ومدعاة لتعزيز ارادتنا، كما اننا أُمرنا بان نصوم شهراً واحداً في السنة (شهر رمضان) فمن الآثار المهمة للصيام تقوية الارادة. وان سائر العبادات والواجبات الدينية واعمال الخير اجمالاً تعدّ تمارين لتقوية ارادة السير نحو الكمال والقرب الى الله.

ان ارادة التقرب الى الله في الحقيقة نوع من الحركة الذاتية، وهي أمر اختياري من شأنها تقدُّم روح الانسان نحو مقصدها، لأنّ تكوُّن الإرادة واستمرارها تغيّر تدريجيٌّ يحصل في داخل الانسان، والتغير التدريجي هو ذاته الحركة، فعندما يـعزم الانسـان على ان يوجّه قلبه نحو الله سيحدث تغير تدريجي في روحه وداخله: (إِنِّي وَجَّـهْتُ

وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً).[1] وهذا التوجّه يعني انني عزمتُ على أن أُحدثَ تغييراً في داخلي، وتلك هي الحركة التكاملية للروح، وكلما تجلّت هذه الارادة في صورة وهيئة اعمال متعددة ستتخذ تلك الحركة مدى وسعةً وسرعة اكثر.

لو اخذنا بنظر الاعتبار اقطاب المختصات في الرياضيات فان محور X هو محور سعة الايمان ومحور Y هو محور مراتب الايمان ودرجاته. فالانبياء جاؤوا ليخطّوا أمامنا طريق الانسانية والتكامل الانساني، ولغرض المضي في مسيرة التكامل الانساني يجب ان تنطلق بمسارنا نحو الله من نقطة الصفر وعلى محاور المختصات، فعندما نكون في نقطة الصفر نكون احراراً في رغبتنا بالتوجه نحو أي اتجاه، ووصية الانبياء هي: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً).[2] فأي دين هذا؟ (فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النّٰاسَ عَلَيْهٰا).[3] فاذا ما قام الانسان بذلك وانطلق بحركته من نقطة الصفر بهذا الاتجاه اذ ذاك يقترب من الله خطوة فخطوة، وهذا ما قام به ابراهيم عليه السلام: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضَ)، وما أُمر به النبي الاكرم صلى الله عليه وآله: (قُلْ إِنَّ صَلاٰتِي وَنُسُكِي وَمَحْيٰايَ وَمَمٰاتِي لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ).[4] فعندما يكون الانسان متوجهاً اليه سبحانه فلن تكون صلاته وعبادته فقط بل جميع حركاته وسكناته وحياته ومماته لله سبحانه وتعالى، وعليه لا تكون صلاته وعبادته فقط مدعاة لتكامله وقربه من الله بل حياته بأسرها.

لكن الله جل وعلا وهب الانسان قدرة بحيث يمكن في نفس الوقت الذي يتجه نحو جهة ويسير الى الأمام، ان يعدل عن تلك الجهة وينحو باتجاه آخر بكل بساطة وراحة، فذلك الانسان الذي كان قبل لحظة متوجهاً نحو الله ويسير باتجاه الله والتكامل الانسانيّ، اذا به يستدير فجأة ويتوجه نحو الشيطان! ويكون سقوطه بالقدر

---

١. الانعام: ٧٩.
٢. الروم: ٣٠.
٣. الروم: ٣٠.
٤. الانعام: ١٦٢.

الذي يتركز توجهه نحو الشيطان وطريقه وفعله. وهذه هي حقيقة المسيرة الانسانية. من هنا يتعين على الانسان ان يعرف محلّه في عالم الوجود ويعرف طبيعة حركته، كيف تصبح حركته تكاملية وتصاعدية وكيف تتخذ منحىً تنازلياً. واذا ما اصبح كـذلك فانه سيعرف قدره أحسن أولاً، ويحتاط بان يخطو خطوات اكثر رسوخاً لئلا ينحرف وينزلق ثانياً.

من هنا ان اول عمل ينبغي على الانسان القيام به خلال مسيرة حياته ولغرض سلوك طريق التكامل هو ان يحدد اتجـاه حركته، وقد اشرنا الى اننا نقف في البداية عند نقطة الصفر من محاور المختصات وبمقدورنا الاتجاه نحو أي جهة، الى الاعلى أو الى الاسفل، يميناً أو شمالاً. والطريق بطبيعة الحال له اتجاهان ليس اكثر أحدهما الله والآخر الشيطان، الجنة أو النار، والنور أو الظلام، وبمقدور الانسان ان يتحرك نحو الله: (فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً).[1] أي انه يتحرك ويرتقي من نقطة الصفر وباتجاه محور Y الموجب، كما بامكانه التحرك نحو محور Y السلبي، والى ما دون نقطة الصفر ويتخذ مساراً تنازلياً، وبامكانكم ايضاً توسيع نطاق حـركتكم في محـور X بحـيث تكون صلاتكم وعباداتكم فقط لله، كما بمقدوركم أن تجعلوا امتداد حركتكم بـنحو تكون حياتكم باكملها عبادة ومن اجل الله وإليه!

بيان العلاقة بين الايمان والعمل الصالح

ولكن كيف يؤدي القيام بالاعمال الصالحة الى توطيد ايمان الانسان يـا تـرى؟ كأن نتصدق أو نصلي أو نساعد احداً في سبيل الله ـ مثلاً ـ ما من شأنه زيـادة ايمـاننا. وبالطبع لا كلام في الايمان التعبدي بذلك وحيث ان القرآن أمر بذلكفنحن نقبل به، فالقرآن يقول ـ على سبيل المثال ـ ان سماع آيات القرآن يؤدي الى زيـادة الايمـان

---

١. المزمل: ١٩؛ الانسان: ٢٩.

وتوطيده: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً).[١] من هنا فلا شك لنا في اصل هذا الموضوع، لكننا نريد توضيح القضية من الناحية التحليلية. والكلام الذي بامكانه اقناع الانسان الى حدٍّ ما في هذا المجال هو:

ان قيمة كل الاعمال التي نسميها «اعمالاً صالحة» في انها ذات روح خاصة، وتلك الروح هي ارتباطها بالله تعالى. وقد نتوجه الى هذه الروح بشكل تام وعن معرفة، وتارة يكون توجهنا ضعيفاً وعن شبه معرفة. من هنا فان روح العمل الصالح هي التوجه الى الله وهي التي تؤدي الى زيادة ايماننا بالله.

بما اننا على تماس مع عالم المحسوسات والمفاهيم المادية من هنا لا مناص أمامنا الّا الاستعانة بالالفاظ المادية لبيان المطالب المعنوية وغير المادية، وهذا الأمر في الحقيقة نوع من التوسّع في المعنى، فلفظ «عليّ» أو «عظيم» وُضع للاشارة للعلو والرفعة والعظمة المادية، فعندما نقول «الشيء العليّ» بمعنى انه في مكان عالٍ، أو عندما نقول «شيء عظيم» فالمقصود العظمة المادية، لكننا نستخدم نفس هذه المفاهيم فيما يخص الله سبحانه وتعالى فنقول «الله عليٌّ وعظيم»، وهنا نجرّد هذين المفهومين عن الخصائص المادية وننسبها الى الله، ولكن بما ان فكرنا ممزوج بالمعاني المادية على أية حال فهو يعجز عن ادراك حقيقة العلو والعظمة المعنوية.

كما يستفاد من هذه التمثيلات والتوسيعات لبيان السير التكاملي أو التنازلي للانسان، فمن المفاهيم التي يستخدمها القرآن بهذا الخصوص مفهوما النور والظلمة: (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ).[٢] ان الله جل وعلا يصوِّر للانسان عالماً من النور يقابله عالماً من الظلام والعتمة، وبعض الناس ينتقلون من عالم الظلام الى عالم النور، وآخرون على العكس ينتقلون من عالم النور الى عالم الظلمة. ومَثَل الذي يحط اقدامه

---

١. الأنفال: ٢.
٢. البقرة: ٢٥٧.

من عالم الظلام الى عالم النور كالحائر في صحراء مظلمة واذا ببصيص نور وضوء يستقطب انتباهه، وبرؤيته لذلك البصيص من النور يحيا في قلبه الامل وينطلق بالتحرك نحو ذلك النور وكلما تقدّم الى الأمام يكبر ويكبر ذلك البصيص حتى يصل الى المصدر نفسه.

ان النور عندما ينفصل عن المصدر يكون مركّزا في نقطة ثمّ يتخذ شكلاً مخروطياً الى ان ينبسط في النهاية عند قاعدة المخروط. ومن ينتقل من عالم الظُلمة الى عالم النور يرى في البداية تلك النقطة المضيئة وكلما تقدم الى الامام تقوى وتكثر امامه اشعاعات النور الى ان يصل الى المصدر الذي يولّد النور حينها يشاهد من النور اقواه وأشدّه، فاذا كان المصدر نجما أو شمساً ساطعة فهو يواجه فيضاً من نور لدى اقترابه منه. خذوا الشمس بنظر الاعتبار فاي مساحة واسعة من الفضاء تُنير، والمسافة بين الارض والشمس ١٤٤٠٠٠٠٠٠ كيلو متر فقط! والشمس تضيء هذا الفضاء باكمله وما يعد له عشرات المرات! فلكم ان تتصوروا مصدراً لا ينفد نوره أبداً، ونحن بطبيعة الحال لا قدرة لنا على تجسيد اللانهاية، ولكن على نحو الاجمال ان النور الذي لا ينفد هو الامتداد من النور الذي لا ينفد مهما مضينا الى الأمام، والقرآن يصرّح ان الله عزّ وجلّ مصدرُ نور من هذا الطراز: (اللهُ نُورُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ).[1]

اننا نقف في نهاية ذلك المخروط النوراني الممتد من الذات الالهية المقدسة وحتى وجودنا بما يعني اننا ننطلق في حركتنا التكاملية من نهاية هذا المخروط متجهين نحو رأسه وكلما ازددنا قرباً منه يزداد النور قوة وشدة ويزداد وجودنا استنارة، والى ورائنا بحرٌ من الظلام يعبر عنه القرآن بانه تموج فيه ظلمات فوق ظلمات، وان الكافرين والداخلين في هذا البحر من الظلمات مهما حاولوا لن تجديهم محاولاتهم نفعاً ولن يحصلوا الّا على الظلام، وكلما يخرجون من موجة هائلة من الظلام تأتيهم موجة اعظم فتبتلعهم.

---

١. النور: ٣٥.

أي تصوير رائع يرسمه القرآن ليمثّل بـه المـوقف: (وَالَّـذِينَ كَـفَرُوا أَعْـمٰالُهُمْ ... أَوْ كَظُلُمٰاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشٰاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحٰابٌ ظُلُمٰاتٌ بَعْضُهٰا فَوْقَ بَعْضٍ إِذٰا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرٰاهٰا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمٰا لَهُ مِنْ نُورٍ).[١]

أما المؤمن الذي أنجاه الله من بحـر الظلمات وادخله عالم النور فبامكانه ان يشق طريقه في النور. ولكن حتىَ‌مَ هذا المضيُّ الى أمام؟ الجواب هو انه لا حدود له، فهو نور لا نفاد له. ولكن حريٌّ بان نعرف ان هذا النور ليس حسياً، وان عبَّر عنه القرآن بـ«النور». وان حركتنا التكاملية تتمثل في ان نقتفي هذا النبراس من النور وتلك هي المرتبة من الايمان ونسير خطوة خطوة نحو المـصدر المـولّد للـنور أي الله سـبحانه وتعالى، وهو تعالى يعين الانسان في هذه المسيرة، وحين دخوله المرتبة الاولى مـن الايمان يمن عليه الله بعنايته فيهدي قلبه: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ).[٢] فـالمنتقل الى الايمان انما كان ميتاً احياه الله بنور الايمان، هذا اللطف الذي حرم الكافر نفسه مـنه بالظلام الذي خلقه بنفسه والطوق الذي فرضه عليها: (أَوَمَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَجَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا).[٣]

وفي مقابل عالم النور يقف عالم الظلام، فكلما تمادى الانسان في سيره نحو الاهواء النفسية ونحو الشيطان إبتعد عن مصدر النور وعالمه وانغمر في عالم الظلمات. واذا ما اردنا ان يأخذ الله بايدينا ويخرجنا من عالم الظلمات الى عالم النور فان شرطه هـو الايمان لقوله تعالى: (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ).[٤] أي ان الملاك في ان يتعهد الله ولاية وهداية البعض هو انهم «آمنوا به»، وبالعكس فان الكفر يؤدي الى ان ينغمس الانسان في الظلمات ويخرج من ولاية الله ويتخذ من الشيطان والطاغوت ولياً له.

---

١. النور: ٣٩ ـ ٤٠.
٢. التغابن: ١١.
٣. الانعام: ١٢٢.
٤. البقرة: ٢٥٧.

ان العمل الصالح ضروري للمضي قدماً في عالم النور، والعمل الصالح هـو الذي تنبض فيه روح الايمان ويكون منبثقاً عن الايمان، فكلما كانت هذه الروح قوية كان العمل الصالح اكثر قوة وقدرة على التقدم ويمنح الانسان نورانية اكثر. يقول القـرآن الكريم: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ).[1] يقول العلامة الطباطبائي‌رحمه‌الله معقباً على هذه الآية: ان هذه الآية تكشف عن دور العمل في الايمان ويتبين منها ان العمل الصالح هو الذي يرتفع بالايمان: وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ. ويقول‌رحمه‌الله: في الواقع ان الذي يرفع الانسان الى الله ويضعه في مسيرة التكامل هو «الكلم الطيب» وان «الكلم الطيب» هو الارادة التي تصدر عن الانسان للمسير نحو الله، وبعبارة اخرى ان اول الدرجات التي يردها الانسان هي «الكلم الطيب» وتلك كلمة «لا اله الاّ الله»، كلمة التوحيد.

ان الايمان بالتوحيد يسوق الانسان نحو الله وما يؤدي الى رفعة هذا الايمان هو العمل الصالح. لماذا؟ لان العمل الصالح أمر يتحد جوهره سنخياً مع الايمان، فجوهر العمل الصالح ـ كما اسلفنا ـ التوجه الى الله، وبالطبع فان مراتب التوجه متفاوتة، فقد يكون التوجه عن وعي تام ومتمركز وفي هذه الحالة لا يتوجه الانسان الى أي شيء سوى الله، والصلوات التي كان يؤديها الائمة الاطهار‌عليهم‌السلام من هذا القبيل، فهم كـانوا يغفلون عن كل شيء ويتوجهون نحو الله وحده في مثل هذه المواقف. ومثل هذا العمل الصالح بمقدوره ان يسير بالانسان اميالاً الى الامام في غضون لحظة واحدة، فالصلاة افضل عمل صالح بامكانه ان يكون له مثل هذا التأثير: حيّ على خير العمل. نـعم فالركعتان اللتان نؤديها بكل بساطة وننحني ونستقيم فـيهما لو كـانتا صـلاة عـلى حقيقتها فهما افضل عمل صالح بامكانه الارتفاع بالانسان في سلّم درجات الكمـال والقرب من الله سبحانه وتعالى.

---

١. فاطر: ١٠.

الذنب عدوُّ الايمان

مثلما ان العمل الصالح ينسجم مع جوهر الايمان ويؤدي الى توطيده، فان الطرف الذي يقابله يعاكسه بما فيه من روح الذنب والتبعية للشيطانِ والابتعاد عن الله والإعراض عنه، فبمجرد اعراض الانسان عن الله يتغير مساره، ومع أول ذنب واعراضٍ عن الله يكون الانسان قد انزلق خطوة واحدة يليه الذنب الثاني والخطوة الثانية، وهكذا كلما تواصل الذنب يزداد الانحدار، واذا ما تحول الذنب الى مَلكة سيكون في حالة سقوط وانحدار دائم نحو جهنم واسفل السافلين إلّا ان تدركه بارقةٌ ويناله توفيق فيؤوب ويعوض ما فات. على أية حال، مثلما ان العمل الصالح ينمّي الايمان فان الذنب يُضعفه ويمهد الارضية للكفر.

ان الانسان لا يقع فجأة ودون مبرر في الكفر بعد الايمان، وانما الذنب هو الذي يمهد لذلك تدريجياً، وهنالك موارد في القرآن الكريم تصرّح بان الذين سقطوا بالكفر والنفاق انما كان سقوطهم نتيجة لارتكاب الذنب: (وَمِنْهُمْ مَنْ عٰاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتٰانٰا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصّٰالِحِينَ * فَلَمّٰا آتٰاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفٰاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمٰا أَخْلَفُوا اللهَ مٰا وَعَدُوهُ وَبِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ).[1] فهنا يصرّح تعالى بان النفاق انما ظهر في قلوب هؤلاء بسبب نكثهم للعهد ونقضهم للميثاق الذي واثقوا به الله سبحانه وتعالى وبسبب اكاذيبهم.

ويقول في آية اخرى: (ثُمَّ كٰانَ عٰاقِبَةَ الَّذِينَ أَسٰاؤُا السُّوائ أَنْ كَذَّبُوا بِآيات اللهِ وَكٰانُوا بِهٰا يَسْتَهْزِؤُنَ).[2] نعم فنهاية الذنب وارتكاب المعصية تكذيب آيات الله والاستهزاء بها. فالذين يرتكبون الذنب تلو الذنب ولم يتوبوا يصل بهم الأمر لا ان يفتقدوا الرغبة والاندفاع للمسير نحوالله فحسب بل ينبرون لمواجهة الله والتكذيب بآياته والاستهزاء بها! ومن مظاهر الاقتراب من مثل هذه الحالة ـ مثلاً ـ ان المرء اذا ما اراد اداء ركعتي الصلاة فذلك بالنسبة اليه كالجبل في ثقله! فهو لا يملّ اذا ما استغرق ساعات عديدة

---

١. التوبة: ٧٥ ـ ٧٧.

٢. الروم: ١٠.

في مشاهدة فيلم أو الاحاديث التي لا طائل منها والبذيئة، بيد ان دقيقتين يقضيهما لاداء الصلاة تعدل في نظره وكأنه يريد نقل جبل! وكما يعبّر القرآن الكريم: (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ).[1] وهذه الحالة سببها الذنوب التي يرتكبها الانسان.

ان قلب الانسان يأنس بفطرته مع الله وما يبعث على نفوره من الله ظلمة الذنب، فكثيرون كانوا مؤمنين في البداية لكن ذنوبهم هوت بهم. وانه لعجيب حقاً ان يصل الأمر بالمرء احياناً بالرغم من ايمانه بالله ظاهرياً لكنه يأبى ان يمد يده مستجدياً طالباً حاجته من الله، فهو على استعداد لان يحني رقبته امام القاصي والداني لكنه لا ينادي «يا الله» متضرعاً! وهذا من آثار التلوث بالذنب، بل وقد يصل الأمر بان ينفر وينزعج لذكر الله وسماع اسمه! في حين يسرُّ قلبه سماع ذكر الآخرين: (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ).[2] بيد ان هذه الدرجة ليست السقوط النهائي! فالسقوط النهائي في ان نقول ان الله «مفهوم رمزي»، والسقوط النهائي ان ندّعي الايمان بالقرآن لكن قراءتنا للقرآن تتمثل في ان الله مفهوم صوري ورمزي ولا وجود عيني وخارجي له! ان الابتلاء بمثل هذه المهالك والتحدث بمثل هذه الوقاحة عن القرآن وانكار الله عاقبة الظلمات المتراكمة للذنب وذاك قوله تعالى: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ). ولن تنتج حالات الغرور العلمي، والعنفوان بالشخصيات المزيفة والتبجّح بالعناوين والألقاب، ومؤالفة اهل المعاصي وفي كلمة واحدة «عبادة الذات» سوى ذلك. ان هذه الامور تؤدي الى ان يزداد قلب الانسان ظلاماً يوماً بعد يوم حتى يصل به الحال ان يُسلب منه نور الايمان كلياً، وفي هذه الحالة لا يستطيع أن يرى الحقيقة وينكرها بالرغم من انها اوضح من الشمس!

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يُشرق نور الايمان على قلوبنا ويُبعد عنا ظلمات الذنوب والموبقات.

---

١. البقرة: ٤٥.

٢. الزمر: ٤٥.



الدرس الثاني والعشرون

الذنب سبب سقوط الانسان

عقم العمل مع الكفر

اشرنا في الدروس السابقة الى انه وطبقاً لما يستفاد من الآيات الكريمة واحاديث اهل البيت عليهم السلام، ان العنصر الاساس في سعادة الانسان هو الايمان بالله، فالايمان يؤدي الى بلوغ رحمة الله الواسعة والتنعم بالنعم الالهية الابدية التي لا نفاد لها. وفي المقابل ان الكفر هو السبب الرئيسي في سقوط الانسان وحرمانه من السعادة الابدية. كما قلنا ان للايمان مراتب لا حصر لها، وان المحافظة على كل مرتبة من الايمان وتناميها ورقيّها منوط باداء الاعمال الصالحة، والمسيرة التكاملية للانسان في الحقيقة ليست سوى تكميلاً لمراتب الايمان وتسلُّقَ درجاته.

ومن ناحية، مثلما هنالك نسبة بين الايمان والعمل ثمة نسبة تُشابهها بين الكفر والذنب، فكما ان الاعمال الصالحة ترسخ جذور الايمان، فان الذنوب تقرّب الانسان الى الكفر، فقد يسقط الانسان نتيجة الذنب بحيث يقف عند الحد الفاصل بين الكفر والايمان بنحو أن خطوة واحدة بذلك الاتجاه تسقطه في وادي الكفر، أو خطوة واحدة بهذا الاتجاه تدخله في زمرة الايمان.

استفدنا من البحوث المتقدمة ان العمل مهما كان كثيراً إذا لم يصاحب الايمان فلن يكون ذا جدوى، وان عاصفة الكفر ستعصف باعمال هذا الانسان. يقول القرآن الكريم بهذا الصدد: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ).[1]

---

١. ابراهيم: ١٨.

ان الذين لا نصيب لهم من الايمان والمتورّطين بالكفر والذين لا عزيمة في قرارة انفسهم على التبعية لله لن ينفعهم أيُّ عمل يقومون به وان كان صالحاً وايجابياً في ظاهره وامتدحهم الناس عليه، وربما تعود عليهم هذه الاعمال بنتائج في هذه الدنيا بيد أن عملهم لن يثمر النتيجة الجوهرية وهي النعم الابدية في الآخرة، واعمالهم كرماد تنثره الرياح في الجو فلا يبقى منه ادنى أثر: (كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ). فالرماد خفيف جداً وهو اخف من التراب. فلو وضعوا جبلاً من رماد في مقابل عاصفة هوجاء ماالذي سيبقى منه؟ فالذين كفروا وتعلقوا باعمالهم على أمل ان تنفعهم يوماً ما، سيرون يوم تهب عاصفة المحشر والقيامة ان ذرة منه لن تبقى في مكانها: (لا يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا عَلىٰ شَيْءٍ).

وفي آية اخرى جاء تشبيه رائع آخر بهذا الخصوص: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّٰى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ).[١]

ان قصة اعمال الذين كفروا كقصة عطشان في صحراء قد أعياه عطشه وإذا به يرى عن بُعدٍ ماءً فيُسرع نحوه كي يتخلص من العطش والهلاك، لكنه لدى وصوله اليه بكل سرعة يرى انه لم يكن سوى سراباً ولا أثر فيه من الماء: كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً. فالكافر يظن انه سيجني من اعماله، وقد اغرّته مدائح الناس وثناءاتهم عليه بان اعماله هذه ستكون ذات فائدة له، لكنه يفاجأ يوم القيامة اذ يرى مَن كان يكفر به سنواتٍ طوالاً، حاضراً عند اعماله: وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ. فالله هو الذي سيحقق في اعماله وسيثبت له ان ما كان يحسبه ماءً لم يكن سوى سراب، انهم لم يكونوا يتصورون ان مآلهم سيكون يوماً ما الى الله ويلتقون به! في ذلك لن يروا ما كانوا يأملون رؤيته من اعمال، بل سيواجهون مَنْ لم يكونوا يتوقعون رؤيته أبداً. حينها سيرون ان حسابهم على الله فقط ولا قدرة لأحد على إغاثتهم.

---

١. النور: ٣٩.

ويقول في آية اخرى بهذا الصدد: ﴿وَقَدِمْنا إِلىٰ ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾.[١] وهذه الآية تشبه تلك الآية القائلة ان مثل اعمال الكفار كرمادٍ يوم تهب عليه الريح فتذره في الجو. فهنا يقول تعالى ايضاً اننا سنحقق باعمال الكافرين وسيرون انه سيصبح كالهباء المنثور لن يبقى منه اثرا! وكما ورد في ذيل بعض هذه الآيات، ان الله سبحانه وتعالى لن يظلم هؤلاء اثناء هذا الحساب، وانما هي نتائج اعمالهم رُدّت اليهم، وفي الواقع انه الظلم الذي مارسوه بحق انفسهم، وليس الأمر ان لاعمالهم حقيقة ولكن رغم ذلك يمحقها الله، بل ان اعمالهم كانت منذ البداية ضلالاً وانهم تعلقوا بها واهمين.

أخسرُ الناس

على أية حال، في ضوء هذه الآيات لاشك في ان السعادة الاخروية انما تتأتى في المنظار القرآني في ظل الايمان والعمل المنبثق عن الايمان، وان العذاب والشقاء الابدي يحصل نتيجة الكفر. ومن الضروري التذكير بهذه الملاحظة الواردة في القرآن ايضاً من ان حساب المستضعفين فكرياً يجري على حدة. والمستضعف الفكري هو من لم تنكشف امامه الحقيقة دون تقصير منه، أما الذين اتضحت الحقيقة أمامهم لكنهم بالرغم من ذلك يسلكون طريق الانكار والكفر فمن المسلّم به انهم يُبتلون بهذا العذاب. وان اسوء المواقف التي تواجه امثال هؤلاء ان اناساً كانوا يتصورون امتلاكهم للرصيد وان اعمالهم ستنفعهم لكنهم يفاجأون حين يرون «ايدينا قصيرة والتمر في اعلى النخيل»! فقد يعرف الانسان سوء الفعل لكنه يقوم به جرّاء وسوسة النفس والشيطان، ثم يعترف خجلاً بسوء عمله وقبح فعله. ولكن قد يختلط الأمر على الانسان بحيث يحسبُ انه انسانٌ صالح من البارزين والمرموقين، ممن نال توفيق القيام

---

١. الفرقان: ٢٣.

بمثل هذه الاعمال الصالحة، لكنه فجأة يفتح عينيه واذا به يرى جهنم أمامه! وامثال هؤلاء هم أخسر الناس: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً).[1]

في الآية ١٨ من سورة ابراهيم قال تعالى: (ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ)، لكنه يقول في هذه الآية ان أبعد الضلال واخسرَ الاعمال هو عمل هؤلاء الكافرين: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. فمن هم الأخسرون اعمالاً؟ انهم الذين بطلت اعمالهم في الحياة الدنيا لكنهم يظنون واهمين ان اعمالهم حسنة جداً: يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً. فما اكثر الذين لا يؤمنون بالله ويسلكون طريق الكفر عن جهل، فاذا كان هؤلاء من المستضعفين فكرياً فمن المرجوّ أن لا ينالهم العذاب، وعلى أية حال إن خسر هؤلاء فهم خاسرون وليسوا أخسرين، فاخسرُ الناس من كانوا ذوي عقل وشعور وفهم عالٍ جداً لكنهم رغم ذلك يكفرون ويفرحون باعمالهم: يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

لماذا هم الأخسرون؟

لماذا هؤلاء اخسر الناس يا ترى؟ ان هؤلاء ليسوا الأخسرين لانهم يعلمون بقبح اعمالهم لكنهم يتمادون في ذنوبهم وعصيانهم بل هم خاسرون، والاخسرون هم الذين اعمالهم قبيحة وذنوب في حقيقتها لكنهم وبسبب نظرتهم السطحية يتصورونها صالحة ويظنون انهم يقومون باعمال حسنة. والسؤال هو: لماذا هؤلاء هم الاخسرون اعمالاً؟ الجواب يتعلق بسُنَّة شديدة ومؤلمة من سنن الله. فمن سنن الله ان الانسان قد يصل به الأمر احياناً بان يفقد القدرة على تمييز الحسن من القبيح جرّاء سوء العمل والذنب،

١. الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦.

وبالرغم من انه من اهل العلم والمعرفة لكنه يقع في الضلال: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً).[1] فنتيجة لعبادة الهوى يبلغ به الأمر أن تنعدم لديه الرؤية بالرغم من علمه: اضلّه الله على علم. اذ يطبع الله على سمعه وقلبه ويسدل على بصره ستراً، والسمع والقلب والعين كناية عن ادوات الفهم والمعرفة، أي ان الله يصمّ ادوات معرفته. وقد وردت امثال هذه التعابير في آيات عديدة من القرآن الكريم: (أُولٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصٰارِهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْغٰافِلُونَ).[2] ويقول في موضع آخر: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ).[3] فيطبع الله على قلوب هؤلاء، أي توصد قلوبهم وتُغلق بحيث لا ينفذ اليها نور الحق، وهذا في الواقع عقاب الانحراف المتعمَّد في المسار والافكار ويعدّ من اسوء انواع العذاب الالهي، عذاب ينزل على بعض الناس في هذه الدنيا ويتسع مداه الى يوم القيامة. وبسبب هذا العذاب يفقد المرء القدرة على تمييز الحق من الباطل، ليس ان الله سبحانه وتعالى يظلمهم ـ والعياذ بالله ـ بهذا الخصوص، بل بما انهم اختاروا الانحراف مساراً وفكراً، فان السنّة الالهية تقضي بمضاعفة ضلالهم: (فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ).[4]

على أية حال، ان هذه السنّة بالغة الانذار، وتستحق التأمل بالنسبة للذين هم على تماس بالكتاب والفهم والعلم والاستدلال، فاذا لم نعمل بلوازم علمنا ونؤثر الضلال عالمين عامدين فان الله عزّ وجلّ يعاقبنا في هذه الدنيا بحيث لن نعود قادرين على التمييز بين الحق والباطل. وهنالك نماذج كثيرة في هذا المجال، ومن بين النماذج التي يذكرها القرآن نفسه هو بلعم بن باعورا، فلقد كان عالماً ويقول الله باننا آتيناه آياتنا

١. الجاثية: ٢٣.
٢. النحل: ١٠٨.
٣. البقرة: ٦ ـ ٧.
٤. الصف: ٥.

لكنه اتّبع هواه فهوى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.[1]

الكفر عاقبة الذنب

حتى الآن اتضحت لنا الحقيقة من ان أمامنا طريقين: طريق الكفر وطريق الايمان، طريق الله وطريق الشيطان، طريق الصواب وطريق الانحراف، فالصراط القويم «الصراط المستقيم» هو طريق عبودية الله والايمان به وطاعته، وطريق الانحطاط والضلال هو الإعراض عن الله وتجاهل الدين وحقائقه وطاعة الشيطان. وعلينا الآن ان نرى ما يجب علينا صنعه كي نسلك طريق الايمان من بين هذين الطريقين اولاً، وان نستطيع ـ بعد المسير في طريق الايمان ـ الارتقاء في مراتبه بسرعة ونبتعد بأسرع ما يمكن عن الانحراف الفكري والكفر والضلال ثانياً، ومن ناحية اخرى يجب ان نرى ما الذي يسوقنا نحو الكفر والتمادي في مراتبه كي نكون على حذرٍ منه.

فيما يخص ما يؤدي الى ان يتدرج الانسان في الابتعاد عن الايمان ويقترب الى الكفر وبالتالي يُصبح كافراً، اشرنا آنفاً الى ان السبب في هذا الأمر هو «الذنب»، واستندنا في ذلك الى آيات من القرآن الكريم، ومن المناسب ان نقوم هنا بتحليل في هذا المجال حول أنه كيف يفضي الى الكفر؟ وما هي العلاقة بين ارتكاب الذنب والوقوع بالكفر؟

يرى علماء الاخلاق ان وقوع الانسان في الذنب يأتي عادة جراء غلبة الشهوة أو الغضب. فعندما يقع الانسان تحت تأثير أحد هذين العنصرين أو ما شابههما فهو يرتكب الذنب لاول مرة، وبعد لحظات تزول تلك الحالة من غلبة الشهوة أو الغضب ويعود الى وضعه الطبيعي. واذا ما عاد الى وضعه الطبيعي يندمُ ويسأل نفسه: أيّ

---

١. الاعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

عمل هذا الذي قمتُ به؟ لقد تلذذت لحظاتٍ أو استفرغت غضبي لكنني جلبتُ لنفسي عذاب جهنم الأبدي! هذه الحالة تحصل للكثير من الناس فيندمون ويستغفرون لافعالهم وإن الله سبحانه وتعالى يغفر لهم، حتى انه ورد في الروايات ان المؤمن اذا اذنب يأمر الله الملائكة المكلفين بتدوين الاعمال ان لا يسجلوا ذنبه لمدة سبع ساعات عسى ان يتوب.[1] نعم فان الله يريد أن لا يُثبّت هذا العمل في سجلّ اعماله ما امكن، وهذه غاية العناية الالهية بان يسعى الله ان لا يتلوث سجلّ عبده ثم يصار الى تطهيره فيما بعد. وعلى أية حال، اذا ما تاب فكأنه لم يذنب أبداً: **التائب من الذنب كمن لا ذنب له.**[2]

ولكن اذا لم يتب بعد ارتكابه للذنب الاول واستحوذ عليه الشيطان واقترف الذنب الثاني والثالث... الخ، ستضعف لديه روح الندم تلك، وعندما يتكرر الذنب يعتاد عليه رويداً رويداً، وهنا يزول قبح الذنب وسوءه لديه، ولكن في هذه الاثناء يتفاعل في نفسه تناقضٌ، فهو من ناحية يؤمن بالله ويعلم ان هذا الفعل حرام ومعصية وقد خُصَّ بمثل هذا العذاب، وهو من ناحية اخرى قد أدمنَ هذا الذنب ولا قدرة له على تركه، وفي الحقيقة يحصل تناقض بين معتقده وبين عمله، وتتصارع في داخله قوتان، فيسأل نفسه: هل أنا انسان سيء؟ فيتبادر الى ذهنه انه لم يعمل بلوازم ايمانه وبما ثبت له على نحو اليقين. من هنا فهو يجيب: نعم أنا انسان سيء بارتكابي لهذه الموبقات والذنوب. ولكن على الجانب الآخر ان «حب الذات» لا يدعه يقتنع حتى مع نفسه بانه انسان سيء، فالانسان يطمح دائماً بان يتصور نفسه انساناً جيداً، وهذه احدى الخصائص والمزايا النفسية العجيبة لدى الانسان، فالكثير من اهل المعاصي والموبقات والذنوب بالرغم من علمهم وادراكهم بسوء وقبح عملهم لكنهم يأبون

---

١. راجع: *بحار الانوار*: ج ٥، الباب ١٧، الرواية ١٧.
٢. نفس المصدر: ج ٦، الباب ٢٠، الرواية ٧٥.

الاعتراف حتى في قرارة انفسهم بسوئهم! انه التناقض الذي يدفع بالمؤمن المذنب ان يشعر مع نفسه: ان مستلزمات الايمان تستدعي: انني انسان سيء من ناحية، وان حب الذات يقول: كلا أنا انسان جيد من ناحية اخرى، ولغرض ان يتخلص الانسان من هذا التناقض والصراع الذي يؤذي نفسه ويزعزع استقراره فهو يسعى لعلاجه بأي نحو كان.

هنا يتدخل الشيطان فيعمل في البداية على إثارة الشبهة والشك في ذهنه: من أن يُعرف ان هذه ذنوب حقاً؟ وليس من الواضح ان هذا الفعل من القبح بالمستوى الذي تتصوره! لكن فطرته الانسانية الطاهرة ترد قائلة: ان هذا عمل قد اجمع العلماء على حرمته وورد في الرسائل العملية، وقد سمعتُ بحرمته منذ سنوات من على المنابر وعن طريق الوعاظ والخطباء. وهنا يحاول اقناع نفسه بان العلماء يختلفون فيما بينهم في موارد عديدة، وهذا بحد ذاته دليل على امكانية وقوعهم في الخطأ اذ ليس لله عدّة احكام في مسألة واحدة، فلعلهم قد اخطأوا هنا ولا يكون هذا العمل معصية.

وفي هذه الأيام تجاوز البعض حتى هذا المستوى، ففي مقابل الادلة القطعية المحكمة التي تقام عليهم من آيات القرآن مما لا تُبقي مجالاً للجدل والكلام والاقاويل من هذا القبيل بان العلماء يختلفون في الفتوى... الخ، يقول هؤلاء بكل صلافة: اولاً: ان القرآن ليس كلام الله، فهو كلام النبي، والنبي انسان عادي قد يقع في الخطأ، وثانياً: على افتراض ان القرآن كلام الله، فمن الذي يقول ان الله لا يكذب؟! كلا فلعله قد كذب ايضاً!! نعم، لا تتعجبوا! فكل ما تريدون قوله يحصل من هذا المخلوق الذي يمشي على رجلين! فلقد تحدّث بعض مَنْ يُسمَّون بالمثقفين الدينيين وهم منحرفون يقارعون الدين وفي ظاهرهم مسلمون، في الجامعات والمحافل العلمية وقالوا: «اننا لا نمتلك دليلاً على حتمية صحة كلام الله»، من هنا حتى لو ثبت في موضع ان الكلام، كلام الله حتماً فهم يقولون: «من اين يُعرف ان الله صادقٌ في كلامه، لعله يكذب»!! نعوذ بالله من هذا الكفر السافر والمحاربة الوقحة للدين والطبيعة الشيطانية الماكرة.

هذا هو المسار الذي تحدَّثنا عنه من الذنب يقترب بالانسان تدريجياً من حدود الكفر، وبالتالي يرميه في قعر وادي الكفر. فلغرض ازاحة ذلك التناقض الذي اصبح سبباً في أزمته النفسية، فيقول في البداية: «لعل النبي قد اخطأ» وبعد ذلك يقول: «لعل الله قد اخطأ» واخيراً يريح باله ويريح الجميع فيقول: «ان الله كذب في قوله»!!

ما الذي يرمي الانسان بمثل هذا المستنقع من السقوط والانحراف؟ انه الذنب المتكرر وغير المدروس: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوأىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ).[١] نعم فعاقبة الذنب الكفر، فلو كنا نخاف الكفر والعذاب الابدي فعلينا الاحتياط منذ البداية بان لا ندخل وادي الذنب، فالتحرك في طريق الذنب تحرك في طريق الكفر، وكلما ازدادت سرعة الانسان في اقتراف الذنب فانه يصل الكفر اسرع، وبطبيعة الحال ربما ينال أناسٌ التوفيق في وسط الطريق ومن خلال موعظة أو استماع آية قرآنية أو دعاء عبد صالح وما شابه ذلك فيعودون الى وادي الايمان، ولكن على أية حال، ان مسيرة الكفر مسيرة تؤدي الى الكفر في حال استمرارها.

السبل الكفيلة بعدم الوقوع في فخ المعصية

كان الحديث لحد الآن حول كيفية ان الذنب يجرف الانسان الى الكفر، والآن نتطرق لمسألة اخرى وهي ماذا نفعل لكي لا نقع في الذنب؟ ماذا نفعل لكي يقوى ايماننا ولا نقع في مصيدة الذنب ولا نسقط في مستنقع الكفر؟

ان من اهم اهداف الانبياء والاولياء والائمة الاطهار عليهم السلام وعلماء الاخلاق واعلامهم هو ان يعلّموا ابناء المجتمع كيفية العمل لتوطيد ايمانهم ولا يرتكبوا الذنب. وهنا لابد من ان نعرف ان الانسان مخلوق مختار ومريد، فنحن يجب ان نريد ونختار

١.الروم: ١٠.

طريق الخير ولا نمشي في طريق الشر، فلو لم يكن سلوك طريق الخير والابتعاد عن طريق الشر ارادياً لن يكون هذا العمل انسانياً، فقوام العمل الانساني بتوفر عنصر الارادة والاختيار، ومن الطبيعي ان مراتب ارادة الناس واختيارهم متفاوتة، ومن المسلّم به اننا اذا اردنا في البداية ان نسلك الطريق الذي اختاره عظماء الدين وسلكوه فمن الصعوبة بمكان ان نستطيع إقناع أنفسنا بأننا نصوغ في دواخلنا مثل هذه الارادة لانه طيق شاق جداً ويستدعي جهداً وعملاً مضنياً، فالذي مافتئ مبتلياً بانواع الذنوب اذا ما اراد الآن تناسي تلك اللذائذ المحرمة والتخلي عنها دفعة واحدة فذلك أمر في غاية الصعوبة. لا قدَّر الله ان يُدمن المرء على الذنب والاّ فانه سيرى ان الإقلاع عنه امرٌ شاق جداً. من السهل القول: ليصمّمِ المرء على ان لا يذنب، لكن اتخاذ مثل هذا القرار ليس بالأمر الهيِّن، وليس باختيار ان يعزم متى شاء ويخطّ بيده حول الذنوب واللذائذ المحرمة بأسرها! من هنا كان دأب المربّين الإلهيين وعلماء الاخلاق بان يقدموا للانسان طرقاً اكثر سهولة، فيأخذ هؤلاء المربّون بايدي الناس ويباشرون معهم خطوة فخطوة انطلاقاً من الاعمال التي لا تستعصي الارادة فيها كثيراً كي يصبح المرء بأدائه لها اكثر قوة وتمحيصاً تدريجياً، ويتبلور لديه الاستعداد لارادة الاعمال الأكثر صعوبة وثقلاً.

ان مثل الذي يريد المضيَّ قدماً في مراتب الايمان كالرياضي الذي يطمح للحصول على البطولة في لعبة رياضية، فهو يرجع لمدرّب خبيرٍ ويطلب منه ارشاده لهذا الغرض، فيقوم المدرّب في البداية بتعليمه التمارين البسيطة، وهكذا يخطط له بالتدريج حتى يصبح قادراً على القيام بالمهامّ الصعبة شيئاً فشيئاً. وهكذا يتصرف معلم الاخلاق ايضاً، فهو في البداية يقدم الاعمال البسيطة كي يتسنى للمرء بعد ادائها الحصول على القابلية لاداء الاعمال الاكثر صعوبة بشكل تدريجي. فالمعلم الخبير بالاخلاق يقدم في البداية سبل الاحتراز عن الذنب بصورة مبسطة وممكنة التطبيق كي يتخلى المرء شيئاً فشيئاً عن عاداته الذميمة.

من هنا فان تخصيص برنامجٍ مفصلٍ لترك الذنوب والارتقاء في مراتب الايمان ليس امراً هيناً، فلابد من التحقيق بشكل تفصيلي بكل تعاليم الانبياء والاولياء للحصول على مثل هذا البرنامج. وفي نفس الوقت بالامكان طرح بعض التعليمات العامة التي يمكن تطبيقها في جميع الحالات، وهي امور اساسية ليس من الصعب الالتزام بها واداؤها، واذا ما التزم المرء بهذه التعليمات سينجح شيئاً فشيئاً باداء الاعمال الصعبة ايضاً ويترك ما اعتاد عليه من ذنوب. وهنا نشير الى بعض هذه التعليمات:

١ـ الابتعاد عن الاجواء والظروف المثيرة نحو الذنب

من التعليمات العامة لأجل أن لا يثار المرء نحو الذنب ويأمن من أن يستفزّه الشيطان، ان لا يقترب من ظروف الذنب ومكانه والحالات التي تدفع الانسان نحو الذنب وان يبتعد عنها ما استطاع. فلو احتمل الانسان ان في الطريق منحدراً خطيراً أو حفرة خطيرة لا قدرة له على الخلاص منها ان هو وقع فيها، فهو يسعى لأن ينأى عن ذلك المكان، وما نراه احياناً من نصب علامات التحذير واغلاق بعض الطرق وارشاد الناس الى طرق اخرى فانما لمراعاة هذا الابتعاد والاحتياط الضروري، وفي الأيام التي تهيج البحار أو في المناطق التي تزداد فيها اعماق المياه، يوصي المختصون بتجنب الاقتراب من البحر أو ذلك المكان المعين. وهكذا فيما يخص الذنب اذ يتعين على الانسان ان ينأى عن المكان الذي يقوى فيه احتمال الابتلاء بالذنب، وهذا الابتعاد ليس صعباً في الحالات العادية، ولكن اذا ما اقترب وتغلب عليه الغضب أو الشهوة اذ ذاك تصبح من الصعب السيطرة. واذا ما حاول الابتعاد منذ البداية لن تكون مهمة الابتعاد عن الذنب بتلك الصعوبة.

بناءً على هذا فان هذه المعلومة الكلية تتمثل في ان يحاول الانسان منذ البداية ان لا يدنو أيداً من موقع الذنب ومكانه، فيبتعد عن النظرة ان كانت بعض النظرات

تؤدي لان ينزلق قدمه نحو الذنب، واذا ما رأى بعض انواع الموسيقى تثيره وتجـرفه نحو الابتذال والذنب، يضع حداً لموسيقى ويحترز عن بعض انواع الموسيقى المشبوهة لكي لا يقع في انواع الموسيقى المهيجة والمحرمة.

٢ـ تجنب التخمة

ثمة اشياء وحالات غالباً ما تدفع الانسان نحو الذنب جرّاء غلبة الاهواء الحيوانـية للانسان. ومن الحوافز الحيوانية القوية فينا كثرة الاكل والتخمة، فالذين يريدون ان لا يقعوا بالذنب عليهم السيطرة على بطونهم نوعاً ما. ان تشريع صيام شهر واحد في السنة من قبل الله سبحانه وتعالى لم يكن خالياً من الحكمة، فحيث اننا احرار عـلى مدار السنة لذلك تخرج السيطرة على البطن من ايدينا رويداً رويداً، من هنا لابد من وجود برنامج جادٍّ ومدروس كي يتمرن الانسان لفترة معينة ويمسك بزمام السيطرة على البطن: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).[١]

وفيما عدا الصيام فان التقليل من الاكل مفيدٌ لبلوغ هذا الأمر ايضاً، وينبغي ان لا تكون قلة الاكل بحيث تؤدي الى إضعاف الانسان أو مرضه وتمنعه من اداء التكاليف والاعمال الحياتية اليومية.

٣ـ الابتعاد عن اصدقاء السوء

ان من اهم وانجع الاعمال باتجاه المحافظة على الايمان وتوطيده، الابتعاد عن اصدقاء السوء والطالحين، فالفتيان والشباب على وجه الخصوص يتأثرون كثيراً باصدقائهم، ويتقبلون بكل سهولة عن الصديق وزميل اللعب وزميل الدراسة والجار، من هنا فان

١. البقرة: ١٨٣.

مسؤولية الوالدين والمربّين في ان يوصوا الشباب بانتخاب الصديق الصالح ويعينوهم على ذلك.

ان الصديق مؤثرٌ جداً في ادخال المرء الى الجنة أو الى النار، ولو اننا ألقينا نظرة على ما مضى من تجاربنا سنرى ان الكثير من نجاحاتنا قد تحققت في ظل علاقاتنا مع أناس صالحين، فهنالك الكثير ممن اصلحهم الصديق الصالح وجعل أحدهم محباً للمسجد اذ كان الصديق المسجدي يقصده ويدعوه للصلاة في المسجد لكنه يقول: لدي عمل، لا طاقة لي. بيد ان الصديق الصالح يصر عليه ويصحبه الى المسجد في خاتمة المطاف. وفي اليوم التالي يدعوه لحضور جلسة القرآن لكنه يقول: لستُ مرتاحاً في هذه الليلة، لكن الصديق الصالح يأخذه الى جلسة القرآن بالرجاء والتمنّي، وخلاصة القول ان مثل هذه الدعوات والطلبات تتواصل بحيث يصبح ذلك العمل الصالح مَلَكة لدى الانسان وبمرور الزمن تشكل مجموعة السلوكيات والاعمال الصالحة والحسنة شخصيته. وفي الطرف المقابل ان الذين كان لهم اصدقاء سوء تأثروا بهم فتورّطوا بافعال وعادات قبيحة ومذمومة ولعل غالبية الذين تورّطوا بالمخدرات وسائر المشكلات الاجتماعية انما كان ذلك بسبب صديق السوء.

على أية حال، ليس من الصعوبة ان يحاول المرء منذ البداية ضبط رفقته وصحبته، فما لم يصبح المرء مدمنا فمن السهل نسبياً الابتعاد عن المدمنين ومرافقتهم والاستعاضة عنهم بالصالحين والخيّرين للصداقة، لكنه اذا ما تعرّف على صديق السوء واتخذه صديقاً له اذ ذاك لا يكون قطع تلك العلاقة بسهولة الابتعاد عن الصداقة، فعندما يصادق المرء أحداً يعتاد عليه لم يعد بمقدوره الانفصال عنه بسهولة، وعندما يقتفي أثر صديق السوء فانه يتأثر به شيئاً فشيئاً وسيترك صديق السوء هذا أثره في جميع ابعاد شخصيته، في طريقة حديثه ومشيته وارتداء ملابسه وفكاهته وكافة تصرفاته. فليسوا قلة اولئك الذين انحدروا نحو معاصي معينة تدريجياً بسبب ما تعلموه من

طرائف معينة كان يكررها اصدقاؤهم. وليسوا قلة اولئك الذين وقعوا في مفاسد وانحرافات جسيمة بقراءتهم لقصة أو مشاهدتهم لفيلم وضعه صديق السوء تحت تصرفهم. من هنا يجب ان نكون في غاية الحساسية والدقة لدى اختيار الصديق ونتجنب الصداقة مع الطالحين والسيئين من الناس، وان نتذكر دائماً ان الصديق مؤثر جداً في ادخال المرء الى الجنة أو الى النار. والقرآن الكريم يصرح بان احدى مواقف النوم التي يبديها اهل جهنم هي لماذا صادقوا وجالسوا بعض الناس: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يا وَيْلَتىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاٰناً خَلِيلاً).[١]

---

١. الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨.

الدرس الثالث والعشرون

الصلاة سرّ التكامل

السرّ المكتوم

اشرنا آنفاً ان ما يؤدي الى تكامل الانسان ورقيّه المعنوي يمكن تقسيمه الى ثـلاثة اقسام، الاول: الامور ذات الارتباط المباشر بالله سبحانه وتعالى، والثاني: الاعـمال والواجبات التي تعود الى الانسان نفسه، والثالث: المسـائل ذات الارتـباط بسـائر الناس بل وحتى بالحيوانات والاشياء الاخرى. والقسمان الثاني والثالث على صـلة بمعنىً من المعاني بعلاقة الانسان مع الله، لان تكامل الانسان ليس سوى القرب من الله وان هذه الاعمال تؤدي الى تكامل الانسان لانها تقرّب من الله. بناءً على هذا ان جميع الاعمال والشؤون التي تفضي الى تكامل الانسان انما هي بالحقيقة على صلة بعلاقة الانسان بالله؛ ومع ذلك لغرض تبسيط البحث وجدولة المطالب والابحاث بالامكان تفكيك هذه الاقسام الثلاثة عن بـعضها، والقـول ان مجـموعة القـيم الاخـلاقية في الاسلام يُمكن بحثها في ثلاثة فصول.

على هذا الاساس فقد ركزنا بحثنا على الافعال والشؤون ذات الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى، وقد اشرنا الى ان أُمَّ القيم والكمالات الانسانية «الايمان بالله» وحينها يصل الدور بعد الايمان بالله الى سائر الافعال والامور المذكورة، ومن بينها الامور التي ترتبط بالله جل وعلا مباشرة.

ان الصلاة هي الأبرز والأكثر تأثيراً وفائدة في مجموعة الافعال، المخاطَب المباشر فيها ومتعلقها الله سبحانه وتعالى بالذات، وبالرغم من الاهمية الفائقة للـصلاة فـان

البعض منا وللاسف لا يعتني بها ولا يؤدي حقها كما يجب وينبغي، ومن التصورات الرائجة نوعاً ما بين طلاّب الكمالات المعنوية والروحية هو ان هنالك وصْفات سرّية مليئة بالرموز لهذا الغرض يعرفها بعض الناس فقط ويفتقر اليها الآخرون! ولعل هذا التصور من اكثر المصائد خدعة التي ينصبها الشيطان في طريق طلّاب الكمال الانساني والمعنوي، فهل يُعقل ان الله سبحانه وتعالى الذي بعث الانبياء واولياءه لتربية البشر وتكاملهم جعل أهمَّ وابرز عنصر أو عناصر في هذه العملية ضمن الاسرار التي يعرفها نفرٌ محدود من الناس؟! لقد بذلت كل تلك الجهود من اجل هداية البشر، لكن الله يجعل السرّ الحقيقي لجوهر الهداية والكمال مختوماً ومكتوماً! من المسلَّم به أن مثل هذا التصور ليس بعقلي ولا صحيح. بل على العكس لابد من ان يكون التأكيد أكثر في الكتب السماوية ومعارف الوحي على ما هو اكثر تأثيراً من سائر الامور في تكامل الانسان. وعلى هذا الاساس علينا ان ندقق في معارف الوحي ونرى على أي الامور جرى التأكيد اكثر كي نوليه المزيد من الاهتمام والتوجه.

اهمية الصلاة في القرآن

في ضوء التحليل الآنف الذكر اذا ما طالعنا القرآن الكريم ـ وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي يتمتع بالاعتبار وفي متناول البشر في الوقت الراهن ـ سنجد ان ايَّ شيء لم يحضَ فيه بالاهمية بمقدار الصلاة، فلعل ما يربو على المائة آية نزلت حول الصلاة وما يدور حولها، وعلى اساس آيات القرآن فان هذه الفريضة كانت واجبة على أتباع الشرائع السابقة واكد عليها كافة الانبياء. ومن المناسب هنا ان نستقرئ طائفة من هذه الآيات:

ـ كان دعاء ابراهيم عليه السلام عند الله سبحانه وتعالى: (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي).[١]

---

١. ابراهيم: ٤٠.

ـ ويقول تعالى في آية اخرى نقلاً عن ابراهيم عليه السلام: (رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوٰادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاٰةَ).[١]

ـ وتحظى الصلاة بالتأكيد في اول وحي ينزل على موسى عليه السلام: (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاٰةَ لِذِكْرِي).[٢]

ـ وفي الوقت الذي لم يمض شيء على ولادة عيسى عليه السلام قال عن الصلاة: (قٰالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتٰانِيَ الْكِتٰابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبٰارَكاً أَيْنَ مٰا كُنْتُ وَأَوْصٰانِي بِالصَّلاٰةِ وَالزَّكٰاةِ مٰا دُمْتُ حَيًّا).[٣]

ـ ومن بين وصايا لقمان لابنه يوجد التأكيد الصلاة: (يٰا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاٰةَ).[٤]

ـ ويأتي الخطاب لنبي الاسلام صلى الله عليه وآله بما يلي: (اتْلُ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتٰابِ وَأَقِمِ الصَّلاٰةَ إِنَّ الصَّلاٰةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ).[٥]

الصلاة في مرآة الروايات

وقد جرى التأكيد في الروايات الاسلامية كثيراً على هذه الفريضة الكبرى وعُدَّت لها آثار وثمرات في غاية الاهمية، وكلّنا على معرفة بهذه الروايات، وهنا نلقي لمحة على بعض هذه الروايات من باب التذكير والتبرك:

ـ الرواية المشهورة التي سمعنا بها جميعاً أو حتى نقلناها للآخرين حيث يقول صلى الله عليه وآله: **الصلاة عمود الدين.**[٦] والعمود تُطلق بالعربية على القضيب من الخشب أو الحديد الذي يُنصب في وسط الخيمة عند إقامتها، فمن الطبيعي انهم اذا ازالوا العمود فان الخيمة ستسقط الى الارض. وفي هذه الرواية يقول صلى الله عليه وآله من باب التشبيه ان علاقة

---

١. ابراهيم: ٣٧.
٢. طه: ١٣ ـ ١٤.
٣. مريم: ٣٠ ـ ٣١.
٤. لقمان: ١٧.
٥. العنكبوت: ٤٥.
٦. *بحار الانوار*: ج ٨٢، الباب ١: الرواية ٣٦.

الدين بالصلاة هكذا، فاذا ما عُزلت الصلاة عن الدين لن يبق الدين قائماً! من هنا فان هذه الرواية تكشف عن الاهمية الفائقة والحساسة للغاية للصلاة. وهوﷺ يضيف في هذه الرواية مصرِّحاً بأنها إذا قُبلت قُبل ما سواها، وإذا ردّت ردّ ما سواها. والحاصل أن الصلاة عمود الدين، مثلُها كمثل عمود الفسطاط اذا ثبت العمود ثبتَ الاوتاد والاطنابُ واذا مال العمود وانكسرَ لم يثبت وتد وطنب. فاذا كان عمود الخيمة قائماً وثابتاً قامت الخيمة وثبتت، لكن عمود الخيمة اذا ما كُسر اذ ذاك لن يكون بمقدور الاوتاد والاطناب إقامة الخيمة.

ـ الرواية الواردة عن كلٍّ من الامام الباقر والامام الصادقعليهما السلام بالفاظ مختلفة، ففي حديث قال الامام الصادقعليه السلام: **اول ما يُحاسَبُ عليه العبد الصلاة فاذا قُبلت قُبل سائر عمله واذا رُدّت عليه رُدّ عليه سائر عمله.**[١]

ـ الرواية المشهورة الاخرى التي سمعنا بها جميعاً ايضاً. اذ يروى ان الامام الصادقعليه السلام لما حضرته الوفاة أمر بان يُخبر ذووه ومعارفه ولما اجتمعوا قالعليه السلام **ان شفاعتنا لن تنال مستخفاً بالصلاة.**[٢] من خلال هذه الرواية تتضح جيداً اهمية الصلاة ومنزلتها المهمة جداً في الدين ولدى الائمةعليهم السلام وقادة الدين.

على أية حال هنالك آيات وروايات كثيرة في هذا المجال تدلل باجمعها على الاهمية الفائقة والمرموقة التي تنفرد بها الصلاة، وهذه الادلة لا تدع مجالاً للشك بان الصلاة هي أهمُّ عمل بامكانه التقرب بالانسان الى الله عزّ وجلّ، ونحن بالذات نشهد على هذا الأمر عدة مرات باليوم حين نقول: حيَّ على خير العمل. ولعلنا حقاً لم نلتفت الى هذه المسألة حتى الآن ونحن قد كررنا هذه العبارة لسنوات طوال دون التأمل بمفادها. هل نحن مقتنعون بان الصلاة خير العمل؟! ونحن اذ كررنا حتى الآن مراراً: حيَّ على الفلاح، فهل التفتنا حقاً الى هذا المعنى بان الصلاة هي التي تقوى على

---

١. نفس المصدر: الرواية: ٦٤.
٢. نفس المصدر: الرواية ٦٣.

البلوغ بنا الى السعادة والفلاح الذي نشتاق للوصول اليه؟! اجل ان هذه الصلاة التي نمر عليها مرور الكرام افضل الاعمال ومفتاح فلاحنا! دع عنك ما قام به بعض المسلمين وللاسف نتيجةً لبعض الشبهات في الغاء هذه العبارة (حيّ على خير العمل) من الاذان والاقامة، فلقد كان استدلال الخليفة الثاني الذي اسس لذلك، ان هذا الشعار من شأنه ان يترك الناس الجهاد من اجل اقامة الصلاة! ولكن لا يخفى على اهل البصيرة ان الذي يدفع الانسان نحو ميدان الجهاد والتضحية والتفاني في سبيل الله هي العبودية والصلاة، فالذي لا يهتم بالصلاة لن يتوجه الى الجهاد.

ان الصلاة وكما نردد كل يوم ـ والحمد لله ـ مراراً «خير العمل» حقاً، وبامكانها ان تؤثر كثيراً في ايصال الانسان الى الكمال والقرب من الله، وللاسف فان المشكلة الجوهرية للكثير منا هي ان الشيطان يغوينا ولا نأخذ هذا الأمر وما شابهه مأخذ الجد! فنحن نكتفي نوعاً ما بظاهر هذه الالفاظ والاذكار والاوراد والنطق بها، من هنا فاننا لا نشاهد أثراً يُذكر للصلاة، لان هذه الآثار مرتبط بروح الصلاة وصلاتنا تفتقد هذه الروح.

السرّ في كون الصلاة خير العمل

لكن كيف ان الصلاة تعتبر خير العمل وافضل وسيلة للتقرب من الله ونيل التكامل والفلاح من بين جميع الاعمال؟ فلو اننا قارنّا الصلاة مع الكثير من الاعمال نجد ان الصلاة ابسط واسهل بكثير قياساً لتلك الاعمال. اذن لماذا تعتبر اكثر اهمية منها؟ خذوا بنظر الاعتبار الصلاة قياساً للجهاد، فالجهاد عملٌ شاقٌ جداً يقترن بالكثير من الآلام والاخطار من قبيل العطش والجوع والارهاق والجراح وبتر الاعضاء والقتل، تقابله الصلاة فهي عمل بسيط اقصى ما نقوم به قراءة بعض الالفاظ والانحناء والقيام! ومع ذلك اعتُبرت الصلاة «خير العمل»!

لعلنا لا نستطيع ادراك حقيقة هذه القضية جيداً، ولكن على أية حال بمقدورنا بيان بعض المطالب بما يناسب فهمنا. لابد في توضيح هذا الأمر ان نلتفت الى «ان حقيقة العبادة هي ان يسلّم الانسان كل شيء لديه وهو يقف امام المعبود الحقيقي»، والمشكلة الكبرى والمانع الرئيسي امام تكامل الكثير منا هو اننا نرى لنا نوعاً من الربوبية والمالكية ازاء الله سبحانه وتعالى. وبطبيعة الحال اننا لا نبدي هذا الأمر في ظاهرنا أو عن طريق التلفظ لكن حقيقته تكمن في كياننا بشكل مكتوم وخفي، وبامكاننا ملاحظة آثاره في اعمالنا وممارساتنا، فنحن نتصور انفسنا ممن يمتلكون القدرة والذكاء والفراسة والمال والثروة لاسيما اذا كنا نتمتع بمنصب ومكانة اجتماعية اذ ذاك يبلغ الشعور بالانانية والاستقلال ذروته، فنحن نرى لأنفسنا ارادة ورغبة في مقابل الله عزّ وجلّ، بل ونرجح ارادتنا ورغبتنا على ارادة الله وأمره في الكثير من الاحيان: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ).[١] أجل فان الكثير منا منهمكون بعبودية الذات بدلاً عن عبودية الله، ونحن مسلِّمون للنفس وهواها بدلاً من التسليم لله! وبغضّ النظر عن عدد قليل جداً، فان هنالك مرتبة من عبادة الهوى كامنة فينا جميعاً: (وَمٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ).[٢] فثمة شائبة من الشرك لدى غالبية الناس وان عبادة الله تمتزج بعبادة النفس.

وهنا نقول ان الفلسفة الجوهرية من الصلاة هي ان نلقي جانباً حالات عبادة النفس هذه ونسلِّم كياننا باجمعه لله، ونُعرض عن «الذات» وكل شيء آخر ونقبل نحو الله فقط: (إِنّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).[٣] نعم، الصلاة وسيلة لان يقف الانسان متواضعاً امام الله جل وعلا ويهوي برأسه على التراب بين يديه ويتمرّن على التسليم المحض لله.

---

١. الجاثية: ٢٣.
٢. يوسف: ١٠٦.
٣. الانعام: ٧٩.

ان الصلاة ساحة تمرين ومنطلق للعروج كي يجعل الانسان كل شيء لديه وحياته ومماته لله ويسلِّم له: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ).[١]
اجل، فالصلاة تمرين على التسليم، والصلاة غرضها ان تتنامى لدى الانسان حقيقة العبودية وتلك هي التسليم، ويصل الى حيث لا يقول بلسانه فقط بل بقلبه وكل كيانه: (أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ).[٢]

ان ارجاع الانسان كل وجوده ومتعلقاته الى الله واعترافه: انني لا امتلك أياً منها وهي باجمعها ملك لك ويجب ان تكون تحت تصرفك وتُوظَّف في سبيلك، انما هي حقيقة تتجلى وتتجسد في الصلاة، فالصلاة ترسخ هذه الحالة وتنمّيها لدى الانسان. والصلاة من اجل ان يوجه الانسان ظاهره وباطنه نحو الله، من هنا فقد أُمر المصلّي من الناحية الظاهرية ان يوجه وجهه نحوه القبلة: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً).[٣]

لقد ضُمِّنتِ الصلاة الكثير من الحركات الظاهرية التي تُستشف منها صبغة العبودية بكلّ صورها، وقوف العبد بكل وقار أمام مولاه، الانحناء والتعظيم، الإهواء الى الارض والسجود، ورفع اليدين لطلب الحاجة (القنوت) والاعراض عن كل شيء أثناء المناداة بتكبيرة الأحرام، والاذكار والقراءة في الصلاة أو طلب العبد حاجته من المولى، أو شكر العبد لمولاه، أو مدح العبد وثناؤه على مولاه. من هنا فقد وُضعت ظواهر الصلاة من افعال واذكار بنحو تكون معه تجسيداً للعبودية المحضة وتسليماً كاملاً أمام الله سبحانه وتعالى. ولكن كيف يتعين ان تتمتع الصلاة بصبغة العبودية وعطرها من الناحية المعنوية والباطنية والقلبية، هذا ما سنتطرق اليه في الدروس المقبلة ان شاء الله.

---

١. الانعام: ١٦٢.
٢. آل عمران: ٢٠.
٣. الأنعام: ٧٩.

بناءً على هذا إن السرّ في منح الصلاة هذا القدر من الاهمية هو انها افضل وسيلة بامكانها تحقيق الهدف من الخلقة أي إزاحة الأنانية وبلوَرة روح العبودية. والصلاة افضل سبيل ووسيلة بمقدورها تجسيد الإقرار بالمالكية الحقيقية لله تبارك وتعالى وإبراز العبودية في كيان الانسان، وان اي من الاعمال العبادية الاخرى لا تتمتع بالقابليات التي تتمتع بها الصلاة في هذا المجال. فالصيام ـ مثلاً ـ من العبادات ايضاً لكنه يُختصر في ترك بعض الافعال ولا وجود فيه للاوراد والاذكار واظهار العبودية والتذلل. وهكذا سائر الاعمال العبادية.

ان الصلاة عبادة جامعة بامكانها ان تكرّس كيان الانسان بأسره بدءاً من الجوانب البدنية والظاهرية وانتهاءً بالجوانب العقلية والقلبية والباطنية لخدمة العبودية. وهذا السرّ في اتخاذ الصلاة اسم «خير العمل» من بين جميع الاعمال.

صلاة بلا روح!

ولكن اذا كانت الصلاة خير الاعمال حقاً ولها كل هذا التأثير في تكامل الانسان ورقيّه المعنوي، فلماذا ـ بالرغم من ادائنا للصلاة ـ لا نشاهد آثارها في وجودنا؟ ورد في رواياتنا ان: **الصلاة معراج المؤمن.**[١] فما بالنا نؤدي الصلاة منذ سنوات لكننا لم نشعر ولو مرة واحد باننا قد عرجنا؟! ويقول القرآن: (إِنَّ الصَّلٰاةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَالْمُنْكَرِ). فلماذا أفنينا عمرنا نصلي لكننا مافتئنا نرتكب الذنوب والموبقات؟ وهنالك العشرات من الآثار الاخرى المذكورة للصلاة في الآيات والروايات لكننا لا نشاهدها في وجودنا.

الجواب هو اننا لا نؤدي الصلاة، فما نؤديه يشابه الصلاة بشكله الظاهري، ونحن نتظاهر بأداء الصلاة! فهل أدّى الصلاة مَنْ يتذكر حينما يقول «السلام عليكم ورحمة

١. *بحار الانوار*: ج ٨٢، الباب ٤، الرواية ٢.

الله وبركاته» انه قد صلّى؟ ان الكثير منّا يؤجل ما لم يستطيع التفكير بها من قضايا في فُرص اخرى الى حين الصلاة كي يفسرها ويحللها! فاذا ما اردنا ـ مثلاً ـ التدارس بعد صلاتي المغرب والعشاء ولم تكن لدينا فرصة للمطالعة والتدقيق، نستغل صلاتي المغرب والعشاء ونستعد للدرس من خلال مراجعة المواضيع في اذهاننا! وان الكثير من التجّار والكسبة يحققون في ديونهم وصكوكهم وفواتيرهم اثناء الصلاة! فهل هذه التي نؤديها صلاة حقاً؟!

ان الصلوات التي نؤديها ليست لا تؤدي الى تكاملنا فحسب بل علينا ان نتوب منها! وعلينا ان نتوب الى الله تبارك وتعالى ونستغفره عن عباداتنا وصلواتنا ناهيك عن ذنوبنا التي لها مأخذها! لو أن أحداً اراد الثناء عليكم أمام الآخرين فاستخدم الفاظاً وعبارات لا يفهمها هو فهل تعتبرون ذلك إطراءً لكم أم إهانة واستهزاءً بكم؟ ولو ان أحداً عبَّر لكم عن تودُّده واخلاصه وكنتم على معرفة بما في قلبه وباطنه وتعلمون ان مشاعره في مكان آخر بشكل تامّ وليس متوجهاً الى معنى أي كلمة من الكلمات التي يطلقها. فماذا تتصرفون معه؟! واذا ما تحدث معكم احدٌ وفي نفس الوقت كان ينظر الى جهة اخرى ويُكثر الالتفات الى الاعلى والاسفل ويميناً وشمالاً، ألا تعتبرون ذلك اهانة كبرى وعدم احترامٍ لكم؟! فهل ان عباداتنا وصلواتنا عبادة أم إهانة؟! وقد روي عن النبي الاكرمﷺ انه قال: **لا تلتفتوا في صلوتكم فانه لا صلاة لملتفت**، وقالﷺ: **أما يخاف الذي يحوّل وجهه في الصلوة ان يحول الله وجهه وجه حمار.**(١)

اذا ما قال الانسان اثناء الصلاة «الله اكبر» بلسانه وشهد بان الله اكبرُ من كل شيء آخر وفي نفس الوقت علّق الامل في قلبه وذهنه بشخص أو شيء آخر فذلك يعني انه يعتبر ذلك الشخص أو الشيء أهمَّ واعظم من الله. ألا يعني ذلك استهزاء

---

١. *بحار الانوار*: ج ٨٤، الباب ١٥، الرواية ٣.

واستخفافاً بالله ـ والعياذ بالله ـ؟!! اذا ما أخذ شخصٌ بالاطراء علينا ومدحنا ونحن على يقين بانه لا يؤمن بما يقول فهل سنحمل فعله هذا على شيء آخر سوى الاستهزاء؟ ألا يستحق مَنْ يقول بلسانه «الله اكبر» وفي تلك الاثناء يرى الله سبحانه وتعالى قلبه بانه ليس معتقداً بهذا الأمر، ألا يستحق ان يمسخه الله حماراً؟! اننا حينما نتكلم مع انسان بسيط وعادي لا نلتفت بوجوهنا نحو جهة اخرى، ألا يحظى الله ـ نعوذ بالله ـ بمقدار اهمية انسان عادي فتتوجه قلوبنا نحوه اثناء الصلاة وحينما نتحدث معه؟ علينا ان نتفرغ الى الله ونتوسل اليه بمقدار عدد السنوات التي صليناها ونسأله ان يعفو عنا ويغفر لنا جرّاء صلواتنا ـ نعم صلواتنا وليس ذنوبنا ـ وعباداتنا التي هي ليست عبادة وانما اهانة واستهزاء.

يقول الله سبحانه وتعالى في احدى آيات القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاٰةَ وَأَنْتُمْ سُكَارىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.[1] فما قيمة كلام السكران؟ فالسكران ولا يعمل عقله وجوارحه بشكل صحيح لا يلتفت لكلامه وحديثه، وفي هذه الحالة ربما يقول أي شيء، من هنا فلو تحدث ممجداً احداً فلا قيمة لكلامه ولا يرتّب أحدٌ اثراً عليه مثلما لا يكترث به اذا ما قال شيئاً آخر. وهنا يصرّح تعالى بان لا تقفوا للصلاة وتحدّثوا الله وانتم سكارى لا قيمة أو اعتبار لكلامكم، وبالرغم من ان ظاهر الآية يقصد السُّكر والدوران والغفلة الناجمة عن شرب الخمر ولكن في ضوء التعليل المذكور فيها فان الخطاب موجّه في الحقيقة الى الذين يقفون للصلاة ويكلّمون الله وهم غافلون ساهون. ان تعليل الآية في النهي عن الصلاة في حال السُّكر هو: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. أي بما أن السكران لا يفهم ما يقول فلا ينبغي له ان يقرب الصلاة. وان جميع الغافلين عن الله والسارحة حواسهم في اماكن اخرى اثناء الصلاة مشمولون بهذا التعليل لانهم لا يفهمون ما يقولون.

---

١. النساء: ٤٣.

بناءً على هذا، ان السبب في عدم تلذُّذنا بصلواتنا وعدم شعورنا بالرقيّ والتكامل نتيجةً لها، هو ان صلواتنا ليست صلاة في الواقع وانما نأمل منها أن تُسقط عنا التكليف! واقصى أثرٍ لصلاة امثالي هو ان لا نُحاسب في القبر وفي يوم القيامة على عدم أدائنا للصلاة، لكننا لا نجني منها أيَّ تكامل معنوي، فللأسف ان الكثير منا لا يولي الصلاة ما فيه الكفاية من الاهمية والشأن، واذا ما اردنا ان نصبح مقدَّسين ومؤمنين اذ ذاك نسعى لان نُصلح قراءتنا وترتيلنا ونؤدي صلاتنا بصوت ولحن جميل! فنحن نظن ان غاية ما يتعين علينا الاهتمام به في الصلاة ان نتلفظ الحروف من مخارجها غافلين عن ان هذه الامور تمثل ظاهر الصلاة وإطارها، وان حقيقة الصلاة وروحها شيء آخر، وان هذه الامور غالباً ما يكون لها طابع رمزي وصوري، وما يقرّب الانسان الى الله حقاً هو ان يتعلق قلبه بالله جل وعلا، ويجب ان تكون هذه الظواهر تجسيداً لذلك التوجه والارتباط القلبي. ان حقيقة الصلاة وروحها هي تلك التوجهات القلبية، والصلاة بدونها هيكل ميّت. فهل ثمة امل بالحركة والتأثير من هيكلٍ ميّت؟!

ان هذه الجوهرة النفيسة والفريدة بين ايدينا ونحن للاسف نمر عليها مرور الكرام دون أن نكترث بها. فالكثيرون عندما يعزمون على سلوك طريق التكامل والسير والسلوك يأخذون بالبحث عمَّن يبوح لهم بسرٍّ مكتوم وخفيٍّ ويعلِّمهم ذِكْراً! فلو كان هنالك ما هو أهمُّ من الصلاة في هذا الطريق، هل يبخل الله بتعليمه لعباده؟! ان الله الذي بعث القرآن رحمة للعالمين وارسل اعزّ عباده به لهداية البشر، هل يجعل سرَّ هداية الانسان وسعادته وكماله مخفياً ليقوم شخص آخر غير النبي صلى الله عليه وآله واهل البيت عليهم السلام بتعليمه لأناس معدودين في قعر بيت وبشكل سرّي؟! لو كان هنالك شيء افضل واكثر تأثيراً من الصلاة في تكامل الانسان لأكّد الله عليه في القران كثيراً، ولو كان هنالك عملٌ أهمُّ من الصلاة لأولاه الانبياء واولياء الله اهمية اكثر من كل شيء.

لماذا اختار امير المؤمنين عليه السلام الصلاة من بين جميع الاعمال والعبادات فكان يصلي الف ركعة في اليوم والليلة؟! تلك الصلاة التي ظاهرها ليس سوى تكرار شيء واحد. فايّ مفهوم وأي بلاغ لتكرار مجموعة من الالفاظ والحركات ألف مرة في اليوم والليلة في حياة علي عليه السلام؟ لماذا التزم عليه السلام بان لا يترك الالف ركعة تلك وكان يصلي نوافله ويقرأ القرآن حتى وهو يتحرك ويحرث ويستخرج الماء من البئر؟

نحن نعلم ان الصلوات المستحبة تخلو من الكثير من شروط الصلوات الواجبة فلا يشترط فيها استقبال القبلة واستقرار البدن والانحناء ووضع الجبهة على الارض للركوع والسجود، وامور كثيرة غيرها، من هنا يتسنى للانسان أداءها في جميع الاحوال، ولعل الكثير من الركعات الالف التي كان يصليها امير المؤمنين عليه السلام كانت على تلك الشاكلة. فانا شخصياً رأيت الكثير من العلماء والاعلام كانوا يصلون بهذه الصورة، وهذا أمر كان رائجاً في الازمنة السابقة لعدم وجود وسائط النقل الحديثة فكان يُستغرق المزيد من الوقت في قطع الطريق. وكان الكثير من الشخصيات والعلماء في السابق يستغلون هذه الفرصة ويصلون نوافلهم. رحمَ الله استاذنا المرحوم العلّامة الطباطبائي، فقد كنا نحضر عنده مجلساً أو نسير معه في الطريق فكنتُ أراه مشغولاً بصلاة النافلة ونحن في الطريق. أو المرحوم الشيخ غلامرضا الفقيه الخراساني رحمه الله وهو من علماء مدينتنا يزد الذي كان يصلّي النافلة في الكثير من الاحيان وهو سائرٌ من داره الى المسجد أو الى اماكن اخرى.

خلاصة القول هي اننا لم ندرك قيمة الصلاة وأهميتها، وإلّا لا قدرة لأي شيء أو عمل ان يقرّب الانسان الى الله افضل من الصلاة. والمشكلة في صلاتنا انها ليست صلاة، ولو أنها اصبحت صلاة حقيقية اذ ذاك سنرى أيّ آثار وبركات فيها لحياتنا الدنيوية ولتكاملنا ورقيّنا المعنوي والروحي. نسأل الله تعالى ان يمنّ علينا بالتوفيق لاداء مثل هذه الصلاة.

الدرس الرابع والعشرون

دور النيّة في رقيّ الانسان وسقوطه

الصلاة في ثلاث رؤى

عرفنا في الدروس السابقة واستناداً للآيات والروايات، أن أسمى واجب على الانسان في قبال الله سبحانه وتعالى «الصلاة». ان الصلاة موجودة في جميع الاديان السماوية، والاهتمام الذي حظيت به الصلاة في مختلف الاديان لم يحظ به أيُّ شيء آخر لما لهذا العمل المقدس من تأثير في سعادة الانسان وكماله ورقيّه وسموّه المعنوي والروحي، من هنا من المناسب ان تكون لنا بحوث وتحقيقات حول الصلاة.

ان جانباً من البحوث والمسائل ذات الصلة بالصلاة هي البحوث والمسائل الفقهية، فلهذا العمل البسيط ظاهرياً ولا يستغرق سوى عدة دقائق، مئات من الاحكام والمسائل، واول خطوة لها اهميتها في هذا الطريق تتمثل في حمل هذه الاحكام محمل الجدّ وتعلّمها والالتزام الدقيق والكامل بها. فنتيجةً لعدم التوجه للاحكام الفقهية للصلاة قد ينتبه الانسان بعد فناء عمره ان صلواته كانت باطلة! وقد نكون قد صادفنا أُناساً كان في غسلهم اشكال وبسبب بطلان الغُسل يطلب الكثير من عباداتهم من قبيل الصلاة والصيام والحج... الخ! اذا كانت قراءة المرء في الصلاة غير صحيحة وعَلِمَ بعد اربعين سنة من صلاته ان في قراءته اشكالاً فعليه ان يقضي كل صلواته!

على أية حال، هنالك مجموعة من المسائل المتعلقة بالصلاة تتمثل باحكامها الفقهية، واول وصية في هذا المجال هي ان نتعلم هذه المسائل حتماً، وهذا الأمر لا

يستدعي وقتاً كثيراً ومن ناحية اخرى يؤدي الى ان لا يقع المرء باشكالات من قبيل ما ذُكر.

وهنالك مجموعتان أُخريان من الابحاث حول الصلاة، ومن المناسب ان نتطرق لبحث هاتين المجموعتين خلال هذه الدروس. إحداهما البحوث التي تشمل العبادات بشكل عامّ، وبما ان الصلاة عبادة فانها تدخل ضمن هذه البحوث. والمجموعة الثانية هي البحوث التي تخص هذه العبادة أي الصلاة واجزاءها. وفي البداية وعلى مدى عدة دروس نتابع الابحاث ذات الصلة بجميع العبادات.

اهمية النية في الصلاة وسائر العبادات

من الامور المهمة جداً في العبادات هي النية، فالنية تُعد روح كل عبادة، وان قيمة العبادة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنية الانسان، فاذا ما كان ثمة اشكال في نية العبادة أو لم تكن صحيحة فلن يكون لتلك العبادة ادنى فائدة بالنسبة للانسان مهما كانت كبيرة في حجمها، فنحن نولي النيّة قيمة فائقة في اعمالنا العادية واليومية في حياتنا، ونمنح اهمية وشأناً للاعمال التي تقف وراءها نيّة صحيحة. إفترض ان صديقاً ولدى سؤاله عن احوالك استخدم الفاظاً من قبيل: فديتُك أو انني احبك أو ضاق صدري عليك... الخ، فاذا كنت تعرف ان هذه الكلمات منطلقة عن محبة ومودة حقاً، يكون تعبيره عن المحبة هذا في غاية الاهمية بالنسبة اليك وفي المقابل تزداد محبتك ومودّتك له، اما اذا كنت تعلم انه يطلق هذه الكلمات لخداعك وهي حيلة كي يستغلك وتقضي له اعماله فانك لا تُولي هذا التعبير القشري عن المحبة أية اهمية، بل كلما تكرر منه هذا التصرف يزداد ضجرك منه.

ان ظاهر كلا العملين واحد لكن النيّة هي التي تؤدي الى هذا التباين الواضح في حكمك. لو ان أحداً قام بحركات ظاهرها احترامكم وتكريمكم لكنكم تعلمون ان قصده من ورائها الاستخفاف بكم فما الحالة التي تطرأ عليكم تجاهه؟ انكم لا تقيمون

لها وزناً، بل تعتبرونها منافية للقيم. وعليه فان هذه قاعدة كليّة بان لا ينظر العقلاء الى ظاهر الاعمال لدى تقييمهم لها بل انهم يدققون بأية نيّة جرى اداؤها، وأما أنه ما هي النسبة المئوية من الاهمية يمنحونها للنيّة وكم منها يولونها لسائر الابعاد، بحثٌ واسعٌ خارجٌ عن نطاق بحثنا الحالي.

في الدرس السابق استعرضنا بعض الآيات والروايات الواردة بخصوص الصلاة. ان الصلاة بمقدورها ان تكون منشأ رقيّ الانسان الى درجات ومراتب يصعب تصورها. فالكثير من اولياء الله بلغوا مراتب عن طريق الصلاة نعجز عن ادراكها وتصورها، وهذه حقيقة لا يمكن انكارها.

تقول الرواية: الصلاة معراج المؤمن.[١] فانظر إلى الصلاة إلى أيّ مدى يمكن أن تسير بالإنسان! ان مراتب العروج التي يمكن ان تحصل في ظل الصلاة لا نهاية لها تقريباً! ومن ناحية اخرى ان هذه الصلاة التي هي معراج ربما تهوي بالانسان الى قعر جهنم! وهذان اثران متناقضان لعمل واحد يرتبطان بنيتين مختلفتين، نيّة تؤدي الى ان ترتفع الصلاة بالانسان الى الملكوت الاعلى، لكن هذه الصلاة بنية اخرى تهوي بالانسان إلى اسفل سافلين. هنالك رواية بهذا الخصوص يرويها الشيعة والسنّة بأسانيد مختلفة، واستناداً لهذه الرواية يقول الإمام الصادق عليه السلام: ربَّ رجلين يدخلان المسجد فيصليان، فيتخلص احدهما بصلاته من العذاب والنيران ويدخل الجنة، فيما يدخل الثاني بصلاته جهنم، فسُئل: أوَ يكون ذلك؟ قال: أما احدهما فيستغرق في صلاته ولغرض ان يلفت انتباه الآخرين يأتي بركوعه وسجوده وافعال صلاته على احسن ما يكون ويزيد من خضوعه وخشوعه المتصنَّع، وبسبب هذه النيّة يكون قد أبطل صلاته، فإن هذا الرياء يؤدي به الى جهنم. أما الآخر فهو يأتي الصلاة خجلاً محزوناً يفكر هل ان صلاتي هذه ستُقبل أم لا، وهو في الصلاة يتوب الى الله ويعزم

---

١. *بحار الانوار*: ج ٨٢، الباب ٤، الرواية ٢.

على ان لا يذنب. فهذه الصلاة هي التي تؤدي الى خلاصه من جهنم وتُدخله الجنة.[١]

هكذا بامكان النيّة ان تؤثر على قيمة العمل. من هنا فان المعيار في تقييم الاعمال العبادية وروح العبادة هي النية، فالمهم هو أنه بأية دافع نؤدي العبادة.

الرياء يُفسد الصلاة

ان بعض الدوافع والنوايا مثل الرياء والعجب تُفسد العبادة وتبطلها بشكل تامّ، وليست بحيث لا تبقي لتلك العبادة اي اثر ايجابي بل هي تؤدي بالانسان الى السقوط ايضاً. ان الرياء من اهم العراقيل التي تحدّ من تأثير الاعمال العبادية واكثرها شيوعاً. والرياء يعني التظاهر وابراز النفس أمام الآخرين، أي ان يقوم الانسان بعملٍ كي يراه الآخرون فيمتدحونه ويُطرون عليه فيتلذذ بمدح الآخرين ويدخله السرور لإطرائهم عليه، والذي يأتي بعبادته بهذه النية تتركز حواسه وفكره وعقله حين العمل على كيفية التصرف بحيث يرضى عنه الآخرون دون ان يلتفت ما اذا كان الله يقبل عمله أم لا.

هنالك آيتان في القرآن الكريم بخصوص الرياء في الصلاة. يقول في احداهما: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاٰتِهِمْ سٰاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرٰاؤُنَ * وَيَمْنَعُونَ الْمٰاعُونَ).[٢] وفي الآية الاخرى يصف الرياء في الصلاة بانه علامة النفاق: (إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ يُخٰادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خٰادِعُهُمْ وَإِذٰا قٰامُوا إِلَى الصَّلاٰةِ قٰامُوا كُسٰالىٰ يُرٰاؤُنَ النّٰاسَ وَلاٰ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاّٰ قَلِيلاً).[٣]

ان المنافق ـ قديمه أو جديده ـ هو من لا يقول صراحة انني أرفض الدين، وهنا يكمن الفارق بين الكافر والمنافق، فاذا ما انكر امرؤ الدين علناً فهو كافر، أما المنافق

---

١. راجع: *بحار الانوار*: ج ٧٢، الباب ١١٧، الرواية ٢١.

٢. الماعون: ٤ ـ ٧.

٣. النساء: ١٤٢.

فهو من لا ينكر الدين جهاراً بل يتظاهر بالاسلام ويقول انني مؤمن بالدين، لكنه لا يؤمن في باطنه بالدين قط. والمنافقون في عهد النبيﷺ كانوا يأتون المسجد ويؤدون الصلاة لاستقطاب أنظار الناس، والقرآن يصرّح بان صلاتهم ليس فيها نشاط بسبب نفاقهم وعدم ايمانهم في الباطن بل تقترن بالكسل والخمول: (لاٰ يَأْتُونَ الصَّلاٰةَ إِلاّٰ وَهُمْ كُسٰالىٰ)[١]. وانهم انما يصلّون ليظهرا للناس اننا نصلي: يُرٰاؤُنَ النّٰاسَ. وهذه الصلاة ليست لا تعود بالفائدة عليهم فحسب بل تضاعف في عذابهم.

لقد اشار القرآن الكريم الى الرياء في الانفاق والزكاة وكذلك الرياء في الجهاد. فيقول بخصوص المراءاة في دفع الزكاة: (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ رِئٰاءَ النّٰاسِ وَلاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ).[٢] ويقول عن الرياء في الجهاد: (وَلاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ بَطَراً وَرِئٰاءَ النّٰاسِ).[٣]

بناءً على هذا ان الرياء لا يقتصر على الصلاة، فكل عبادة يؤديها الانسان بقصد التظاهر والبروز أمام الناس انما هي عبادة مراءاة.

النقطة التي تقابل الرياء هي الاخلاص، والاخلاص هو ان يؤدي الانسان العمل بقصد الامتثال لأمر الله ونيل رضاه، ولا يقترن عمله بأية نية أو قصد سوى ذلك، فهو لا يصبو لأن يُبرز عمله ونفسه أمام الآخرين ليكيلوا له المديح والإطراء، بل هو يقصد الله وحده. ولربما يكون عمله بمحضر الآخرين لكن ليس قصده ان يراه الآخرون. واذا ما أخلص المرء نيته وعمل لله وحده يصبح القيام به في بعض الحالات أمام الآخرين أمراً مستحباً وعبادة اضافية. يقول القرآن حول الانفاق: (قُلْ لِعِبٰادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَيُنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَعَلاٰنِيَةً).[٤]

وردت روايات عديدة فيما يخص اخفاء الانفاق وعدم اطّلاع الآخرين عنه، وجاء

---

١. التوبة: ٥٤.
٢. النساء: ٣٨.
٣. الانفال: ٤٧.
٤. ابراهيم: ٣١.

في رواية: ان الله يحب للمرء ان ينفق بحيث اذا انفق بيده اليمنى فلا تعلم يده اليسرى بذلك! وغرض مثل هذه الروايات التأكيد على اقصى التستر والكتمان في الانفاق، ومع ذلك يُستحب الانفاق العلني احياناً. من هنا فقد أمر القران والاحاديث بالانفاق سراً وعلانية. والانفاق العلني يكون مطلوباً أيضاً لأجل ترويج هذا العمل الصالح، أي اننا نقوم بالانفاق لكي يقتدي الآخرون بنا ويتشجعوا على هذا العمل، وبالطبع يتعين على المرء في مثل هذه الحالات ان يحذر لئلا ينفذ الرياء والتظاهر الى عمله، فثمة حدٌّ في غاية الدقة بين ان أُنفق كي يتعلم الآخرون أو أنفق ليمدحني الآخرون حيث يصبح انفاقنا رياءً.

النية سيف ذو حدَّين

بناءً على هذا ان النية مهمة جداً في العبادة بحيث ان صلاة تمتد لخمس دقائق تجعل انساناً من اهل الجنة فيما تجعل آخر من اهل النار.

من هنا يتعين ان نكون في غاية الحساسية والدقة التامة في هذه القضية، فلا نقضي عمراً متصورين ومتأملين اننا قد أحسنّا أداء صلاتنا ولكن عندما يفتحون سجلاتنا لأجل الحساب يقولون: لقد صلّيت للناس ولفلان وفلان فخذ ثوابها منهم! وهنالك بعض التعابير في بعض الروايات اخشى إن نقلتُها ان تبعث على اليأس. فقد ورد في رواية حول خفية الرياء: ان الرياء يكون احياناً خفياً وغير ملموس بحيث لا تشعر به حتى الملائكة، وان الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يميّز فساده ورياءه.

يجب ان تجتاز الاعمال التي نأتي بها عدة مواقع للتفتيش لتنال درجة القبول. وتقول هذه الرواية: ان العمل الذي يأتي به العبد يصعد الى الاعلى حتى يصل السماء الاولى فيتولى الملائكة المكلفون بالتحقيق فيه أمره فاذا لم يجدوا فيه اشكالاً ختموا عليه بختم القبول، ثم يصعد العمل الى السماء الثانية ولما لم يجد الملائكة في السماء الثانية

اشكالاً في العمل يختمونه بدرجة القبول. وهكذا يجتاز هذا العمل السماوات الثالثة والرابعة... الخ حتى يصل السماء السابعة، وبالرغم من خضوعه للتفتيش سبع مرات وفي كل مرة يخضع لتفتيش أدقَّ من ذي قبل، على أيدي ملائكة الله، ولم يُعثر فيه على ادنى شائبة من فساد وتشويه ويتلقى درجات النجاح في جميع المراحل، ولكن عندما يُعرض هذا العمل في النهاية امام الله جل وعلا يقول: لقد جاء به لغيري فعليه لعنتي![1]

على أية حال، لدينا روايات عديدة من هذا القبيل وكما قلت اخشى من ان يؤدي نقلها الى اليأس. لكنني اكرّر التأكيد بان النية الصحيحة مهمة جداً في العبادة وهي أمر أدقُّ من الشعرة، واذا لم يبذل الانسان مافيه الكفاية من الدقة والحساسية فيُخشى ان يقع في الرياء.

ان اهمية ودور النية في الاعمال بالقدر الذي نستطيع معه ان نجعل من خلال النية كافة الاعمال التي نقوم بها ـ سوى العبادات المتعارفة ـ عبادة! فحتى الاعمال من قبيل الاكل والشرب والنوم والتلذّذ الحلال بامكانها ان تحصل بحيث تُعد عبادة! وهذا عندما يجعل الانسان رضى الله مراده في جميع أفعاله. فاذا ما كان مرادنا في كل جلوس وقيام وكل عمل نقوم به أن ننال رضى الله بذلك العمل فانه يكون عبادة. واختلاف العبادات الخاصة مع سائر الاعمال يكمن في ان سائر الاعمال اذا جئنا بها دون نية الحصول على رضى الله فلا اشكال في ذلك ولا تدخلنا جهنم، لكن العبادات الخاصة مثل الصلاة والصوم اذا ما جيء بها بقصد الرياء اذ ذاك سيستحق الانسان العقاب وجهنم.

ونؤكد مرة اخرى في ما يخص الصلاة بأن نكون في غاية الحساسية بما يتعلق بنيتها. فاذا ما صلحت النية ستتحول الى جوهرة نفيسة تعرج بالانسان الى ذروة

---

١. راجع: *بحار الانوار*: ج ٧٠، الباب ٥٤، الرواية ٢٠.

القرب من الله وان شأنها وقيمتها مما يفوق التصور، واذا ما فسدت نية الصلاة ـ لا سمح الله ـ فان تلك الجوهرة النفيسة ليست لا تسقط من الاعتبار والاهمية بل تتحول الى عنصر مضرٍّ ومخربٍّ وتهوي بصاحب ذلك العمل الى جهنم! نبتهل الى الله عزّ وجلّ ان يمن علينا بتوفيق الاخلاص في جميع العبادات لاسيما الصلاة.

الدرس الخامس والعشرون

الرياء

النية شرطٌ في صحة العبادة

تحدثنا في الدرس السابق عن مطالب تدور حول اهمية النية في العبادات، وقد جرت الاشارة الى انه بالرغم من امكانية القيام بأي عمل لنيل رِضى الله وإضفاء طابع العبادة عليه ولكن هنالك اعمال لابد من الاتيان بها بنية القربة والامتثال لأمر الله، واذا لم تأتِ بهذه النية فهي ليست تخلو من الثواب فحسب وانما تصبح سبباً في العذاب ودخول جهنم ايضاً، وفي هذه الاعمال ـ وهي العبادات بمعناها الخاص ـ تعدّ النية شرطاً في صحة العمل، ومن هنا يبطل العمل في حالة عدم صحة النية.

بالرغم من ان بحثنا كان يدور حول الصلاة لكننا اشرنا الى ان هنالك عباداتٍ اخرى فيما عدى الصلاة تتقوم بالنية ايضاً واذا ما جيء بها بنية الرياء فهي تبطل، وبالطبع هنالك جدالات بين الفقهاء حول بعض العبادات مثل الخمس والزكاة فيما لولم ينو أحدٌ نية القربة فيها فهل يسقط عنه التكليف المالي ام لا أم انه يُعتبر مذنباً بسبب الرياء الذي ارتكبه، أم ان الرياء في الخمس والزكاة لا يُعد مبطلاً ولا معصية بل من شأنه ان لا ينتفع المرء بثواب هذا العمل؟ هذه ابحاث تخصصية تتعلق بالفقهاء والمراجع وخارجة عن موضوع بحثنا.

يمكن تقسيم الاعمال التي تؤدىٰ كعبادة ولوحظ فيها قصد القربة، الى قسمين كليين هما: قسمٌ منها الاعمال التي ماهيتها وعنوانها الجوهري ليس سوى تقديم العبودية لله سبحانه وتعالى ولم يُلحظ فيها أي وجه آخر، من قبيل الصلاة والصيام والحج.

والقسم الثاني الاعمال التي ليست النية والغاية الجوهرية فيها تقديم العبودية لله ولكن في نفس الوقت اشتُرط فيها قصد القربة من قبيل الغاية الجوهرية في دفع الزكاة وتشريعها، وهي اعانة الفقراء ولكن لوحظ في ادائها قصد القربة، وكان قائد الثورة الكبير الامام الخميني ﷺ يُعبر عن هذه الاعمال بـ«الافعال القربية».

في الموارد التي تكون ماهية العمل تقديم العبودية لله جل وعلا يجب ان يؤتى بالعمل خالصاً بنية القربة ولا يدخل فيه أي قصد أو نية اخرى، فمن يصلي امتثالاً لأمر الله ورياءً ليمتدحه الناس فلا تبطل الصلاة وتفقد ثوابها فحسب بل يكون قد ارتكب ذنباً ايضاً، ولكن موارد مثل الانفاق التي ليست ماهيتها تقديم العبودية اذا لم يؤتَ بها بنية التقرب فان اثرها ينحصر على الظاهر في ان ذلك العمل لن يجدي نفعاً ولكنه لا يورث العذاب والعقاب، كما في الانفاق مثلاً فهو كمن قد رَمى امواله في البحر، ففائدة وتأثير مثل هذه الاعمال في ان تؤدى بقصد القربة، وكما يعبّر القرآن أن يكون من الذين (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)،[١] ولا يعملون (إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلىٰ).[٢]

الرياء وعلائمه

على أية حال لو اردنا ان يأخذ العمل طابع العبادة فلابد أن يقع بنية خالصة وبقصد القربة، وفي الدرس الماضي اشرنا الى بعض الآيات والروايات في هذا المجال، ونشير في هذا الدرس الى عدة روايات اخرى إكمالاً للبحث:

ورد في حديث قدسي ما يلي: **أنا خيرُ شريكٍ فمن عمل لي ولغيري فهو لمن عمل له غيري.**[٣] ان لكلٍّ من المشتركين في عملٍ ما حصّته من المنفعة والدخل الحاصل منه، وان الله سبحانه وتعالى يقول: أنا خير شريك، لانني اتنازل عن حصتي مهما كانت

١. الأنعام: ٥٢.
٢. الليل: ٢٠.
٣. *بحار الانوار*: ج ٧٢، الباب ١١٦، الرواية ٣٢.

كثيرة وأهبها الى شريكي، فاذا ما صليتَ وكان لي ٩٩٪ منها و١٪ منها للناس فانني اتنازل عن حصتي البالغة ٩٩٪ وأهبها للناس فتكون صلاتك كـلها للـناس! فأيـة عبادة تكون فيهـا ادنى حصة لغير الله يكون هذا مآلهـا اذ سـيرفضها الله بأجمـعها، والرفض قد يكون تارة بان يبطل العمل ويخلو من الثواب، وأخرى يفوق ذلك فيعقبه العذاب وجهنم بالاضافة الى ذلك.

ينبغي الانتباه الى ان النية ليست بذلك الشيء الذي يتبلور في غضون ساعة بل هي بحاجة الى مقدمات، وليس الأمر بحيث يستطيع الإنسان القيام بأي عمل وبأي نية يريد متى شاء، فلغرض التمتع بنية خالصة يتعين على المرء توفير مقدمات معينة سلفاً من قبيل المعرفة والايمان والتوجه.

هنالك طرق متعددة لتمييز ما اذا كانت النية خالصة لدى إنجاز العمل أم لا، وثمة مؤشرات اذا ما تأمل الانسان فيها يتضح أمامه بجلاء ما اذا كانت نية خالصة أم لا، فلو ان شخصاً بنى مستشفى فعليه ان يرى ما اذا وضعوا اسماً غير اسمه على بـوّابـة المستشفى، فهل يهمه ذلك وينزعج له ام لا؟ فاذا كان العمل لله ينبغي ان لا يكـون هنالك فارقٌ بالنسبة اليه إن كتبوا اسمه أم لم يكتبوه، واذا ما وجد فارقاً فذلك دليل على ان عمله لم يكن خالصاً، فقد يخفى نيّة الرياء على المرء نـفسه فـيتصور عـمله خالصاً بينما الواقع ليس كذلك، ومن مهام علماء الاخلاق أن يعملوا توجيه الانسان للدوافع الخافية والمستورة في عمله وهو بنفسه ليس متوجهاً اليها. فانظر ـ مثلاً ـ انك اذا صليت في مسجدٍ وبحضور الآخرين، هل تصلي بنفس الشاكلة إن لم يكن هنالك أحد وكنت لوحدك في المسجد؟ اذا كان الجواب بالنفي فـاعلم ان الريـاء طـاغٍ في صلاتك. واذا كان الجوُّ مظلماً ولا يرى الآخرون قيامك ووجهك وسائر حـركاتك اثناء الصلاة فهل انك تتصرف لو كان الوضع كما عليه الآن حيث المصابيح مسرجة والآخرون يشاهدون حركاتك؟ فاذا كان الجواب بالنفي فذلك علامة الرياء. اذا مـا

تعوَّدت الصلاة في مكان معينٍ من المسجد دائماً. ولم تستطع يوماً ما الصلاة في ذلك المكان ألا تنزعج لذلك؟ ان انزعجتَ فذلك دليل على ان العمل ليس خالصاً فمكان العمل له تأثير على عملكم! يروي المرحوم الحاج الميرزا جواد الملكي التبريزي ﷺ هذه القضية في كتاب *اسرار الصلاة* بهذا الشأن:

ان أحد العظماء كان يحضر صلاة الجماعة خلف أحد العلماء الاعلام فيقف في مكان معين من الصف الاول على الدوام. وذات يوم لما وصل كان الصف الاول قد امتلأ ولم يبق له فراغ في ذلك الصف وبالذات في مكانه المعين، فاضطر للوقوف في مكان آخر، واثناء الصلاة شعر بالخجل من أنه يصلي في هذا الصف وفي هذا المكان، اذ ان الناس كانوا يشاهدونه في الصف الاول على الدوام وهاهم اليوم يشاهدونه ـ مثلاً ـ في الصف الثاني، وهذا مما يحط من قدره ـ كما يقال ـ لذلك كان يشعر بالخجل مع نفسه! يقول المرحوم الملكي: بعد هذه الحادثة أعاد ذلك الرجل العظيم صلاته لثلاثين عاماً قائلاً: لقد كنتُ جاهلاً حتى هذا اليوم بأنّ نيّتي للصلاة مشوبة، واليوم اذ شعرت بالخجل لوقوفي في الصف الثاني ادركتُ ان نيتي لم تكن خالصة وكان لغير الله دَخلٌ فيها، ولو كانت خالصة لوجه الله يُفترض ان لا يكون أي فارق بالنسبة لي بين الصف الاول والصف الثاني، فإله الصف الاول هو نفسه إله الصف الثاني ولا فرق في ذلك أبداً.

لو كان أحد امام جماعة واخطأ في الصلاة ثم استحوذ عليه الخجل بسبب هذا الخطأ وسال عرق الخجل على جبينه فذلك علامة على ان حضور الناس أو عدم حضورهم مهمٌ بالنسبة اليه، فهو لم يكن ليخجل لولا حضور الناس، والآن، اذ يحضر الناس فهو يصاب بالخجل. وهذه مرتبة من مراتب الرياء. ولو ان امرءاً يحضر المسجد، كل يوم مع صديقه، وصادف ذلك اليوم ان انشغل صديقه ولم يأتِ المسجد، فلا يذهب هو في ذلك اليوم لعدم ذهاب صديقه، حينها يتضح ان نيته لم تكن خالصة في تلك الأيام بل كان لذهاب صديقه دخلٌ فيها ايضاً.

ونقل المرحوم الحاج ميرزا جواد الملكي التبريزي قضية اخرى في كتابه *اسرار الصلاة* بما يلي: ان رجلاً كان خلال أيام شهر محرم ـ حيث تقام مجالس عزاء كثيرة ـ يرغب بالحضور في مجلس معين، وذات يوم تبادر اليه وكأن هذا المجلس يحظى بالاهمية بالنسبة اليه، ففكّر مع نفسه بانني اذ أتوجه للمآتم من اجل البكاء على الامام الحسين عليه السلام واقامة العزاء عليه فان المجالس لا تختلف فيما بينها من هذه الناحية، فلماذا ارغب على الدوام بان احضر هذا المجلس الخاص. اخذ يفكر لمدة من الزمن حتى انتبه اخيراً وبعد عناء الى الخصوصية التي تميز بها ذلك المجلس بالنسبة اليه ما يدفع به الى تفضيله، فقرّر بعد ذلك مع نفسه بانه يحضر مجالس العزاء التي لا تتمتع بأية خصوصية بالنسبة اليه.

الرياء الخفي

اذا كانت العبادة خالصة تصبح من الشأن بحيث تعجز حتى الملائكة عن معرفة قيمتها والله تبارك وتعالى وحده الذي يحدد شأنها، اما اذا لم تكن نية العمل خالصة فهي ستكون كالسلعة المزوَّرة التي تفتقد القيمة، أو تصبح كالطعام المسموم الذي لا يفتقد للقيمة فحسب بل قاتل ومضر ايضاً. وفي منظار الاحكام الاسلامية لو سقط ما مقداره رأس إبرة من الدم في وعاء كبير من شربة أو طعام سائل يصبح ذلك الشربة أو الطعام نجساً باكمله ويجب رميه بعيداً بالرغم من الجهود التي بُذلت من اجله والاموال التي أُنفقت عليه، وقد تكون اعمال الانسان العبادية على هذه الشاكلة احياناً، فربما نأتي بالعبادة ببالغ العناء والمشقة لكننا نهدر ذلك العمل كله لاننا كنا نضمر فيه نية لغير الله بمقدار ضئيل جداً، واستناداً للروايات ان الله يقول للملائكة اضربوا هذا العمل بوجه صاحبه![1]

١. راجع: *فلاح السائل*: ص ١٢١.

من هنا يتعين علينا بالاضافة الى اهتمامنا بظاهر العبادة بحيث تراعى فيها المسائل الشرعية وتؤدى بشكل صحيح، ان نهتم بنيتنا ايضاً لئلا ننتبه بعد سنين من العبادة ـ لا قدَّر الله ـ بان نيتنا لم تكن خالصة، وان عبادتنا مدى حياتنا لا جدوى منها بالنسبة الينا.

وثمة رواية تناقلتها كتب الشيعة والسنة يقول فيها النبي الاكرمﷺ بعد اعتباره للرياء نوعاً من الشرك: **ان الشرك اخفى من دبيب النَّمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء.**[1] فالنملة حشرة صغيرة جداً لا تمتلك يداً ورجلاً طويلتين والصخرة ملساء، وعليه فان حركة النملة على صخرة ملساء لا تولد احتكاكاً ولا ضجيجاً بحيث ينتبه الانسان اليها، ومن هنا اذا حصلت هذه الحركة في ليلة ظلماء تصبح خفية ومجهولة بحيث يتعذر على الانسان ادراكها وتبق هذه الحركة خافية عليه تماماً. فيقول النبيﷺ ان تسلّل الشرك الى قلب الانسان اكثر خفاءً وستراً من هذه الحركة. من هنا فان الرياء باعتباره نوعاً من الشرك ربما يكون خفياً وغير ظاهر الى هذا الحد. ولعل هذه الآية تشير الى هكذا شرك: (وَمٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاّٰ وَهُمْ مُشْرِكُونَ).[2] ان للشرك مصاديق ومراتب متعددة، وحريٌ بالانسان ان يبتهل الى الله وان يسعى هو نفسه بأن تأتي عباداته بعيدة عن اي شرك ورياء وتدخُّل ما سوى الله.

الرياء في الهداية والتبليغ

ان تمييز الرياء في بعض العبادات اسهل عما في غيرها لما فيها من علائم اكثر وضوحاً. والتبليغ وارتقاء المنابر ـ وهو مهنتنا نحن الطلبة الحوزويين ـ من بين هذه الموارد.

لا شك في ان هداية الناس وارشادهم ونشر دين الله وبيان احكام الاسلام ومعارفه تعد من اعظم العبادات. جاء في رواية عن النبي الاكرمﷺ مخاطباً

---

١. *وسائل الشيعة*: ج ١٦، ص ٢٥٤.
٢. يوسف: ١٠٦.

امير المؤمنين الامام علي بن ابي طالبعليه السلام: **لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس.**[1] بناءً على هذا ان هداية الناس فضيلة لا توصف وفيها من الثواب ما يفوق التصور، لكن هذا العمل بما فيه من الثواب لن تكون له أية قيمة ان لم يكن لله، وهذا الثواب نصيب مَنْ يبلِّغ ويرتقي المنبر في سبيل الله ويقوم بهذا العمل لنيل رضى الله فقط وفقط. ولكن أنَّى لنا ان نفهم ان كان تبليغنا وارتقاؤنا المنبر من اجل الله أم لا؟ السبيل الى ذلك هو ان يرى الانسان لو ان مبلِّغاً أو واعظاً آخر قد القى محاضرة واهتدى بسببها شخص واحدٌ فهل يفرح لذلك؟ أم انه يفرح ويرضى الآن لأن هذا الأمر قد حصل على يديه ومن خلال منبره؟ فاذا كانت هداية الناس مرادكم فقط فينبغي ان لا يكون هنالك فارق بين هاتين الحالتين. واذا كان موضوع الهداية هو المهم فيجب ان لا يختلف بالنسبة اليك سواء ارتقيت انت المنبر او قام بهذا العمل شخص آخر. اذا ما وجدتَ ان من المهم بالنسبة اليك ان ترتقي انت المنبر وانك تنزعج اذا ما أرسل غيرك لارتقاء المنبر بدلاً عنك فعليك ان تشكك باخلاصك، كالمستشفى الذي اذا قمتَ انت ببنائه ويعالج الناس فيه وتتم فيه مساعدة مرضى الفقراء فان ثواب ذلك سيصل اليك حتى وإن وضعوا على المستشفى اسم شخص آخر. من هنا اذا كان الهدف نيل رِضى الله حقاً فهو يحصل دون ذكر للاسم ايضاً، أما اذا اصرَّ الانسان بان لابد من وضع اسمه في واجهة المستشفى فينبغي عدم الشك ان لا وجود للاخلاص في نيته.

ان الوصول لمثل هذه المراتب من النيّة ليس بالامر الهيِّن ويحتاج الى عمل وعناء البتة لكنه جديرٌ بهذا العناء، والفارق بين العمل الخالص النية وبين العمل الذي نيته ليست خالصة كالبعد بين الارض والسماء، فشتان بين العمل الذي يؤتى به خالصاً لوجه الله وبين العمل الذي المراد به غير الله أو يؤتى به لله ولغير الله معاً، فربّ عمل

١. *بحار الانوار*: ج ٣٢، الباب ١٢، الرواية ٣٩٤.

صغير جداً لكنه خالصٌ يؤدي الى خلاص الانسان، وربّ صلاة وصيام وإنفاق لمئات من السنين ليس فيه قيد انملة من القيمة لما فيها من شائبة الرياء والسمعة.

قصة عن الرياء والاخلاص

تروى في هذا المجال واقعة عن العلّامة المجلسي لا اعرف مدى صحتها، لكن لروح هذه القصة حقيقة على أية حال حتى وان لم تحصل بهذا النحو.

لقد أسدى المرحوم العلّامة المجلسي خدمات جليلة جدّاً للاسلام والتشيع وهو حقاً محيي التشيع في القرون الاخيرة. يروى ان الشيخ المرحوم العلّامة المجلسي شوهد بعد وفاته في المنام وسئل: ما الذي كان سبباً في نجاتك؟ فالخدمات التي أسديتها والكتب التي ألّفتها وتدريسك، أيٌّ منها كان اكثر فائدة لك؟ واستناداً لما يُنقل انه قال: ان أياً من هذه الاعمال التي قمتُ بها لم يؤتِ النتيجة التي كنت اصبو لها ولما وقفت للحساب كان في كلٍّ منها نقصٌ ومؤاخذة، فسئل: فأي شيء اخذ بيديك يا ترى؟ قال: كنت ذات يوم أسيرُ في طريقي وبيدي تفاحة وفي تلك الاثناء كانت إمرأة ـ ولعلها كانت يهودية ـ تمرُّ من هناك وهي تحتضن طفلاً، فوقع نظر الطفل على التفاحة التي في يدي ففهمتُ من حركاته انه يريد تلاقف التفاحة من يدي، ولما انتبهت أمه نهرتْه وسحبت يده، ولغرض ان أُدخل السرور على ذلك الطفل تقدمتُ اليه واعطيته التفاحة. وهنا قالوا لي: ان هذا العمل منك كان الوحيد الخالص مائة بالمائة ولم تكن فيه شائبة أبداً! فكان الثواب الذي منحوني بسبب هذا العمل يفوق ثواب جميع اعمالي الاخرى! لقد كانت ادنى شائبة في مؤلفاتي وكتبي تتمثل بكتابة اسمي على تلك الكتب وبرؤية الناس له كانوا يطرون عليَّ ويقولون عجباً للمجلسي أي عمل جبارٍ أنجز! بيد ان اعطاء التفاحة لذلك الطفل كان يخلو من أية شائبة من قبيل التملق للسلطان أو الشهرة أو ابراز لمكانتي العلمية أمام الآخرين... الخ! فلقد اعطيت تلك التفاحة لنيل رِضىٰ الله فقط من إدخال السرور على قلب ذلك الطفل!

على أية حال، ما يحظى بالاهمية لدى الله سبحانه وتعالى هو الخلوص والطهارة، فالله يحب ان يكون عباده صادقين معه، واذا ما تعاملوا معه يكون تعاملهم دون غشٍّ وخديعة. وهو يتقبل العمل الذي يكون لوجهه مائة بالمائة، وإلّا فهو يقول: أنا خير شريك فمن عمل لي ولغيري فهو لمن عمل له غيري.(١)

ان الله لا ينظر الى حجم العمل أو كبره الظاهري، والمهم بالنسبة الى الله عزّ وجلّ النية التي تقف وراء ذلك العمل، فروح العمل النيّة، وعلينا أن نصل بمعرفتنا بالله ومحبتنا له حداً بحيث تنبثق عنها الطهارة والخلوص بشكل تلقائي. وينبغي ان لا نخدع قلوبنا باننا نعبد الله ولا نقترف الذنب، فلعلنا في هذه العبادة وعدم ارتكاب الذنب نقصد غير الله كأن نطمح بأن يمدحنا الناس مثلاً أو نُعرف بالزهد والتقوى... الخ! اذا لم يكن العمل لوجه الله فان حسابه سيكون على الذين قمنا بهذا العمل لهم. نسأل الله بحق اوليائه أن يمن علينا بخلوص النية.

---

١. *بحارالأنوار*، ج ٧٢، الباب ١١٦، الرواية ٣٢.



الدرس السادس والعشرون

النية ومراتبها

معنى الاتيان بالعمل لوجه الله

كان موضوع بحثنا النية في العبادات، وقد عرفنا ان النية روح العبادة، وبشكل عامّ ان قيمة أي عمل منوطة بنيته، واشرنا الى ان بعض الاعمال العبادية مثل الصلاة ان كانت فيها نية مفسدة من قبيل الرياء والسمعة فان ذلك العمل لا يبطل ويفقد الفائدة وحسب بل يؤدي الى العقاب ايضاً، وطرحنا مطالب فيما يخص علامات الرياء وطرق علاجه ايضاً، كما قلنا بانه يتعين ان يكون عملنا خالصاً لله ونأتي به بقصد التقرب إليه عزّ وجلّ. وفي هذا الدرس نحاول التحدث اكثر حول هذه المسألة.

يستعمل تعبير الخلوص في مقابل الرياء احياناً ولكن ما المراد من اخلاص العمل لله؟ فهل ان الله بحاجة لان نعمل له باخلاص؟ وقد استخدمت تعابير من قبيل «وجه الله» و«وابتغاء مرضاة الله» في القرآن الكريم ايضاً، فيقول تعالى في سورة «الانسان»: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاٰ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً وَلاٰ شُكُوراً).[1] واستخدم تعبير «ابتغاء مرضاة الله» في عدة موارد منها قوله تعالى في سورة البقرة: (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمُ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللهِ).[2] ان تعبير «وجه الله» اكثر غموضاً من التعبير بأن يكون العمل لله. فهل معنى ذلك ان لله وجهاً ويجب ان نأتي بالعمل لوجه الله؟

لعل تعبير مرضاة الله هنا اكثر مفهومية من سائر التعبيرات بما يعنيه من ان نقوم بالعمل كي يرضى الله، والرضا حالة نفسية لدينا ندركها بالعلم الحضوري، فعندما

---

١. الانسان: ٩.
٢. البقرة: ٢٦٥.

نرضى عن عمل أحدٍ تتبلور فينا حالة من السرور، فهل ان معنى رضى الله ان حالة تتولد لدى الله سبحانه وتعالى نتيجةً لعملنا من شأنها إدخال السرور والفرح على الله؟! من هنا فاننا ومن خلال الدقة نرى ان هذا التعبير ليس اكثر وضوحاً من التعبيرين السابقين وإن بدا كذلك للوهلة الاولى.

هنالك تعبير آخر غالباً ما يستخدمه الفقهاء، وهو انهم يقولون يجب ان يؤتى بالعبادة بقصد الامتثال، والامتثال يعني الطاعة، وقصد الامتثال يعني ان نقوم بالعمل لان الله قد أمر به ونأتي به طاعةً لأمره عزّ وجلّ، والأمر اعمُّ من الوجوب والاستحباب. وعلى أية حال بالرغم من ان هذا المفهوم واضح بالنسبة الينا نوعاً ما ولكن ثمة مجال للسؤال وهو: أية حالةٍ يُفترض ان تتبلور لدينا لنقول اننا قمنا بالعمل بقصد الامتثال للامر الالهي؟

وتعبير آخر معروف كثيراً بالنسبة الينا هو «قربة الى الله» فالكثير من اذا ما اراد ان يصلي يقول ـ مثلاً ـ أُصلي صلاة الصبح ركعتين قربة الى الله، والقربة تعني التقرب، وبهذا فان معنى اننا نؤدي العبادة قربة الى الله، هو اننا نأتي بها للتقرب من الله، ولكن ماذا يعني التقرب الى الله؟ هل ان الله في مكان معين لنقترب منه؟! وعليه فان هذا المفهوم لا يخلو من الغموض ايضاً.

لا ننوي هنا الدخول في ابحاث نظرية وفلسفية في هذا المجال، فهذه الابحاث غالباً ما تكون ذات ابعاد بينما الغاية من دروسنا طرح المواضيع ذات الاثر العملي والتي يمكن ان تتجلى في اعمالنا وافعالنا. من هنا فاننا نباشر في هذا المجال بالموارد الواضحة البيّنة الى ان نصل الى الموارد الغامضة ونرى كيف يتعين علاجها والرد عليها.

انواع النوايا

ان احد معاني النية في العبادة هو ان ينتبه الانسان اثناء العمل ماذا يفعل ليُمهد لهذا

السؤال وهو: هل ان هذا العمل هو الذي أمر به الشرع؟ هل ان الله يرضى بهذا العمل؟ ويقابل هذه الحالة ان يقوم الانسان بالعمل دون نية. ربما يتبادر الذهن هذا السؤال: أوَيُمكن ان يقوم الانسان بعمل دون نية؟ الجواب هو ربما يكون مثل هذا الافتراض نادراً جداً، ففي الظروف الطبيعية وعندما يتمتع الانسان بكامل وعيه وصحته من المحتم ان يكون لكل عمل يقوم به قصد ونيّة، ولكن هنالك افتراض بان يفقد الانسان وعيه أو لا يكون مدركاً في بعض الاحيان كالشخص الشديد النعاس أو الذي ثَمُلَ نتيجةً لاحتساء الخمر ـ العياذ بالله ـ ففي مثل هذه الحالة لا يدرك ماذا يفعل ولذلك لا وجود لقصد أو نية معينة في ذهنه.

على أية حال، اذا ما قام المرء بعبادة في مثل هذه الحالة، كأَن يصلي مثلاً وحتى جاء بكافة واجباتها وراعى جميع شروطها فان عمله باطل لافتقاده النية، وهذه الصلاة على شاكلة الافعال التي يقوم بها البعض اثناء النوم لا يتذكرون منها شيئاً اذا ما سئلوا عنها فيما بعد، وكما اشرنا آنفاً ان افتراض وقوع عبادة أو صلاة بهذا النحو نادرٌ جداً جداً، ولكن اذا ما جيء بمثل هذه الصلاة على أية حال ستكون باطلة لخلوّها من النية.

الافتراض الآخر بشأن النية في العبادة يتمثل في ان يأتي بها المرء لبلوغ بعض الغايات والنتائج الدنيوية وحسب، من قبيل الصلاة التي كان يؤديها المنافقون في عهد النبيﷺ، فلقد اسلم اولئك لغرض المحافظة على ارواحهم ولتسري عليهم سائر الاحكام الظاهرية في الاسلام مثل الارث والزواج...الخ، وكانوا يؤدون الطقوس والعبادات الاسلامية بنحو لو كانوا يعلمون بان ارواحهم وممتلكاتهم ستبقى مصونة في حالة عدم ادائهم للصلاة لما صلوا أبداً، ومن المسلَّم به ان مثل هذه الصلاة باطلة.

إن هذه المسألة واضحة ومسلَّمٌ بها من ان الانسان يأتي بأعماله الإرادية إما بدافع جلب المنفعة أو دفع الضرر، وربما يختلف الناس في مصاديق المنفعة والضرر فيرى

شخص شيئاً فبعده منفعة فيما يعتبره آخر ضرراً، ولكن ان الانسان يستهدف من كل عملٍ جلبَ منفعة أو دفع ضرر فهو أمرٌ قطعي، فالاعمال التي نؤديها إما لكي نحصل على المال أو نحظى بالاحترام والجاه في المجتمع، أو ننال منصباً ومقاماً، أو لئلا نتعرض للعقاب وما شاكل ذلك، وهذا الأمر يصدق بشأن العبادات لاسيما الصلاة ايضاً، فغالبية الذين يعبدون الله ويقيمون الصلاة بالرغم من انهم يأتون بهذا العمل بقصد عبادة الله وامتثال أمره، لكن لا تخلو دوافعهم من تأثير المنافع التي ينالونها بسبب ادائهم للعبادة أو الاضرار التي تلحق بهم جرّاء ترك العبادة، وقد تكون هذه الآثار دنيوية كما لو انه قد جرَّب ان الصلاة تبارك في حياة الانسان أو ان الصدقة تدفع البلاء، وقد تكون اخروية ايضاً. وعلى اقل تقدير ان غالبية الذين يصلّون في نفس الوقت الذي يقيمون الصلاة امتثالاً لأمر الله فهم إما ان يقوموا بهذا العمل طمعاً بالجنة أو خوفاً من العذاب ومن جهنم، فأكثر الناس اذا ما صلّوا فلانهم يعلمون ان الله يُدخلُ الذين لا يصلّون الى جهنم، ولو ان الله لم يخلق النار لما صلّى اكثر الناس! وهم انما يصلّون الآن فبسبب قول الله: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ)[1] أو لانّهم قرأوا هذه الآية ونظائرها: (يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ).[2]

ان السبب في اداء البعض للصلاة اعتقادهم بان الله موجود وعنده نار يُدخل فيها الذين لا يصلّون! ولو ان الله قال لهؤلاء لم يعد لجهنم وجود أو انني لا أدخل الذين لا يصلّون الى جهنم فلن يصلّوا بعدها ولا يأتون بعبادة أبداً! والسؤال هنا هو هل ان مثل هذه العبادة والصلاة صحيحة أم لا؟

وصلاة البعض انما لدخول الجنة. فاذا ما صلّى هؤلاء فلعلمهم بان الله موجود ويمتلك جنة فيها من النعم الكثيرة ما لا يوصف، وتلك الجنة أجرُ الذين يعبدون الله

١.الماعون: ٤ و٥.

٢. المدثر: ٤٠ ـ ٤٣.

ويطيعونه، وهذه الطائفة يؤدون الصلاة لئلا يُحرموا ذلك الأجر! بحيث لو لم تكن هنالك جنة أو أجر فلن يعبدوا الله أو يصلوا أبداً! فهل تصح مثل هذه العبادة بهذه النية؟ ألا يضرّ هذا الأمر بخلوص النية الذي يعتبر شرطاً في صحة العبادة وبالذات الصلاة؟

لاشك ـ بطبيعة الحال ـ بان هنالك مقربين واولياء لله لا يمكن مقارنة صلاتهم وعبادتهم بعامة الناس، فهم لا يطمعون من صلاتهم بجنة ولا يخافون ناراً، ويعبدون الله حتى وإن لم تكن لديه جنة أو نار، وقد روي في بعض النصوص الواردة عن ائمة الهدى والمعصومين عليهم السلام ان هؤلاء ينادون: الهي حتى اذا قرّرت أن تُدخلني النار فلن اتخلى عن عبادتك وطاعتك! وعلينا ان نطلب من الله جل وعلا ونشد حزام الهمّة لكي نقترب بعباداتنا وطاعاتنا من هذه المراتب، ولكن لا يمكن على أية حال انكار ان الكثير من العبادات والطاعات إما أن يؤتى بها طمعاً بالجنة أو خوفاً من النار بنحو لو ان الله الغى الجنة والنار لتضاءل عدد العابدين كثيراً بحيث يتجه نحو الصفر! وبحثنا يدور حول هذه العبادات، ما هو حكمها في منظار الاحكام والمعارف الاسلامية؟

النية الصحيحة والمقبولة

توجد بعض الروايات تقسم العابدين الى ثلاثة اقسام، فاستناداً لهذه الروايات ان عبادة البعض هي عبادة العبيد فنظراً لان العبد يخاف سيده ومالكه فهو يطيع أمره، كذلك ان بعض الناس يعبدون الله ويطيعونه لخوفهم منه ومن عذابه وناره، وقد اطلقت الروايات على هذه العبادة «عبادة العبيد». وعبادة الفئة الثانية عبادة تجارة وتكسّب، فاذا ما أبرم التاجر أو الكاسب معاملة فهو ينظر ماذا يكسبه من هذه المعاملة. هكذا يعبد بعض الناس الله، فهم يحسبون ما يصيبهم جراء هذه العبادة وما

تعود عليهم من منفعة وربح، وقد أسمت الروايات هذه العبادة «عبادة التجار»، فهؤلاء نفعيون يصومون ويتجرعون ساعات من الجوع والعطش ويصلّون ويجاهدون ويخاطرون بانفسهم في سبيل الله ويقومون بكل ذلك لعلمهم بانهم يستلمون في مقابلها اضعافاً مضاعفة. وان القرآن الكريم يستخدم ذات المفردات لحث الناس على عمل الخير وطاعة الله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).[١] ففي هذه الآية استخدم مفردة «تجارة»، وفي مواضع اخرى استخدم تعبير البيع والشراء: (إِنَّ اللهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ).[٢]

على أية حال، يستفاد من الآيات والروايات ان مثل هذه العبادة والطاعة مقبولة وان الطمع بالجنة والخوف من النار لا يُلحق ضرراً بخلوص النية التي تضفي القيمة على العبادة، واذا ما وصل الانسان الى هذه المرتبة بحيث يؤمن بالنار والجنة حق الايمان ويحملها على محمل الجدّ فهي ليست بالمرتبة المتواضعة، وبطبيعة الحال عليه ان يضع نصب عينيه وتكون همته باتجاه تلك المرتبة بحيث يريد الله فقط في عبادته ولا يُقلع عن طاعة الله وعبادته حتى وإن لم تكن هنالك جنة أو نار.

ولقد برزت في زماننا فئة رابعة يقولون اننا لا نعبد الله من اجل الجنة أو خوفاً من النار فهذه اخلاق نفعية! والفارق بين هؤلاء وبين اولياء الله ـ الذين يعبدون الله بهذا النمط ايضاً ـ يكمن في انهم لا يؤمنون أبداً بالجنة والنار، فبما انهم لا يعتقدون بوجود الجنة والنار فمن الطبيعي ان لا تأتي اعمالهم لغرض بلوغ هذه أو الابتلاء بتلك. ويقول هؤلاء اذا ما جرى الحديث في القرآن عن الجنة والنار فذلك لخلق حافزٍ لدى الناس كي يتلزموا بالمبادئ الاخلاقيه والانسانية، وإلّا فلا وجود للجنة والنار على ارض

١. الصف: ١٠ ـ ١١.
٢. التوبة: ١١١.

الواقع! فلو قال هؤلاء اننا لا نعبد الله خوفاً فلأنهم لا يخافون الله مطلقاً! وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ليخافوا أو لا يخافوا منه!

اذا ما قلنا ان اعلى مراتب العبادة ان لا يعبد الانسان الله طمعاً بالجنة أو خوفاً من النار فمرادنا تلك الحالة التي يكون فيها معتقداً بوجود الله والجنة والنار، فالكمال المطلوب هو ان يعتقد الانسان بعقوبات جهنم الرهيبة لكنه مع ذلك لا تكون عبادته وطاعته خوفاً منها وانما يفكر بقُلة اسمى من ذلك.

وعلى نحو الاجمال ذكرت في رواياتنا ثلاثة انواع من العبادة: عبادة العبيد، وعبادة التجار، وعبادة الأحرار، وجميعها مقبولة. ولعل اشهر هذه الروايات كلام امير المؤمنين عليه السلام الذي ذكرناه سابقاً: **انَّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الاحرار.**[١]

والاحرار تعني اولئك المنعتقين عن قيود الجنة والنار والخوف من العذاب والطمع بنعم الجنة! ان هؤلاء على استعداد لتجرُّع شدائد وعذاب الآخرة إن كان في ذلك رضى الله! فهمُّهمُ الوحيد الله ورضاه ومحبته. فقد جاء في حديث المعراج أن روح المؤمن بعد عروجه إلى عرش الله تعالى يقول: **وعزتك وجلالك إن كان رضاك في أنْ أُقطع إرباً إرباً وأُقتل سبعين قتلة بأشدِّ ما يُقتل به الناس لكان رضاك احبَّ اليَّ.**[٢] من السهل التفوه بهذا الكلام ولكن ليس شأن كل أحد العمل به، ولو قدِّر للانسان أن يذوق العذاب ساعة واحدة حينها يدرك القليل من عظمة هذا الكلام. ويقول امير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: **فهبني يا الهي وسيدي ومولاي وربي صبرتُ على عذابك فكيف اصبر على فراقك.** ربما يسعنا النطق بهذا الكلام ان اردنا نظم الشعر لكننا نقطع بان علياً عليه السلام يتكلم بذلك من صميم وجوده وعلى حقيقته. فالبعد عن الله

١. *نهج البلاغة*: ترجمة وشرح فيض الاسلام: الحكمة ٢٢٩.
٢. *بحار الانوار*: ج ٧٧، الباب ٢، الرواية ٦.

اشدّ واقسى من كل عذاب بالنسبة لعلي ﷺ، اما امثالنا فلم نفهم وصاله كـي نـفهم فراقه!

لقد اوضح ائمتنا ﷺ هذه المعارف وبيّنوا المدخل اليها لنتعلم ونعرف ان هنالك مثل هذه المراتب وعلينا العمل للاقتراب منها، ولا نجعل الدنيا واللذائذ الدنيوية وحدها مبلغ همّنا، بل نبتعد بآفاق رؤيتنا الى ما هو أبعد من الجنة والنعم الاخروية ايـضاً، فنفكر برضوان الله وحسب.

ان الذين ابتلوا بحالات الحب والعشق والوله في الدنيا يدركون ما لرضى المحبوب من تأثير على الانسان وحياته وماذا يفعل بالانسان! فلربّ محبٍّ وعاشق يكون على استعداد لأن يقف من المساء وحتى الصباح على قدميه وفي برد الشتاء القارس علّه يظفر بابتسامة أو نظرة من محبوبه ومعشوقه! فتلك الابتسامة أو النظرة تذهب بكل اتعاب عاناها تلك الليلة الطويلة! ولرضوان الله مثل هذا الحكم بالنسبة لأولياء الله، فمجرد علمهم بان محبوبهم راضٍ عنهم بذلك يهون عليهم تجرُّع الشدائد حتى لو كانت شدائد جهنم!

المراتب العليا للنيّة

ان هذه المنزلة بالذات بان يصل المرء الى حيث لا تكون عبادته طـمعاً بـالجنة أو خوفاً من النار، لها مراتب متعددة وليس الذين يصلون الى مثل هذه المنزلة على حدٍّ سواء في المستوى والمرتبة باجمعهم، فنرى في الروايات ان تعابير مختلفة استُخدمت في هذا المجال، ففي الحديث الذي نقلناه عن امير المؤمنين ﷺ عَبّر ﷺ بـ«شكراً». فهنالك قوم يعبدون الله شكراً، فليس الطمع بالجنة ولا الخوف من النار هو الذي يـدفعهم للركوع والسجود، بل انهم يعبدونه لأداء الشكر على نعمه. انها روح «رد الجميل» التي تمثل محرك هؤلاء للعبادة والطاعة، فهم لا ينصرفون عن عبادة الله حتى وإن لم

تكن هنالك جنة أو نار، لان ضميرهم لا يرتضي ان يتنكروا لنعم الله ويمروا عليهم دون ان يؤدوا الشكر! ان روح معرفة الحق ورد الجميل أمرٌ ادركناه نوعاً ما بحق الناس وما يُسدونه من خدمات لنا. فقد نكرِّم مَنْ أسدى لنا خدمة لمجرد ان فطرتنا الانسانية لا ترتضي لنا عدم شكره على خدمته لنا.

وفي القرآن الكريم جرت الاشارة الى هذا الأمر: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلىٰ وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْـمَصِيرُ).[١] لعل الملاحظة في مجيء شكر الله وشكر الوالدين الى جانب بعضهما هي ان الانسان يدرك في البداية قيمة الاعمال والخدمات التي يقوم بها الوالدان افضل من اي عمل وخدمة ويكون ذلك مشهوداً وملموساً بالنسبة اليه. فهو يرى كيف ان الأُم تتجرع السهر والشدائد لتربية الطفل وتوفير الراحة له، ويشهد كيف ان الأب يكدح في أيام البرد ويتصبّب عَرَقاً في أيام الحر ليوفر اسباب الراحة لأُسرته، من هنا فهو على استعداد تام لتقديم الشكر لوالده ووالدته ويتقبل ذلك بكل رحابة صدر اذا ما حُثَّ عليه، وعندما يتمرس على عرفان الجميل وتقديم الشكر في مقابل اعمال وجهود الوالدين اذ ذاك تترسخ لديه روح عرفان الجميل والشكر شيئاً فشيئاً حتى تصبح مَلَكة وسيشكر كلَّ من يُسدي له خدمة وانعم عليه. من هنا فهو عندما يعرف ان الله عزّ وجلّ وهبه كل هذه النعم وهو تعالى الذي منَّ عليه باكثر وأعظم المواهب سيُبادر لشكره.

التعبير الآخر الذي ورد لبيان هذه المنزلة «حباً»، في حديث يقول الامام الصادق عليه السلام:...ولكني اعبدُه حباً له،[٢] لو تبلورت علاقة حبٍّ بين شخصين بالمعنى الحقيقي لها وكانت علاقة قوية ووثيقة، لم يعد المحب يفكر بان ينتفع من محبوبه، بل بالعكس فهو يحاول ان يفعل لمحبوبه ما تجود به يده دون ان يطمع بأجر أو احسانٍ من

١. لقمان: ١٤.

٢. بحار الانوار: ج ٧٠، الباب ٤٣، الرواية ٩.

محبوبه. ان لازمة الحب الخالص والشديد ان لا ينتبه المحب لنفسه، فهو يرى صورة الحبيب في كل مكان ويجعل كل وجوده وقفاً عليه. فالمحب في مثل هذه العلاقة لم يعد يفكر ما اذا كان هنالك عذاب أم لا، وهل هنالك جنة وحور عين أم لا، بل ان كل انتباهه موجَّه نحو المحبوب ومحبته.

التعبير الآخر في هذا المجال هو التعبير المروي عن امير المؤمنين عليه السلام: **ما عبدتُكَ خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك لكن وجدتُك أهلاً للعبادة فعبدتُك.**[1] انني لم أجد اهلاً للعبادة سواك، فاذا لم أعبدك فمن أعبد؟ واذا لم اتعلق بك فيمن أتعلق؟

المسار التدريجي في تكامل النيّة وسموّها

على أية حال، هذه مراتب ومفاهيم مختلفة جرى بيانها بما يتناسب ومستوى فهم مختلف المخاطبين، وعلينا ان نباشر من المراتب الدنيا لننال المراتب العليا بالتدريج، فالمرحلة الاولى هي الخوف من النار والعذاب وان الكثير من المناجاة المروية عن الائمة عليهم السلام تدور في هذه الاجواء، ففي دعاء أبي حمزة الثمالي يناجي الامام السجاد عليه السلام ربه بما يلي: **فمن يكون أسوءَ حالاً مني إن أنا نُقلتُ على مثل حالي الى قبري لم أُمهدهُ لرقدتي ولم أفرشه بالعمل الصالح لضجعتي. وما لي لا أبكي ولا أدري الى ما يكون مصيري... فما لي لا أبكي؟ أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكر ونكير إياي، أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري.**

لو أقنع الانسان قلبه بالقبر والقيامة وأخطارها ومهالكها وعذابها وأهوالها لكفاه ان يعيش ذكر الله دائماً ولا يتلوث بالذنب! انها اهوال وعذابات تكرر التنويه اليها في القرآن: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً**

---

١. نفس المصدر: الباب ٥٣، الرواية ١.

فَاسْلُكُوهُ).[١] وعندما يعطش لشدة النار وحرارتها لا يُسق الّا ماءً حامياً من القيح والدماء: (وَيُسْقىٰ مِنْ مٰاءٍ صَدِيدٍ).[٢] (لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِيمٍ).[٣]

يجب ان نأخذ ذلك على محمل الجد ونتأمل به. لقد ورد في الروايات عن طعام وشراب جهنم انه اذا وقعت قطرة منها على اهل الدنيا لماتت جميع الكائنات الحيّة من رائحتها النتنة.[٤] وفي المقابل اذا ما اختلطت قطرة واحدة من شراب الجنة في مياه الدنيا ستتعطّر بها كافة بحار الدنيا. فعلينا ان نسعى ونوجّه انظارنا من عذابات الدنيا نحو عذابات الآخرة والقيامة ونعمها، فلقد وهبَنا الله هذه المقدرة وعلينا نحن ان نحوّل هذه الهمة الى مرحلة الفعلية بارادتنا.

امثلة عن المراتب العليا للنية والعبادة

هنالك قصص عن الاعلام والعلماء ـ ناهيك عن الائمة الاطهار والمعصومين عليهم السلام وخاصة اولياء الله اذ لهم مكانتهم الخاصة بهم ـ في مجال علوّ الهمة، مفيدٌ ومؤثرٌ جداً بالنسبة الينا، وبهذا الخصوص تُروى قصة رائعة جدّاً عن الشيخ الانصاري رحمه الله من ان الشيخ كان ذات يوم عائداً من الدرس الى البيت في ذلك الجو الصيفي القائض في النجف حيث تصل درجة الحرارة الى ٥٠ درجة، وكان الشيخ ظمآناً جداً فطلب من أهله ماءً، ولم يكن وقتذاك وجود للثلاجة أو المجمدة أو وسائل التبريد. أما البيوت المؤثثة فكانت تحتوي سراديب كثيرة العمق، فكانوا يعلقون قِربَ الماء بحبال داخل هذه السراديب كي يبرد الماء. فكان الشيخ الانصاري قد دخل البيت مرهقاً ظامئاً في ظل حرارة الجو وطلب الماء، وما أن ذهبوا ليسحبوا القربة ويأتوا بالماء للشيخ طال الوقت قليلاً فقال الشيخ مع نفسه: الآن حيث لا عمل لي لأُصلي ركعتين الى ان يأتوا

---

١. الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢.
٢. ابراهيم: ١٦.
٣. الانعام: ٧٠.
٤. راجع: *بحار الانوار*: ج ٨، الباب ٢٤، الرواية ١.

بالماء، نعم، هكذا كان العلماء يستثمرون وقتهم، في حين ان بعضنا عندما نفرغ من العمل نقول لنتوجه الى حلّ الكلمات المتقاطعة في الجريدة أو نشاهد فيلماً أو افلام الاطفال!

على أية حال انهمك الشيخ بالصلاة ظمآناً يابس الشفتين واثناء الصلاة تستولي على الشيخ حالة بحيث يقرأ بعد الفاتحة احدى سور القرآن الطوال ولذلك فقد طالت صلاته، وعندما انتهت صلاته كان الماء قد اصبح حاراً بسبب حرارة الجو فشربه الشيخ ثم توجه نحو اعماله! نعم فاللذة التي تحصل للشيخ الانصاري من الصلاة تزيل عن ذاكرته العطش والتعب!

أو ما يُنقل عن أحد كبار المراجع من انه انتبه ذات مرة وقال: كأنني اصلي بسبب اللذة التي اشعر بها من الصلاة، فبدا له ان هذا المقدار يتنافى مع خلوص النية، فيجب ان تؤدى الصلاة خالصة لله وليس اللذة التي اتمتع بها من الصلاة! من هنا فقد اوصى بأن تعاد صلاته باجمعها، خوفاً من ان تكون تلك اللذة التي كانت تحصل لديه من الصلاة قد تركت تأثيرها على خلوص نيته!

ان الغرض من نقل هذه القصص أن نعلم ان هنالك مراتب اعلى بكثير مما عليه أمثالي وان هنالك أناساً قد نالوا هذه المنزلة، واذا ما اردنا نحن وسعينا سيكون من الممكن بالنسبة الينا بلوغ هذه المراتب. ان المسافة بعيدة بطبيعة الحال وهي تحتاج لهمة عالية كي نقترب بانفسنا من امثال هؤلاء العظماء، وعلى أية حال ينبغي أن لا نقيد هممنا بهذه المراتب الدنيا جداً من العبادة عن الخوف والطمع.

من الاعمال التي بمقدورنا القيام بها ـ على سبيل المثال ـ لغرض الارتقاء بهممنا هو ان نصلي كل يوم ركعتين بنية لأن الله هو الله المحبوب المستحق للعبادة! فنقول مع انفسنا: اصلي هاتين الركعتين حتى وإن لم يعطني الله ثواباً، بل الارقى من ذلك، حتى وإن احرقني الله بنار جهنم! لعل الثانية ـ انني اصلي هذه الصلاة حتى وإن احرقني الله

بناره ـ صعبة علينا قليلاً، بيد ان النية الاولى يسيرة نوعاً ما بالنسبة الينا. فـلنصلِّ ركعتين في كل يوم ونلقِّن انفسنا باننا لا نريد من الله جزاءً عنها ولا أجراً، وانما نقوم بذلك لأهلية الله وحباً وشكراً له على نعمائه.

هذه الأيام «اربعين التكليم» وتبدأ من غرة ذي القعدة حتى العاشر من ذي الحجة وهي الأيام التي توجه بها موسى عليه السلام الى جبل الطور ليناجي ربه، وكان من المقرر ان يختلي بربه ثلاثين يوماً في البداية، ولكن زيدت عشرة أيام فيما بعد فاصبح مجموعها اربعين يوماً: ﴿وَوٰاعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنٰاهٰا بِـعَشْرٍ فَـتَمَّ مِـيقٰاتُ رَبِّـهِ أَرْبَـعِينَ لَيْلَةً﴾.[1] واستناداً للروايات الاسلامية يستحب مؤكداً التهليل في هذه الأيام، فالتلفظ بـ«لا اله الّا الله» عدة مرات في اليوم والليلة لا يكلف شيئاً. فحريٌ بالمرء ان يكرر هذا الذكر خلال هذه الأيام ويقول: الهي انني اردد هذا الذكر لانك انت الله المحبوب ولا أُريد جزاءً ولا عوضاً. واردد هذا الذكر لأشكر القليل من نعمائك التي لا تُحصى التي انعمت بها عليَّ وإن لم ترد عليَّ بالثواب. على أية حال ينبغي ان ننطلق من هذه المراتب الضيقة والدنيا لنصل المراتب العليا بالتدريج ان شاء الله.

---

١. الأعراف: ١٤٢.



الدرس السابع والعشرون

البحث عن روح الصلاة «١»

الصلاة الحقيقية

كان بحثنا في الدروس الاخيرة يدور حول الصلاة واشرنا الى ان ما يستفاد من مجمل معارف الاسلام هو ان أهمَّ وافضل الاعمال عند الله سبحانه وتعالى، والطريق لنيل مراتب القرب من الله هي الصلاة، وقد ذُكرت في القرآن والروايات مزايا وآثار للصلاة تضعها في اعلى مراتب الاعمال، وان كون الصلاة خير العمل أمرٌ جرى التصريح به في الشريعة المقدسة، ونحن بالذات نقرُّ بذلك يومياً خلال الاذان والاقامة للصلوات الخمس. ومن بين المزايا والآثار الوارد ذكرها للصلاة: **الصلاة معراج المؤمن.**[1] بالاضافة الى آثار ومزايا اخرى اشرنا الى بعضها في الدرس السابق.

وبالرغم من ذلك فنحن وللاسف لا نستلذ كثيراً بصلاتنا، فالاغلبية منا لا نستلذ بصلاتنا ولا نستشعر آثارها وثمارها في وجودنا بل بالعكس فغالباً ما نستثقل الصلاة ونسعى اليها كارهين، وعندما تنتهي صلاتنا يصبح حالنا وكأننا قد ألقينا عن كواهلنا حملاً ثقيلاً كان يرهقنا ويؤذينا! رغم ان صلاتنا لا تطول عادة اكثر من اربع أو خمس دقائق أو عشر دقائق على اكثر التقادير! لكن هذه الدقائق المعدودات ثقيلة علينا بحيث تبدو وكأنها تطول ساعات علينا! فعندما نفرغ من الصلاة نتنفس الصعداء ونغدو كطيرٍ كان حبيس القفص وقد اصبح الآن طليقاً فنلتفت بعد أن نقول «السلام

---

١. *بحار الانوار*: ج ٨٢، الباب ٤، الرواية ٢.

عليكم ورحمة الله وبركاته» شمالاً ويميناً ثم ننطلق فوراً الى اعمالنا! وقد اشار القرآن الكريم الى هذا الأمر بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.[1]

وبطبيعة الحال ان صلواتنا هذه بما عليه من فتور وضعف فهي ذات قيمة عالية جداً قياساً لعدم الصلاة، فمن المهم جداً ان يقف الانسان دقائق امام الله سبحانه وتعالى ليؤدي تكليفه ويمرّغ جبهته بالتراب، غير ان الحديث يدور حول منزلة الصلاة وشأنها والمتعة التي بامكاننا ان نجنيها منها اكثر من ذلك بكثير، وان الفارق بين هذه الصلوات والصلاة الحقيقية كالفارق بين الصفر وبين اللانهاية!

ان ثمة مسافة بعيدة جداً تفصلنا عن الافق الاعلى والملكوتي للصلاة، فنحن محرومون ـ وللاسف ـ من آثارها الاستثنائية، والسرُّ في هذا الحرمان هو كما اشرنا في الدروس المتقدمة من اننا اختصرنا الصلاة في ظواهر الفاظها واذكارها وحركاتها وسكناتها فيما غفلنا عن روحها وحقيقتها، فالصلاة التي لا يتوجه الانسان لمعاني الالفاظ التي ينطقها والحركات التي يؤديها كدمدمة السحرة لدى قراءة الفال، فهؤلاء يرددون كلمات لا يفهمون شيئاً منها هم ولا غيرهم! من غير الممكن بناء آمال على صلاة لا طائل منها سوى لقلقة اللسان والانحناء والقيام، لأن تعرج بالانسان! فصلوات الكثير منا تشبه الصلاة فقط وليست بالصلاة الحقيقية! وقد لا تختلف صلاتنا احياناً عن فعل الذي يؤدي حركات استعراضية، فهي استعراض للصلاة وليست صلاة!

ليس من الضروري ان تكون الصلاة طويلة، فالصلاة حتى اذا كانت قصيرة ووجيزة لكنها ذات روح فبامكانها ان تصنع معجزة وتنقل الانسان من ادنى المراتب الى ذروة الشرف والمجد. علينا ان نسعى ونبتهل الى الله تبارك وتعالى لأن تتمتع صلواتنا بالروح، حينها سنرى عياناً آثارها بالقدر الذي ندرك فيه روح الصلاة.

---

١. البقرة: ٤٥.

اذا كانت للصلاة روح فان اثرها كما يصرح القرآن هو: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.[١] ومع ذلك كثيراً ما شاهَدنا من المصلين انهم وبمجرد خروجهم من المسجد يتوجهون نحو المعصية ولا تأثير للصلاة في صدِّهم عن المعصية والموبقات، فما اكثر المصلين الذين يتوجهون بعد الصلاة والخروج من المسجد نحو نظرة الحرام والصوت الحرام وحديث الحرام والمعاملة المحرّمة وسائر اصناف المحرّمات! بل ربما لا يخرج من المسجد حيث يباشرون داخل المسجد بغيبة الآخرين وتوجيه التهم اليهم والكذب عليهم والاستخفاف بهم! فأي صلاة هذه؟ ألم يصرّح القرآن: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ فلماذا لا تنهانا هذه الصلاة عن المعصية؟

جاء في رواية عن امير المؤمنين عليه السلام انه ينقل عن النبي الاكرم صلى الله عليه وآله قوله: **انما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهرٍ جارٍ على باب احدكم، فما ظن احدكم لو كان في جسده درنٌ ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات في اليوم، أكان يبقى في جسده درنٌ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي.**[٢] ورغم ذلك فاننا نصلي خمس مرات في اليوم لكننا ما نزال ملوثين بأدران واقذار انواع المعاصي! والسبب في كل ذلك ان صلواتنا ليست صلاة بل شبيهة بها فقط، والسؤال الذي يتبادر هنا هو: ماالذي يجب فعله اذا ما اردنا ان صلاتنا صلاة واقعية وتتمتع بالروح؟

الخطوة الاولى للتنعم بروح الصلاة وحقيقتها

ان اول خطوة للاقتراب من روح الصلاة والتنعم بحقيقتها هي ان نلتفت الى الصلاة اثناء أدائها، فلربما يحصل في الكثير من الاحيان ان يفرغ المرء من قراءة سورة الفاتحة

---

١. العنكبوت: ٤٥.

٢. *بحار الانوار*: ج ٨٢، الباب ١، الرواية ٤١. وقد نقلت رواية مشابهة لهذه الرواية عن الامام الباقر عليه السلام في *بحار الانوار*: ج ٨٢، الباب ١، الرواية ٦٦.

ويقرأ سورة التوحيد لكنه لا يتذكر كيف انه قرأ سورة الفاتحة وانتهى منها بـل قـد يحصل انه وعندما يقول «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» يتذكر انه كان يـصلي! وهذا يدل على ان لم يكن متوجهاً وواعياً للصلاة وما كان يؤدي! وبالطبع لابد من وجود نوع من التوجه لدى اداء الفعل الاختـياري والارادي، ومـن المسـتحيل ان يصدر فعل اختياري من المرء دون توجه منه، ولكن يكفي توفر مرتبة ضئيلة مـن التوجه لتحقق هذا الشرط.

والمراد فيما يتعلق بالصلاة هو ان التوجه ربما يكون من الضعف بحيث اذا حـاول المرء وهو في الركعة الثالثة ـ مثلاً ـ العودة الى الوراء ليتذكر كـيف ادى التـشهد في الركعة الثانية فأنه لا يتذكر! تلك هي الصلاة التي تفتقد الروح ولا تجدي أي تكامل للانسان.

بناءً على هذا ان أول خطوة لبلوغ حقيقة الصلاة وروحها هي ان نـلتفت مـاذا نفعل، فيجب علينا ومنذ البداية حينما نقف لتكبيرة الاحرام وقبل ان نقول الله اكبر، ان نلتفت اننا لماذا وقفنا هنا وماذا نريد أن نفعل؟ بل واكثر من ذلك، ان نلتفت منذ أول كلمة نباشر بها الاذان والاقامة، من اجل ماذا هذه العبارات، وان يكون حالنا على اقل تقدير بمستوى كأننا حفظنا نصاً ونريد قراءته على أحد ما. فهنا نواظب على ان نُحسن اداء الحروف والكلمات وان لا نقدم أو نـؤخر بـالجمل والعـبارات. وجـرّاء التكرار تتحول القراءة في الصـلاة الى مَـلَكة بـالنسبة للانسـان مـع مـرور الزمـن وسيُحسن الانسان اداء القراءة بقليل من التوجه والوعي، وقد أشرنا الى ان هذا القدر من التوجه ليس كافياً في أن تؤثر الصلاة أثرها المطلوب.

الخطوة الثانية

الخـطوة الثانية في طريق اداء صلاة يتسنى لنا الانـتفاع بهـا هـي ان نـتوجه لمـعنى

ومضمون أية جملة أو ذكر تتلفظه، وهذا ما يتعين على التركيز عليه بكل تأكيد، واذا لم نستطع القيام بذلك في صلاة علينا ان نسعى لفعله في الصلاة اللاحقة، واذا لم نفلح في المرة الثانية نسعى اليه في الصلاة التالية، وخلاصة القول انه أمر يتحتم علينا تحقيقه. ولغرض انجاز هذه المهمة بامكاننا العمل بالنحو التالي وهو ان نستحضر في اذهاننا معنى أية جملة قبل التلفظ بها ومن ثم نقوم بأدائها. فلو اردنا القول «الله اكبر» مثلاً، نستحضر في اذهاننا هذا المعنى وهو ان الله اكبر من كل شيء وكل أحد ثم نقول الله اكبر. فاذا ما تمرّسنا على هذه الشاكلة نحصل على قابلية التوجه لمعاني ومفاهيم الالفاظ والعبارات التي نتفوه بها الى حدٍّ ما.

على اية حال، ان هذا الأمر مهم واساسي جداً واذا ما افلح الانسان فيه يكون قد خطا خطوة كبيرة باتجاه بلوغ المرام، ولكن رغم هاتين الخطوتين فان صلاتنا لمّا تصبح عبادة كاملة بعد، فحتى لو نجحنا بان يكون لنا حضور قلب وتوجه تام منذ بداية الصلاة وحتى نهايتها، وافلحنا بشكل تام بأداء الكلمات واحدة واحدة ونتوجه لمعانيها مائة بالمائة يستلزم خطوة اخرى على أقل تقدير لبلوغ حقيقة الصلاة، فالتوجه لمعاني الصلاة باقصى مستواه يشبه قراءتكم لكتاب باللغة العربية ودقتكم وتوجهكم بشكل تام لمعانيه حين القراءة، فهل يؤدي ذلك لأن يصبح عملكم عبادة؟! فالصلاة ليست مجرد ان يتوجه الانسان لمعاني الالفاظ التي يقولها اثناء صلاته.

الخطوة الثالثة

وتتمثل الخطوة الثالثة في هذا الاتجاه بان نسعى لان يكون وضعنا وايماننا القلبي متناسباً مع ما نتلفظ به، فاذا ما قلنا في الصلاة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) يجب ان يكون وضعنا بنحوٍ لا نستمد العون من أحدٍ سوى الله ولا نعتمد على أحدٍ غيره، وعندما نكبّر تكبيرة الاحرام ونقول «الله اكبر» فيجب ان يكون ايماننا القلبي بان نرى

الله هو الاكبر، فهل اننا نشهد من اعماق قلوبنا ان الله اكبر من كل شيء؟ وهل لهذا القول تجلي وظهور في سلوكياتنا واعمالنا؟ لو تأمل الكثير منا في وضعه وحاله سنرى اننا لا نرى شأناً لله ـ والعياذ بالله ـ ولو بقدر ما نراه لطفل، فنحن نخجل من القيام بالكثير من الافعال بحضور الطفل لكننا نباشر بكل صلافة اعمالاً اسوء بكثير منها في محضر رب العالمين! أي اننا لا نحسب لله حساباً في التزامنا العملي والتجسيد السلوكي على انه الاكبر بل حتى الاصغر من الجميع احياناً!

أن يكون حال الانسان اثناء الصلاة متناسباً مع ما يتلفظ به بلسانه له مراتب متعددة، وان مرتبة أو مراتب من ذلك سهلة المنال الى حدٍّ ما بالنسبة للجميع عن طريق التمرين، ومراتب منه خاصة بأولياء الله والذين نالوا الدرجات العليا جداً من المعرفة والكمال. ولقد كانت للائمة المعصومين عليهم السلام حالات عجيبة جداً في صلاتهم، فلم يكونوا عليهم السلام يتوجهون الى ما سوى الله اثناء الصلاة، والقصة المروية عن امير المؤمنين عليه السلام معروفة ان سهماً دخل في قدمه ولم يستطيعوا اخراجه منها، ولم يكن يومذاك وجود لأدوية التخدير من هنا كان اخراج ذلك السهم صعباً جداً فمكثوا حتى وقف امير المؤمنين عليه السلام للصلاة اذ ذاك اخرجوا السهم من قدمه دون ان يتحسس الالم.[1] ولعل تصور هذا الأمر يصعب علينا قليلاً لكنه سهل بالنسبة لعلي عليه السلام ويتناسب معه وقد وقع ما يناظر هذا الأمر لأناس ليسوا أهلاً للمقارنة معه عليه السلام لكنهم قد تتلمذوا في مدرسته.

قصة عن المرحوم آية الله الخوانساري

سمعتُ بنفسي عن عدة من الثقاة قصة حول المرحوم آية الله العظمى الحاج السيد احمد الخوانساري، اذ ينقلون إنه ابتُلي بمرض وكان لابد من اجراء عملية جراحية له في

---

١. راجع: *ارشاد القلوب*: ج ٢، ص ٢١٧.

المعدة، ومن الطبيعي انه لابد ان يخضع للتخدير كي يتسنى لهم اجراء العملية الجراحية له. وفي ضوء ما كان عليه المرحوم آية الله الخوانساري من الاحتياط فقد رفض التخدير وقال بان تجرى له العملية الجراحية دون تخدير، وكلما قالوا له لا مفر لك من التخدير اذ ان الاطباء يريدون شق جدار البطن ومن ثم خياطته، كان يقول: لا عليكم قوموا بالعملية دون تخدير! على أية حال في خاتمة المطاف أجرى الاطباء العملية دون تخدير فشقوا جدار البطن وأخرجوا قسماً من المعدة الى الخارج ومن ثم قاموا بخياطة البطن، وخلال هذه الفترة لم يُبد آية الله الخوانساري ادنى ردة فعل من ألم أو ضجر! ولقد كانوا يتصورون انه سيتضور ألماً، لكنهم ذُهلوا وهم يرونه لا يبدي أيَّ رد فعل.

ينقلون انه وخلال فترة اجراء العملية الجراحية كان متوجهاً نحو ساحة القدس الالهي بنحو كان ناسياً نفسه والعالم الذي يحيط به تماماً. فالذي يستطيع تركيز توجهه على ساحة القدس الالهي اثناء العملية الجراحية بهذا النحو من المسلَّم به انه قادر على فعل ذلك اثناء الصلاة أيضاً. وعلى هذا فان مثل هذه الافعال ممكنة وعلينا ان نجتهد ونبتهل الى الله سبحانه وتعالى بان يمن علينا بمثل هذه اللذائذ والمراتب.

صلاة القلب

اذا أردنا ان ننتهل من كيمياء الصلاة المعطاءة فعلينا ان نسعى لأن «نصلّي» لا أن نتشبّه بالمصلّي فقط. واذا ما قطعنا المراحل الآنفة الذكر فاننا نستطيع بلوغ الكثير من مراتب روح الصلاة وحقيقتها، فعلينا في البداية التوجه الى الالفاظ والحركات التي نؤديها ومن ثم نتوجه لمعنى ومفهوم له وبالتالي علينا العمل ايضاً لان نساوق وضعنا الباطني والقلبي مع ما نقوم به ظاهرياً ونتفوّه على السنتنا.

كان الامام وسائر علماء الاخلاق يوصون «اعملوا على أن تُدخلوا حقائق هذه

الامور الى قلوبكم» فما معنى إدخالها الى القلب؟ يريد العلماء من هذا المعنى ان يفرِّقوا بين الذهن والقلب، فكان المعنى وموقعه ذهنُ الانسان، وبامكان الكافر تصوُّر معنى «لا اله الا الله» في ذهنه، فلماذا هو كافرٌ رغم ذلك؟ لأنه بالرغم من ادخاله المعنى في ذهنه لكنه لا يدخل قلبه، من هنا فان المؤمن مؤمنٌ لأنه بالاضافة لتصوره هذا المعنى في ذهنه فانه يتقبله ويؤمن به قلبياً ايضاً، وكلام الامام وسائر علماء الاخلاق نابعٌ من القرآن في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.[1]

جاء قوم من الاعراب وشهدوا بوحدانية الله ورسالة النبيﷺ: اشهد ان لا اله الّا الله واشهد ان محمداً رسول الله. وكانوا يظنون هذا هو الايمان، من هنا قالوا اننا آمنا بالله وبرسوله فنزلت الآية بان هؤلاء بالرغم من إدلائهم بالشهادتين وقيامهم بتكاليفهم لكن الايمان لم يدخل قلوبهم بعد: وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ. فالشيء الذي يدخل القلب سيترك بصماته على عمل الانسان، من هنا يتعين علنيا العمل باستمرار على ادخال الامور التي نتلفظ بها اثناء الصلاة أو نأتي بها ظاهرياً على صورة عمل، الى قلوبنا، فاذا قلنا «الله اكبر» ندرك حقاً بان الله اكبر من كل أحد وكل شيء، واذ قلنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نعتقد بذلك في قلوبنا ولا يكون لنا أمل وتعلق إلّا بعون الله ورعايته، واذا ابدينا تواضعاً ظاهرياً وسجدنا أمام الله سبحانه وتعالى فلنعمل في قلوبنا وبواطننا على ابعاد أمانينا وانانياتنا ونكون عباداً ومسلِّمين لله جل وعلا حقاً.

اسطورة أم حقيقة؟

اننا ـ وللاسف ـ وبسبب الفاصلة التي تبعدنا عن هذه الامور نتصور احياناً ان هذا الكلام اسطورة واحلام ليس إلّا! وكأنها اشعارٌ قالها البعض حينما انتعشت قريحتهم!

---

١. الحجرات: ١٤.

لكنها حقائق ووقائع جرى التصريح بالكثير منها في القرآن واحاديث اهل البيت عليهم السلام ولقد سبق لي قراءة الآية مرة أو مرتين، وعندما تأملت في معناها للمرة الاولى كان مذهلاً بالنسبة لي اذ ادركت مدى بعدنا عن القرآن ومعارفه، يقول القرآن الكريم في وصف المؤمنين: (إِذٰا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحٰانَ رَبِّنٰا إِنْ كٰانَ وَعْدُ رَبِّنٰا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً).[1] فالمؤمنون حقاً والذين دخل الايمان في قلوبهم عندما يُتلى عليهم القرآن يهوون بوجوهم على الارض سجداً ويبكون: يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ يَبْكُونَ، فلم يعلّمهم أحدٌ ان يفعلوا كذلك لكنه رد فعلهم الطبيعي ازاء تأثير القرآن؟ وكلما قرئ عليهم القرآن اكثر ازدادوا خشوعاً. وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً. وانني وعلى امتداد ستين وبضع سنين من عمري لم ارَ شخصاً واحداً تراوده مثل هذه الحالة اثناء سماعه للقرآن. وبالطبع فقد شاهدتُ أُناساً ينهمر الدمع من عيونهم اثناء الاستماع للقرآن، لكنني لم أشاهد أُناساً يخرّون الى الارض ويمرّغون وجوههم بالارض وهم يبكون.

وفي آية اخرى تناظر الآية المتقدمة يقول تعالى: (إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا).[2] لمن نزل هذا القرآن؟ وما المراد من ذكر مواصفات المؤمنين هذه؟ هل ارادوا ان نعلم فقط بان هنالك مؤمنين كانوا يمتلكون مثل هذه المواصفات؟ ألا ينبغي ان تتحقق هذه المواصفات فينا؟ ألا ينبغي ان نرى في اوساط حشود المؤمنين الذين نشاهدهم حولنا ولو شخصاً واحداً يتمتع بمثل هذه الحالة؟!

ان هذا الأمر شاهدٌ على مدى بعدنا عن النموذج المنشود في القرآن والسُنة. لقد كان هنالك العديد ممن كانوا يتمتعون بمثل هذه الحالة، ولكن من النادر رؤية هذه الحالات في هذه الازمان حيث تفاقمت زخارف الدنيا وزبارجها واشتد التنافس على الماديات. بل وصل الحال الآن اذا ما بكى أحد اثناء الصلاة أو سالت دموعه لدى سماعه آيات القرآن اعتُبر ذلك بدعة وفعلاً لا مبرر ولا معنى له؟ فهل ان ما ورد

---

١. الاسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩. ٢. مريم: ٥٨.

صراحة في القرآن بدعة في الدين؟ اذا كان صريح القرآن ليس ديناً فما هو الدين إذن؟ واذا تعذّر معرفة الدين واوصاف المتدينين والمؤمنين عن طريق القرآن، اذن عن أي طريق يتيسر بلوغ هذا الأمر؟ فلغرض ان يُفهمنا القرآن الكريم عظمة معانيه ومفاهيمه، يقول: (لَوْ أَنْزَلْنا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ).[١] أي ان القلب الذي لا يؤثر به القرآن ولا تختل نبضاته لسماع القرآن انما هو اشد قسوة من الصخر! فلو ان قرآناً نزل على الجبال لتصدعت، لكن قلوب البعض بل الكثير من الناس من القسوة بحيث ان آيات القرآن لا تحركها ولا تغيرها أبداً ولا تؤثر فيها قيد انملة! ما الذي يصيبنا بحيث يعترينا الفتور والجمود ونحن نواجه آيات الله؟ ألم يحن الوقت لأن نعيد النظر في وضع قلوبنا وارواحنا ونستأنس قليلاً بالله وآياته؟ (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ).[٢] أما آن الأوان للمؤمنين لأن يخشعوا ولا يكونوا كالذين قست قلوبهم مع مرور الأيام بحث لا تنزل من عيونهم قطرة دمع قط؟ ألم يحن وقت الخروج من حالة جمود القلوب وبرودها؟ ما اكثر الذين ذابت ثلوج قلوبهم وارواحهم نتيجة لحرارة آيات القرآن وعادوا الى رحاب الله، فلماذا لا نكون منهم؟

يُروى أن الفضيل بن عياض الذي كان لصاً، وفي احدى الليالي حينما كان يهمّ بسرقة أحد البيوت واراد القفز من فوق جداره سمع صاحب الدار يتلو الآية: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ) واذا بالآية تهزّه وتُحدثُ تغييراً في نفسه، فتاب من ساعتها قائلاً: نعم لقد آن الاوان، فلقد تغيّر بسبب هذه الآية بحيث غدا من اولياء الله. أما آن الاوان لأن تتجاوز مفاهيم الصلاة ومعاني الفاظها واذكارها السنتنا واذهاننا لتنفذ الى قلوبنا؟ ألم يحن الوقت لان يكون لنا حضور قلبي في الصلاة ولا نستخف بها الى هذا المستوى؟ آملين ان يشملنا الله بتوفيقاته في هذا الطريق.

---

١. الحشر: ٢١.
٢. الحديد: ١٦.

الدرس الثامن والعشرون

البحث عن روح الصلاة «٢»

لمحة عن المواضيع السابقة

كان بحثنا في الدروس الماضية يدور حول الصلاة، واشرنا الى ان للصلاة ـ بالاضافة الى ما نعرفه فيها من احكام فقهية وواجبات ومستحبات ومبطلات مما يتعين علينا تعلمها والالتزام بها ـ روحاً تكمن فيها القيمة الحقيقية للصلاة، فالمتعة التي يحصل عليها المرء من صلاته والسمو والتكامل الذي يجنيه لنفسه نتيجة لها انما ذلك رهنٌ بروح الصلاة، فالبعض ينتفعون فقط من هيكل الصلاة الذي يخلو من الروح، وأثر الصلاة التي تفتقد الروح يقتصر في ان الانسان لا يُسأل في القبر والقيامة: لماذا لم تكُ من المصلين؟ وبذلك فهو لا يؤاخذ من هذه الناحية. ولا اثر للصلاة هذه اكثر من ذلك. وهناك أُناس ينتفعون بالمراتب الدنيا من هذه الروح. وبعضٌ يعرجون بصلاتهم فينالون لقاء الله، وهذا الفارق في المراتب يتوقف على مدى تمتُّعنا بحضور القلب اثناء الصلاة واخلاصنا الصلاة لوجه الله. وقد تحدثنا في الدروس السابقة حول اهمية ودور النية في الصلاة وكيفيتها ومراتبها المتعددة.

الأمر المهم هنا هو اننا بالرغم من معرفتنا باهمية الصلاة قولاً وعلى الورق لكننا نتناسى معلوماتنا اثناء الصلاة ولا نهتم بها كما يجب وكما تستحق، واقصى ما نقوم به هو ان نسعى لاداء الصلاة في وقتها ونلتزم ببعض المستحبات احياناً الى جانب الواجبات، بيد ان كل ذلك يعدّ من هيكل الصلاة، أما روحها فشيء آخر، من هنا فاننا وفي اغلب الاحيان عندما ندخل في الصلاة يشغلنا التفكير بامور الحياة

وشؤونها بدلاً من ان يتركز توجهنا نحو الله والصلاة، بل ان البعض يفكر حتى اثناء الصلاة ـ والعياذ بالله ـ بالمعصية وكيفية التمهيد لها! وحتى لو كنا أناساً صالحين جداً فاننا نفكر اثناء الصلاة بالدرس والمباحثة أو ماذا نقول الليلة من على المنبر واثناء المحاضرة! وعادة ما لا تترافق قلوبنا مع السنتنا وجوارحنا فيكون لكلٍّ منها وجهته اثناء الصلاة! وكثيرٌ ينتبه عندما يقول «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» الى انه كان يصلي! والسؤال الآن هو هل لهذه المشكلة من علاج؟ وما الذي بوسعنا فعله كي نتمتع بروح الصلاة؟

الفارق بين صلاة التوجه وصلاة الغفلة

من السبل الكفيلة بعلاج هذه المشكلة هو التفكر والتأمل في فوائد توجه القلب وحضوره في الصّلاة، وفي الاضرار الناجمة عن الغفلة وعدم التوجه اثناء الصلاة، لان الانسان اذا ما اقتنع بان القيام بفعلٍ ما سيكون مفيداً له والكف عنه سيجر الى أضرار جسيمة وكبيرة بالنسبة اليه، اذ ذاك سيبادر الى القيام به والاهتمام به بشكل جاد، فالحقيقة اننا نفتقد الايمان بفوائد العناية بالصلاة والأضرار الناجمة عن عدم التوجه اليها فنحن نمتلك العلم لكننا نفتقد الايمان، فلسنا ننكر هذه المنافع وهذه الاضرار ونقرُّ بها ان سُئلنا عنها، بيد ان مراتب ايماننا وقناعتنا بها في غاية الضعف والضآلة، لذلك فاننا لا نحصل على ثمرةٍ من علمنا وهو لا يترك بصماته على عملنا. من هنا حريٌ بنا ان نتأمل خلال الفرص السانحة وفي غضون الدقائق القليلة التي تسبق الصلاة باهمية الصلاة ومدى مقدرة التوجه وحضور القلب في الصلاة على الارتقاء بقيمة عملنا، وهذا الأمر منوط ـ بطبيعة الحال ـ بمقدار معرفتنا ايضاً.

على أية حال ينبغي ان نضع بنظر الاعتبار ان الفارق بين صلاة التوجه وصلاة الغفلة ليس فارقاً عددياً ومحدوداً كالفارق بين الخمسين والالف مثلاً، فالفارق بين

صلاة التوجه وصلاة الغفلة كالبعد ما بين الارض والسماء، بل ان الفارق بين صلاة بقليل من التوجه وبين تلك التي فيها توجّه اكثر، خارجٌ عن التصور. فالفارق بين الصلوات التي كان الائمة المعصومون﴿ع﴾ يقومون بها وبين صلواتنا مما لا يمكن بيانه بعدد رياضي كأن نقول مثلاً ان ثواب صلاتنا يعدل واحداً من الالف أو واحداً من المليون أو واحداً من المليار قياساً لصلاتهم، بل الفارق بمستوى لا يصح معه القياس، فعلينا ان نتأمل في هذا الأمر وهو الى اي حدٍّ نحن قادرون على الارتقاء بقيمة عملنا وبأية قيمة دنيا نحن قانعون الآن!

وفي ضوء حدود العقل يتضح هذا الأمر أمامنا الى حدٍّ ما من خلال التمثيل بمعاملات الدنيا. افترضوا ان تاجراً بامكانه القيام بما لديه من رأسمال بواحدة من صفقتين إحداهما تدرُّ نفعاً قدره مليوناً والاخرى ملياراً، فماذا ما اختار هذا التاجر صفقة المليون، فايّ ضرر يكون قد الحق بنفسه وأية حسرة سيجرها فيما بعد؟ ونحن قد اشرنا الى ان الفارق بين صلاة بتوجه وصلاة دون توجه يخرج عن حساب الاعداد والارقام، لكننا لو افترضنا اننا نريد بيانه بالاعداد والارقام فبامكاننا القول مثلاً اننا نحصل على مائة مليار تومان في مقابل خمس دقائق من الصلاة لكننا نقنع بالمئة! أو تكون خسارة اعظم من هذه؟ أو يكون بمقدورنا ـ مثلاً ـ الحصول على جوهرة او قطعة الماس قيمتها مئات الملايين لكننا نرضي انفسنا بقطعة لا قيمة لها من الزجاج! الآن حيث ننوي ان نقول الله اكبر فان كلا الطريقين مشرعان أمامنا ونحن باختيارنا نقوم عدة مرات في اليوم الواحد باستبدال صلاتنا بزجاجة واموال سوداء لا قيمة لها! ولو اننا قد تأملنا قبل الصلاة بانه من الممكن ان يكون عوض صلاتنا ألماسة يعجز باعة الجواهر في العالم عن تحديد قيمتها، ربما نعود الى انفسنا ولا نبيع صلاتنا بثمن بخس! فلو أَحطنا علماً بالقيمة الحقيقية لصلاتنا لأخذنا بزمام قلوبنا اثناء الصلاة ولن نسمح له بالعروج بهذا الاتجاه أو ذاك. واذا عجزنا بالفعل عن القيام

بهذا الأمر في جميع الصلوات ـ ومن المسلّم به ان مثل هذا لن يكون ميسوراً بالنسبة الينا في بداية الأمر ـ فلنعزم على ان نتلفظ بذكر خلال صلاتنا لهذا اليوم على اقل تقدير لحضور قلب وتوجه تام.

اننا نغفل عن الخسارة الفادحة التي نتحملها كل يوم بسبب صلواتنا الخالية من التوجه، لكننا سندرك هذا الأمر بوماً ما، ويومها سنعض اصابع الندم ونجر الحسرات عليها. ذلك اليوم الذي اسماه القرآن يوم الحسرة: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ).[١] نعم فعذاب الحسرة اشدّ من عذاب جهنم!

على أية حال من السبل التي بالامكان ان تعيننا على ان نتمتع بالمزيد من حضور القلب في الصلاة هو ان نتأمل لدقائقَ قبل الصلاة لمنافع صلاة التوجه وحضور القلب وآثارها وكذلك أضرار الصلاة بلا توجه.

آخر صلاة

من الامور الاخرى التي بامكانها ان تعيننا على المزيد من حضور القلب في الصلاة، وجرت الاشارة اليها هو تصور ان هذه هي الصلاة الاخيرة التي أُصليها! ففي رواية ان النبيﷺ كان ينصح أحد اصحابه اسمه ابو ايوب خالد بن يزيد، فاشار عليه بهذا الأمر قائلاً: وَصَلِّ صلاة مُوَدِّعٍ.[٢] أي صلِّ الصلاة وكأنها آخر صلاة لك.

من اين لنا ان نعرف باننا سنبقى احياء بعد صلاتنا هذه بحيث ندرك صلاة اخرى؟! فنحن عندما ندخل في الصلاة لا يمكننا أبداً ان نتيقن باننا سننهي صلاتنا هذه الصلاة! ناهيك عن ان تتعلق آمالنا بصلاة اخرى. لو فكر الانسان وقال ان فرصتي على قدر هذه الصلاة وبمجرد ان اقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يحضر عزرائيل ويقبض روحي، من المسلَّم به انه سيصلي صلاة من نوع آخر! ولو انه

---

١. مريم: ٣٩.

٢. *بحار الانوار*: ج ٧٣، الباب ١٢٩، الرواية ٤.

علم ان هذه صلاته الاخيرة حقاً فسيصليها بحالة من التوبة والإنابة والتضرع أمام الله سبحانه وتعالى. ومثل هذا الاحتمال وارد في كل صلاة بأن تكون هي آخر صلاة لنا حقاً، اذن حقيقٌ بنا ان نتوجه الى الله في تلك الصلاة ونجعلها صلاة توبة واستغفار واستغاثة.

لو ان الانسان جلس عدة دقائقَ قبل الصلاة وحدَّث نفسه بانها ربما تكون آخر صلاة لي، اذ ذاك سيتبلور لديه هذا الحافز بان يستجمع قواه اكثر. خذ بنظر الاعتبار انك اذا ما عزمت على سفر طويل وخطير ماذا تفعل وكيف تودع اهل بيتك واصدقائك وذويك؟ وكثيراً ما شاهدنا هذا المشهد خلال سنوات الدفاع المقدس، فلحظات توديع الذين كانوا يتوجهون الى الجبهة كانت تختلف كلياً عن سائر السفرات والرحلات، ففيها كان الآباء والامهات يحتضنون ابناءهم بطريقة اخرى، كما ان وداع المقاتلين في ليالي العمليات كانت له نكهة وطبيعة عجيبة جداً وكان يسوده جوٌ مختلف، والسبب في ذلك كله ان الامل كان ضئيلاً جداً بالعودة وتجدد اللقاء، ولو تملّك الانسان مثل هذا الشعور اثناء صلاته ستختلف صلاته بشكل كبير، ولو انتاب الانسان شعورٌ بانه يتكلم مع الله للمرة الاخيرة، وهذه هي المرة الاخيرة التي يسجد فيها أمام الله سبحانه وتعالى من المسلَّم به انه سيصلي بطريقة اخرى، صلاة وداع بعيون مغرورقة بالدموع ونقاء ملكوتي نظير وداع المقاتلين في ليالي العمليات، فاذا ما تحقق ذلك سيحاول الانسان الانتفاع من صلاته اقصى واكثر فائدة. وهذا الطريق الثاني الذي يتمكن الانسان من خلال مضاعفة توجُّهه وحضوره في الصلاة.

الصلاة لقاء مع اعظم العظماء

من الأُمور الاخرى التي بوسعها مساعدة الانسان على زيادة توجهه في الصلاة هو ان يتفكر نحو مَنْ يريد التوجه، وينوي مقابلة أيّ عظيم اثناء الصلاة؟ فكلما ازداد

الانسان توجهاً لهذا الأمر سيتضاعف خشوعه وخضوعه وتوجهه في الصلاة، وعلى الانسان ان يعلم انه يخاطب اثناء الصلاة مَنْ يعلم سريرته ولا يخفى عليه ادنى ما يخطر في ذهنه وقلبه، فاذا ما التفت المرء لهذه الحقيقة لن تشغله برمجة المحاضرة أو الدرس أو البحث ولا تشغله الصكوك والفواتير لدى قوله «الله اكبر» وقراءة سورة الفاتحة والسورة التي بعدها، وسيعتريه الخجل من الله بان يتكلم مع الله فيما يعيش قلبه في مكان آخر لعلمه بان الله ينظر الى ما يدور داخل ذهنه وقلبه ومُحيطٌ بـه، ومن الطبيعي ان الوصول الى مثل هذه الحالة يحتاج الى التمرين والتكرار.

يجب ان نؤمن بأن الله حاضرٌ وشاهدٌ على الدوام وفي كل مكان ولا تخفى عليه أية حركة أو سكون، ولكي يتبلور هذا الاعتقاد لدينا لِنجلسْ في غرفة أُسدل فيها ستار دون ان يكون فيها أحد غيرنا ونتصور ان هناك مَنْ يراقب اعمالنا وتصرفاتنا من خلف الستار بحيث لا نراه نحن لكنه يرانا ويراقبنا بشكل تام، فهل تتشابه اعمالكم في مثل هذه الحالة مع تلك الحالة التي لا تمتلكون مثل هذا التصور؟ من المسلَّم به انها لا تتشابه. وناهيك عن اليقين فان الانسان اذا ما احتمل ان انساناً يراقبه من خلف ذلك الستار سيلتزم الحذر ولا يقوم بأي عمل وأية حركة. وسنتجنب الكثير من الافعال القبيحة بل وحتى المحلّلة اذا كنا بمحضر طفلٍ لم يبلغ الحلم لكنه يميز.

يجب ان نتمرن على هذه الحالة في الصلاة ايضاً، فاذا ما استشعرنا حضور الله في الصلاة بما يوازي أي انسان عادي على اقل تقدير ستختلف صلاتنا عمّا هي عليه الآن، ناهيك عن استشعارنا حضور الله جلّ وعلا بما يتناسب مع مقامه الربوبي! فلنُقم لله وزناً يوازي شأن انسانٍ عادي يراقبنا ويشاهدنا من خلف الستار! ولو اننا تصورنا الله بهذا القدر سيتضاعف حضور قلوبنا في الصلاة، ولو تأملنا قبل عدة دقائق من مباشرتنا الصلاة اننا نتوجه الى مَنْ يسمع اصواتنا ويشاهدنا ويُحيط بخواطر ظنوننا وقلوبنا من المسلَّم به سيكون لنا وضع وحال آخر. وكما قلنا ان التلفظ

بهذه الامور سهلٌ ولا يكلف شيئاً لكن العمل بها وتطبيقها ليس بالأمر الهيِّن كثيراً ولابد من التمرس والمثابرة والجدية لغرض الوصول اليه.

قصة «إنَّ» و«كأنَّ»

سبق وان نقلنا رواية عن الرسول الاكرمﷺ في رده على سؤال ابي ذر: ما هو الاحسان؟ فقالﷺ: **الاحسانُ ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك.**[1] فلابد ان نكون على حالة مخاطبة اثناء الصلاة لا ان نتصور اننا نحدِّثُ غائباً، ويجب ان ندرك حضور الله بكل جوارحنا ونرى ان الله سبحانه وتعالى حاضرٌ، فعندما نقول (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، فمعنى ذلك كأن الله ماثلٌ امامنا ونحن نقف بين يديه وقد اقبلنا نحوه قائلين: اننا نعبدك وَحدك، ومنك وحدك نستمد العون.

ثم يقولﷺ لابي ذر: ان لم تجد نفسك بمستوى انك ترى الله الذي تخاطبه فكن على يقين بان الله يراك حين العبادة وهو شاهد ومراقب لك: **فان لم تكن تراه فانه يراك**، ان رسول اللهﷺ والائمة المعصومينعليهم السلام قد تجاوزوا حدَّ «كأنهم يرون الله» الى «انهم يرون الله ويعبدونه حقاً» وكما نقول نحن الطلبة ان قضيتهم ليست كأنَّ بل إنَّ.

ورد في رواية عن احوال الامام الصادق عليه السلام انه كان مشغولاً بصلاة مستحبة وحينما اخذ بقراءة الفاتحة كان يكرر احدى الآيات بحيث صار وكأنه مغشيٌّ عليه. ولما سُئل: ما هذا الذي رأيناه منك يا ابن رسول الله؟ قال عليه السلام: لما وصلت الى هذه الآية اخذت بتكرارها وكأني قد سمعتها من لسان مَنْ انزلها.[2]

صحيح انهمعليهم السلام ائمة ومعصومون ولكن ثبت بالتجربة ان بلوغ مثل هذه المراتب أو ما يشابهها على الأقل أمرٌ يسيرٌ بالنسبة لمن تربّوا وتتلمذوا حقاً على ايديهم. فليسوا قلّةً العظماءُ الذين كانوا ولازالوا يتمتعون بمثل هذه الحالات بفضل عملهم بطريقتهم ومنهجهمعليهم السلام.

---

١. *بحار الانوار*: ج ٧٠، الباب ٥٣، الرواية ٢. ٢. راجع: *مفتاح الفلاح*: ص ٣٧٢.

ما هو ممكن كثيراً وبالدرجة الاولى بالنسبة الينا هو ان نجسّد أمامنا حين العبادة والصلاة ان الله يرانا ويسمع أصواتنا ويشهدنا ويرقبنا. ان بلوغ الانسان مرتبةً وكأنه يرى الله تُعد منزلة رفيعة وضرورية لطيّ تلك المراتب والمقدمات المتعددة، وخلاصة القول ان الوصال لا يتأتى بتلك السهولة، بالرغم من وصية النبيﷺ بذلك في البداية لابي ذر ومن ثم قوله له ان لم تكن قادراً على هذا الأمر فاعبد الله بنحو تعتقد معه ان الله يراك: **أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك**. وهذا ما يخضع لارادتنا، فمتى شئنا ان نعبد الله بنحو وكأننا نراه وإن شئنا ايضاً نعبد الله بنحوٍ يرانا هو! وقد ذكرنا مراراً ان بلوغ ايٍّ من المراتب الروحية والمعنوية يحتاج الى فعلٍ وتمرين وإعدادٍ للمقدمات، لاسيما هذه المراتب التي هي في عداد اسمى مراتب التكامل الروحي والمعنوي، وان احدى المقدمات في هذا الصدد تتمثل في ان نخصص دقائق قبل الصلاة للتأمل بهذا الخصوص، لا أن نأتي من قارعة الطريق ونقول الله اكبر ونباشر الصلاة دون مقدمة!

نحن بحاجة الى التمرين والضبط لغرض ان نأخذ بزمام قلوبنا، وان الصلاة تعني مواجهة الله وجهاً لوجه والحديث معه عن قرب، فيجب ان نتيقن بان الله يسمع كلامنا ويعرف به، واسمى من ذلك انه عالمٌ بما في قلوبنا ايضاً. ان الله موجود في كل مكان: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ).[1] فالمهم ان تُقبل قلوبنا نحو الله، فلو كان قلبنا اثناء الصلاة في مكان آخر فكأنما نكون قد أدرنا ظهورنا لمن نحدّثه! فاذا ما اردت الحديث مع صديق حميم لاسيما ان كان ممن تقابله بالاحترام، فهل تدير له ظهرك حينما يكلمك؟ انه فعلٌ في غاية القبح وقلة الادب! وفي الصلاة نحن نتحدث مع الله فاذا ما اقبل قلبنا نحو وجهة اخرى نكون وكأننا أدرنا ظهورنا الى الله ونتكلم معه! ولو اننا عدنا الى انفسنا وتأملنا الأمر نرى ان هذا الفعل في غاية الوقاحة وقلة الحياء، من هنا فان هذا الفعل قبيح جداً.

---

١. البقرة: ١١٥.

وفي بعض الروايات ورد هذا المضمون: ألا يخاف من غفل عن الله في الصلاة ان يمسخه الله حماراً.[١] أي ان الذي تنتقل حواسه اثناء الصلاة الى مكان آخر ولا يتوجه الى الله فهو يستحق هذه العقوبة بان يمسخه الله من انسان الى حمار، وبعبارة اخرى، من لا يرعى ادب الحديث مع الله ويدير ظهره لله اثناء تكليمه لله فذلك دليل على خلقه وطبيعته الحيوانية، لان الحيوان هو الذي لا يعي ادب الحضور والحديث فهو يعيش في عالمه الخاص به ويدور في حضيرته حينما يتكلمون معه.

على أية اذا ما تأملنا بالامور التي طرحناها في هذا الدرس وفكرنا بها مراراً فثمة أمل في ان تُعقد عزيمتنا على ان نساوق قلوبنا والسنتنا في الصلاة ونؤدي صلاتنا لمزيد من التوجه والحضور القلبي. نسأل الله تعالى ان يمن علينا بخاصة توفيقاته في هذا الطريق.

---

١. راجع: *بحار الانوار*: ج ٨٤، الباب ١٥، الرواية ٣.



الدرس التاسع والعشرون

صلاة الخاشعين

الخشوع طريق الى حقيقة الصلاة

على مدى عدة دروس مضت بيّنا ان هنالك فارقاً كبيراً بين ما نؤديه نحن كصلاة وبين الصلاة التي يؤديها اولياء الله والتي طالبتنا بها الشريعة الاسلامية المقدسة، ويعود السبب في ذلك اساساً الى ان صلاتنا تخلو من حضور القلب، فنحن نتفوه بالفاظ ونؤدي حركات وربما تكون مصحوبة بالكثير من المستحبات لكنها باجمعها بمثابة الجسد الذي لا روح فيه لعدم بروز الاثر المرجو عنها.

ثم اردفنا ببيان الطرق الكفيلة للحصول على حضور القلب في الصلاة بما يستفاد من الآيات والروايات وكلام العظماء في هذا المجال، ومن المزمع ان نطالع معاً اقوال القرآن النيّرة والروايات وكلام العظماء بهذا الصدد ونتحدث عنها علّنا نتأثر بنورانيتها وتتأثر قلوبنا بها، آملين ان يحدث تغير فينا نتيجةً لذلك، وتتغير صلواتنا قليلاً عما مضى وتصل حدّ الشبه بصلاة الصالحين واولياء الله. لقد طالعنا بعض هذه المطالب في الدروس الماضية وعلينا الآن مواصلتها.

لغرض ان تحصل صلاتنا على الروح وتكون صلاة مؤثرة، من الامور التي يتعين علينا التوجه اليها والتأمل بشأنها هي الخشوع، فلقد أكد القرآن الكريم على الخشوع: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ).[1] ويقول في موضع آخر: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ).[2] فهو يصرح بان الصلاة

---

١. المؤمنون: ١ ـ ٢.
٢. البقرة: ٤٥.

حملٌ ثقيل إلّا على اهل الخشوع. وهناك آيات وروايات عديدة اخرى في هذا المجال سنشير اليها في هذا الدرس بمقدار ما يتاح من فرصة. فلابد في البداية من ان نرى ما هو الخشوع ثم نتطرق الى ما يجب ان نفعله كي نحصل على الخشوع في صلاتنا.

مفهوم الخشوع

ان البحث في موارد استخدام هذه المفردة في القرآن بامكانه ان يعيننا على توضيح مفهومها بنحو افضل.

من بين الموارد التي استخدم القرآن هذا المفهوم بشأنها هو الصوت، اذ يقول القران الكريم في بيان احوال واهوال يوم القيامة: (وَخَشَعَتِ الْأَصْوٰاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاٰ تَسْمَعُ إِلاّٰ هَمْساً).[١] فيوم القيامة تتجلى هيبة الله سبحانه وتعالى وعظمته بحيث تخشع الاصوات فلا يُسمع الّا الهمس والأصوات الهادئة، في ذلك اليوم يتحقق كلام من الخلق، ولكن نظراً لان حضور الله يهيمن على الموقف فلا قدرة لأحد على التكلم بصوت عالٍ لشدة عظمة رب العالمين: فَلاٰ تَسْمَعُ إِلاّٰ هَمْساً، فليس من أحد يقوى على ان يرفع صوته بالكلام. وقد عبَّر القرآن الكريم عن انخفاض الصوت هذا بما يعنيه من عدم خروج صوت المرء من حنجرته بشكل صحيح وعجزه عن التكلم بقوة، بخشوع الأصوات.

من الموارد الاخرى التي استخدم القرآن الكريم مفردة «خشوع» فيها هي خشوع الوجوه، بقوله: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خٰاشِعَةٌ).[٢] فبعض الوجوه تعيش حالة من الخشوع في يوم القيامة، والظاهر ان مصداق هذه الآية الكريمة هي وجوه الكافرين والمذنبين.

وهنالك موارد اخرى لاستخدام هذه المفردة في القران ليست موضع بحثنا الآن، وقد اردنا هنا من خلال ذكر بعض موارد استخدام هذه المفردة في القران ان نكون قد اوضحنا مفهومها الى حدٍّ ما.

---

١. طه: ١٠٨.
٢. الغاشية: ٢.

اذا اردنا ادراك معنى الخشوع وتصورَ هذه الحـالة فينبغي ان نعرف في البداية ان الخشوع ليس حالة مصطنعة أو مفتعلة، ربما يستطيع الانسان ان يصطنع حالة مـن الخشوع الظاهري على وجهه أو وضع جسمه بيد ان هذا ليس خشوعاً حقيقياً، بل هو أمر ظاهري! فالخشوع الحقيقي ينبع من القلب، فلابد من ان يخشع القـلب اولاً ومن ثم يسري هذا الخشوع الى جوارحنا الظاهرية وحركاتنا، كما في قـول القـرآن الكريم: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ).[١] أما آن الاوان لان تنكسر قلوب المؤمنين لذكر الله؟

الخشوع رفضُ الانانية

ولكن كيف ينكسر القلب وما معنى ذلك؟ هل ان قلبنا شيء مادي ليـنكسر؟ ومـا الذي يحصل إن انكسر القلب؟ ان هذه الحالة ـ انكسار القلب ـ تحدث عندما يُبتلى الانسان ويكون محتاجاً بشدة، وتقصر يده بكل الاتجاهات وينقطع أمله عن الجميع، وهنا ينكسر قلب الانسان، لكن الخشوع لا ينحصر في هذه الحالة، فالخشوع امـرٌ أوسع مدىً من ذلك، والخشوع انما يأتي حينما تنكسر أنانية الانسان وأمانيُّه.

اننا جميعاً نرى لانفسنا شخصية وهوية مستقلة وكما يعبّر عنها بـ«الأنانية». وهذه هي اكبر خلل وعيب فينا في منظار الاخلاق والمعارف الاسلامية، وهذا العيب يبلغ ذروته عندما نشعر بالانانية ازاء الله تبارك وتعالى، ووجود هذه الحالة في الانسـان مذموم ازاء غيره من الناس، لكنها لا تبلغ حدّاً يؤدي الى سقوط الانسان ولأن تفقد اعمالُه قيمتَها. فالانانية في مقابل الله عزّ وجلّ تعني القول: الهي انك واحد وانا واحد! وهذه الحالة هي التي ينجم عنها ضلال الانسان وانحرافه وفساده، واذا ما تواصلت هذه الحالة وتفاقمت يبلغ الامر بالانسان ان ينادي: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ).[٢] فكان ذلك مظهر أنانية فرعون الذي أطلق هذا القول.

---

١. الحديد: ١٦.
٢. النازعات: ٢٤.

ان لكل نوع من الذنوب امتداداً في مرتبة الأنانية، وهذا مضمون الآية القرآنية الكريمة: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ). فعندما يتخذ المرء هواه الهاً له لا تعمل قواه المدركة بشكل صحيح وتصاب بالانحراف، ففي مثل هذه الحالة توصد عين الانسان وأُذُنُه ويعمى قلبه، وان الله سبحانه وتعالى يُضل امثال هؤلاء ولن يبقى أمامهم سبيل للهداية: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ).[١]

هذه الآية الكريمة تُبيّن بوضوح أن أساس العمى والانحراف عن الحق والحقيقة هو أن يضع المرء نفسه وهواه في موضع الله، فحينما يجعل الانسان هوى نفسه حافزاً ومحركاً لأعماله فانه لم يعد يرى الله، فكل ما يراه هو نفسه وهواه، فاذا ما سُئل أحد: لماذا تفعل هذا؟ ويجيب: لان نفسي هي التي تريد، فذاك هو: مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وتلك هي الأنانية. فهل نمتلك شيئاً من وجودنا في مقابل الله عزّ وجلّ؟ لو كنا نؤمن بالله ونعتقد به حقاً وواقعاً فاننا نعلم بأن الوجود كله ملك له ونحن لا نمتلك شيئاً ولسنا سوى عبيد، فالعبد لا يمتلك شيئاً قط ولا تجدر به سوى العبودية! ولو ان المرء عرف الله حق معرفته وآمن به فانه يسعى في كل أمر لاداء ما يريده الله منه، واذا ما سُئل: لماذا تكلمت؟ يجيب: لان الله اراد، واذا ما سُئل: لماذا صمتتَ؟ يقول: لان الله يريد، واذا سئل: لماذا جلستَ؟ يجيب: لان الله يريد، واذا سُئل: لماذا نهضت؟ يجيب: لان الله يريد، ولكن اذا ما سُئل: لماذا قمت بهذه الاعمال؟ واجاب: لان نفسي تريد، فهو ذاك الذي قال القرآن في وصفه: اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ. فاذا ما استمرت هذه الحالة يبلغ الامر بالانسان ان يقول: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ. فأنا ربكم ورب الآخرين ولستُ ربَّ نفسي فقط، وعلى الجميع ان يطيعوني ويتّبعوني ويعملوا طبقاً لارادتي وذوقي! ونحن حيثما شعرنا بان الحافز في حركاتنا وافعالنا هو قلبنا فلنعلم اننا نسير نحو عبودية الهوى،

١. الجاثية: ٢٣.

وحيثما وجدنا فينا ارادة التسلط على الآخرين ونطمح لان يكون الجميع أتباعاً لنا ونحن الذين نأمر وهم يطيعون فلنعلمْ اننا نتجه نحو الفرعونية، اذ ان فرعون لم يكن يعتبر نفسه الهاً لنفسه فحسب وهو تابع لهواه بل كان يريد ان يكون الهاً للآخرين وهم يعملون طبقاً لإرادته!

لو اننا التفتنا الى ما نعمل في الصلاة وماذا يعني اداء الصلاة لن نقع أسرىٰ هوى النفس، فالصلاة اظهار للعبودية والتسليم أمام الله سبحانه وتعالى وأمره، والصلاة اذعان لارادة الله وتنازل عن ارادة النفس.

على الشباب خاصة العمل كثيراً في مسيرة التحرك طبقاً لارادة الله ويعوّدوا انفسهم منذ البداية على ان يتحروا الدافع الالهي لحركاتهم واعمالهم وافعالهم، ومن ناحية اخرى ان لا يسعوا لان يصدروا الأوامر فقط والآخرون يمتثلون لهم ويقدمون لهم الخدمة، بل يكون جهودهم بان يقوموا هم بالمزيد من الخدمة للآخرين، فاذا ما تمرّس الشاب منذ البداية على هذين الأمرين واخذ يكررهما تضعف لديه روح التفرعن والأنانية ولن تقوى أبداً. واذا ما حاولنا منذ البداية ان نرى ما هو واجبنا في كل عمل وماذا اراد الله تبارك وتعالى منا فاننا لا نقع في فخ الأنانية ولا نسقط في مستنقع «مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ».

الخشوع الظاهري والخشوع الحقيقي

على أية حال، ان الانسان وقبل ان يترعرع وينشأ على اساس تربية الانبياء والمعلّمين الإلهيين تكمن فيه حالة الانانية، وعليه ان يفكر ويعمل على اصلاحها وعلاجها بالتدريج، ونحن اذا لم نحذر سيتحول عائق الانانية في نفوسنا الى سور عملاق ومتماسك لن يكون من السهولة اقتحامه وكسره: (وَلاٰ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلُ فَطٰالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ).[1] فبعض الناس يصل بهم الأمر

١. الحديد: ١٦.

بحيث تصبح قلوبهم ـ كما يعبّر القرآن ـ اشد قسوة من الصخر، كما يقول القرآن واصفاً قسوة قلوب بني اسرائيل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾.[١] فبعض الناس تقسو قلوبهم بحيث لا تسقط قطرة دمع من عيونهم وهؤلاء اشد قسوة حتى من الحجر، وفي المقابل هنالك أناس سرعان ما تنكسر قلوبهم كالجدار الذي يتصدع بسرعة، فثمة مرحلة أو مرتبة من انكسار القلب تتمثل في ان جدار قلب الانسان كأنه يحمل شقوقاً بسيطة، وقد يشتد انكسار القلب بحيث تتعمق شقوق جدار القلب، وقد يشتد هذا الانكسار كثيراً بنحو تنهار الدار مرة واحدة بسقفها وجدرانها! في هذه الحالة ينهار جدار أنانية الانسان فجأة ولا يبقى منه أي أثر وكأن داراً وجداراً لم يكونا أبداً، والخشوع التامُّ هو الحالة الاخيرة، الحالة التي يغدو فيها جدار قلب الانسان هباءً تتناثر ذراته في الهواء! واذا ما حصلت مثل هذه الحالة للانسان وانهار قلبه هكذا سيظهر اثر ذلك على وجه الانسان وظاهره شاء ام ابى ودون ارادة منه، كأن تظهر حالة من الانكسار والخشوع دون ارادة منه على صوته فاذا ما صلّى المرء وهو على هذه الحالة يكون مصداقاً للآيتين الكريمتين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خاشِعُونَ﴾.[٢]

ليس الخشوع ان يغيِّر المرء لحن صوته بشكل مصطنع اثناء الصلاة أو يحني رأسه أو يلوي رقبته فهذا تصنّعٌ وليس خشوعاً حقيقياً، فاذا ما انكسر قلبه حقاً لانهار جدار الأنانية وتحطّم سقف الدار الذي تُعبد فيه النفس ولظهرت آثار ذلك بصورة لا إرادية على وجهه وظاهره وتصرفاته.

ربما يتبادر الى الذهن أنه هل من الصحيح ان يصل المرء الى مثل هذه الحالة؟ ان الذين لا علاقة تربطهم بالله يعتبرون هذه الحالة دليلاً على ضعف الشخصية، فهم

١. البقرة: ٧٤.

٢. المؤمنون: ١ و٢.

يقولون اذا ما انكسر قلب الانسان وسالت دموعه واضطربت نبضات قلبه وبُحَّ صوته فذلك علامة على ضعف شخصيته وانهيار اعصابه ونفسيته! وفي المقابل فان رأى الذين يؤمنون بوجود الله ويعرفون الله ويدركون عظمته، يتمثل في ان عدم وجود مثل هذه الحالة يُعد اشكالاً وخللاً. ونحن نعتقد ان ذلك مقتضى فطرة الانسان، فعندما لا يمتلك الانسان شيئاً وان كل شيء لله ومنه، فما هذه الحركات الزائفة التي يقوم بها في مواجهة الله سبحانه وتعالى ولماذا يقيم هذا الجدار من الأنانية أمامه سبحانه وتعالى؟! ان المشكلة والخطأ يكمنان في ان الانسان يرى لنفسه شخصية مستقلّة وأنانية في مقابل الله عز وجل.

تأمل اكثر في مفهوم الخشوع

يقول القرآن الكريم في وصف نفسه: ان صفة القرآن تتمثل في ان الذين يتمتعون بفطرة طاهرة ومستقيمة اذا ما سمعوا القرآن اقشعرّت له جلودهم بشكل طبيعي: (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ).[١]

ان هذه الحالة مؤقتة لا تبقى بل هي تحصل للحظات ثم تزول، ويتعين على علماء النفس توضيح كيفية حدوثها، فهي تشبه ردود الفعل غير الارادية التي تصدر عنّا ازاء المؤثرات الطبيعية. فاذا انطلق صوت قوي بشكل مفاجىء يقفز الانسان من مكانه أو يهتز بشكل طبيعي. وهذه حالة غير ارادية تعدُ ردة فعل طبيعية. وهكذا الحال بالنسبة لبعض المدركات، فقد يقشعر بدن الانسان بشكل لاارادي في ظل ظروف خاصة وتحت تأثير ادراك معين. ومن الطبيعي ان ادراك حقيقة هذه الحالة من الصعب على الانسان ما لم تحصل له، لكن القرآن يصرح ان أناساً تعتريهم هذه الحالة إثر سماعهم للقرآن.

---

١. الزمر: ٢٣.

ولغرض تقريب الامر الى الاذهان وكذلك التمثيل افترضوا ان شخصاً دخل بيته وهو يتصور عدم وجود أحد في البيت واخذ يخلع ملابسه ويأكل ويشرب بانسيابية ودون أي تكلف وفي غاية الانبساط، واذا يسمع صوتاً! بمجرد سماعه للصوت يبقى في مكانه ويخاف قليلاً في بداية الأمر ويقول مع نفسه: ان أحداً لم يكن في الدار فمن اين جاء هذا الصوت؟ وبما انه كان واثقاً من عدم وجود أحد في الدار فاذا ما فُتح الباب ودخل أحدٌ تستحوذ عليه حالة مؤقتة من الخوف. وعلى أية حال انها حالة خاصة ليست قابلة للوصف ولا يدركها المرء ما لم يقع فيها. وهي حالة طبيعية تعدُّ رداً طبيعياً للانسان على المؤثر المحيط به، فاذا ما كان الداخل للدار واحداً من العائلة اذ ذاك يعود الانسان الى وضعه الطبيعي السابق وتنتهي حالة الخوف والرهبة تلك.

يصرح القرآن هكذا هو التأثير الطبيعي لسماع القرآن بالنسبة للذين هم على فطرتهم الطبيعية والاولية، فلدى سماعهم القرآن تنتابهم في البداية حالة من الخشية وتقشعر جلودهم: تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ولكن بما انهم مؤمنون ويعرفون الله، فانهم وبعد ان تمضي تلك اللحظات الاولى ويرون ان الكلام لله المؤنس الدائم لهم يعودون مباشرة الى وضعهم الطبيعي ويشعرون بالطمأنينة: (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللهِ).[1] وهم ليسوا فقط لا يستاؤون بل يستأنسون بالله وتهيمن حالة خاصة من السكينة على ارواحهم، اذ انهم يظنون في البداية غريباً وبعيداً لكنهم يدركون مباشرة انه ذلك الحبيب الرؤوف، لذلك يعودون الى سكينتهم.

وفي المقابل هنالك أناس بما انهم غرباء على الله فهم يستاؤون ويضطربون عندما يذكر اسم الله ويشعرون بحضور الله. يقول القرآن الكريم بهذا الخصوص: (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ).[2] أما الذين يعرفون الله ولارواحهم القابلية على الانس به فانهم وبعد ان تنتابهم تلك الحالة والتفتوا إلى انهم

---

١. نفس المصدر.
٢. نفس المصدر: ٤٥.

في محضر الله تتبلور لديهم حالة من الخشوع والانكسار بمقدار معرفتهم بـالله ومـا يدركون من عظمته.

افترضوا ـ من باب التشبيه والتقريب للأذهان ـ ان جندياً قد ذهب ليستريح في الساعة غير المرخص له فيها ظاناً عدم وجود أحد. وفجأة يفتح عينيه واذا به يرى آمره يقف على رأسه. أية حالة تهيمن عليه هنا؟ انه يصاب بحالة شديدة من الانفعال والخجل المقترن بالخوف، اذ ان هيبة وأُبهة المسؤول الاعلى تسبب له الارتباك، وفي ذات الوقت انه يشعر بالخجل لنومه ومدِّه رجليه أمام قائده. وكلما كانت شخصية مَنْ يواجهه المرء في مثل هذه الحالة اكثر هيبة وجلالاً تضاعفت لديه حـالة الارتـباك والخوف المقترنة بالخجل والحياء، فثمة علاقة مباشرة بين ادراك عظمة ذلك الشخص وبين شدة الانفعال، فكلما شعر بانه على درجة عالية وكبيرة من المسؤولية والأبهـة يزداد انفعال الجندي ايضاً، وشبيه هذا الشعور يحـصل للـمؤمنين ازاء الله سـبحانه وتعالى. فدرجة خضوعهم وخشوعهم منوطة بمستوى ادراكهم ومعرفتهم لعظمة الله وجلاله. على أية حال مثل حالة الانفعال التي اوردناها في هذا المثال والتي تحـصل لكل انسان في حياته اشبه حالة واقرب الى حالة الخشوع.

ان الخشوع يتزامن مع نوع من الارتباك، وهنا لا مناص لنا من ايراد مثال لتقريب هذه الحالة الى الأذهان وتوضيحها: افترضوا ان شخصاً ادعى انه ذو شأن وشخصية كأن يدّعي انه يتمتع بشهادة الدكتوراه وهو استاذ جامعي، وبعد مـدة حـيث كـان الناس ينظرون اليه بهذا المنظار، يُفتضح أمره ويتبين ان مدّعاه هذا لا صحة له، وليس انه يفتقد شهادة الدكتوراه فحسب بل هو أُمي ايضاً! هنا يصاب بحالة مفاجئة مـن الانفعال، وعلامة هذه الحالة تتمثل في اصفرار لون وجهه وارتباكه وانهار الدمع من عينيه... الخ. فنحن نتصور ان البكاء ينجم فقط عن الخوف أو الحزن أو المصيبة لكنه ذو انواع متعددة. فثمة بكاء حينما يشعر الانسان بالعجز شـعورَ مَـنْ خـلا وِفـاضُه

وخسر رصيده، فلقد اصطنع له شخصية أمام انظار الناس واذا بتلك الشخصية قد انهارت دفعة واحدة وعلى اثرها انهار الإنسان وتحطّم بشكل تام.

ثمة فارق بين الانكسار امام الله والانكسار امام الناس. فالانكسار امام الناس مؤلمٌ ويتعذب الانسان منه ويستصعبه، ولكن اذا ما هيمنت هذه الحالة على الانسان وهو امام الله سبحانه وتعالى فانه يتلذذ بها! يقول بعض العظماء: ان اللذة التي يحصل عليها الانسان من هذه الحالة وحين جريان دموعه خشية امام الله تفوق جميع لذائذ الدنيا بحيث انه يتمنى لو لم يكن هنالك شيء سوى هذه الحالة وتدوم له الى الأبد.

نعم هنالك أناس على استعداد للتنازل عن اروع لذائذ الدنيا من اجل لحظة واحدة يحصلون فيها على هذه الحالة! وذلك لأن الخشوع أمرٌ فطري، وان فطرة الانسان تقتضي ان لا يرى لنفسه استقلالاً وهوية ازاء الله، ويرى وجوده وكيانه مرتبطاً بالله بل عين تعلقه وارتباطه به جلّ وعلا.

على أية حال لا سبيل لبلوغ الهدف الحقيقيّ من الصلاة سوى الخشوع! (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)[١] فاذا منَّ الله على الانسان وحصل على مثل هذه الحالة وهو يخشع امام الله ويجد نفسه وقد تحطمت كل تلك الأنانيات والأرصدة المزيفة التي كان يضعها لنفسه وتبخرت، يكون قد بلغ المرام. نعم، يجب ان يتحطم هذا التصور القائل: الله واحد وأنا واحد. فحقيقة الأمر ان الانسان لا وزن له ولا يمتلك شيئاً امام الله سبحانه وتعالى، فكل ما لدى الانسان من علم وقوة وجمال وكمال فذلك قبسٌ من كمال الحق تعالى وجماله وعلمه وقدرته اللامتناهية، واذا ما ادرك الانسان هذه الحقيقة وحصل عليها بالعلم الحضوري من المسلَّم به انه سيخشع وكلما ازداد خشوعاً ازداد مرتبة كماله.

---

١. المؤمنون: ١ و٢.

الخشوع واسبابه

من افضل السبل لبلورة الخشوع، التأمل في آيات القرآن الكريم، فاذا كانت الارضية مناسبة والروح متأهبة يتحقّق تأثير القرآن: (**إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا**).[1] نعم فالقرآن وآيات الله تترك تأثيرها في القلوب المستعدة بحيث تجري دموعهم ويخرّون سجداً دون عزم مسبق. يقول تعالى في آية اخرى: (**إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً**).[2]

لقد اشرنا سابقاً ان للخشوع مراتب كالاناء الذي يتصدع، فقد يكون في الاناء شقٌ واحد فينشطر الى نصفين، وتارة يتحول الى عدة قطع، واخرى يتحول الى تراب. وهكذا خشوع القلب وانكساره، فتارة يخشع الانسان بحيث يذوب في الحق تعالى تماماً ولا يرى لنفسه شيئاً. وان اعلى مراتب العروج الواردة في قوله: **الصلاة معراج المؤمن**[3] ستحصل في مثل هذه الصلاة. فالشرط في ان تتحول الصلاة الى معراج هو ان تقترن بالخشوع. ولغرض ان تتحقق هذه الحالة لابد من توفُّر مقدمات إحداها أن نتفكر بعظمة الله، لان الانسان عندما يقارن بين كيانه وبين عظمة الله اللامتناهية حينها يدرك حقارة نفسه ويذوب وينتهي تلقائياً أمام تلك العظمة، فالانسان يشغف احياناً بشخصيته العلمية ـ مثلاً ـ ويظن انه يتمتع بالاعلمية، لكنه عندما يواجه مع من يعدُّ بحراً للعلوم سيعترف أمامه بالجهل دون ارادة منه، وستنهار تلك الشخصية العلمية التي اصطنعها لنفسه في مخيلته، وهذا الانهيار رهنٌ بمدى اتضاح عظمة الطرف المقابل أمامه وادراكه لها، ونحن كلما استطعنا ان ندرك عظمة الله اكثر سيتضاعف خشوعنا ونشعر بالمزيد من الانكسار، وهذا الادراك لا يحصل بالمفاهيم والعلوم

---

١. مريم: ٥٨. ٢. الاسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.
٣. *بحار الانوار*: ج ٨٢، الباب ٤، الرواية ٢.

الحصولية، فنحن نقرأ في الفلسفة والكلام والعرفان هذه المفاهيم من ان الله وجود لا نهاية له وهو يتمتع بكل كمال بما لا نهاية له... الخ لكن ليس لهذه المفاهيم اثر يعتد به في القلب، فربما يكون الانسان استاذاً في الفلسفة والعرفان ويثبت للآخرين بمختلف الادلة عظمة الله وازليته، لكن هذا العلم لا يقترن بالخشوع، ومثل هذا العلم بامكانه ان يلعب دور الإعداد والتمهيد فقط، لكنه لا يفرز ذلك الادراك العيني والملموس لعظمة الله. بناءً على هذا فان البحث يجري في ماذا يجب صنعه من اجل الوصول الى ادراك ملموس وعيني لعظمة الله بما يتولد عنه الخشوع؟ هذا البحث سنتابعه في الدرس المقبل بعونه تعالى.

الدرس الثلاثون

طريق لتحصيل الخشوع في الصلاة «١»

الخشوع، الخوف، الخشية

كان بحثنا في الدروس السابقة يدور حول الصلاة ذات التأثير وقلنا ان الصلاة تستطيع ان تترك اثرها عندما تقترن بالخشوع لقوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)،[١] وقد قمنا ببحث مفهوم الخشوع وتوضيحه وقلنا على نحو الاجمال: ان الخشوع عبارة عن شعور خاص من نسيان الذات والانكسار، وهي حالة تقترن بالخشية والخوف. من هنا لابد من الحديث قليلاً حول مفهوم الخشية والخوف والفارق بينهما وعلاقتهما بالخشوع كي يتضح مفهوم الخشوع اكثر.

نقرأ في القرآن الكريم: (لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ)،[٢] فلو أنزل هذا القرآن على جبل لبدت عليه حالة من الخشوع والانكسار ولتلاشى، وقد استخدم القرآن في هذه الآية الكريمة مفهومَي الخشوع والخشية معاً.

ان معنى مفردة الخشية ليس واضحاً بالنسبة لنا بشكل صحيح، فهذه الكلمة تستخدم في كثير من الموارد الى جانب مفردة الخوف وقد تستخدم الى جانب مفردة الهيبة، وان الكثير منا يتصور ان هذه الكلمات الثلاث مترادفة وتحمل معنىً واحداً بينما الأمر ليس كذلك فنحن نخطيء استخدام كلمة «هيبة» فنقول مثلاً «ان لفلان هيبةً...» أو: سيطرت عليَّ الحالة الفلان بسبب هيبة فلان. فننسب الهيبة للطرف المقابل في

١. المؤمنون: ١ و٢.
٢. الحشر: ٢١.

حين ان الهيبة حالة تحصل لذات الشخص بسبب ادراكه لعظمة الطرف المقابل! على أية حال، عندما يواجه الانسان عظمة خارقة ويشعر ازاءها بانه متواضع ولا شيء بالنسبة إليه تعتريه حالة من نسيان الذات والانكسار، وهذه حالة ليست قابلة للوصف ويجب ان يدركها الانسان بنفسه، وربما قد حصل أن واجهْنا شخصية كبيرة فأصابنا الارتباك وعُقد لساننا، وتلك هي التي نقول لتوضيحها: لقد عُقد لساني ولم أستطع الكلام بسبب هيبة فلان، وكما قلنا فان الهيبة في الواقع صفة وحالة لنا تحصل بسبب عظمة الانسان المقابل.

قد تقترن حالة الهيبة بمعارف وتوجهات اخرى، فربما يلتفت المرء بعد ادراكه لعظمة ذلك الانسان ومعرفته لشخصيته، الى انه قد خالف ايّ شخص عظيم وعصى أمره وبأي صلافة واجهه، فهنا تعتري الانسان حالة الخشوع بالاضافة الى حالة الخشية التي حصلت بفضل ادراك عظمة ذلك الشخص، وتارة يلتفت بالاضافة الى ذلك الى انه ونتيجةً للمعاصي والموبقات التي ارتكبها بحق ذلك الانسان العظيم، قد استحق العقاب، وقد أعدَّ ذلك الرجل انواعاً من العذاب والعقوبات للمذنبين. فهنا يصاب المرء بالخوف بالاضافة الى حالة الخشية والخشوع.

ان الخشية والخشوع لا تقترنان دوماً مع الخوف بالضرورة ولا يحصلان نتيجة الخوف من عذاب الله، بل ربما يظهران تحت وطأة ادراك عظمة الله فقط، كما اشرنا في ذلك الى قضية الجبل: (لَوْ أَنْزَلْنا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ)، فليس يصدق الذنب والعصيان بشأن الجبل لنقول ان الجبل يخشع ويخشى خوفاً من عذاب الله، بل ان تصدُّع الجبل إنّما هو تحت وطأة ادراك عظمة الله.

وبالطبع ليس واضحاً لنا كيفية ادراك الجبل لعظمة الله، وقد ورد في القران والروايات وبعض المكاشفات التي تُنقل عن اهل العرفان، أمورٌ واشياء نعجز نحن العوام من الناس عن ادراكها، فالقرآن يصرّح مثلاً ان سقوط بعض الصخور انما هو

بسبب خشية الله: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ).[١] فقد نرى احياناً ان صخرة تتدحرج وتسقط من اعلى الجبل، والقرآن يصرّح بان ذلك ناجم عن خشية الله! فكيف تتبلور هذه الخشية في الصخر؟ وكيف يدرك الصخر عظمة الله؟ هل انه يدرك عظمة الله بهذه الطبيعة المادية والجسمانية أم ان له صورة باطنية وملكوتية يدرك عظمة الله عن طريقها، أم ان هذا البيان القرآني بيان تمثيلي وتشبيهي؟ هذه مسائل كانت للمفسرين ابحاث حولها لكن حقيقتها لمّا تزلْ غير مكشوفة أمامنا في الوقت الحالي.

هنالك آيات اخرى في القرآن تشابه الآيات أعلاه ليس من الواضح معناها بالنسبة الينا، من قبيل الآية الكريمة التي تقول: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ).[٢] فاستناداً لهذه الآية الكريمة ان جميع المخلوقات تسبح الله سبحانه وتعالى، بيد اننا وكما تصرّح الآية لا نفقه تسبيح هذه المخلوقات.

يقول تعالى في آية اخرى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ).[٣] وقد جرى التصريح في هذه الآية ان لكل المخلوقات صلاة وتسبيحاً، ولكن ليس من الواضح بالنسبة لنا نحن الناس العاديين طبيعة هذه الصلاة وهذا التسبيح، وان الخواص من اولياء الله وحدهم الذين يدركون حقيقة هذا الأمر:

كلام الماء والتراب والطين   مفهوم عند ذوي البصيرة
فنحن ذوو سمع وبصر ووعي   ولكن نصمت عندكم انتم الأغيار[٤]

على أية حال، الآية التي اشرنا اليها في مستهلّ البحث تقول: لو اننا انزلنا هذا

---

١. البقرة: ٧٤.   ٢. الاسراء: ٤٤.
٣. النور: ٤١.
٤. أصل الشعر باللغة الفارسية كالآتي:

نطق آب و نطق خاك و نطق گِل   هست محسوس حواس اهل دل
ما سميعيم و بصيريم و هُشيم   از شما نامحرمان ما خامُشيم

القرآن على الجبل لتلاشى وانهار وتصدّع، ويُفترض على الظاهر ان خشـية الجـبل وتصدُّعه ليس بسبب المعصية والذنب، ولم تجر الاشارة في ظاهر الآية الى هذا الأمر على اقل تقدير، بل ان ظاهر الآية الكريمة هو ان هذا التصدع ناجمٌ عن ادراك عظمة الله.

بناءً على هذا ان بروز حالة الخشية ونسيان الذات والخوف عند الانسان امام الله سبحانه وتعالى أبعد مدىً من ان يكون مصدرها الشعور بالذنب والخوف من العذاب أو مجرد ادراك عظمة الله عزّ وجلّ، فمن حالات الانسان انه قد يتغير لونه عندما يقف امام شخصية كبيرة جداً، ويرتعد بدنه وتستحوذ عليه حالة من الرهبة، ولكن بروز هذه الحالة ليس بالضرورة ناجماً عن الخوف من العذاب والعقوبة، بـل ربمـا تـظهر نتيجةً لادراك عظمة تلك الشـخصية. فـقد جـاء في الروايـات ان الامـام الحسـن المجتبى عليه السلام كان يرتعد بدنه ويصفرَّ وجهه عندما يتوضأ.[1] وورد ان الزهراء عليها السلام كانت ترتعد فرائصها عندما تقف في محراب الصلاة، فكان الله يخـاطب مـلائكته في تـلك الاثناء: **يا ملائكتي انظروا الى أَمتي فاطمة سيدة امائي قائمة بين يدي ترتعد فرائصها من خيفتي وقد أقبلت بقلبها على عبادتي اشهدكم اني قد آمنت شيعتها من النار.**[2]

يبدو ان معنى الخشية يختلف الى حدٍّ ما مع معنى الخوف، فالخشية أعمُّ من الخوف الذي يتأتى بسبب العذاب والعقاب، والخوف الذي يحصل تحت تأثير ادراك عـظمة الله، وإن كانت كليّة هذه المسألة لا يُؤيدها الرجوع الى آيات القرآن، اذ يقول القرآن الكريم: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾.[3] فالآية تصرح بـان المـلائكة يسبحون الله خوفاً منه، بينما الملائكة ـ واستناداً لآيات القرآن ـ ليسـوا مـن اهـل المعصية والذنب لنقول ان سبب خوفهم من الله هو الذنب. يقول القرآن عن الملائكة:

---

١. راجع: *المناقب*: ج ٤، ص ١٤.
٢. *بحار الانوار*: ج ٢٨، الباب ٢، الرواية ١.
٣. الرعد: ١٣.

﴿لاٰ يَعْصُونَ اللّهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ﴾.[1] من هنا يستفاد من هذه الآية الكريمة ان مفردة الخوف تستخدم في الموارد التي لا وجود للمعصية فيها ايضاً.

من خلال التوضيحات التي قدمناها تبين ان الخشوع ربما تكون له اسباب متعددة، فتارة يكون بسبب ادراك عظمة شأن الله، وثانية بسبب الخجل والحياء من الذنب الذي يصدر عن الانسان ازاء الله سبحانه وتعالى، واخرى ربما يكون بسبب الخوف من عذاب الله وعقابه. ومن باب التشبيه تصوروا ان مجرماً قد جرى استجوابه وأباح بكل ما لديه، وهو يعلم بانه محكوم بالإعدام لا محالة بالوضع الذي هو عليه، فهو ومنذ ادراكه أن ما لديه قد استوفي ولم يعد امامه سبيل للكتمان فان حالة من الخيبة والانقطاع تستولي عليه.

التوجه الى عظمة الله سببٌ في الخشوع

لكي نحصل على الخشوع اثناء الصلاة يجب ان نتفكر مسبقاً في هذه الأمور: يجب ان نعمل لأن ندرك عظمة الله ونقارن صغرنا وضعتنا في مقابل عظمة الله بمقدار طاقتنا وفهمنا، ومن الطريف ان الصلاة تبدأ بالاشارة لهذا الأمر أي عظمة الله، فيجب ان نقول في بداية الصلاة: الله اكبر، أي يجب ان نتوجه الى عظمة وجلال الله ونعترف بها، ومن الطريف ايضاً ان هذا الذكر يتكرر مرات ومرات على مدى الصلاة وحتى بعد نهايتها خلال التعقيبات. فيجري التوجه الى عظمة الله وجلاله بذكر الله اكبر اثناء الذهاب الى الركوع والسجود وكذلك رفع الرأس منهما، وفي التسبيحات الاربع من الركعتين الثالثة والرابعة، وفي تسبيحات فاطمة الزهراءعليها السلام بعد الصلاة، وفي موارد عديدة اخرى. فالذي خلق الانسان، وشرَّع الصلاة بهذه الصورة هو افضل من يعرف كيف يُربّي الانسان وأن التوجه لأيٍّ من المفاهيم وتكرارها اكثر ضرورة بالنسبة للانسان.

---

١. التحريم: ٦.

بناءً على هذا ان ادراك عظمة الله يستجلب الخشوع، ولو اننا نطلب الخشوع في الصلاة، فان من الطرق المؤثرة جداً في ذلك هو ان ننال ادراك عظمة الله، والسؤال المهم هنا هو: ما الطريق لنيل مثل هذا الادراك؟

معنى العظمة الالهية

لغرض ادراك عظمة الله، علينا أولاً ان نرى ما المعنى الذي تحمله اذهاننا عن هذا الأمر؟ وما التصور الذي نحمله عن عظمة الله حينما نقول: هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ؟[١] فنحن مخلوقات مادية ومحدودة، وقليلاً ما نُوفّق لادراك المفاهيم غير المادية. من هنا يتعين علينا السعي لتوطيد معرفتنا والارتقاء بمستواها.

على صعيد مقولة العظمة الالهية ينبغي ان ننطلق من هذه المفاهيم المادية، فنحن في البداية ندرك العظمة بمصاديقها الجسمانية النابعة من مقولة الكمية، فعندما نقول في البداية شيء عظيم فمرادنا ان حجمه كبير، فكلما زاد طول الشيء وعرْضه وارتفاعه فاننا نقول انه اكبر، وفي هذه الاثناء هنالك مخلوقات لا حجم لها وليست جسمانية، لكننا نستخدم مفهوم «الكبير» بشأنها، فاننا نقول مثلاً ان فلاناً روحه كبيرة، بينما الروح ليست ماهية مادية أو جسمانية، فعندما نقول ان روح فلان كبيرة فليس مرادنا ان حجم روحه اكبر من الآخرين! في هذه الموارد بما اننا لا نمتلك مفهوماً آخر لنتمكن من بيان ذلك المعنى وتلك الحقيقة لامناص لنا من استخدام الالفاظ ذات المعاني المادية ويُصطلح على هذا الأمر «التوسع في المفهوم» أي اننا نستخدم مفهوماً وضع بالاساس لمعنىً ماديٍّ، في معنىً غير ماديٍّ ونقول ان العظمة لا تنحصر بضخامة الجسم بل ان هنالك عظمة معنوية ايضاً، من هنا فاننا عندما نريد وصف الله بهذه الصفة نستخدم هذه الالفاظ في حين ان مصداق العظمة هنا يختلف تماماً عن العظمة

---

١. البقرة: ٢٥٥.

الجسمانية وحتى الروحية، لكننا نعجز عن ادراك كنهها ونفقد لفظاً يحكي عنها تماماً. مَثَلُنا في ذلك كالنملة التي يقول عنها الامام الباقر عليه السلام: ان النملة تتصور ان لله زبانيتين.[١] لأن قرني النملة في غاية الاهمية بالنسبة اليها، من هنا فهي تظن ان أيّ مخلوق يفتقر للقرن ناقصٌ، وهكذا فان النملة تتصور ان لله قرناً! وتصوراتنا عن الله في البداية على غرار هذه التصورات فندرك علوَّ الله وعظمته في اطارات مادية، فنتصور علوّ الله بمعنى ان الله فوق السماوات! والسبب في ذلك اننا لا نفهم شيئاً عن العلو بادئ الأمر سوى العلوّ المادي، فعلينا ان نمارس ضغطاً على اذهاننا تدريجياً لنقنع انفسنا ان هنالك علُواً آخر غير العلو الجسماني، وكلما ارتفعت معرفتنا اكثر تنزهت المفاهيم التي نستخدمها بحق الله عن الأدران المادية والصفات الجسمانية. في المراتب الاولية من المعرفة يتبادر الى اذهاننا عن كون الله العليّ الاعلى مفهوم العلوّ والدنوّ، في حين ليس لله علوّ ولا دنوّ.

اننا نألف هذه المفاهيم المادية في البداية، وعندما نريد التفكير بالمسائل المعنوية وغير المادية من قبيل الله سبحانه وتعالى وصفاته ينبغي ان نستعين في البداية بهذه المفاهيم، كي نجرّد عقولنا شيئاً فشيئاً ونقترب الى حقيقة تلك المعاني غير المادية، وهذا ما يصدق ايضاً فيما يخص ادراك عظمة الله. ان الله لا يُرى بالعين الباصرة، ولا تتيسر لنا الرؤية القلبية والمشاهدة بعين البصيرة التي يتوفر عليها امثال امير المؤمنين عليه السلام، فكيف ندرك عظمة الله يا تُرى؟ فالمسألة تكمن هنا من ان الخشوع يحصل بعد ادراك عظمة الله، ولكن كيف نستطيع ادراك عظمة الله؟

وصف النبي صلى الله عليه وآله عظمة الله لزينب العطّارة

روي حديث في *بحار الانوار*[٢] ربما يتناسب بعض مطالبه مع بحثنا، وهذا الحديث

---

١. راجع: *بحار الانوار*، ج ٦٩، الباب ٣٧، الرواية ٢٣.

٢. *بحار الانوار*: ج ٦٠، الباب ٣١، الرواية ١٠.

يتعلق بامرأة اسمها زينب العطارة وهي امرأة كانت تبيع العطر في المدينة من هنا عرفت باسم العطّارة. كانت هذه المرأة عادةً ما تأتي بيت النبيﷺ، فكانت نساء النبيﷺ بل وحتى هوﷺ يشترون منها العطر. وذات يوم دخل النبيﷺ الدار فشمَّ رائحة عطر كثير فتوقع ان زينب العطّارة قد جاءت وقد صدق في توقعه اذ كانت زينب العطارة في داره، فقال لها النبيﷺ: انك كلما جئتِ دارنا تعطّر، فقالت بما عُهدت به من أدب: يا رسول الله ان عطرك اجمل من كل عطر، وان هذه الدار معطرة بعطرك. ثم قالت زينب العطّارة: يا رسول الله! ما جئتُ اليوم لأبيع العطر بل جئتُ لاسألك. فقالﷺ وما سؤالك؟ قال: جئتُ لاسألك كيف اعرف عظمة الله؟ وهنا نحصل من جواب النبيﷺ على المزيد من الاطمئنان على تحليلنا الذي قلنا بان علينا ان نلجأ الى المفاهيم المادية في البداية لغرض ادراك عظمة الله. فقد قال النبي الاكرمﷺ رداً على زينب العطّارة: تفكّري في عظمة خلق الله.

لما تزل زينب العطّارة في بداية الطريق ولا قدرة لها على مشاهدة عظمة الله بعين البصيرة، ولما يزل ذهنها يألف المفاهيم المادية ولا وجود في اناء ذهنها لشيء سوى المفاهيم الجسمانية، فلا مفرَّ من ان يجعل لها قناة الى ادراك عظمة الله عبر المفاهيم المادية والجسمانية بمعانيها المعنوية التي ترقى على الجسمانية. من هنا فقد سعى النبيﷺ في البداية أن يلفت انتباهها الى العظمة الجسمانية والمادية كي يتسنى لها تصور هذه العظمة في بداية الأمر.

اننا محدودون حتى في ادراك العظمة الجسمانية، فلو اردنا مثلاً رؤية عظمة جبل دماوند على ضخامته فلابد ان نبتعد عن سطح الارض بوسيلة اخرى من قبيل الطائرة. فاذا ما وقفنا الى جانب من جبل دماوند تضيق زاوية رؤيتنا وبما ان جبل دماوند عظيم جداً فان جانباً صغيراً من تلك الزاوية يطاله نظرنا وندركه. بناءً على هذا اذا اردنا ان نشاهد جبل دماوند باكمله مرة واحدة فيجب ان نرتفع عن سطح

الارض مئات الامتار ونشاهده من داخل الطائرة ـ مثلاً ـ ولكن في هذه الحالة لا تتجلى عظمة وضخامة جبل دماوند على حقيقتها امام اعيننا ولا ندركها لاننا كلّما ابتعدنا عن الشيء بدا صغيراً في نظرنا، فانك عندما تنظر من داخل الطائرة الى الناس والعجلات في الشوارع والمدن تراهم اصغر من حجمهم الحقيقي، وهذه المحدودية موجودة في جميع مدركاتنا الحسية لاحجام الاجسام الكبيرة جداً، بل هي موجودة حتى في مدركاتنا التخيلية، والمُدرك التخيلي هو الشيء الذي نتصوره في ذهننا، فلو اردنا مثلاً تصور بحر كبير في اذهاننا فان بامكاننا تصوره بحجمه الخارجي الذى شاهدناه عن طريق ادراكنا الحسي، وحتى لو كانت قوتنا التخيلية قوية جداً فانا نستطيع تجسيد ما هو اكبر بقليل مما شاهدناه في الخارج في اذهان على اكبر التقادير. من هنا فان حجم وعظمة الاجسام الكبيرة جداً ليست ممكنة الادراك بالنسبة الينا لا عن طريق الادراك الحسي ولا عن طريق الادراك التخيلي.

وبعد الادراك الحسي والخيالي يصل الدور الى الادراك العقلي، فعندما نعجز عن ادراك عظمة الاجسام العملاقة عن طريق الادراك الحسي والتخيلي نتشبث بالعقل والمفاهيم العقلية، وهنا تنزل المقارنة وحساب النِسَب والأعداد والارقام الى الميدان، فلغرض بيان الحكم الحقيقي لبحر قزوين مثلاً، نقول إنه يكبر ما توصل اليه خيالنا أو ما توصل اليه ادراكنا الحسي بمليون مرة، ولكن المشكلة لا تُحل حتى بمثل هذه القياسات وحسابات النِسَب فاولاً: ان تصور الاعداد والارقام ليس مما لا نهاية له بالنسبة الينا فقد يصبح العدد من الكبر في موضع ما بحيث يخرج عن تصورنا. وثانياً: ان الفاصلة الحقيقية بين الارقام والاعداد والنِسَب نفسها ليست واضحة في اذهاننا، فنحن نعرف مثلاً ان المائة عشرة اضعاف العشرة، والمائة مليار عشرة اضعاف العشرة مليارات، فكلتا النسبتين نبينهما برقم عشرة والحال ان تسعين رقماً فقط تفصل العشرة عن المائة، ولكن الفاصلة بين عشرة مليارات ومائة مليار تسعون ملياراً. فاين عظمة

٩٠ عدداً من عظمة ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ عددا! لكننا ندرك عقلياً كلتا الفاصلتين بنسبة عشرة اضعاف، من هنا فنحن نرى اننا نعاني ضعفاً وخللاً حتى في ادراك العظمة والكبر المادي، واول ما نبادر اليه هو ان نحسّن وندقق ادراكنا للعظمة المادية والجسمانية من خلال تأملنا في مثل هذه الامور لنصل في المرحلة اللاحقة الى ادراك حقيقة العظمة المعنوية وغير الجسمانية.

لقد اوردنا هذه المقدمة الطويلة نسبياً لنعرف ايّ طريق دخل النبي الاكرمﷺ في هذا الحديث ليُفهم زينب العطّارة عظمة الباري عزّ وجلّ. تصور ـ مثلاً ـ صحراء مساحتها مائة فرسخ مربعاً، وتصور ان خاتماً لك سقط في هذه الصحراء فما النسبة التي تراها بين حجم خاتمك وحجم هذه الصحراء؟! أو تصور جبل دماوند وتصور ان خاتمك سقط في هذا الجبل، فايّ نسبة ترى بينهما؟! فاذا سئلت بمثل هذا السؤال هل تقدر على القول ان خاتمي يعدل واحداً بالمائة بالنسبة الى الصحراء أو الى جبل دماوند، أم تقول انه صغير جداً جداً ولا يُعد شيئاً. فلغرض ان تدرك زينب العطّارة عظمة الله، قال لها النبي الاكرمﷺ: تفكّري في عظمة خلق الله، ثم قال لها كي يصوّر لها عظمة خلق الله ان الارض بحجمها وعظمتها قياساً لما يحيط بها «كحلقة ملقاة في فلاة» فتلك الحلقة من الصغر والضعة بالنسبة الى تلك الصحراء الشاسعة بحيث انها لا تُعد شيئاً، فصرّح النبيﷺ: ان الارض من الصغر ازاء ما يحيط بها بحيث انها لا وزن لها! ثم قالﷺ: ان الارض وما يحيط بها نسبة الى السماء الاولى «كحلقةٍ ملقاة في فلاة» ثم قالﷺ: لو انك قارنت السماء الاولى مع السماء الثانية فانها «كحلقة ملقاة في فلاة» في صغرها ازاء السماء الثانية، ثم قالﷺ: والسماء الثانية «كحلقة ملقاة في فلاة» قياساً للسماء الثالثة، وهكذا استطرد حتى قارن السماء الثالثة الى الرابعة، والرابعة الى الخامسة... الى ان وصل السابعة.

كبيرٌ بمستوى الصفر!

لم تكن قضية السنة الضوئية قد طُرحت وقتذاك ولم يك ممكناً توضيح عظمة العالم لامرأة بسيطة وأُمية بأفضل مما قاله النبيﷺ، أما اليوم فان العلماء ومَنْ لهم معرفة بقضايا المجرّات بامكانهم الى حدٍّ ما تصور مدى صغر كرتنا الارضية قياساً للمنظومة الشمسية، فلو تصورنا المنظومة الشمسية بحجم برتقالة فان الكرة الارضية لا تتجاوز حجم نتوء صغير على البرتقالة، وكذلك لو قارنا المنظومة الشمسية مع مجرتنا التي تقع منظومة الأسد ضمنها، فانها لا تعدل ازاءها مقدار حبّة ازاء بيدر.

ان الضوء يقطع ثلاثمائة كيلومتر في الثانية، والمسافة ما بين الكرة الارضية والشمس طويلة جداً بحيث ان ضوء الشمس بما عليه من سرعة يستغرق ثماني دقائق تقريباً حتى يصل الى الارض! أي ان المسافة بين الكرة الارضية والشمسية تبلغ زهاء مائة وخمسين مليون كيلومتر! وهذا الفضاء باكمله بالاضافة الى عشرات الاضعاف من فضاء يمثل المسافة بين سائر سيارات المنظومة الشمسية، بمثابة الصفر أمام عظمة المجرّة! فما حجم عظمة مجرتنا بحيث ان عدة مئات من الكيلومترات تعد صفراً امامها؟ والحال ان علماء الفلك المعاصرين يقولون ان هذه المجرّة تعد واحدة من ملايين او مليارات المجرات الموجودة في فضاء السماء الذي لا نهاية له! فقد تكون المسافة الفاصلة بين مجرة ومجرة اخرى عشرة مليارات من السنين الضوئية! أي اننا لو سرنا بسرعة ثلاثمائة كيلومتر في الثانية فسوق يستغرق عشرة مليارات عام أو ثلاثة تريليون وستمائة وخمسين مليار يوم لنصل من مجرة الى مجرة اخرى! فتصوروا كم ان الكرة الارضية صغيرة وضئيلة وهي في هذا الفسيح الذي لا يعرف لها نهاية، فهي من الصغر مما يخرج عن التصور! فأي نصيب وحظّ من الوجود يتمتع به انسانٌ ازاء هذا العالم باكمله وهو الذي لا يعدّ بحجم حبّة على ظهر هذه الكرة الارضية؟! انه نقطة سوداء اصغر بكثير من رأس الابرة على سطح الكون الذي لا نهاية له.

لو تأمل الانسان جيداً بهذه المقارنة سينزوي ويذوب خجلاً وتواضعاً وفناءً! وان الله سبحانه وتعالى هو مَنْ يوجِد هذا الكون على سعته بارادة منه ويُعدم بارادة منه.

بناءً على هذا، لغرض ان ندرك جانباً من عظمة الله يجب ان نتحرك باذهاننا ونحلّق بها في رحاب الكون الفسيح كما علَّم بذلك رسول الله ﷺ زينب العطّارة. على أمل ان نستطيع بعد عشرات من السنين من دراسة الفقه والاصول والفلسفة والعرفان، تصور عظمة هذا العالم بقدر ادراك تلك المرأة الأمية البائعة للعطر! فيجب علينا حينما نريد القول: «الله اكبر» وندخل في الصلاة أن نتصور صغرنا وضآلتنا إزاء عالم الوجود ونذعن باننا لا شيء قبالة هذه العظمة! فاذا ما ادرك الانسان هذه الحقيقة حينها سيخشع بظاهره وباطنه دون اي تصنُّع. ومن المسلَّم به انه لو اضيفت بعض المعارف الاخرى الى هذه المعرفة فان موجوداً بهذه الضآلة لن يتجرأ على ابراز ذاته أمام الله سبحانه وتعالى ولا يمرق عن أوامره ولا يعلن الحرب عليه، ولو ان الفطرة الانسانية تيقظت بمقدار قيد انملة فان الانسان سيذوب خجلاً في حالة ادراكه بهذه الحقائق، ناهيك عن انه يريد الوقوف مشرعاً صدره ليعلن الحرب على الله جل وعلا! فلو توجَّهنا الى جانب ادراك عظمة الله تبارك وتعالى، الى عظمة الذنب في قبال تلك العظمة وكذلك جسامة العذاب المُعدّ للمذنبين اذ ذاك سيتضاعف خشوعنا كثيراً.

وخلاصة الكلام هي: من اجل ان نصلي صلاة بخشوع فان أحد السبل لذلك هو ان نتفكر مسبقاً بعظمة مخلوقات الله، ثم نلتفت الى هذا الأمر وهو أي عظمة لذاك الذي خلَق هذه العظمة التي لا نفاد لها بارادة واحدة منه فقط. انها عظمة ليست مادية أو جسمانية، وان كان طريق ادراكها يبدأ من المفاهيم والمصاديق المادية.

الدرس الحادي والثلاثون

طريق لتحصيل الخشوع في الصلاة «٢»

الخوف من الله سبب آخر للخشوع

كان بحثنا في الدروس السابقة يدور حول الصلاة والخشوع فيها، وقد نوّهنا الى ان الشريعة المقدسة أولت الصلاة بالغ الاهمية إذ ينادى في الاذان والاقامة ان الصلاة افضل الاعمال: حيَّ على خير العمل، كما اعتُبر الاقبال على الصلاة اقبالاً على الفلاح: حيّ على الفلاح. وفي مجموع الاذان والاقامة اللتين قيل باستحبابهما قبل المباشرة بالصلاة ينادى للاسراع نحو الصلاة اثني عشر مرة: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيَّ على خير العمل. وهذا الأمر يدلل على الاهمية القصوى لهذه الفريضة عند صاحب الشريعة.

لكن الصلاة تصبح خير الاعمال وتستجلب الفلاح عندما تقترن بالخشوع كما صُرِّح بذلك في سورة «المؤمنون» من القرآن الكريم: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ)، وقد تحدثنا آنفاً حول مفهوم الخشوع والعوامل التي بامكانها ان تؤثر في خلق الخشوع، وها نحن نواصل البحث بعونه تعالى.

من العوامل الاخرى التي من شأنها خلق الخشوع في الصلاة حالة الخوف من الله، فقد جرى التصريح والتأكيد في الكثير من الآيات والروايات بان على المؤمن ان يخاف الله، يقول تعالى في القرآن الكريم: (فَلاٰ تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).[1] ويقول في موضع آخر: (وَأَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

---

١. آل عمران: ١٧٥.

الْمَأْوىٰ).[١] أو قوله تعالى: (فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ).[٢] كما يمكن القول ان جميع الموارد التي جرى الحديث فيها عن التقوى والتوصية بها قد لوحظ فيها الخوف من الله سبحانه وتعالى. وعلى أية حال، لا شك في وجود قضية الخوف من الله والتوصية بها في القرآن الكريم.

وفي روايات اهل البيت عليهم السلام جرت الاشارة في موارد عديدة الى مسألة الخوف من الله، وان عدد هذه الروايات بلغ حداً بحيث يعقد باب مستقل في الكتب والمصادر الروائية يختص بالخوف والخشية من الله، والمضامين التي تنم عن الخوف من الله في الادعية والمناجاة المروية عن الائمة الطاهرين عليهم السلام كثيرة جدّاً، فمن احدى مناجاة الامام السجاد عليه السلام في مجموعة المناجاة الخمس عشرة هي مناجاة الخائفين.

بالاضافة الى ذلك روي على صعيد السيرة العملية للنبي صلى الله عليه وآله واهل البيت الاطهار عليهم السلام وكذلك العظماء انهم كانوا جميعاً يعيشون حالة الخوف من الله، بل نُقل في بعض الموارد ان حالة تشبه الغشية تستحوذ عليهم وكأنّهم يفقدون الوعي خوفاً من الله! وهذه القضية لا تنسجم بالطبع مع الثقافة المادية ذات الوجهة الدنيوية السائدة في عالم اليوم ويُنظر اليها نظرة استهزاء احياناً.

لماذا الخوف من الله؟!

ولكن ماذا يعني الخوف من الله؟ وهل ثمة امكانية في ان يخاف الانسان شيئاً أو أحداً وفي نفس الوقت يرتبط به برابطة محبة ومودة؟ وبتعبير آخر أن يستلذ بخوفه ويكون ذلك أمراً محبَّباً لديه؟ وهذا السؤال يأخذ طابع الجدية لاسيما في هذا الزمان حيث يسعى الجميع وراء الأفراح والرقص والاحتفالات دون البكاء والتضرع والخوف.

لقد اشرنا الى ان وجود هذا الأمر ـ الخوف من الله ـ في الثقافة الاسلامية وفي

---

١. النازعات: ٤٠ ـ ٤١. ٢. المائدة: ٣.

القرآن والاحاديث والحث والتشجيع عليه وكونه محبَّذاً أمرٌ لا يقبل الانكار ومسلَّمٌ به، ومع ذلك فقد حاول البعض ومن خلال إثارة بعض الشبهات الواهية الخاوية، الى خلق الشك في هذه القضية، اذ يقال احياناً ان الانسان يخاف من المخلوقات المخيفة، فهل ان الله موجود رهيب ومخيف لنخاف منه؟ من الواضح ان هذه الشبهة كلامٌ ضحلٌ جداً وصبياني، وواضحة جداً الاجابة عليها. فالرد على جميع هذه الشبهات يتمثل في ان الخوف من الله انما هو في الحقيقة بسبب اعمالنا والنظام الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لقبائح الاعمال، فلقد جعل الله عزّ وجلّ نظام عالم الوجود بنحوٍ يستجلب معه ارتكاب الذنب آثاراً سيئة، اذ ان الله يُحيي الانسان في يوم القيامة واذا كان المرء مستحقاً للعذاب بسبب ارتكابه للذنب فانه يُدخله جهنم ويُعذبه، وهذا هو نظام عالم الوجود الذي لا يتغير، وبما انه كذلك فاننا نخاف بان يشملنا هذا النظام نتيجةً لاعمالنا القبيحة وذنوبنا وندخل ـ لا سمح الله ـ نيران الغضب الإلهي.

بناءً على هذا، ان الله ليس موجوداً رهيباً أو مخيفاً، بل المخيف اعمالنا وسوء افعالنا التي ربما تجرُّنا الى جهنم والعذاب الإلهي استناداً الى النظام الذي وضعه الله سبحانه وتعالى. على أية حال، بعد التسليم بكون الخوف من الله أمراً ممدوحاً في الثقافة الاسلامية فان السؤال الجوهري هو ماذا نفعل لتحصل هذه الحالة لدينا؟ فنحن نبحث عن الخشوع في الصلاة وان أحد الطرق لبروز حالة الخشوع في الصلاة حصول حالة الخوف من الله، من هنا ينبغي ان نبحث في كيفية تحقيق هذه الحالة.

الفارق بين خوفنا وبين خوف اولياء الله من الله

ان أول أمر يجب ان نلتفت اليه في هذا المجال هو ان خوف الناس من الله يختلف كثيراً باختلاف مراتب ايمانهم ومعرفتهم، فشتّان ما بين خوف خاصة اولياء الله وبين خوف امثالنا من الله، فلا وزن لمخاوفنا بالنسبة اليهم، وكنقطة قوة وصفة ممدوحة يصرّح بان

مثل هذه المخاوف بعيدة عنهم: (أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ).[١] فخوف اولياء الله من سنخ آخر، ونحن ليس بمستطاعنا ادراك خوفهم، لكننا نستطيع وبمقدار معرفتنا ان نصوِّر مشهداً مبهماً عنها من خلال بعض القرائن.

من خلال بعض الادعية المروية عن اهل البيت عليهم السلام بامكاننا تخمين ومعرفة أي خوف كان خوفهم من الله. فعلى سبيل المثال اليكم عبارة امير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل اذ يقول مخاطباً الله سبحانه وتعالى: **فهبني صبرتُ على عذابك فكيف اصبر على فراقك.** ان الانسان ليفهم من هذا الكلام ان خوف اولياء الدين من الله انما سببه اشياء اخرى وهو اقوى بكثير من مخاوفنا، فبالرغم من انهم يدركون اكثر منا بكثير هول العذاب الالهي ويعرفون حقيقته لكن مناجاتهم كانت هكذا، انهم كانوا يعلمون ويفهمون اكثر منا مدى شدة وإيلام عذاب الآخرة لكنهم بالرغم من ذلك كانوا يرددون: الهي ان تجرُّع ذلك العذاب أهون من تجرُّع آلام فراقك والبعد عنك! يجب ان نعترف باننا لا نُحسن فهم معنى هكذا مطالب، لاننا لا نشعر بالنقص بسبب فراق الله سبحانه وتعالى.

على نحو الاجمال، لو اردنا الاقتراب قليلاً من اجواء مثل هذه الامور علينا التوجه الى علاقة المحبّة التي تجمع بين المحبّ والمحبوب، فالذين على معرفة نوعاً ما بعوالم المحبة يعلمون ان اعظم حاجة لدى المحب والعاشق ان يكون موضع اهتمام محبوبه وعاشقه، وان ينال وصال محبوبه بأي معنىً ومفهوم يناسبه. فكيف يا ترى وصال الله وما المعنى الذي يحمله؟ هذا ما لا ندركه كثيراً كما اننا لا نفهم شيئاً عن فراق الله والحزن عليه.

على أية حال، ان الوصال يقابل الفراق، واذا ما بكى أحدٌ لفراق الله فمن المحتم انه قد ادرك معنى وصال الله. من هنا فعندما يقول امير المؤمنين عليه السلام: **فهبني صبرتُ على عذابك فكيف اصبر على فراقك**، يكون من الواضح انه عليه السلام قد تذوّق طعم وصال الله

---

١. يونس: ٦٢.

بحيث انه يئنّ هكذا لفقدانه وتبدُّله الى فراق! وينبغي ايضاً الانضواء ضمن اهل المحبة لادراك معنى المحبة، فالذين على شأنٍ مع هذا العالم يعلمون ان مثل هذه العلاقة تقام احياناً بين المحب والمحبوب وتحصل حالة لهما بنحو يشعران معه بان ليس من شيء يفصل بينهما، وتلك هي حالة الوصال، وفي هذه الحالة كلٌ يستمتع على قدر مستوى محبته وبمقدار الكمال الوجودي لمحبوبه بما لا يمكن وصفه بالكلمات، واذا اردنا ان نتعرف على ابعاد من هذه الحالة فحريٌ بنا التمعُّن بمناجاة المحبين وهي من المناجاة الخمس عشرة وندقق ونتمعن في مضامينها، فبمطالعة هذه المناجاة والتدقيق في مضامينها يتعرف الانسان الى حدٍّ ما على ادراك الائمة الاطهار عليهم السلام لمحبة الله ويفهم في ايِّ اجواء يعيشون.

ان الذين يتمتعون بمرتبة من المحبة الالهية وقد تذوقوا طعمها لا قيمة لأي شيء آخر بالنسبة اليهم! كما في قول الامام السجاد عليه السلام في مناجاة المحبين: **الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً**.[1] فاولئك الذين فهموا شيئاً من هذه المعاني واستذوقوها فان اقصى أمانيّهم ان ينالوا وصال محبوبهم، وفي المقابل فان اقصى مخاوفهم في ان يُحرَموا وصاله ويبتلوا بفراقه. وهذه مرتبة من الخوف من الله، خوف من الفراق وخوف من ان لا ينالوا ما تمنّوه قديماً وحصلت مراتب منه في الدنيا وتتحقق مرتبته الكاملة في الآخرة.

خوف الحرمان من نظرة الله

النوع الآخر والمرتبة الاخرى من الخوف هي ان يخاف المرء ان يُحرم من النعم الالهية في الآخرة. وفي تقسيم عامّ للنعم الإلهية انها تُقسم الى قسمين: النعم المادية والنعم المعنوية، ومن يمتلكون معرفة كاملة بالله سبحانه وتعالى يعتبرون اعظم نعمه المعنوية

---

١. *مفاتيح الجنان*، المناجاة الخمس عشرة.

توجُّهه وعنايته بهم. من هنا فان اقصى ما يخافونه هو ان الله يمنع عنهم نعمه ولا يعتني بهم في الآخرة، وهو سبحانه وتعالى عندما يريد بيان اقصى ما يعذِّب به بعض الناس الذين هم في غاية الرذالة والذين سقطوا من مقام إنسانيتهم، يقول: (وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).[١] فهؤلاء قد تدنَّوا بمستواهم بحيث ان الله لا يكلّمهم ولا ينظر اليهم يوم القيامة، ولكن كيف يكون هذا التكليم وهذا النظر من الله في ذلك اليوم وأيُّ مفهوم يحمل؟ هذا ما نعجز عن ادراكه، لكن مَنْ يتمتع بنفحة من الحب الانساني والدنيوي يعلم انه ليس من شيء آلم على المحب من ان يهمله حبيبه ويجفوه ولا يتكلم معه، وحتى الاطفال في عالمهم يفهمون هذا المعنى، فأعظم استياء وحزن للطفل عندما تهجره أمُّه ولا تنظر اليه، ومهما بذل من تملق تجاه الام فانها لا تكترث به، وهذا الأمر يصدق ايضاً على من هم اكبر سناً، فالعارفون بالله معرفةً تامة يتجرعون اشد العذاب لإعراض الله عنهم وعدم نظرته اليهم.

افترضوا ان أُماً قد جفت طفلها وكلما حاول هذا الطفل الارتماء في حضن أُمه فان الأم لا تأبه له، فايّ وضع يعيش الطفل؟ فأحدُ عذابات الله للكافرين والمـذنبين في يوم القيامة هو انه لا ينظر اليهم، ولولا آيات القرآن لكان من الصعب علينا كـثيراً بيان هذا الأمر. لكن القران يشهد عليه بقوله: (وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَـيْهِمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ). من هنا فان البعض يخافون ان لا ينظر الله اليهم، وبطبيعة الحال ان عـامة الناس قليلاً ما يلتفتون الى هذه القضية أو انهم يتصورون بكل بساطة ان الله يحبهم وسينظر اليهم حتماً!

عندما يقف الذين هم في المراتب العليا من المعرفة في مقام العبادة فانهم يـودّون بان ينظر الله اليهم وهم في حال العبادة ويسمعوا من الله «لبيك» عندما يقولون «يا الله»، نعم فهنالك أناسٌ يسمعون في مناجاتهم مع الله استجابة الحق تـعالى بمسـمع

---

١. آل عمران: ٧٧.

البصيرة ويُغمى عليهم لما يستمتعون به! فمن دعوات المعصومين عليهم السلام في مناجاتهم انهم يطلبون من الله بان يسمعوا استجابته وان ينظر اليهم حينما يكلّمونه: واسمع ندائي اذا ناديتك ... وأقبل عليَّ اذا ناجيتك.[1] ان الله لا ظهر ولا وجه له ونحن أينما توجّهنا فثم وجه الله: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ).[2] فما معنى هذا الدعاء يا تُرى؟ وكذلك ان الله محيطٌ بكل شيء ويسمع جميع الاصوات فماذا يعني الدعاء: الهي اسمع ندائي اذا ناديتك؟

الجواب هو ان هذا الاستماع من نوع آخر، استماع منبثق عن محبة وإقبال، اذ ان الله سبحانه وتعالى يسمع جميع الأصوات ولكن ليس كل ذلك عن محبة وتوجُّه، أجل فالقضية تكمن هنا فثمة استماع يختلف عن استماع غيره، فقد نستمع لكلام أحد ونحن نلوي بوجوهنا ونديرها عنه، وهذا الاستماع ضربٌ من العذاب والإيلام بالنسبة للطرف المقابل، ولكن ربما يكون هذا الاستماع مصحوباً بابتسامة ونظرة من قبل المحبوب، وهذا استماع يدرُّ على المحب بأرق لذة. فالائمة المعصومون عليهم السلام يسألون الله في ادعيتهم مثل هذا الاستماع. وعندما نرفع رؤوسنا من الركوع نقول: «سمع الله لمن حمده»، أي ان الله يسمع حمد وشكر من حمده، والمراد الاستماع عن محبة وودّ.

على أية حال، ان احد انواع الخوف من الله ان أُناساً يخافون ان لا يكونوا موضع نظرةٍ من الله ولا يكلّمهم الله ولا يسمع كلامهم، وهذا الاهمال أشد ألماً من عذاب جهنم. فالطفل الذي تستاء منه أمُّه يتوسل اليها قائلاً: أُماه اضربيني وافعلي بي ما شئتِ ولكن لا تُعرضي عني، وثمة أُناس يخاطبون الله تبارك الله وتعالى بالقول: الهي احرقنا بنارك ولكن لا تحرمنا نظرتك ورؤيتك. فخوف هؤلاء من ان يُحرموا نظرة الله وعنايته.

«افعل ما بدا لك ولكن لا تهجرني ايها الحبيب».

---

١. *بحار الانوار*: ج ٩٤، الباب ٣٢، الرواية ١٣.   ٢. البقرة: ١١٥.

الخوف من عواقب الذنب

لكن امثالي ممن لا نصيب لنا بمثل هذه المعارف يجب ان يكون خوفنا ناجماً عن ذنوبنا وعواقبها الوخيمة التي تحيق بنا، علينا ان نخاف العواقب والشبهات التي قد تستجلبها ذنوبنا واعمالنا القبيحة. ومما يؤسف له اننا وبسبب ضعف المعرفة والايمان لسنا جادّين حتى بهذه المرتبة المتدنية من الخوف، والحال ان هنالك العشرات بل المئات من الآيات في القران الكريم عن جهنم ووصف عذابها، فتارة يقول على نحو الاجمال في وصف جهنم: «عذابٌ اليم»، «عذاب عظيم»، «عذاب مهين»، وفي موارد عديدة جرى بيان هذه العذابات بالتفصيل، ولكن هل منحنا انفسنا الفرصة لكي نطالع هذه الآيات ونتأمل فيها؟! وحتى لو قرأنا القرآن فاننا نمر على الكلمات والآيات مروراً سريعاً لنفرغ منها! واذا ما استمعنا الى قراءة قاريء حسن الصوت فاننا ننتبه الى البعد الفني في القراءة، كم صوته جميل، ونَفَسُه طويل، وانه يلتزم بقواعد التجويد! ولا اهتمام لنا بالآية ومعناها ومضمونها! وناهيك عن الروايات، فلو توجهنا جيداً لتلك الاوصاف التي وردت في آيات القرآن لجهنم لكان حريّاً بان نصاب بحالة تشبه الجنون، في حين ان التفاصيل والاوصاف التي وردت في الروايات بهذا الصدد اكثر عدداً ورهبةً بكثير لكننا نمر منها مرور اكرام ولا نأخذها على محمل الجد، فقد جاء في الروايات لو ان قطرة من ذلك الماء والسائل الذي يشربه اهل جهنم عند عطشهم وقعت على مياه الدنيا لماتت كافة الكائنات الحيّة الموجودة على سطح الارض لشدة نتانتها،[١] فلو اننا تأملنا بهذه المفاهيم ونظرنا ما نستحقه من عقوبات جرّاء ذنوبنا سيكون لذلك تأثير في خوفنا وخشيتنا من الله.

وبالاضافة الى عقوبة الذنب حريٌ بنا التفكير بقبح الذنب وبنفس مخالفة الله سبحانه وتعالى، فحتى لو عصى المرء الله عز وجل مرة واحدة فقط مدى حياته فذلك

---

١. راجع: *بحار الانوار*: ج ٨، الباب ٢٤، الرواية ١.

قبيح جداً وحقيق به ان يذوب خجلاً! الله الذي منه كل وجودنا ومالدينا من نعم حتى لو انه أمر أو نهى فذلك للمنافع التي نذر علينا نتيجة للالتزام بذلك الأمر والنهي، لكننا وبدلاً من تقديم الشكر نُشير راية المناوءة له!

ان الله يقول لنا: انكم اذا ما تجاوزتم أمري ونهيي تكونون قد أفرحتم عدوكم وعدوي ومع ذلك فاننا نُدخل السرور على عدونا وعدو الله بارتكابنا للمعصية! فعصيان أمر الله ونهيه عبودية وطاعة للشيطان الذي هو عدو سافر للانسان: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ).[1] تصور ان صديقاً قال لك لا تصغ إلى كلام فلان فهو عدو لي، فاذا ما أصغيت لكلام ذلك العدو وأطعته ألا تخجل من النظر الى وجه صديقك؟ بينما هذا الصديق لم يمنحك الوجود ولا الماء والطعام، ولا العزة والكرامة... الخ، بل هو صديق عادي فقط، ألا ينبغي ان يكون الله مهمّاً في نظرنا بمقدار اهمية صديق عاديّ؟

ان كل ذنب يصدر عنا انما تكون في الواقع قد أطعنا عدونا وعدو الله، ولقد اوعز الله سبحانه وتعالى الينا تعاليم رحمة منه لئلا نسقط في الحُفر ونبتلي بالشقاء والتعاسة، فنرفض مودة الله هذه ونمد ايدينا لعدونا وعدو الله! فإلى اي مدى يبلغ قبح هذا العصيان حقاً؟ فحتى لو ارتكب الانسان الذنب مرة واحدة طوال حياته لاستحق ان يُحرم من رحمة الله الى الأبد وان يتركه الله لحاله، لو نظر الانسان الى اجنبية مرة واحدة فحقيق على الله ان يسلبه البصر لان الله قد وهب العين للاستخدام الصحيح، فيما نستخدمها نحن باتجاه إلحاق الضرر بالنفس! ألا يحق لله ان يسلبنا هذه العين؟

يقول الامام السجاد عليه السلام في احد ادعيته: **«يا الهي لو بكيت اليك حتى تسقط اشفار عيني وانتحبتّ حتى ينقطع صوتي وقمتُ لك حتى تتنشّر قدماي وركعتُ لك حتى ينخلع صلبي وسجدتُ لك حتى تتفقأ حدقتاي واكلتُ تراب الأرض طول عمري وشربتُ ماء**

---

١. يوسف: ٥.

الرماد آخر دهري وذكرتك في خلال ذلك حتى يكلَّ لساني ثم لم ارفع طرفي الى آفاق السماء استحياءً منك ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي.[١] نعم فالامام السجاد عليه السلام يقول: الهي لو ارتكبتُ ذنباً واحداً لكنتُ استحق ان أفني عمري بهذا الحال باكياً عابداً ولما كنتُ أستحق ان يُمحى ذلك الذنب، الّا ان تمحوه بلطفك! لو كان واقع القضية هذا هو حقاً فما الذي يجب ان نفعله انا وامثالي الذين نرتكب الذنب مراراً في اليوم؟!

لو انك قلت لصديقك أو وولدك أو من كان لك حقٌ في عنقه: لا تفعل هذا العمل، فيعصيك، فلربما تترفع وتصفح عنه مرة أو مرتين أو ثلاث مرّات، ولكن كيف اذا بلغت المعصية مائة مرة أو عشرة آلاف مرة؟ هنا لن تكترث به فتغضب عليه وينفد صبرك، من هنا ورد في بعض المناجاة انه عليه السلام يقول: الهي اعوذ بك من ان يحلّ عليّ غضبك.

اننا وبأول ذنب نستحق ان يسلبنا الله نعمه، ناهيك عن اننا نرتكب المئات والآلاف من الذنوب، فاذا ما تفكّر الانسان بهذه الامور حينها ينتبه كم يتعين عليه ان يكون خجلاً خائفاً امام الله عزّ وجل، واذا ما انتبه الانسان الى ذنوبه والعذاب الذي يستحقه ازاء ارتكابها اذ ذاك تظهر عليه حالة الانكسار والخشوع.

بناءً على هذا فان التفكّر بالذنوب وعقوباتها والانتباه الى ان الطرف المقابل الذي نرتكب العصيان أمامه كلما كان عظيماً سيتعاظم قبح الذنب والجريمة ايضاً، سيكون ذلك مؤثراً جداً في بلورة حالة الخشوع. ففي رواياتنا ان من الذنوب الكبيرة الاستخفاف بالذنب، فحتى لو ارتكب الانسان اصغر الذنوب وهو معتقد بانه ليس مهماً فان ذلك الذنب يُعد كبيرة، لأنه استخف بالعصيان امام الله سبحانه وتعالى، فالاستخفاف بالذنب اسوء من الذنب نفسه، من هنا فقد يكون الذنب صغيراً، ولكن

١. *الصحيفة السجادية*: الدعاء ١٦.

بما انه اقترن بالاستخفاف فهو يتحول الى كبيرة، فالاستخفاف بالذنب تجاهلٌ لعظمة الله واستصغار لأمره ونهيه، وهذا اعظم ذنب، فعلينا ان نحذر لئلا نقع ـ لا سمح الله ـ بالاستخفاف بالذنب.

لو تصورنا هذه الامور جيداً تكون نتيجة ذلك بروز حالة الانكسار فينا التي بامكانها ان تترك اثرها في الصلاة وتجعلها ممزوجة بالخشوع. ومن ناحية اخرى، من المتيقن ان الصلاة اذا كانت مقترنة بالخشوع ستكفّر الكثير من قبائحنا وسيئاتنا ونكراننا للجميل امام الله سبحانه وتعالى، فقد ورد في رواياتنا ان الله لا يعذب عيناً بكت من خشية الله وخوفه، من هنا اذا كان لذنوبنا تلك الآثار السلبية والمدمّرة، فان التوجه الى الله والخشية والخوف منه يقترن بهذه الآثار الطيبة والبنّاءة، ولهذا السبب يعد الخوف من الله في نظرنا صفة مرضيّة وتستحق الثناء ولها قيمة بناءة. في حين ـ كما قلنا في بداية البحث ـ ان الكثير من الأُناس المعاصرين يرون ان الخوف والبكاء علامة الضعف وفعل طفولي! واننا نقول: ان هؤلاء إما لا يؤمنون بالله أو ليسوا منتبهين لطبيعة علاقتهم بالله سبحانه وتعالى، فهؤلاء لا يفهمون شيئاً حياءً وخجلاً من الله ولا هم يخافون ويحزنون لعذاب الآخرة لانهم لا يؤمنون بالآخرة قط! من هنا فانهم مرتاحوا البال والخاطر ويعتبرون البكاء والتضرع عيباً بالنسبة اليهم.

يجب ان نقول لهؤلاء: اذن ما كان الداعي في بكاء وصرفات امير المؤمنين عليه السلام في منتصف الليل؟ لقد كان عليه السلام يبكي ويقول: **آه من قلة الزاد وطول الطريق.**[1] فِمَ خوف انسان مثل علي عليه السلام يا تُرى؟ فاذا كان يقلق لقلة الزاد ماذا يتعين ان يفعل امثالنا؟ الحقيقة هي ان نعترف باننا نجهل العوالم التي يعيشها علي عليه السلام وامثاله ولا ندركها، ونحن بمقدورنا ان نسعى فقط لان نتشبّه بهم قليلاً.

بناءً على هذا من الطرق المؤثرة لحصول الخشوع في الصلاة هو ان نتفكّر قبل

---

١. *بحار الانوار*: ج ٤٠، الباب ٩٨، الرواية ٢٨.

الصلاة بقبح ذنوبنا وعواقبها، فان الذين يكون لهم تـواصـلٌ مـع ادعـية ومـناجاة الائمة عليهم السلام ويكررونها باستمرار تتحول هذه الحالة لديهم بصورة مَلكة ولم تعد لديهم حاجة لان يتفكروا ساعة ويتأملوا بهذه الامور كل يوم، اذ ان احوالهم تتغير لمجرد ان يقترب وقت الصلاة أو يدخلوا المسجد، فـيتغير وضـعهم وتسـتولي عـليهم حـالة الخشوع لدى سماعهم نداء: «قد قامت الصلاة» وينتبهون الى وجوب ان يهبّوا للقاء أي عظيم!

نسأله تعالى ان نستلهم من الدروس التي علّمنا إياها الائمة الاطهار عليهم السلام باقوالهم وسيرتهم ونتشبّه بمن احبّهم الله والائمة عليهم السلام ان شاء الله.

الدرس الثاني والثلاثون

طريق لتحصيل الخشوع في الصلاة «٣»

لمحة عن الدرس السابق

كان بحثنا في الدروس السابقة يدور حول حضور القلب والخشوع في الصلاة، وتحدَّثنا عن امور حول مفهوم الخشوع وقلنا على نحو الاجمال: ان الخشوع الذي عُدَّ شرطاً للفلاح عبارة عن نوع من اللين والانكسار يحدث في قلب الانسان، وظهور هذه الحالة يأتي نتيجة التوجه لصفات الله. وبطبيعة الحال ان مستوى معرفة الناس بالله وصفاته وافعاله يتفاوت. من هنا فان لمستوى محبتهم وتوجههم نحو الله مراتب متفاوتة ايضاً، فكلما كانت معرفة الانسان بالله جل وعلا اكثر ومحبته أشد وكان اقل تعلقاً بالدنيا ولذائذها وكان قلبه اكثر طهارة، تشتد حالة الخشوع ظهوراً لديه، وعلى الطرف الآخر ان المبتلين بالذنب والملوثة قلوبهم والمملوءة بحب الدنيا لا يتحلون بمثل هذه الحالات الشريفة ازاء الله وذكره، وكما يعبر القرآن الكريم ان قلوب بعض الناس كالحجارة بل تغدو اشدّ قسوة منها حيث لا يؤثر فيها شيء: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ).[1] فهذه القلوب تُصبح من الشدة والقسوة بحيث انها مهما ذُكّرت وتُليت عليها آيات الله وقُدّمت لها المواعظ لم يترك ذلك ادنى أثر فيها.

على أية حال، لغرض خلق حالة الخشوع اثناء الصلاة، اشرنا الى ان هنالك عواملَ بمقدورها ان تؤثر في مرونة قلب الانسان وظهور الخشوع فيه.

---

١. البقرة: ٧٤.

العامل الاول هو التوجه الى عظمة الله وصغر النفس وتفاهتها.

العامل الثاني هو التوجه الى دناءة ووضاعة وقبح النفس في مقابل الذات الالهية المقدسة، وربما يبدو هذان العاملان متشابهين، لكن الاختلاف بينهما من قبيل الاختلاف في الكمّ والكيف، فكما وضحنا في الدروس المتقدمة من اننا اناسٌ بسطاء لابد لنا من استخدام المفاهيم والمعايير الكميّة لادراك عظمة الله، من هنا بامكاننا ان نعدّ التوجه نحو عظمة البارئ مقولة كميّة، والتوجه نحو دناءة وقبح النفس في مقابل قداسة الذات الالهية وجلالها وطهارتها مقولة كيفية. ونتيجةً للتوجه نحو العامل الاول تهيمن على الانسان حالة من الوضاعة والحقارة أمام الخالق فيجد نفسه لا شيء وصغيراً في مقابل عظمة الله فيتواضع له، ونتيجة للتوجه للعامل الثاني يشعر الانسان بالخجل والحياء عندما يتصور انه أمام ايّ رحيم وعظيم ارتكب الحرام وأقدم على فعل القبيح والرذيلة فيطأطئ رأسه تواضعاً أمام الله سبحانه وتعالى.

العامل الثالث لخلق حالة الخشوع في القلب هو التوجه الى ـ ناهيك عن قداسة الله وجلاله ـ اننا نرتكب الذنب ونجافي وليَّ نعمتنا الذي انعم علينا بوافر النعم وجليلها، ونحن بدلاً من ان نقدِّم الشكر والتعظيم لولي الالطاف والنعم التي لا تُحصى نتجاهل حقه وننال جميله فنتنكَّر للجميل، فنحن بدلاً من تقديم الشكر لله على نعمائه ندخل السرور على عدوّه بعصياننا له وتمرُّدنا عليه. فالتوجه نحو هذا الأمر بامكانه خلق حالة من الانكسار والخشوع في روح الانسان وقلبه.

العامل الرابع في الخشوع

وهو التوجه نحو صفات الله الجمالية، وهذا الطريق في الحقيقة هو طريق العشق والمحبة، فاذا ما توجه الانسان نحو صفات الله الجمالية يجده موجوداً محبوباً ويستحق الثناء والعبادة، من هنا فهو يخضع ويخشع امامه. وهذه قاعدة كلية من ان الانسان كلّما

ازداد حباً لأحد سعى للاقتراب منه، وهكذا فيما يخص الله سبحانه وتعالى فكلما ازدادت محبة الله في قلب الانسان سيزداد لدى الانسان الشوق للاقتراب والارتباط والتواصل معه، فحبّ الله يتولد نتيجة للمعرفة بصفات الله الجمالية والتوجه نحوها.

ان الشوق للقاء الله يزداد في قلوب الذين عرفوا الصفات الجمالية لله اكثر وافضل واشتدت محبة الله في قلوبهم، فاذا ما تبلورت مثل هذه الحالة لدى الانسان الى حدٍّ ما فيما انه يتوقّع من الصلاة الفوز بلقاء المحبوب اذ ذاك تندلع نيران الشوق والوصال في قلبه، وحينما يتجلّى له معشوقه ومحبوبه اثناء الصلاة يشعر أمامه بالتواضع والانكسار، فحصول هذه الحالة وكذلك درجة شدتها وضعفها منوط بمدى شوق الانسان للقاء الله، والشوق للقاء الله رهنٌ بمستوى حب الانسان لله جل وعلا، والحب بدوره رهنٌ بمستوى معرفة الانسان بالصفات الجمالية لله. وعلى هذا الانسان فان الانسان بالرغم من عدم رؤيته لمحبوبه اثناء الصلاة بعين الباصرة لكن نيران الشوق للوصال وحرارة لحظة اللقاء المعنوي تستولي على وجوده باكمله.

ان بحث الحب وعلاقته بالمعرفة لاسيما فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى وصفاته الجمالية بحث طويل جداً يستدعي فتحُه وتوضيحه وتفصيله جلساتٍ عديدةً ولكن بما ان هذا الدرس هو الاخير في سلسلة هذه الابحاث فاننا نقوم ببيان بعض المطالب بهذا الخصوص بما نتوفر عليه من مجال.

علاقة الحب بالخشوع

عندما يكون للانسان محبوب لكنّ يده تقصر عن الوصول اليه ولا يقدر على رؤيته فهو يعيش القلق والتوجس من اجله، وتبلغ هذه الحالة ذروتها عندما يعلم الانسان بانه وان لم ير محبوبه ولا يعلم عنه شيئاً لكن محبوبه يراه ويعلم بأحواله وما يجري عليه، وقد ورد ما يشبه هذا المضمون في دعاء الندبة حيث نخاطب الامام صاحب

الزمان (عج): **عزيزٌ عليَّ ان أرى الخلق ولا تُرى ولا اسمع لك حسيساً ولا نجوى.**[١]

فامام الزمان (عج) محبوب يمكن رؤيته وهنالك أناس يشاهدونه يحظون بوصاله، محبوب وإن كنا نحن لا نراه أو نسمع صوته لكنه يرانا ويسمع اصواتنا. فعلى مدى أيام الاسبوع ينهمك الانسان بالعمل والابتلاء بأمور الدنيا، لكنه حينما يتوقف عن العمل صباح يوم الجمعة ويتوجه نحو سيده ومولاه يرى أيّ محبوب رائع وباهر لديه وهو غافل عنه! حينها يطلق العنان للسانه بمدحه ووصفه والنحيب لفراقه. وفي دعاء عرفة يخاطب ابو عبد الله الحسين عليه السلام الذات الالهية المقدسة قائلاً: **عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً.**

وعلى نحو الاجمال ان هذه الحالة يستطيع الانسان بها التوجه نحو الله في الصلاة ويستحضر هذا المعنى بانه واقف أمام الله سبحانه وتعالى، الله الاكثر محبة وروعة من اي محبوب آخر، وهي تشابه تلك الحالة التي نحصل عليها في دعاء الندبة عندما نظفر بالتوجه الى الوجود المقدس للامام صاحب الزمان (عج).

لماذا نحبُ الامام صاحب الزمان (عج)؟ لأنه عبد الله، أيُّ إله؟ انه الله الذي خلق امام الزمان (عج) بارادة واحدة، وان امام الزمان (عج) بما عليه من عظمة وروعة وصفاء، وكافة الانبياء واولياء الله ماهم الّا مظهر لجمال ذات الله المقدسة. ان كلاً من هؤلاء الانبياء والاولياء من الروعة والجاذبية بحيث يندفع كل انسان لان يضحّي بروحه وكل ما يملك من لحظة لقاء ووصال بهم، فاذا كان هؤلاء خلقاً من مخلوقات الله ومظهراً من مظاهر جماله على هذه الروعة، فما هو جمال الله خالقهم وماذا يمكن أن تفعل محبته بقلب الانسان؟ فاذا ما اراد الانسان الغور بما تيسر لديه في هذا الأمر عليه في البداية ان يضاعف معرفته بالله عزّ وجلّ ويعرفه معرفة افضل، فكلما ازداد معرفة بالله سيزداد ادراكاً لجماله وبالنتيجة سيعشقه اكثر وستستقر محبة الله في قلبه، واذا ما

---

١. *مفاتيح الجنان*: دعاء الندبة.

استقرت محبة الله في القلب حينها ستندلع نيران الشوق للقائه داخل القلب فيظل الانسان قلقاً للقاء محبوبه، وهنا حيث يقف للصلاة وتستولي عليه حالة من الخشوع نتيجة لشوق اللقاء. والسؤال هنا هو ماالذي يجب ان نفعله لنطوي هذه المراحل ونظفر بهذه الحالات؟

طريق لخلق محبة الله في القلب

ما يمكن قوله على نحو الاجمال في الاجابة بايجاز على السؤال الآنف الذكر هو ان افضل طريق لأمثالي البعيدين كثيراً عن معرفة الله ونرغب في ان تستقر محبة الله في قلوبنا هو ذلك الطريق الذي علّمنا إياه الباري سبحانه وتعالى، ففي الحديث القدسي ان الله خاطب موسى عليه السلام قائلاً: **حَبِّبني الى خلقي وحبِّب خلقي إليَّ، قال يا رب كيف افعل؟ قال ذكّرهم آلائي ونعمائي ليحبّوني.**[1]

ان فطرة الانسان جُبلت على انه اذا ما أحسن اليه أحد فان محبته تستقر في قلبه، وان الله قد اكد على هذه الفطرة ويقول لموسى: يا موسى ذكِّر عبادي بنعمائي عليهم وإحساني بحقهم، فاذا ما توجهوا الى هذا الأمر فان فطرتهم جُبلت على ان يحبوني تلقائياً، فكلما ادادوا توجهاً للنعم والمواهب التي وهبتهم إياها فانهم سيزدادون حباً لي.

الغرق في النعمة وهذه الغفلة!

الطريق الذي جرت الاشارة اليه في هذه الرواية من افضل الطرق لنيل محبة الله. وهو طريق بسيط ويسير جداً يمكن توصية الجميع للعمل به، وان الطرق التي يسلكها اولياء الله والمرموقون جداً والكُمَّل من الناس وما يحصلون عليه من محبة كاملة هي

---

١. *بحار الانوار*: ج ٢، الباب ٨، الرواية ٦.

طرق اكثر لطافة وعمقاً من هذا الطريق، ولكن هذا الطريق هو المـتوفر لنـا نحـن البسطاء والعاديين من الناس، فاذا ما سعى الانسان لأن يعرف ويدرك جيداً نعم الله ويتأمل بتأثيراتها على حياته، سيُحبُ الله بشكل طبيعي وتستقر محبته في قلبه.

ان نعم الله ومواهبه لنا مما لا تحصى ولا تُعد، ونحن حقاً غارقون في بحر نعم الله بحيث ان تعدادها خارجٌ عن قدرتنا وتصورنا، وبوسعنا التفكّر فيما بينها بنعمٍ وأمور لم نكن نتوقع نوالها ابداً، وقد حصلت مثل هذه الامور لنا جميعاً نوعاً ما أثناء حياتنا من قبيل الظروف التي مرت وكنا بحاجة وقد تعقَّد أمرنا وانغلقت الابواب بوجوهنا وانقطعت آمالنا. في ظل هذه التجاذبات واذا باللطف الالهي يغمرنا وتحلُّ مشكـلتنا بنحو لم نكن نتوقعه، في مثل هذه الظروف تستولي على الانسان حالة خاصة ويحصل لديه شعور من الحياء والانكسار أمام الله سبحانه وتعالى وقد يهمل دموعه شـوقاً كيف ان الله جل وعلا قد منَّ على عبده الحقير بلطفه.

ان انكسار القلب لا يقع للانسان اثناء الابتلاء والتفكّر بعذاب الله فقط فقد يكون البكاء وانكسار القلب شوقاً، او قد يكون حياءً، وليس بالضرورة ان يكون الخشوع امام الباري جل وعلا نتيجةَ التفكير بسخط الله وغضبه وعذابه، فالمـهم ان تـتبلور الرقة في القلب فيبكي، ومثل هذه الحالة يمكن ان تحصل نتيجة السرور والوجد غير المتوقع ايضاً، ومثال ذلك الآية القرآنية التي تشير الى طائفة من النصارى اذ تقول في وصفهم: (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَـصَارَىٰ ذٰلِكَ بِـأَنَّ مِـنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْـيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ).[1] فيصرح تعالى بان ثمة طائفة من النصارى علماء ورهباناً ليسوا مستكبرين وليسوا من العالين وانهم اذا ما سمعوا آيات الله النازلة عليك تسيل اعينهم بالدموع دون ارادة منهم لما عرفوا من الحق، وعندما يعرفون انك

١. المائدة: ٨٢ ـ ٨٣.

انت النبي الذي بشّر بك عيسى والانجيل تستولي عليهم حالة من الارتياح والحماس والشوق بحيث يأخذون بالبكاء.

لو اننا تذكّرنا تلك الحالة التي اسبغ الله فيها علينا بنعمة لم نكن نتوقعها، ستجدد ذكراها فينا وتعود حالة الوجد ورقة القلب التي كانت قد استولت علينا وقتذاك لتستولي علينا من جديد، واذا دأبنا على تصور هذه الحالة والنجاحات الخاصة واستذكارها وعمّمناها على سائر النعم فان شوقنا وحماسنا ومحبتنا لله تتضاعف تدريجياً، واذا ما كررنا هذا الأمر فبامكانه ان يتحول الى ملكة شيئاً فشيئاً بحيث يشعر قلبنا بالحب والشغف ازاء الله سبحانه وتعالى للنعم التي اسبغها علينا.

ان نعم الله لا تقتصر على النعم التي نتحسسها، فالعالم والوجود بأسره نعمة بالنسبة لكل انسان، فايُّ دقائق ولطائف أحصاها الامام الحسين عليه السلام في تعداد هذه النعم ومعرفتها، وحقيق بنا ان نتعلَّم من الامام الحسين عليه السلام كيفية احصاء نعم الله؛ فهو عليه السلام يقف يوم عرفة تحت حرارة الشمس اللاهبة فيضج بالبكاء وكأن عينيه يصبّان مطراً! وبتلك الحرقة وبذلك الحال يبدأ بتعداد نعم الله بدءاً من اهداب العين ومروراً بتعقيدات الاذن والاسنان وانتهاءً بالقلب والكبد وسائر الاعضاء والجوارح اذ يذكرها واحدة واحدة: **فايَّ نعمك يا الهي أحصي عدداً وذكراً، أم ايَّ عطاياك اقومُ بها شكراً، وهي يا ربّ اكثر من أن يحصيها العادُّون أو يبلغ علماً بها الحافظون... وأنا اشهد يا الهي بحقيقة ايماني... وعلائق مجاري نور بصري واسارير صفحة جبيني وخُرق مسارب نفسي وخذاريف مارِن عرنيني ومسارب سماخ سمعي وما ضُمَّت وأطبقت عليه شفتاي وحركات لفظ لساني ومغرز حنك فمي وفكّي ومنابت اضراسي ومساغ مطعمي ومشربي وحمالة أمّ رأسي وبلوغ فارغ حبائل عنقي ... وما حوته شراسيف اضلاعي وحقاق مفاصلي وقبضُ عواملي واطراف أناملي ولحمي ودمي وشعري وبشري وعصبي وقصبي وعظامي ومُخي وعروقي وجميع جوارحي.**[1]

---

١. *مفاتيح الجنان*: دعاء عرفة.

كم انعم الله علينا؟ فايّ نقص أو مرض أو مشكلة لم نكن لنعانيه لو أنه لم يمنّ علينا بنعمة واحدة من هذه النعم؟ والافضل منها النعم المعنوية لله علينا التي قليلاً ما نلتفت اليها، فيما يعترف ائمتنا واهل البيت عليهم السلام بنعم الله المعنوية في ادعيتهم ومناجاتهم، فنقرأ في مناجاة للامام السجاد عليه السلام: **ومِنْ اعظم النعم علينا جريان ذكرك على السنتنا واذنُك لنا بدعائك.**[1] أي: الهي ان قدرتي على ذكرك وسماحك لي بان اتحدَّث معك من اعظم النعم التي مننتَ بها عليَّ.

ربما لا يطرق عقولنا بان مجرد حصول الانسان على الاذن لأن يتكلم مع الله يعدّ بحدّ ذاته نعمة، فاذا ما قارنّا وضاعتَنا وتفاهتنا وحقارتنا إزاء عظمة الله حينها سنفهم أنّنا لسنا بذلك المستوى والوزن ولا نمتلك حقاً لأن نقف أمام عظمة الله ونريد التحدث مع الله! فلئن كان هذا الخطاب الموجَّه لاهل جهنم يوم القيامة موجَّها إلينا في الدنيا ايضاً: ﴿قَالَ اخْسَؤُا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾[2] إذنْ من الذي كان يقوى على الكلام ويطلق شفتيه للحديث؟

لا يحق لأحد التكلم في مواجهة البارئ تعالى ما لم يأذن هو بذلك، فاي جدارة نمتلكها نحن لنتكلم معه؟! تصوروا محفلاً مهيباً يحضره رجل عظيم كأن كان قائد الثورة الاسلامية فلا يحق لاحد الحديث في هذا المحفل الّا ان يستأذن مسبقاً، ففي مقابل الله الذي لا نهاية لعظمته، ونحن عباده الفانون الاقلّون وكل ما لدينا من عطائه ليس لنا طاقة ولا يجوز لنا ان نتفوه دون اذن منه. انه الله سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته اللامتناهية قد أذن لجميع عباده أن يُقبلوا عليه ويحدّثوه متى شاؤوا، ولكن لولا هذا الاذن لم يكن يحق لأحد مثل ذلك من تلقاء نفسه. من هنا فان من اعظم نعم الله على عباده ان سمح لهم بتكليمه، ولم يسمح لنا بذلك فقط بل دعانا وأمرنا بان نهب للحضور عنده عدة مرات في اليوم والليلة وننتهل من فيض التكلم معه في قالب

---

١. *بحار الانوار*: ج ٩١، الباب ٣٢، الرواية ٢١. ٢. المؤمنون: ١٠٨.

«الصلاة»! تصوروا معشوقاً ومحبوباً يتمتع بموقع وشأن ارفع واعلى من المحب والعاشق، فان الفارق الاجتماعي والشخصي ما بين العاشق والمعشوق لا يسمح ابداً للعاشق بالاقتراب من حياض المعشوق. فاذا ما جاءت رسالة من هذا المعشوق الى العاشق يقول فيها: انا بانتظار رؤيتك ولقائك، فأية حال ستستولي على العاشق؟ انه سينفجر لشدة الفرح وتجري دموع الشوق من عيونه بلا ارادة منه وتكاد روحه تخترق كيان بدنه لتحلّق في السماء بسبب لطف المعشوق وتفضله. فالصلاة على هذه الشاكلة ايضاً بل هي اوسع مدىً لدى المقارنة، فنحن اللاشيء والوضعاء والاقلّون والفقراء، وان الله ذو العظمة اللامتناهية والخارج عن التصور، وقد جاءت رسالة من مثل هذا العظيم الى مثل هذا الوضيع لان يُسرع نحو مقامه لينال فيض الحضور عنده ومكالمته!

تصوروا هذا المشهد بخصوص عظيم قد جفيناه كثيراً وتجاسرنا مراراً عليه دون حياء، ولو ان قوماً حضروا في مجلس هذا العظيم يوماً وجلسنا نحن في زاوية من ذلك المجلس، لكنّا مستحقّين لأن يوبّخونا أو يطردونا! لكنهم لم يكتفوا بعدم فعل ذلك بل ان ذلك العظيم يدعونا الى أقرب مكان الى جواره ويتحرى عن احوالنا بكل رقة ولطف! فأي حالة ستستحوذ علينا؟!

ان الله سبحانه وتعالى بدعوته إيانا الى الصلاة قد منَّ علينا باعظم الطافه واسبغ علينا ببالغ كرمه، فهو لم يكتفِ بعدم إبعادنا عنه قبال عصياننا وذنوبنا المتكررة بل دعانا للحضور عند مقامه القدسي ايضاً! فبدلاً من ان نتوسل ونتضرع اليه قائلين: ربنا ائذن لنا بان نأتي عند اعتابك ونكلمك للحظات، دعانا هو بنفسه لان ننهل من عطاء لقائه! ومثل هذه الفرصة لا تتهيأ على الدوام، فقد يتعين علينا التوسل احياناً لان يستمع لكلامنا، وليس من المؤكد ان هذا الطلب يحظى بالاجابة. فنحن نقرأ في مطلع المناجاة الشعبانية: **واسمع دعائي اذا دعوتك واسمع ندائي اذا ناديتك وأقبِل عليَّ**

اذا ناجيتك.[١] اذ نقول متوسلين متضرعين: الهي ها انا اريد التحدث معك ومناداتك فاسمع كلامي وتفضل عليَّ بالإقبال والعناية.

لو اننا التفتنا الى هذا الأمر وهو ان الله بعظمته وجلاله قد أذِنَ لعبد حقير مذنب مقصرٍ عاصٍ منكرٍ للجميل بان يحدّثه وهو ينتهيه اليه اذ ذاك يتولد لدينا شوق واندفاع خاصان وتلك حالة لا توصف أبداً، وان هذا الشوق والاندفاع يختلفان مع مثيلهما مما تعارف عليه ولا يحصلان لأيٍّ كان، وذلك هو الخشوع المنبثق عن الشوق والمحبة.

عظمة النعم المعنوية قياساً للنعم المادية

على أية حال، لكي تزداد محبة الانسان لله عليه ان يبدأ باستذكار النعم والالطاف الخاصة التي منَّ بها الله عليه، في حياة كل انسان تحصل ظروف يكون فيها بأمسِّ حاجة فيغيثه الله وينتشله. ثم عليه ان يعمم هذا لتذكّر الى سائر النعم، لان جميع نعم الله مهمة كلٌ في محلها وكلّها على شاكلة تلك النعم التي شملتنا بصورة غير متوقعة. فلو ان ادنى نقص طرأ في عضو صغير وبسيط من اعضاء بدننا عندها سنعرف انه كان نعمة عظيمة كنا غافلين عنها.

والمرحلة الثالثة هي ان يتوجه الى النعم المعنوية التي منَّ بها الله عليه بالاضافة الى النعم المادية، فقيمة الكثير من النعم المعنوية تفوق كثيراً النعم المادية. فقد نحلّ ضيوفاً في مكان فيكون احترام صاحب الدار لنا بأن يتجشم بسط المائدة وإعداد الطعام، لكن فائق احترامه لنا يكون عندما نشعر بانه يتقدم لاستقبالنا باحترام ومبتسماً ويرحب بنا بكل حرارة وتودُّد واهتمام خاص، فهذه الابتسامة والنظرة والكلمات المعدودات اعظم قيمة من تلك الدعوة والطعام بالنسبة الينا. فهذه نعمة معنوية هي اسمى قيمةً قياساً مع الاطعمة والنعم المادية. ونعم الله المعنوية على غرار ذلك.

---

١. *مفاتيح الجنان*: المناجاة الشعبانية.

اذا كان الانسان عارفاً سيدرك ان بعض نعم الله المعنوية لا يمكن مقارنتها بأي حال مع نعمه المادية، وان الذين هم اكثر قُرباً يدركون لذة هذه النعم اكثر. فلقد اعدَّ الله سبحانه وتعالى بعض النعم لعباده المقربين والخاصين فقط، انها نِعمٌ لا توصف ولا يمكن تصورها: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطَر على قلب بشر.[١]

نعم، ان الله رحيمٌ بعباده ويعاملهم بكل رحمة وكرم، ولا يندم من يتعامل مع الله، فنحن لم نكن نعرف حتى طريقة التكلم مع الله، فجعل الله سبحانه وتعالى انبياء وائمة ليعلّمونا كيف نكلِّم الله. وقد يصل اللطف والكرم حداً بحيث اننا نغفل حينما نكلمه وينصرف اهتمامنا نحو اشياء اخرى، فيأخذ الله بايدينا ويُلفت قلوبنا نحوه ويقول: اين انت يا عبدي؟ فأنا معك واذكرك، فاين انت سائر؟ هلمَّ أقبِل بقلبك عليَّ وناجني!

على أية حال هنالك العديد من الطرق للخروج عن الغفلة، والتوجه نحو الله عزّ وجلّ، وهذه الطرق جميعها تتوقف على نوع من العلم والمعرفة، فاذا ما اردنا ان نكون خاشعين اثناء الصلاة ونتوجه نحو الذات الالهية المقدسة فعلينا ان نكتسب هذه المعارف سلفاً ونضعها نصب اعيننا على الدوام، وبالذات يتعين ان نتوجه توجهاً خاصاً نحو تلك المعارف التي اكتسبناها لمدة دقائق قبل الصلاة، فهذا الأمر مؤثرٌ جداً في خلق الخشوع اثناء الصلاة.

في الختام نستمد من الطاف الله الازلية ونسأله تعالى ان يوقظنا من نوم الغفلة، وان يوجهنا نحوه، ويمن بالخشوع على قلوبنا بحقه، وان يجعل صلاتنا صلاة الخاشعين. آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

١. *بحار الانوار*: ج ٨، الباب ٢٣، الرواية ١١٣.


بسم الله الرحمن الرحيم